

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الحكمة العطائية

شرح وتعليق
عن

الجزء الثاني

HY HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN KIRJASTO



107 203 7039

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

<http://arabicdawateislami.net>

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

ولد عام ١٩٢٩م في قرية (جيلكا) قرب جزيرة
ابن عمر الواقعة في شمال شرقي سورية، والداخلية في
حدود تركيا حالياً، وهاجر والده المرحوم ملا رمضان
إلى دمشق وله من العمر أربع سنوات.

أنهى دراسته الثانوية في معهد التوجيه الإسلامي
بدمشق، التحق عام ١٩٥٣ بكلية الشريعة في جامعة
الأزهر، وعين معيداً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام
١٩٦٠، وأوفد إلى كلية الشريعة من جامعة الأزهر
للحصول على الدكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية،
وحصل على هذه الشهادة عام ١٩٦٥م.

عين مدرساً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام
١٩٦٥، ثم وكيلاً، ثم عميداً لها، وهو الآن رئيس
قسم العقائد والأديان في جامعة دمشق.

اشترك في كثير من المؤتمرات العالمية، والندوات
العلمية، وهو عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة
الإسلامية في عمان، وهو يتقن اللغة التركية والكردية
إلى جانب العربية، ويلم باللغة الإنكليزية.

له ما يقارب أربعين مؤلفاً في علوم الشريعة
الإسلامية وآدابها والفلسفة والاجتماع ومشكلات
الحضارة وغيرها، تُرجم بعضها إلى الإنكليزية والألمانية
والفرنسية.

Alhuc3

x 19.09.06

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[Inhu38]

الحكم العطائية

شرح وتحليل

الجزء الثاني

الرقم الاصطلاحي: ١٣٩٨، ٠١١-٢
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-961-3
الرقم الموضوعي: ٢٦٠
الموضوع: التصوف والأخلاق
العنوان: الحكم العطائية شرح وتحليل
التأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ج ٢=٥٢٨ ص
قياس الصفحة: ٢٥×١٧ سم
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل
المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من
الحقوق إلا بإذن خطي من
دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢١١١٦٦ - ٢٢٣٩٧١٧
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com



إعادة

٢٠٠٣هـ=٢٠٠٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الجزء الثاني

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ولست أعلم في الصالحات التي وفقني الله لإنجازها، أصلح من هذا الكتاب الذي سيرني الله في طريق إنجازها، إن خلصت النية وصفا القصد.

والحمد لله الذي مدّ في عمري إلى أن يسر لي إخراج الجزء الثاني من هذا الشرح الذي قد يكون فريداً في منهجه وفي تبسيط معانيه والتركيز على أهم ما قد يحتاج إليه المسلمون اليوم منها. وإني لآمل من كرم الله وجوده أن يبسط في عمري، حتى أوفق لإخراج ما قد تبقى من أجزائه. على النحو المفيد، وبالمضمون الذي يُرضي ابن عطاء الله ويتفق مع مقصوده.

وأقرّ وأعترف بأني، في كل ما قد كتبت إلى الآن من شرح هذه الحكم، إنما بسطت على الورق المعاني التي ألهمنيها الله تعالى وبثها في روعي، ساعة الإقدام على تدوينها. ولم يكن لاستعدادي العلمي دور إلا من حيث وزن المعاني والأفكار بميزان الشريعة، واستحضار ما تيسر استحضاره من دلائلها في القرآن والسنة.

ولعل مما يفيد القارئ ويزيده ثقة بالصالحين، لا سيما أصحاب هذا المشرب، أن أخبره بالقصة التالية لا أتزيّد فيها ولا أحوّر منها.

عندما وصلت في دروس الحكم التي ألقيتها بجامع الإيمان في دمشق، مساء كل اثنين، إلى الحكمة الخامسة والسبعين، وأولها «ما العارف من إذا أشار وجد

الحق أقرب إليه من إشارته...» إلخ توقفت في فهم معناها، وغمض عليّ المراد منها، على الرغم من طول التأمل والبحث. فاعتذرت للحاضرين عن شرحها بسبب جهلي بمضمونها الذي ينبغي أن يكون فوق مستوانا. وتجاوزتها إلى الحكمة التي تليها.

ولما وصلت بعد ذلك، بشهرين تقريباً، إلى هذه الحكمة ذاتها، أثناء كتابتي للجزء الثاني من شرح هذه الحكم، توقفت بسبب المشكلة ذاتها. فلم أهدأ إلى وجه من الكلام سليم في شرح هذه الحكمة!..

وفي تلك الفترة شاء الله أن أدعى إلى القاهرة لحضور مؤتمر، لم يكن من المتوقع أن أدعى إليه. فتركت مواصلة الكتابة واتجهت إلى القاهرة لحضور المؤتمر المذكور.

وهناك انتهزت الفرصة فزرت بعض كبار العلماء والصالحين من سلف هذه الأمة: الإمام الشافعي، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وابن الفارض، وابن عطاء الله السكندري، رحمهم الله جميعاً ونفعنا بهم. ولما زرت ضريح ابن عطاء الله جلست فتلوت ما تيسر لي من القرآن، ودعوت بما ألهمني الله، وناجيت الله في سري قائلاً: أَللّهُمَّ إنك تعلم أنني عجزت عن فهم الحكمة التي وصلت إليها في شرحي الذي أنا ماض فيه كتابة وإلقاء، فأسألك اللهم ببركة من أت في حضرته صاحب هذه الحكم، أن تلهمني المعنى المراد منها، وأن تنزلي عني مضي فيها.

ولما عدت إلى دمشق، أقبلت في اليوم الثاني إلى أوراقي، وعدت إلى الحكمة التي وقفت عندها واستعصى عليّ فهمها، وإذا بي أمام معان عجيبية تنزلق إلى فكري، لتُسجَل على أوراقي. وتابعت كتابة هذه المعاني التي ترد إلى خاطري مرتبة متتابعة، فما أقبل مساء ذلك اليوم حتى كنت فرغت من كتابة ما تلقيته من معاني تلك الحكمة. وأشهد أنني تلقيتها تلقي التلميذ من معلمه، ثم كتبتها ككتابة التلميذ لوظيفته.

وذلك هو شأني في كل ما قد كتبه إلى الآن من شرح هذه الحكم، واردٌ يكرمني الله به ببركة ابن عطاء الله الذي قضى الله أن أشرح للناس كلامه، غير أن شأني في شرح هذه الحكمة، أنه، أي الوارد، جاء بعد توقف واستعصاء، على خلاف ما كان من شأني مع غيرها.

وإني لأعدّها تربية سامية من الله عز وجل لي: أغلق فكري عن إدراك ما حاولت فهمه، حتى إذا استبد بي اليأس، أكرمني بفتح مغاليق الفكر وألهمني ما كنت تائهاً عنه، كي أتنبّه إلى أن ما قد تمت معرفتي له من معاني الحكم الأخرى، هو أيضاً إنما كان بفتح من الله وإلهام منه ولم يكن جهدي بين مصدر الإلهام وأفكار الناس إلا كجهد ساعي البريد إذ يسعى بما قد حُمّله بين الصادر والوارد بأمانة الاستلام والتسليم.

وإني لأسأل الله عز وجل أن يأخذني من نفسي إليه، وأن لا يجعل نصيبي من هذا الكلام قولاً أرففه أو أفكاراً أتجمل بها.

ثم إنني آمل من كرم الله وسعة فضله أن يلحقني بمن قال عنهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١/٣٣].

ولئن كان تقصيري وسوء حالي لا يرقى بي إلى أن أكون في مصافهم، فإن في سعة عفو الله وفضله ما يجعلني ملحقاً بهم.

اللهم اغفر لي ذنبي، واستر لي عيبي، وأصلح لي حالي، واجعلني بمنك وإنعامك ممن أحببتهم فأحبوك، وألهمني شكر نعمتك كلها. والحمد لله رب العالمين.

دمشق في ١ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ

٢٢ تموز (يوليو) ٢٠٠١م

محمد سعيد رمضان البوطي

الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي

الحكم العطائية

شرح وتحليل

الجزء الثاني

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الحكمة الثامنة والعشرون

((ما استودع في غيب السرائر
ظهر في شهادة الظواهر))

هذه الحكمة مبنية على قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». (١) والمراد بالقلب هنا ما يستبطنه الإنسان من المشاعر والمقاصد والتوجهات والوجدانات.

ومعنى الحديث، أن الذي يقود الإنسان في سلوكه، ويدفعه إلى ما يتخيره من الأعمال إنما هو تلك المشاعر والوجدانات التي يستبطنها. ونظراً إلى أن هذه المشاعر والوجدانات، إنما تنعكس على القلب، كما ينعكس الفكر والإدراك على الدماغ، فقد كان الشأن، على الأغلب، أن ينسب ذلك كله إلى القلب.

إذن، فالظاهر الذي يتجلى من الإنسان في لسانه وأعضائه وحرركاته وسكناته، ليس إلا جنداً يَأْتُرُ بأوامر القلب، ويستجيب لتطلعاته وأحكامه، وليس العكس.

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. وأوله: ((إن الحلال بين وإن الحرام بين...)).

فإذا كان باطن الإنسان سليماً نقياً من الشوائب عامراً بتقوى الله تعالى، فلا بد أن يتجلى ذلك على ظاهره، من حيث الالتزام بأوامر الله، والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وإذا كان الباطن منه منظوياً على الزغل بعيداً عن السلامة والنقاء، فالشأن أن تسري ظلال ذلك إلى الظاهر، وأن تصطبغ أنشطته وأعماله وعلاقاته بالآخرين، بالصفات ذاتها.

غير أن في هذا الفريق الثاني من الناس، من يحاول أن يستر ظاهره بغطاء النفاق، محاولاً أن يحجب بذلك سريره السيئة عن أنظار الناس ومداركهم.. غير أن هذه المحاولة قلما يكتب لها النجاح. ذلك لأن الفضائل الظاهرة إن لم تكن موصولة بجذور من العوامل الباطنة، تفقد رواءها وتغيب عنها جاذبيتها، ويتلقاها الناس ثقيلة عليهم سمجة في مرآهم. إذ لا بد أن تمتدّ عليها غاشية مما يفرزه الباطن من رعونات وآفات. وصدق الشاعر إذ قال:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تحفى على الناس تعلم

* * *

ولنتقل من هذا البيان أو الشرح النظري الموجز لهذه الحكمة، إلى تفصيل يتمثل في عرض نماذج من وقائعها التطبيقية:

إن الحب شعور خفي يهيمن على قلب الإنسان وسريره. ولكنه لا بد أن يطفح بآثاره ومقتضياته على ظاهر سلوكه وتصرفاته. فإن رأيت من يدعي أنه يحب الله ورسوله، فتتبع دليل ذلك في سلوكه

وأعماله، فإن رأيته ملتزماً، جهد استطاعته، جادة الشرع منضبطاً بقواعده وأحكامه، مبتعداً جهد استطاعته عن المحرمات، فذلك هو الدليل على صدقه. وإن رأيته شاردًا عن صراط الله تعالى، متقلباً في تيه المعاصي والآثام، فاعلم أنه كاذب في دعوى محبته.

ولاحظ أنني أقول: «جهد استطاعته» لتعلم أن محبة الله عز وجل لا تستلزم العصمة ولا الكمال. فلربما اندفع المحب إلى الانضباط بكل الأوامر والآداب الإلهية الإسلامية، ثم تعثر عن بلوغ مداه، بسبب ما قد ركب فيه من ضعف، وما قد قضى الله عليه به من تسلط آفات الغريزة والأهواء، وبسبب قصور إمكاناته عن بلوغ سائر آماله وأحلامه.

ولله حكمة باهرة في أن جعل قلب الإنسان مهياً لاستيعاب أقدس حب لأعظم محبوب، ألا وهو الله عز وجل، ثم جعل طاقاته الجسمية والغريزية متقاصرة عن القدرة على الوفاء بحقوق هذا الحب.

والحكمة هي أن يسير العبد في طريق الوفاء بحقوق حبه لله عز وجل، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى إذا اصطدم بجدار ضعفه وعجزه وبسلطان غريزته، لزم جادة العبودية، فشكى إلى الله عجزه، وقدم بين يدي ما قد كبل به من الغرائز والنقائص البشرية مشاعر حيائه وحجله من الله عز وجل، إذ يناجيه منتشياً بلواعج حبه، ثم يستسلم مغلوباً للوواعج غرائزه وضعفه.

فبهذا الذي شاءه الله عز وجل، تمتزج نشوة الحب مع ذل العبودية لله عز وجل. ولا يصلح حال العبد مع الرب إلا هذا المزيج.

لو أتيح للإنسان الذي فاض قلبه حباً لله عز وجل، أن يؤدي حقوق حبه له كاملة بدون نقصان: إذن لتحول شأنه مع الله عز وجل إلى ما يشبه حال بطل أوتي قدرات خارقة، فهو يتحدى بها الصعاب. وهذا يتعارض مع حقيقة العبودية التي أقام الله الإنسان عليها، والتي تتجلى في شدة ضعفه وافتقاره إلى الله.

فتلك هي الحكمة من أن الله أقدر الإنسان على أن يجعل قلبه وعاء لأقدس حب لأعظم محبوب، ثم لم يقدره على الوفاء بحقوق هذا الحب... الحكمة هي أن تنقذ من تلاقي نشوة الحب مع واقع العجز والضعف البشري، مشاعر العبودية لله عز وجل.

والثمرة السلوكية لهذا التلاقي أن المحب في هذه الحالة، يظل في جهاد وصراع مع نفسه وغرائزه، مع الاستعانة الدائمة بالله عز وجل. يبذل كل ما يملك للانضباط بالأوامر والآداب، والابتعاد عن المنهيات والمكروهات، فإذا أدركه العجز التجأ إلى الله واستمد منه العون.. فإن غلب على أمره وتمردت عليه أهواؤه وغرائزه طرق باب التوبة نادماً متحسراً عازماً على الإقلاع وإصلاح الحال.

فهذا الظاهر المتمثل في مزيج من السعي إلى الانضباط بأوامر الله، عند القدرة، والتجلبب بذل العبودية لله توبة وندامة وحياء من الله والتجاء إليه عند العجز، أقول: هذا المزيج من هذا وذاك هو الحال التي يجب أن يكون الإنسان عليها مع الله، وهو الظاهر المنسجم مع باطن الحب لله عز وجل والدينونة له بذل العبودية المطلقة.

* * *

الخشوع حالة قلبية تعني الخضوع والسكون، يقال خشعت الأرض إذا سكنت واطمأنت. ويقال خشع في صلاته إذا أقبل بقلبه عليها بعيداً عن الشواغل الأخرى.

فإذا خشع القلب، لا بدّ أن تظهر آثار ذلك على الظاهر من الكيان، إذ الأحوال الباطنة هي القائد - كما علمنا - للأحوال الظاهرة. ومن ثم لا بدّ أن يسري الخضوع والسكون القلبي إلى ظاهر الإنسان الخاشع.

فإن رأيت إنساناً يصلّي، وهو يعبث بيديه وثيابه، ويلتفت ذات اليمين واليسار، فاعلم أن لانصيب لقلبه من الخشوع، واعلم أن المشاغل التي تتجاذب ظاهراً أعضائه، هي ذاتها المشاغل التي تتجاذب قلبه وتشغل باله. وإنها لحالة عجيبة يتلبس بها كثير من المصلين في بعض بلادنا العربية. يكون أحدهم هادئاً ساكناً لا يذكره خاطره بأي التفاتة أو حركة أو بحث، حتى إذا قام إلى الصلاة، وكبّر للدخول فيها تكبيرة الإحرام، هجمت عليه دواعي الحركات المتنوعة، ورغبة البحث عن الساعة التي في يده والدرهم التي في جيبه، والطمأنينة إلى رتبة الثياب التي عليه.

فهل تتصور أن ذلك كله يكون بمعزل عن القلب الذي هو الدافع إلى ذلك كله، والذي هو الباعث لحركة الأعضاء عند العبث، والبحث في الساعة عن الزمن، وفي الجيب عن المحفظة والمال؟

لو كان القلب بمعزل عن ذلك الظاهر كله، إذن لما صح قول رسول الله - وهو الصادق المصدوق - «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وليت أن هؤلاء الذين يجاربون كل ما لا يروق لأمزجتهم بدعوى البدعة يحكمون بها عليه، يتذكرون هذه البدعة الخطيرة من نسيان، ويتنبهون إلى أنهم يركنون منها إلى نقيض ما قد دعا إليه الله عز وجل إذ قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

* * *

في الناس اليوم من يستهين بضوابط الشرع وأحكامه، محتجاً بأن العبرة بالقلب وسلامته من الأدران، وبأن استقامة الأخلاق وحسن المعاملة مع الآخرين هما الأساس.

إن هذا الكلام يتناقض بشكل حاد مع ما هو ثابت من أن صلاح السرائر لا بد أن يترك أثره في صلاح الظواهر. وهي الحقيقة التي استقاهها ابن عطاء الله من كلام رسول الله في الحديث الذي سبق ذكره.

إن القلب الطاهر النقي من الرعونات والأدران، لا بد أن يكون وعاء لمحبة الله تعالى، ومرآة لتجلياته. إذ هو إما أن يتجه بوجداناته إلى الأدنى والأحط، فتعكس عليه محبة المال والشهوات والأهواء وتحتله مشاعر العصبية والرعونات، وإما أن يتجه بوجداناته إلى الأعلى فيتوهج بمحبة الله وتعظيمه. وقد سبق بيان هذا مفصلاً في شرح بعض الحكم السابقة.

وفي هذه الحالة الثانية لا بد أن يندفع صاحب هذا القلب إلى أداء حقوق الله والتقيّد بأوامره، والابتعاد عن نواهيه... كيف لا والمفروض أن يحبه ويحمله ويعظمه؟!.

فإن أهمل حقوقه واستهان بأوامره، وعكف على المحرمات التي نهاه عنها، فذلك دليل قاطع على أن مرآة قلبه منكسة إلى الأدنى، ومن ثم فهي فارغة من محبة الله وتعظيمه ومهابته، مشغولة بمحبة المال والشهوات والأهواء والعصبية للذات.

والإنسان الذي فاض قلبه بهذه الشواغل لابد أن يصبح أسير أهوائه ورعوناته، ومن ثم فإنه لا يخون الله وحده في رعاية حقوقه، بل لابد أن يخون إخوانه وأقرانه في ذلك من باب أولى.

كيف يستقيم أن يكون الإنسان خائناً في تعامله مع الله، مهدرًا لحقوقه مستخفاً بأوامره، ثم يكون أميناً مع عباد الله يرعى حقوقهم ويحفظ عهودهم؟! .. وهل في الناس من يملك قلبين اثنين يخون الله بأحدهما لأنه منصرف إلى حب الشهوات والأهواء وحفظ النفس، ورعوناتها، وفي مع الناس بثنائهما لأنه طاهر من الرعونات نقي عن الشوائب؟ صدق الله القائل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤/٣٣].

* * *

تتكاثر اليوم، في ظل الصحوة الإسلامية، فئة أخرى، يظهر أفرادها من الغيرة على الإسلام وشرائعه ما يجعلك تتخيل أن الله ابتعثهم في هذا العصر لتصحيح أخطاء الرسل والأنبياء، وللتحذير من ضلالات السلف الصالح وسقيم تفسيراتهم وآرائهم.

يخوضون في تفسير كتاب الله خوفاً لم يسبقهم إليه رسول ولا صحابي ولا تابعي ولا ذو بصيرة بكتاب الله معظم لحرمة الله!. ويخطون في أحكام الله عز وجل خطأ لم يجرؤ عليه من قبل خادع ولا متقول.

يقدمون على ذلك كله باسم الغيرة على دين الله، والسهر على حماية شرعه والعمل على إغنائه وتجديده!..

فما الذي يبصرك بهوية هؤلاء الغيارى، والمصلحين المتحمسين؟

إن الذي يبصرك بهوياتهم وحقيقة أمرهم، أن تراقب سلوكهم وأن تبين مدى موافقته أو مخالفته لما هو متفق عليه من مبادئ الدين وأحكامه. وسوف تجد أن شرائع الله وأحكامه في واد، وسلوكهم في واد آخر.

حرم الله الخمر، يشربونها!.. أمرهم بالصلاة، يعرضون عنها!.. نهاهم عن الفواحش، يمارسونها، فإذا استنكرت وذكرت، قالوا لك: العبرة بالباطن. وربما استشهد أحدهم بحديث رسول الله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١) فقرأه محرفاً ذأب كثير من الناس، إذ يحفظونه هكذا «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

إن هذه الحكمة التي نحن بصدد شرحها، والتي استقاها ابن عطاء الله من حديث رسول الله الذي سبق ذكره، تضع الحيارى من الناس

(١) رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

أنوعام أمام الميزان الذي يكشف عن زغل هؤلاء المفتتتين على كتاب الله والعاثين بأحكامه.

تتبع حال هؤلاء الناس وتأمل في سلوكهم، فإن علمت أنهم خاضعون لتعاليم الله منفذون لشرائعه وأحكامه، وفي مقدمتها الصلاة، وأنهم رقباء على أنفسهم أن لا يرتكبوا محرماً ولا يركنوا إلى فسوق، فاحمل ما قد ترى من أفكارهم وآرائهم على محمل الخير وسلامة القصد، حتى وإن خالفت آرائهم الثابت من أحكام الله وشرعه، فربّ صاحب قصد حسن تخونه المعرفة ويتنكب عن معرفة الحق.

وإن رأيت عكوفهم على المعاصي والآثام، وتهاونهم في الواجبات والعبادات، فكن منهم على حذر، واعلم أنهم يعبثون بشرع الله ويدجلون على عباد الله، تحت أقنعة من مظهر الغيرة على الإسلام والعمل على تجلية أحكامه ومبادئه.

إذ لو صفت بواطن هؤلاء الناس، لتجلت آثار هذا الصفاء على سلوكياتهم، ولدفعهم ذلك الصفاء إلى الالتزام بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه.. قل لي كيف تنسجم الغيرة على دين الله مع العكوف على الخمرة التي هي أم الخبائث ومع الإعراض عن الصلاة التي هي أول ما يحاسبُ به العبد يوم القيامة^(١)!؟.

رحم الله مالكاً إمام دار الهجرة فقد كان يظل يقول: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

(١) حديث ((أن أول ما يحاسبُ به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة..)) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

والمقياس الذي يجب أن يتم النظر على أساسه، هو هذا الذي قلناه، فهو الذي يعرّي الدجال من أردية ختله ونفاقه، ويكشف عن صدق المستقيم على صراط الله وأوامره.

* * *

لعلك تستشكل فتقول: ولكن في الناس من تنحرف سرائرهم وينحرفون في منزلقات المعاصي الخفية، فلا يبدو شيء من ذلك على ظواهرهم، بل يظنون في كنف من ستر الله عز وجل، أليس في هذا ما يناقض كلام ابن عطاء الله؟

والجواب أن المراد بالسرائر أحوال القلوب وما استكنّ فيها من القصود والمشاعر والرغائب. فذلك هو الذي لا بدّ أن يطفو على ظواهر أصحابها.

أما المعاصي التي يجترحها الإنسان في الخفاء، ويتوارى بها عن الناس، فليست هي المعنية بالسرائر هنا، بل هي من الظواهر التي سترها الله على صاحبها. ومن أجلّ مظاهر ألطاف الله بعباده، أنه ينشر الجميل من أفعالهم ويبعث لها عبقاً بين الناس مهما قلّ ذلك الجميل أو خفي عن أنظارهم، ويستر القبيح منها مهما كثر أو تكرر.

وما دامت المعاصي التي يقترفها الإنسان في الخفاء، ليست لها جذور متصلة بالقلب متمثلة بالقصد والإصرار، والتبرير أو العناد والاستكبار، فهي تعدّ من الظواهر التي ابتلي بها بعامل الضعف وتغلب الغريزة عليه، ومن عادة الله عز وجل أن يقيها سرّاً بين العبد

وربه، وأغلب الظن أنه جل جلاله سيغفرها له يوم القيامة، ولسوف تدركه التوبة منها قبل الموت.

فأما إن كانت تلك المعاصي أثراً لقصود سيئة جاثمة في النفس أو نمرة استكبار وعناد، فلا بد أن تفوح رائحتها الخبيثة بين الناس، إذ هي دخان لنيران تلك السريرة، ولا بد أن يتصاعد الدخان عند شوب نيران.

والكلام، على الوزان ذاته يجري في الطاعات والقربات. فمن أقبل على الطاعات والقربات، دون أن تكون لها جذور من الإخلاص لله وسلامة القلب عن التوجه إلى ما سوى الله، فهي في الحقيقة وواقع لأمر ليست من الطاعات في شيء، ومن ثم فلن يكون فيها شيء من نور الطاعات وعبقها، إذ هي مُنْبَتَةٌ عن معين القلب مفصولة عن جذور القصد المتجه إلى الاستجابة لأمر الله والتطلع إلى مرضاته، فلا يسري فيها شيء من روح الطاعات ومعناها.

والشأن في صور الطاعات هذه أن تكون مكشوفة الحقيقة واضحة الهوية للناظرين، وقلّ أن تجد من يعتر بها ويؤخذ منها بمجرد الصورة والمظهر، إلا إن كان من الغفلة بحيث لا يفرق بين حقيقة الإنسان وتمثاله.

وهكذا فكما أنّ المعصية التي ليست لها جذور من القصد والعتوّ والاستكبار، تذوب على الأرجح في وهج من عفو الله وغفرانه، كذلك الطاعة التي ليست لها جذور من الإخلاص لوجه الله والبحث

عن مرضاته والتقرب إليه، تذوب في ضرام من رقابة الله وإطلاعه على كل خفي في سرائر عبادته.

إذن، فالقاعدة التي يقررها ابن عطاء الله في هذه الحكمة ثابتة ومطرودة، ولا يوجد فيها إشكال أو شذوذ.

* * *

الحكمة التاسعة والعشرون

((شتان بين من يستدلّ به ويستدلّ عليه. المستدلّ به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله. والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدلّ عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟)).

أيهما يدلّ على الآخر: الأصل على الفرع، أم الفرع على الأصل؟
النبع على الجدول والساقية، أم الساقية والجدول على النبع؟.. الشجرة على الثمرة أم الثمرة على الشجرة؟

في الناس من يبدأ فيتعرف على الأصل، ثم إن الأصل يهديه إلى الفروع والنتائج، وفيهم من يبدأ من النتائج والفروع، ثم إنه يستهدي بها إلى الأصل الذي انبثقت منه. والذي يتحكم بالأمر في هذا التقسيم، هو الخفاء والظهور، فالظاهر هو الذي يدلّ دائماً على الغائب أو الخفي.

ربما كانت الشجرة غائبة عنك، ولم يظهر أمامك إلا ثمارها. إذن فالثمرة التي هي الفرع تدلّ على الشجرة التي هي الأصل.. وربما

كانت الثمرة غائبة عنك، وكانت الشجرة هي المائلة أمامك، إذن فالشجرة التي هي الأصل تدل على الثمرة التي هي الفرع.

والاحتمالان في المخلوقات والمصنوعات وارد. ولكن هل يرد الاحتمالان في المخلوق مع الخالق، في موجد الكون مع الكائنات؟

ولاحظ أننا عندما نقول: الخالق أو الموجد، نعني موجد كل شيء والخالق لكل شيء، ومن جملة الأشياء العقل الذي به تدرك والنور الذي به تبصر. ألا وإن هذا الخالق هو الله عز وجل.

إذن فهل يرد الاحتمالان هنا أيضاً على السواء، كما وردا في دلالة الأصل على الفرع والفرع على الأصل ضمن حدود المخلوقات؟ إذا تأملت، ستعلم أن الاحتمالين هنا غير متساويين.

ذلك لأنك عندما تبعث ببصرك في المكونات والمخلوقات لتتعرف عليها، إنما تدركها وتتعرف عليها بنور من الهداية الربانية، فبه تدركها وبه تراها وبه تسير غورها.

إذن فدليلك الهادي إلى وجود المخلوقات وحقيقتها هو الله. فكيف ينقلب الدليل، وهو الله، ليصبح مدلولاً عليه، وينقلب المدلول عليه وهو هذه المصنوعات، ليصبح دالاً؟!!

دعني أضعك من هذه الحقيقة أمام مثال.

رجل أقبل في ظلام ليل دامس إلى مصباح، فحمله ودخل به داراً مظلمة، فرأى على ضوء المصباح أمتعة شتى، وأثاثاً، وأطعمة ونقوداً.. ترى أيهما كان الهادي الدال، وأيهما كان المهدي إليه والمدلول عليه؟

هل في العقلاء من يجهل أن المصباح المضيء هو الدليل الهادي، وأن كل ما كشفته أشعة المصباح هو المهدي إليه وهو المدلول عليه؟

إنك بالله ترى الدنيا التي من حولك، وبالله تعقلها وتدرك ما تدرك من أسرارها، وهذا بعض من معنى قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٣٥] إذن فالله هو دليلك على كل ما سواه.

وقد مرّ بك شرح الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله: «الكون كنه ظلمة، وإنما أناره وجود الحقّ فيه».

فأما المقربون أصحاب الشهود، فقد رأوا المصباح أولاً.. رأوا الله نور السماوات والأرض أولاً، ثم إن رؤيتهم له بصرتهم بالآثار، بصرتهم بمخلوقاته ومصنوعاته، بصرتهم بآثاره، وقد أيقنوا أنه لولا مؤثر لما وجدت الآثار.. لولا الصانع لما وجدت المصنوعات، لولا نور الهادي لما انكشف لك شيء من ظلمات المكوّنات.

ولاداعي لتكرار ما قد أوضحته لك من قبل، من أن الله لا يحجبه شيء، وإن غاب عنك بعض ما أطلت في بيانه آنذاك، فعد إليه بقراءة متدبرة ثانية، تنجلي لك كل خافية في هذا الموضوع.

أما الذين غرقوا بين سحب الآثار، وحجبوا أنفسهم بالصور عن المنصور، فقد راحوا يبحثون عن المصباح بالأشياء التي كشفها لهم ضياء المصباح، وإنه كما ترى لشيء مضحك.. ولكن تلك هي حال أولئك الذين نسوا الله الذي هو صاحب الوجود المطلق، وأقول: نسوا الله، ولا أقول: حُجِبَ الله عنهم، إذ ليس في الكون كله ما يحجب

الله عن الإنسان، وكم هو دقيق التعبير القرآني القائل ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩/٥٩].

على أن البحث عن المصباح سعي مبرور على كل حال، إذ هو خير من الإعراض عنه ونسيانه، ومن ثم إنكار وجوده.

وهذا شأن عامة التائهين عن الله ببوارق الملهيات والمنسيات ورغائب الأهواء والشهوات. ويبدو أننا من هذا الفريق الثاني. فشأننا عندما نذكر بوجود الله ونعرض الأدلة الناطقة بوجوده، أن نجعل مما عرفناه بنور الله وهدايته دليلاً على وجوده.. نقول: إن المكونات مغموسة بظاهرة العلة الغائية التي تدلّ على التدبير والقصد، والتدبير لا بدّ فيه من مدبّر، ومدبر الكون هو الله. وننسى في غمار هذا الاستدلال أننا أدركنا معنى العلة الغائية ودلالاتها بنور من الهداية الربانية، أي فنحن بالله عرفنا ما نعتبره دليلاً عليه.

وما أكثر ما يتيه أحدنا عن وجود الله، في غمرة البحث عن أدلة وجوده، والاهتمام بترتيبها، وطريقة عرضها، وسبك الصياغة الدالة عليها، إذ تغيب الغاية وتحلّ الواسطة، وهي البحث والنظر، محلّها. وتكثر هذه الحال في غمار المجادلات الكلامية والبحث عن أقوى الدلائل وأوضحها على وجود الله عز وجل، إذ توظف النفس البشرية هذه المجادلات والأدلة التي تعرض، لرغائبها وحفظها.

وتنظر إلى من أشرق وجود الله عز وجل على بصيرته، ممن تحرروا من شواغل الأهواء والشهوات، وأعرضوا عن المنسيات والملهيات، فتراهم دائم الحضور مع الله، والتذكر له، دون حاجة إلى رصف أيّ من

تلك الأدلة والبراهين، فهو مشغول عنها بحضوره مع الله، ذاهل عنها بل عن وجودها بشهوده القلبي لله.

إن في الصالحين وأولياء الله تعالى من السلف الصالح، من لم يجتازوا إلى معرفة الله وشهوده أياً من طرق الاستدلال عليه بالمكونات وظواهر الموجودات والآثار، بل عرفوا الله واستغرقوا في شهوده وتجلياته دونما حاجة إلى شيء من ذلك.. نظروا إلى المخلوقات المحيطة بهم، فلم يجدوا فيها إلا مظهر وحدانية الله عز وجل وعظيم صفاته، فلم ينتقلوا خلال التأمل فيها من دليل إلى مدلول، بل غاب عنهم الدليل وتجلّى لهم المدلول. غابت عنهم الوساطة والطريق ورأوا أنفسهم مباشرة أمام الغاية والمطلوب، إذ لم يكن ما نراه نحن واسطة وسبيلاً أقرب إليهم من الغاية والمطلوب ألا وهو الله عز وجل.

وقد يبدو عسيراً علينا فهم هذا الكلام، نظراً إلى أننا تعودنا الانتقال من رؤية الوجود الظلي أو التبعي إلى وجود الله، واليقين به. بل نظراً إلى أننا نعيش بأبصارنا وأفكارنا سجناء في أقطار هذا الوجود الظلي الذي ليس له وجود حقيقي وذاتي قط.

ولكن الذين تحرروا من هذا السجن، لم يقيموا لهذه الظلال الكونية أي وزن، ومتى كان الظل أكثر من امتداد لأصله؟.. ومن ثم فإنهم رأوا الوجود الحق، أي الوجود الذاتي أولاً، ثم استدلوا به على الموجودات الظلية المتفرعة عنه. فهم، كما قال ابن عطاء الله: «...عرفوا الحق لأهله، وأثبتوا الأمر من وجود أصله».

أما نحن العوام، بالنسبة إلى أولئك الربانيين، فقد بدأنا فنظرنا إلى المكونات أولاً، ثم إننا توهمنا لها وجوداً حقيقياً وذاتياً ثانياً، ثم استشكل الأمر علينا عندما تساءلت عقولنا بمقتضى قوانين المنطق: فمن الذي أوجد هذه الموجودات، ومن الذي أقامها متناسقة على هذا النظام الهادف؟.. ثم انتهينا، بعد طول نظر ومحامات عقلية ومنطقية، إلى أنها، كأى بناء ذي نسق مقام للاستمتاع والسكنى، لا بدّ أن له صانعاً ومنسقاً، واكتشفنا بعد طول هذه الرحلة الفكرية العقلية والمنطقية إلى أنه الله عز وجل، بديع السماوات والأرض.. ثم إنه أتيح لنا، في نهاية المطاف، أن نستبين الخطأ الذي توهمناه من قبل، إذ كنا قد ظننا أن هذه المكونات ذات وجود حقيقي ذاتي، وأن نشطب عليها أخيراً بيد التمهيص والتصحيح، ونعلم أنها إنما تتمتع بوجود ظليّ تبعي للوجود الذاتي الحق ألا وهو وجود الله وحده.

ومعنى قولنا: الوجود الذاتي، الوجود الصادر من ذاته، والذي لم يأت بفيض أو بتأثير من غيره. وصاحب هذا الوجود واحد، لاثنائي له، هو الله عز وجل، فهو وحده الذي أضغى صفة الوجود على كل ما قد قضى بإيجاده، فدخل بهذا القضاء تحت اسم المكونات أي المخلوقات.

وهذه الطبقة الثانية، هي الأخرى على خير ورشد، مادامت قد انتهت من رحلتها الفكرية والتأملية هذه إلى اليقين الذي أكرم الله به الطبقة الأولى منذ البداية، ودون حاجة إلى هذه المخاضة ولا إلى تصحيح أخطاء، مع فارق الرتبة كما قال ابن عطاء الله.

ولكن المصيبة تحيق بأولئك الذين لم يعرفوا الله من أول الطريق، ولم يهتدوا إليه في نهاية النظر والبحث!..

يمرّ بهم دهر طويل دون أن يسألوا أنفسهم: من خلق هذه المكونات وأقامها على هذا النظام الهادف، حتى إذا واجههم من يحدثهم عن الله ودلائل وجوده، تذكروا هذا السؤال الذي ظل غائباً عن فكرهم إلى ذلك الحين، وقالوا لهم: فمن خلق الله؟

هذه المكونات العجيبة في وظائفها، الدقيقة في تكوينها، والتي لا تملك من أمر نفسها شيئاً، ليس من المشكل منطقياً وعلمياً أن لا يكون لها خالق.. أما الإله الذي ثبتت له صفة الألوهية، والذي بيده الخلق والأمر، فمشكلة كبرى عندهم أن لا يكون له خالق!!.. أفيلغ الاستهتار بالعقل إلى أدلّ وأحطّ من هذا الدون؟!..

والأعجب من هذا، أنّ أحدهم يصوغ سؤاله بهذا التعبير: «من خلق الله» فهو ينعته بالألوهية ويسأل في الوقت ذاته عن خلقه، دون أن يدرك أن الكلمة الأولى من سؤاله، وهي «خلق» تناقض الكلمة الثانية فيه وهي «الله»!!.. المخلوقية شأن الكائن الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، و«الله» اسم للإله الذي بيده كل شيء وإليه كل شيء، وجوده من ذاته وليس فيضاً من غيره، وإلا لم يكن إلهاً، ومن ثم لم يكن أهلاً ليقال عنه: الله.

ولو أن أحدنا جرى هذا الملحد المغفل، في سؤاله، فقال: إن الذي خلق الله هو فلان، فالشأن في جهالته الحمقاء، أن يسكت وتحلّ المشكلة التي في رأسه.. ولكنه إذا صحا إلى شيء من المحاكمة العقلية

في ذهنه، فمن المفروض أن يقول: وفلان هذا من خلقه؟ ولا بدّ أن يمتدّ السؤال عن خالق الخالق الثالث فالرابع وهكذا.. إلى ما لانهاية. وعندئذ لا مناص للعاقل من الأخذ بإحدى نتيجتين: إما أن ينكر وجود هذا العالم كله ويجزم بأن عينيه لا تريه إلا الأوهام بل هو أيضاً غير موجود، لأنه جزء من العالم الوهمي الذي لا وجود له، وإما أن يجزم بأن وراء سلسلة الموجودات التي يحتاج كل منها إلى من يوجدها من العدم، كائناً يتمتع بوجود ذاتي ومن ثم فهو لا يحتاج إلى أي موجد له. ولا بدّ أن يتمتع هذا الكائن عندئذ بكل صفات الكمال من القوة والحكمة والتدبير والعلم والإحاطة... إلخ.

ونظراً إلى أنه ليس في العقلاء من ينكر عقله لينكر وجود ذاته ووجود العالم الذي من حوله، إذ هو موجود فعلاً بدليل الحسّ والمشاهدة، فليس ثمة مناص - في قرار العقل وحكمه - من اليقين بوجود مَعِينٍ لهذا الوجود الكوني. والمَعِينُ (إن جاز التعبير) هو الله عز وجل.

والذين يفرّون من هذا القرار العقلي السذي لا مناص منه، يلزمون أنفسهم بدعوى أن الموجودات العاجزة التي لا تملك من أمر نفسها شيئاً لا تحتاج إلى موجد، في حين أن الإله الخالق المدبر هو الذي يحتاج إلى من يوجده ويدبر أمره!!.. فهل بوسعك أن تحترم ذرة من عقلك ثم تجنح إلى هذا التخبط والخلط؟!.. هل بوسعك أن تحترم عقلك وتعتدّ بوجوده ثم تسأل قائلاً: هذا الغنيّ المترف من أين يأكل ويشرب؟!..

* * *

نعود فنؤكد ما قلناه من أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. فالذين لم يتسنّ لهم الرقيّ إلى مستوى الخلّص من عباد الله، أولئك الذين عرفوا الله بل شاهدوه ببصيرتهم دونما حاجة إلى برهان، لا حرج عليهم في أن يسلكوا مسالك الاستدلال على وجود الصانع عز وجل وعلى أنه المدبر لشؤون هذا الكون كله، ليس على الأعرج حرج في أن يستعين بالعصا.. والمأمول أن يشفيه الله ويستقيم في السير على قدميه. وعندئذ يتخلّى عنها، إذ تنتهي حاجته إليها.

ولكن المصيبة التي لا يستبين لها علاج، تتمثل في حال أولئك الذين لم يعرفوا الله من أول الطريق، ولا يريدون أن يصلوا إلى معرفته والإيمان به في نهاية الطريق، ولا يريدون أن يستعينوا ببعض الدلائل والبراهين. لمعرفة الحق ثم التعامل معه خلال رحلتهم المعيشية في هذه الحياة كلها.

والآن، نعود إلى نص هذه الحكمة لنستبين معناها المباشر أو القريب، ثم لنعلم مدى انطباق هذا الذي قلناه عليها.

يقول ابن عطاء الله: شتان بين من يستدل به، أي بالله عز وجل على ما دونه من المكوّنات، ويستدلّ عليه، أي يستدلّ على الله تعالى بما دونه من المكوّنات. ثم يوضح الفرق بينهما فيقول: المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، أي فهو يتبع في ذلك مقتضى المنطق والعلم إذ ينطلق من الأصل إلى الفرع، ويستدلّ بالنبع على الجداول والسواقي المتفرعة منه. ثم يقول: والاستدلال عليه، من عدم الوصول إليه. أي إنما يحتاج إلى الأدلة على وجود الله من كان غائباً

عنه، غير واصل بالمعرفة والهداية إليه، فهو يحتاج إلى ما يوصله إليه ويعرفه به من البراهين والأدلة الكونية المتفرعة عن وجوده. ثم يتابع فيقول: وإلا فمتى غاب حتى يُستدلَّ عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه. أجل، فالبحث إنما يكون عن الغائب، وتلمّس الدلائل والآثار إنما يكون لمعرفة المجهول وتقريب البعيد. وجلّ الله عز وجل عن أن يكون غائباً أو بعيداً. الفطرة الإنسانية شاهدة على قربة، وحنين الروح إليه شاهدة على وجوده. وليس لأي منهما: الفطرة والروح، من حاجة إلى وساطة دليل أو قبس برهان.

ولكن لا حيلة لمن غمست حياته في الملهيات والمنسيات واستغرق في حمأة الشهوات والأهواء، من أمثالنا، إلا أن يستعين، للتخلص من حجاب بعده، بالبراهين والأدلة الكونية المتناثرة أمامه على الطريق. وإنه لجهاد مبرور ومأجور. وصدق الله القائل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩/٢٩].

وإذا اجتمع الصديقون السابقون، مع هؤلاء المجاهدين اللاحقين، فأنعم بها من نهاية يفوز فيها الجميع برضوان الله وبما أعدّ لهم من منازل النعيم والقرب، على اختلافها وتفاوت درجاتها.

وهذا ما يشير إليه ابن عطاء الله إذ ينقلنا إلى الحكمة التالية.



الحكمة الثلاثون

« (لينفق ذو سعة من سعته) الواصلون إليه، (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) السائرون إليه»

عندما فرق ابن عطاء الله بين من يستدل بالله على ما سواه، وبين من يستدل بما سوى الله من المكونات عليه، وبين مدى سموّ الدرجة الأولى على الثانية، على نحو ما قد تمّ بيانه، أراد في هذه الحكمة أن يستدرك وأن يبيّن أن في كل منهما خيراً. فقال ما معناه:

الواصلون الذين عرفوا الله، دون احتياج منهم إلى دليل من مخلوقاته يبصرهم به ويعرفهم عليه، ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧/٥٦] شكراً لله تعالى وعرفاناً منهم بمدى تفضله عليهم، والإنفاق المأمور به هنا يتمثل في الشكر الذي يترجمه القيام الدائم بكامل حقوق الله، ومن أبرز هذه الحقوق وأهمها الدعوة إلى الله والعمل الدائب على غرس محبة الله في القلوب. وصدق الله القائل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣/٤١].

وأما السائرون إليه، وهم الذين يسعون إلى إزالة ما تكاثف عليهم من غبار الأهواء ومشاكل الدنيا وحفظ النفس، ذلك الغبار الذي أبعدهم عن الله وأحوجهم إلى قطع مسافات واجتياز عقبات للسير إليه، وأنهضهم إلى تجميع الأدلة الكونية عليه، فينطبق عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧/٦٥].

وهذا الإنفاق يترجمه أيضاً شكر الله عز وجل على التوفيق الذي متعهم به لمجاهدة أنفسهم ونفض غبار الدنيا ومشاكلها عن كواهلهم، والسعي جهد الاستطاعة إلى حرق المسافات الوهمية بينهم وبين الله تعالى، بالوقوف على الآيات الكونية التي تنطق بوجوده وتشهد على وجدانيته، وتحدث عن باهر صفاته وآلائه.

ومهما اختلف هذان الفريقان في أول الطريق، فإنهما يلتقيان عند نعيم معرفة الله، وإن كان أحدهما متأخراً في الوصول عن الآخر، كما يلتقيان في الخطاب المتجه إليهما معاً من الله تعالى والأمر لهما بالإنفاق أي الأمر لهما بالشكر على النعمة الغالية التي أسداها الله عز وجل إليهما، نعمة تعريفهما على ذاته وتبصيرهما بربوبيته وعظيم سلطانه.

وهل في نعم الدنيا كلها نعمة أجلّ وأبقى، من أن يكرمك الله بمعرفة ذاته، ومن أن يديقك لذة القرب منه والتجيب إليه؟

وسواء أعرّفك الله على ذاته العلية، بادئ ذي بدء، مخترقاً بك محطات الدلائل والبراهين وموازن المنطق والحجاج، أم سار بك إلى النهاية القدسية ذاتها من خلال شواهد الآيات وموازن الحجج

والبيانات الكونية والعلمية المتنوعة، فضله عليك ثابت ومنه في عنقك راسخة، والشكر الحقيقي على ذلك واجب.

تذكرني هذه الحكمة بكلمة تنقل عن العالم الغربي «باسكال» يقول: السعداء من الناس فريقان اثنان، فريق عرف الله فهو يبحث جهد استطاعته عن سبيل مرضاته، وفريق جادّ في البحث عن الله، أما الأشقياء فهم أولئك الذين لم يعرفوا الله، ولم يجدوا في البحث عنه. وإنه ليخيل إليّ أن هذا كلام إنسان مسلم ربما يخفي إيمانه وإسلامه.

* * *

بقي أن علينا أن نبه أنفسنا، نحن الذين نعتمد في إيماننا بالله ومعرفتنا له، على الأدلة والبراهين الكونية وعلى منطق الحجاج والأقيسة العلمية، إلى أن علينا إذا وصلنا إلى المطلوب من وراء البحث والاستدلال فآمنا بالله واهتدينا إلى وجوده ووحدانيته، أن نتجاوز الأدلة والبراهين ونقلع عن الاشتغال بها والوقوف عندها، وأن نفرغ عقولنا وأفكارنا للمدلول والمبرهن عليه، ألا وهو الله عز وجل.

لقد صحك الحادي أو دليل الركب طوال الطريق، ليدلك على النهج ويبعدك عن المتاهات والمنعرجات.. والآن وقد وصلت إلى مبتغاك بسلام، عليك أن تشكر الدليل ثم تتركه وتتجاوزته لتتجه بكليتك إلى مبتغاك الذي طال ارتقابك له واشتياقك إليه.

طالما وقفت تحدّق في الجدران تتأمل النور المنعكس إليها، لتستبين منها الدليل على الضياء الهابط إليها من الشمس.. والآن وقد هداك

نور الجدران إلى الشمس وضياؤها، فقد آن أن تتناسى الجدران وتدير ظهرها إليها، لتتعرف على الشمس الساطعة في كبد السماء ولتدرك أنها مصدر كل ضياء، ولتتعامل معها لا مع الأشباح التي تستتير بضياؤها وتلتمع تحت شعاعها.

لقد ساعدتك الأدلة العلمية التي تعاملت معها، إلى أن أوصلتك إلى ساحة اليقين، فعش الآن مع هذه الساحة ولا تعكر صفاء يقينك فيها بعودٍ إلى الأدلة والأقيسة المنطقية تجترها دونما حاجة إليها. فإنك لا تدري متى يفجؤك الموت.. وإذا داهمك الموت وأنت تشتغل بالأدلة وتبحث عن مزيد منها، فلسوف يكون ذلك شاغلاً لك عن الهدف الذي أنفقت حياتك كلها ابتغاء الوصول إليه، وابتغاء معانقته في هذه اللحظات التي تنفض فيها يديك عن الدنيا مقبلاً على الله عز وجل.

ألا، قدس الله روح العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقد قيل في ترجمته أنه صاح في إحدى خلواته صيحة أفزعت من كان حوله، خاطب فيها الشيطان قائلاً: أغرب عني أيها الملعون فأنا أعرف الله بدون دليل.

إنني لأقول، مستعيناً بالله أن لا أقولها إلا بصدق:

اللهم إنني أعرفك اليوم دون أي وساطة من دليل، فثبتني اللهم على هذه المعرفة الصافية عن شواغل الأقيسة والبراهين، ساعة ارتحالي من دنياي هذه إلى رحابك، وأكرم بمثلك ذلك كل من يلتجئ إليك بمثل هذا الدعاء.

* * *

الحكمة الحادية والثلاثون

((اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون لهم أنوار
المواجهة. فالأولون للأتوار. وهؤلاء الأتوار لهم لأنهم لله
لا لشيء دونه، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون))

هذه الحكمة، والتتان قبلها، تدور على محور واحد، والمراد
بالراجلين إليه السالكين الذين هم في طور النظر والبحث، فهم من
نذير يبحثون عن الدليل على الله.. والمراد بالواصلين الذين تجاوزوا
مرحلة البحث والنظر، فهم من الذين يستدلون بالله على ما سواه.
والمراد بأنوار التوجه، وسائل البحث وموازن العلم والمنطق، وهي
الأدوات التي لا بدّ منها للسالكين والباحثين.

أما المراد بأنوار مواجهة، فالتحليلات الوافدة إليهم من الله عز
وجل. والمؤمن في هذه المرحلة من شأنه أن يغيب عما سوى الله عز
وجل بالشعور والاهتمام، وأن كان يتعامل معه في حدود الاستجابة لما
قد أمر الله به من التعامل مع الأسباب.

واعتقد أن فيما قلناه، عند شرح الحكمتين السابقتين، ما يغني عن
الإطالة والتكرير، في نطاق الموضوع ذاته.

الحكمة الثانية والثلاثون

((تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب،
خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب))

للشيطان إلى قلوب الناس وسلوكاتهم وسائل متنوعة شتى. فله إلى التائبين الضالين البعيدين عن محجة الهداية، السبيل الذي يناسب حالهم، ويغلب أن يكون سبيله إليهم دفعهم إلى مزيد من المحرمات والموبقات، وإبعادهم عن جواذب الهداية وعن فرص اليقظة والانتباه.

وله إلى الملتزمين جهد استطاعتهم بأوامر الله، من عامة الناس، سبيل آخر يناسب وضعهم الذي هم فيه، فهو لا يطمع منهم بالذي يطمعه من أولئك الضالين والتائبين. وإنما يضع أمامهم منزلقات أخرى لاتستبين لهم خطورتها، قد توصلهم في النهاية إلى حال الضالين من الفئة الأولى.

وله إلى من كان مثلي (من يرون أنفسهم، يتبوؤن سدة التوجيه والإرشاد، وقد أقامهم الله على ثغور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أسلحته ووسائله الأخرى التي تختلف عن وسائله في الحالين السابقين.

ويغلب أن تكون وسيلته إلى هذه الفئة الثالثة، لفت النظر إلى ماله من مكانة وأهمية بين الناس، وينسج الشيطان لذلك أسباباً كثيرة متنوعة يضعها أمامه ويوحي بها إلى نفسه. من أهمها وأخطرها إبراز كل ما يمكن أن يكون دليلاً على مكانته وقربه من الله عز وجل، أمام المريدين وعامة الناظرين. كدعوى الكرامات والخوارق والأمر العجيبة التي يمكن أن تجري على يديه.

وربما استقر في ذهن واحد من هؤلاء أن ذلك هو السبيل الأمثل إلى جذب التائبين وهداية الضالين، إذ يخيل إليه الشيطان مستعيناً بنوازع النفس والهوى أن ظهور العجائب والخوارق على يد المرشد هو الذي يغرس الثقة به في نفس المريد والتلميذ، ومن ثم يزداد تعلقاً به وانقياداً له.

وسرعان ما يحمله هذا التصور على أن يجعل معظم مجالسه التي يجلسها للتعليم والإرشاد، مدبجة بالحديث عن كراماته والعجائب التي يجريها الله على يديه. وربما ساقه ذلك إلى الحديث عن مناماته التي يرى فيها رسول الله، وربما بالغ فأكد أنه يراه بين الفينة والأخرى يقظة.

ومن آثار هذا المنهج الذي يسلكه بعض الذين يمارسون وظيفة التوجيه والإرشاد، على تلامذتهم ومريديهم، أنهم إذ يتشبعون بهذا التصور الذي يتلقونه، يحسبون أن مقياس قرب أحدهم من الله، وارتفاعه إلى درجة العارفين والربانيين، إنما يتمثل في خوارق تجري على أيديهم وكرامات يتمتعهم الله بها بين الحين والآخر. ومهما وفق

للانضباط بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، فلا يرى لشيء من ذلك قيمة ما لم يشعر أنه قد أوتي كسفاً لا يتمتع به الآخرون، أو قدرات خارقة ميزه الله بها عن غيره.

والشأن في حال كثير من هؤلاء أنهم يلازمون أورادهم ووظائفهم اليومية من العبادات والأذكار، ولكن لا ابتغاء أداء ما افترضه الله عليهم وأداء حقوق العبودية في أعناقهم، وإنما ابتغاء أن يصلوا من وراء ذلك إلى مرحلة «الكشف» وظهور الخوارق، فإن داوموا على وظائفهم تلك دون أن يصلوا إلى هذا الذي ابتغوه، أيقنوا في أنفسهم أنهم لم يصلوا إلى مرحلة العرفان بعد.

ألا فلنعلم جميعاً أن هذا التصور المخالف لموازين الإسلام وهديه، من أخطر رقى الشيطان ووساوسه. إن أوامر الله لنا بالطاعات والأذكار والترفع على المحرمات لم تكن الغاية منها في يوم ما رؤية الأنوار، أو كشف الغيوب أو تحول الحصى في قبضة اليد إلى قطع من السكر، وإنما الغاية منها أن تتطهر القلوب من غوائلها وأمراضها التي تقصي العبد عن الرب، كالكبر والعصية للذات والمذهب والحسد والتكالب على الدنيا وحب الرئاسة والشهرة.. إلخ.

إن أئمة التصوف المنضبطين بكتاب الله وسنة رسوله من أمثال الجنيد البغدادي والإمام المحاسبي، ثم الإمام القشيري صاحب الرسالة المشهورة، عندما يذكروننا بضرورة الإكثار من تلاوة القرآن وأوراد الصباح والمساء، والإكثار من نوافل الطاعات بعد فرائضها، يحذروننا في الوقت نفسه من الافتتان بعوارض الخوارق والوقوف عندها بأي

غبطة أو اهتمام، مؤكدين أن الاستقامة على أوامر الله وطاعته هي الكرامة الحقيقية.

وهكذا، فإن علينا عندما نلزم أنفسنا بما يوفقنا الله له من الطاعات والأوراد والمبرات أن نتذكر الداء ونعلم الدواء.. إن الداء هو هذا الذي يتراكم مع الزمان على نفوسنا من الأمراض التي ذكرت طائفة منها، والدواء هذه الطاعات والأذكار والاتجاهات إلى الله عز وجل.

والمطلوب مني ومنك يا أخي القارئ إذا التجأنا إلى الدواء أن نتشوف إلى أن يشفينا الله به، من هذه العيوب الخفية المتراكمة على قاع نفوسنا، لا أن نتشوف من خلال استعماله إلى كشف ما قد أخفاه الله عنا من أسرار العيوب.

وهذا ما ينصحنا به ابن عطاء الله إذ يقول: «تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب، خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من العيوب».

إن الله عز وجل يهيب بنا في كثير من آي كتابه أن نركي أنفسنا، يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤/٧٨-١٥]، ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠-٩/٩١]، ويقول: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيكَ إِلَيَّ رَبُّكَ فَتَحْشَى﴾ [النازعات: ١٨/٧٩-١٩].

فهل التزكية أن أتمتع بالكرامات وأن تجرى على يدي الخوارق، فأبتلع الزجاج وأمسح الحجر فيتحول إلى سكر؟

ليست هذه هي التزكية، ولم تشرع الطاعات والقربات من أجل شيء من هذا، وإنما شرعت ليداوي بها العبد أمراضه القلبية الخفية

التي سماها الله «باطن الإثم» فإن رأى أنه قد عوفي منها، أو استطاع أن يتغلب عليها، فليستبشر بأنه قد وصل إلى مرتبة الصديقين، حتى ولو لم تجر على يديه أي خارقة، ولو لم تسطع أمامه الأنوار، ولو لم ير رسول الله في يقظة ولا منام.

أما إن رأيت أنك ما تزال معجباً بنفسك متسامياً على الآخرين تحسد ذوي النعمة، وتنقم على من سبقك في الرئاسة أو الشهرة، تتكالب على المال وتتصيد من أي سبيل تأتي لك، فاعلم أنك بعيد عن الله محبوب عن أطفاه ورحمته، حتى ولو كانت الخوارق كلها طوع يدك، إنها استدراج وليست كرامة، إذا نظرت إلى المريدين وهم يتكاثرون من حولي (أنا ليس لي مريدون، ولكنني أضرب المثل) وأجدهم يبالغون في تقديري ويتسابقون إلى يدي ليقبلوها، فشعرت بالنشوة تطوف بنفسي والاعتزاز يسري في كياني، فلأعلم أنني قد غدوت بذلك شراً من الفسقة والتائهيين عن صراط الله عز وجل، ذلك لأنهم ينقلبون فيما سماه الله «ظاهر الإثم» أما أنا فأتمرغ من هذه المشاعر المهيمنة على كياني فيما سماه الله «باطن الإثم» وفرق كبير بين ذلك الظاهر الذي يحوه لسان التوبة وهذا الباطن الذي لا يقوى اللسان ولا العزم على امتلاخه، وإنما يمتلخه ويزيله منهاج مستمر وطويل من الأخذ بعلاج التزكية، وإنه لعلاج يحتاج إلى ممارسة طويلة وجهاد دائم.

لابد أن ألفت النظر هنا إلى خطأ كبير يتورط فيه بعض المرشادات إذ يقعن في نقيض ما يوصي به ابن عطاء الله، خلال وظائفهن الإرشادية أو التوجيهية التي يؤدينها، سعياً إلى تربية مريداتهن.

كثيراً ما يحلو للواحدة منهن أن تفاجئ طالباتها أو مريداتها، خلال الدقائق الأولى من جلوسها إليهن، بأنها تشم رائحة معصية تسود المجلس، ونظراً إلى أنها لاتستطيع الركون إلى ظلمات هذا الجو الذي قد يسري بالظلام إلى قلبها، فإنّ عليها أن تغادر المجلس، ريثما تتوب صاحبة المعصية من معصيتها.

دعك من الأثر النفسي الذي يهيمن، من جراء هذا التصرف، على تلميذات أو المريدات، إذ تقع كل واحدة منهن تحت ضغط شديد من تقلق النفسي والتخيلات الجامحة، بحثاً عن المعصية التي ارتكبتها وأطلع نه هذه الوليّة الصديقة عليها.. لعلها النظرة التي بدرت منها إلى شاب صادفته في طريقها، أم لعلها المسلسل الماجن الذي تابعت جزءاً منه في سهرتها مع الأسرة بالأمس، أم يبدو أن الأمر يتمثل في نومها نذي امتدّ على خلاف العادة، فحرمها من قيام الليل!.. وكم من فتيات هيمن عليهن هذا الاضطراب المرهق ثم تحول إلى وسواس نفسي، ثم تحول الوسواس إلى مرض نفسي عضال!..

أقول: دعك من هذا الأثر النفسي ونتائجه، ولكن انظر إلى المعنى نذي يوحي به هذا التصرف، إنه يوحي إلى المريدات بأن المرشدة بصيرة بسرّائهن، خبيرة بالخفي من أوضاعهن، إذ إنها تتمتع بصفاء روعي ونوراني، يتمتعها بالكشف ويرفع عنها الحجب، ويعرّي أمامها حقائق.

فمتى كان المرشدون الربانيون، بدءاً من الرسل والأنبياء، يوحون إلى أتباعهم هذه الدعوى، ويزجونهم في هذا القلق المهلك.

إن المرشد كلما ازداد معرفة لله وتقرباً منه، ازداد اتهاماً لنفسه وشعوراً بتقصيره وخوفاً من عواقب هذا التقصير ومن ثم فإنه يوقن بأن الفتحة الذي يكرمه الله به إذ يجلس إلى مرديه إنما هو ببركتهم، وأن الضيق أو الانغلاق الذي يتنابه، إنما مردّه إلى سوء حاله، وهو لا يرى في عمله الإرشادي إلا وظيفة أقامه الله عليها.

إنني أقول لكم بحق: كثيراً ما آتني إلى هذا المجلس فأشعر أنني أجزّ الكلام جراً، وأن المعاني الحاضرة تغيب عن ذهني فلا أشك في أن السبب في ذلك سوء حالتي، والإنسان كما قال الله عز وجل بصير بحاله ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/١٤]. وقد آتني فأجلس إليكم للحديث، دون تحضير للمعاني التي ينبغي أن أقولها، فما هي إلا لحظات وإذا بمعان تلقى على جناني ويخف في التعبير بها لساني، فما أشك في أن هذا الفتحة المفاجئ إنما ورد إلي ببركة بعض الصالحين الذين يفيض بهم هذا المسجد.

ومصدر الخطأ الذي يقع فيه بعضنا أننا نظن بأن مهمة الإرشاد والتوجيه إذ ينهض بها أحدنا، دليل على أنه يتبوأ مكانة متميزة عن الآخرين عند الله عز وجل.

وإنه لظن باطل، بل إنه خطأ قتال.

النهوض بمهام الدعوة والإرشاد، ليس أكثر من وظيفة يسخر الله لقيام بها من يشاء، وللحكمة التي يشاؤها.. ربما كانت ابتلاء، وربما كانت تربية وتهذيباً للمرشد الداعي أكثر من أن تكون نصيحة للناس الذين يرشدهم، وكم من مرشد ضلّ من خلال فتنة الإرشاد، واهتدى

مريدوه بمعرفة الحق الذي تفتحت قلوبهم لإدراكه.. ولأشك أن في المرشدين من سيدخلهم الله يوم القيامة في شفاعة بعض مرديهم.

وقد حدثني والذي رحمه الله عن واحد ممن كان يعرفه من العلماء المرشدين الصالحين، أنه كان يخدم مرديه، ويغسل، دون أن يعلموا، ثيابهم، وكان إذا اتخذ مجلسه معهم للتوجه، حسب أصول الطريقة النقشبندية، حذرهم من المبالغة في احترامه، ومن الانخداع بظاهر حاله، وأقسم بالله أنه لا يرى نفسه خيراً من أي واحد منهم، ثم يقول متأثراً: ولكنها وظيفة أقامني الله عليها، ولا يسعني إلا أن أنهض بها.

هذا هو المرشد، يؤدي وظيفته التي أقامه الله فيها، ثم يعود إلى نفسه فيندب حاله ويكي على خطيئته.

واعلم أن من أعاجيب حكمة الله تعالى أنه لم يجعل لغير الرسل والأنبياء حظاً في العصمة من المعاصي والآثام، ليكون ذلك بمثابة عصا التأديب، تلوح أمام كل من أعجبت نفسه، ثم تهوي على ظهره إن هو استمرراً مشاعر هذا الإعجاب، ورأى نفسه، وهو في موقع التوجيه والإرشاد خيراً من بقية عباد الله.

اللهم لا تجعل من احترام الناس لي وحسن ظنهم بي سكرًا ينسيني سوء حالي وعظيم تقصيري في القيام بحقوقك.. اللهم لا تجعل نعمة سترك لي سبباً لغرور ينتابني، أو سبباً لنسيان سوئي الذي أثبتته في علمك وأخفيتته عن عبادك..

أما إنه لطريق وعر مخيف، أن يُزج بأحدنا في مهمة التوجيه والدعوة والإرشاد، فيحرق به الناس حباً وتقديراً وإعجاباً، ويتسابقون إلى يده

يقبلونها، وإلى ثيابه يتمسحون بها، ثم يكون مع ذلك بصيراً بشأته عالماً بتقصيره وسوء حاله، دائم الالتجاء إلى الله أن يغفر له ذنبه ويصلح له حاله، وأن لا يجعل من حسن ظن الناس به فتنة له في دينه.. ولكنه يغدو يسيراً وقصيراً في حق من عالج نفسه بدوام الالتجاء إلى الله والتذلل على أعبائه، يسأله أن يقيه شر نفسه وأن لا يبعده عن جنى رحمته وأن يذيقه برد إحسانه ولطفه. فلسوف يجد نفسه بين يدي رب كريم يجيب السائلين ويكشف سوء عنهم ويقيهم عن غوائل نفوسهم مع سترهم في الدنيا والمغفرة لهم يوم القيامة.

* * *

بقي أن فينا من قد يقول: أليس الربانيون من عباد الله عز وجل، أولئك الذين عاجلوا أمراض نفوسهم حتى شفاهم الله منها، واجتازوا مراحل السعي إلى الله حتى تقبلهم الله في عداد الواصلين، فلماذا تستبعدون أن نكون منهم؟ ولماذا تضيقون سبيلاً أو تغلقون باباً فتحه الله؟

والجواب أن الربانيين هم أكثر الناس خوفاً على أنفسهم من الغوائل، وهم أشد الناس اتهاماً لها. ألم تسمع حديث الله عنهم إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٠].

وسبب ما يلازمهم من التخوف واتهام النفس، أمران اثنان:

أولهما: أن الصالحين من الناس، مهما ساروا ثم تجاوزوا مدارج السالكين، فإن نفوسهم تظل نفوساً بشرية، وتظل الشهوات محبة إليها

مزينة عندها، كما أخبر الله عز وجل، ولكن ذخر الطاعات والعبادات وملازمة المراقبة والأذكار يلجمها بضوابط الحب والحياء والخوف، فهم في كل أحوالهم وجلون، إذ يعلمون أنهم من أنفسهم على خطر، إذ لا يبعد أن تجمح بهم إلى أي من الأهواء المحرمة إذا ما غابت عنهم حماية الله ورعايته. وذلك أمر ممكن لا يستطيعون أن يكونوا في مأمن منه، وكيف يأمنونه على أنفسهم وهم يرددون قول الله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الاعراف: ٩٩].

٩٩.

ثانيهما: أن الإنسان كلما ازداد قرباً من الله ومعرفة له ازداد تبصراً بعظيم حق الله عليه، ومن ثم ازداد شعوراً بتقصيره في جنب ننه عز وجل، وتنبهاً إلى ما يراه من سوء حاله. ومن ثم فقد كان زربانيون من عباده سبحانه وتعالى هم أشد الناس خوفاً منه وتعظيماً له واتهاماً لأنفسهم. فمتى وأنى يستبشرون ويطمئنون بأنهم قد تطهروا من غوائل النفس واستقروا في شاطئ الأمان؟ ألا ترى إلى عمر، وهو من المبشرين بالجنة، كيف كان شديد الخوف على نفسه عظيم لاضطراب من ماله، يخيل إليه إذ يمشي بين الناس أنه يحمل على ظهره وقاراً من الذنوب؟ ألا ترى إلى عليّ وهو ابن عم رسول الله وواحد من أخصّ أصفیائه، كيف كان يتأوه في جنح الله تأوه الملدوغ، ويخاطب الدنيا قائلاً: «إليك عني غرّي غيري، طلقتك ثلاثاً بنتك ثلاثاً...» ثم يتحسر قائلاً: «آه من قلة الزاد وبعد الشقة ووحشة الطريق...» وقد كان هذا شأن جلّ أصحاب رسول الله ﷺ، وأنت تعلم أنهم الصفوة من عباد الله بعد الرسل والأنبياء.

إلا فلنعلم جميعاً أن المحجوب عن الله، هو الذي يأمن مكر الله،
ويطمئن إلى أنه من الواصلين الذين زكيت نفوسهم وسلمت قلوبهم،
فغدا همه الواصب وشغله الشاغل، أن ينال حظوته من الخوارق
والكرامات، وأن يحدث الناس بها، يرفع لنفسه بها شأنًا ويتخذ منها
أداة نصحه ومادة توجيهاته وموعظته.

إذن فلنجعل همنا في كل التقلبات والأحوال، التشوف إلى ما بطن
فيها من العيوب، لنسعى سعينا للتخلص منها، بدلاً من أن نتشوف إلى
ما حجب عنا من الغيوب، لتباهى بمعرفتها ومزية الإطلاع عليها.
والله هو الموفق.

* * *

الحكمة الثالثة والثلاثون

((الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه. ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصراً. وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، وهو القاهر فوق عباده)).

ثمة فرق كبير بين قولك: الشمس محجوبة عني، وقولك أنا محجوب عن الشمس. فالقول الأول يصدق بما لو كان على صفحة الشمس سحاب يحول دون رؤيتك لها، والقول الثاني يصدق بما لو كانت على عينيك غشاوة حالت هي الأخرى دون رؤيتك لها.

في الحالة الأولى الشمس محجوبة عنك، إذ لا تدخل لك في الحجاب الذي أخفاها عنك، وفي الحالة الثانية أنت محجوب عنها، إذ الحجاب عائد إليك ولعله جزء منك.

فهل في الكون حالة أو زمان أو مكان يصدق أن يقال فيه: الله محجوب عن الإنسان أو عن كائن ما من المخلوقات؟

إذا تأملت في الفرق الذي بدأت به شرح هذه الحكمة، علمت أنه لا يتأتى في أي حال أو زمان أو مكان أن يكون الحق جل جلاله محجوباً بشيء ما عنك أو عن غيرك.

ذلك لأنه لو حُجب عنك بشيء ما لكان الحاجب له متسلطاً عليه بحكم الحجب والستر، إذ هو الفاعل المحذوف للفعل المبني للمجهول، ويصبح المفعول الذي يسمى في الإعراب نائباً عن الفاعل، هو الله عز وجل، تنزه الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا هو المعنى ذاته الذي عبر عنه ابن عطاء بقوله: «إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصراً».

أي إن الساتر لشيء ما، يرسم حدود وجود ذلك الشيء ويحصره داخل دائرته أو نطاقه، وإلا لما غاب وجوده عن أنظار الذين هم خارج ذلك النطاق. ولاشك أن الساتر لا يكون له هذا الشأن في الحصر والتحديد، إلا وهو قاهر للمستور.

ثم إن الشأن فيما يحصره الساتر أو يحيط به أن يكون وجوده في جهة دون غيرها، وعندئذ يكون الساتر فاصلاً بين الجهة التي يوجد فيها المستور والجهات الأخرى التي لا يوجد فيها. وكل ذلك مستحيل في حق الله عز وجل.

* * *

إذا تبين هذا، فإن ابن عطاء الله يرمي من وراء هذه الحكمة إلى حقيقتين اثنتين، إحداهما تدخل في نطاق العقيدة، والأخرى تدخل في مجال التربية والسلوك.

أما ما يدخل منهما في نطاق العقيدة فهو ما ينبغي أن تعلمه من أنه لا يجوز ألبتة أن تقول: إن الله محجوب عني أو عن عباده، ذلك لأنك

تجعل الذات الإلهية بهذا التعبير اسم مفعول، وهذا يعني أن ثمة فاعلاً تحكم به وهيمن عليه.

والله عز وجل منزّه عن ذلك بالبداهة التي لا تخضع لأي نقاش. ولأنك تقرر بهذا التعبير أن وجود الله محصور في جهة بعينها وليس له وجود فيما وراء تلك الجهة، وهو أيضاً محال في حق الله عز وجل بحكم البداهة. إذ إن مما هو ثابت بالضرورة أن الله كان وليس معه شيء كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي سبق ذكره وتخريجه في حكمة سبقت. فالجهات كلها كانت معدومة ثم أوجدها الله عز وجل، فهي المحتاجة إليه وليس هو المحتاج إليها، ويا للعجب، كيف يكون الخالق محتاجاً إلى المخلوق ومحاصراً في أقطاره!!..

وأما ما يدخل منهما في مجال التربية والسلوك فهو ما ينبغي أن تعلمه من أن الإنسان في فطرته التي أنشأه الله عليها متصل بربه عز وجل عالم به نزاع إليه بالحنين والحب ليس في كينونته ما يحجبه عنه. فلما خاض في متاهات الدنيا وانغمس في ملهياتها ومنسياتها وركن منها إلى الشهوات والأهواء، نسج له من ذلك كله حجاب أسدل على قلبه وأحاسيسه، زجّه في النسيان بعد الذكرى وفي الجهل بعد العلم، وابتلاه بالبعد بعد القرب. فأصبح هو المحجوب عن الله بداء سرى بعد العافية في كيانه.

وأنا أعلم أن في الناس من قد يقول: أين هي هذه الفطرة؟ إنني لم أرها ولم أشعر بها في أي مرحلة من حياتي.

فإن استوقفته على كلام الله عز وجل، إذ يقول لعباده منبهاً ومذكراً ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧] قال لك: ها أنا ذا أسأل كياني وأحاسيسي كلها عن ذلك المشهد ويومه، فلا أذني تذكر أنها سمعت، ولا عيناي تذكران أنهما رأتا، ولا خاطري يحفظ شيئاً من هذا الحوار.

والجواب الذي ينبغي أن يقال لهذا الغافل السادر، هو أن نسيج هذا الحجاب الذي تكاثف مع الأيام وغشّى على فؤادك فأنسأك الله عز وجل وزجّك في وادي الجهالة به والبعد عنه، هو ذاته الحجاب الذي أنسأك ذاتك إذ كنت في نشأتك الأولى قريباً منه موقناً به تركن إليه بالتعظيم والحنين.

إن إنكارك له وجهلك به اليوم، ليس شيء منهما صادراً عن ذاتك الإنسانية ودخيلتك العقلية، ولكنه صادر عن ركام التصورات الجانحة التي تلقيتها والتيارات الفكرية والاجتماعية التي استهوتك، والعقد والعصبيات والأهواء التي ترسخت في قاع نفسك. ويوشك إن جاءتك مصيبة قاصمة أخذت منك بالخناق، أن ينتفض من وقع ذلك كيانك فيتساقط منه هذا الذي تراكم عليه، فتعود فطرتك الإيمانية إلى الظهور بعد طول احتجاب أو غياب، وتسمع نداء قلبك - حتى ولو لم يلهج به لسانك - يجأر إلى الله بالاسترحام والشكوى والتوبة

ولاستغفار.. وانظر إلى واقع الدنيا من حولك تجدها مليئة بالأمثلة
مدانة على ما أقول.

أما إنكارك للعهد القديم، عهد «ألست بربكم» بحجة أنك تسأل
أُذنيك عن ذلك الخطاب فلا تذكران أنهما سمعتا شيئاً، وتسال عن
ذلك عينيك، فلا تذكران أيضاً أنهما أبصرتا ما يدلّ على شيء من
ذلك، فإن هذا الاحتجاج من الغباء بمكان:

أفكانت لك أذن أو طلبة صماخية في ذلك العهد القديم الذي لم
تكن الأشباح البشرية قد خلقت فيه بعد، حتى تسألها عن مشهد لم
تكن مخلوقة فيه؟ أم هل كانت لك عين أو حدقة آنذاك حتى
تستشهدا هي الأخرى في أمر لا وجود لها فيه؟

إن الحديث آنذاك كان مع الأرواح، تلك الأرواح التي انسكبت
أخيراً في أجسادها يوم خلقها الله عز وجل. ولقد استوعبت الأرواح
آنذاك ذاك الحديث مباشرة، دون احتياج إلى وساطة أذن تسمع أو
عين ترى، أو دماغ يدرك. وإذا أردت اليوم أن تستنهض شيئاً من
كيانك لتذكر ذلك العهد، فاستنهض لذلك روحك السارية في كل
ذرة من كيانك، ولا تسأل الدار الجسدية التي استودعت وأسكنت
فيها بالأمس، وستفارقها عما قريب.

وما من إنسان اخترق حواجز الحجب التي رانت مع الأيام على
نفسه، وساءل روحه عن ذلك العهد القديم، إلا وبعثت فيه شجواً من
آثار تلك الذكرى، وحدثته عن وقع ذلك الحوار المطرب الأخاذ،

وأكدت له نسبتها بالعبودية والمملوكية إلى ذلك الإله الخالق المبدع الودود، واشتياقها اللاهب إلى يوم الرجوع إليه والوقوف بين يديه.

وربما تلقى أحدنا من الروح هذه المشاعر كلها فأحسّ بها دون أن يستوعبها ويدرك مصدرها ومعناها. إذ تكون الرعونات النفسية والشهوات الغريزية جاثمة لها في الطريق. فما تكاد تتناهى إلى مراكز الإحساس من صاحب هذه الروح، حتى تصادرها تلك الرعونات والأهواء الغريزية لحسابها، وترجمها لغةً ناجزةً للتعبير عن مبتغياتها. فلا يتلقاها أحدنا إلا على أنها زفرات شهوانية تعبر عن رغائب النفس وطموحاتها وأهوائها الهابطة المتمثلة في متع الجسد والأرض.

إنها فطرة ربانية تلك التي تجعل الروح تتعشق الجمال سواء في أشكاله المرئية أو أصواته المسموعة، وإنما هو فيض من جمال الله عز وجل أدركته يوم كانت تسبح في عالمها العلوي القديم، وطربت له يوم اتجه إليها بخطابه الخلو الأخاذ: «ألست بربكم».

ولكن الروح إذ تهمس إليك بتأثراتها لذلك الجمال العلوي وطربها لذلك الحديث الرباني، يستقر لديك الشعور بذلك دون أن تدرك مصدره وجذوره، فما تكاد تبصر صورة من صور الجمال الأرضي والبشري، حتى يذهب بك الخيال إلى أن الجمال الذي تتعشقه روحك هو هذه الصور، وما تكاد تسمع لحناً رائعاً ينبعث من صوت شجي أو أوتار عود أو نفثات ناي، حتى يؤكد لك الوهم أن هذا هو الصوت الذي تستعذ به وتسكن إليه وروحك.

و... تأملت، وتحررت من سلطان غرائك وشهواتك الأرضية ساعة، عمت أن الصور التي استهوتك إنما هي مرآة تجلّي عليها أثر من آثار حمد الرباني الذي تعشقتة الروح، ولأدركت أن الأصوات التي تريت إنما هي صدى لحديث الرب إلى الروح، يوم تفضل عليها وأسعها كلامه وأطربها بخطابه وجميل نجاهه. وإنما مصدر طرب -روح-. اليوم، ذلك الخطاب المطرب القديم، لا هذا الصدى الذي يكرّ به ويحمل بصمات منه^(١).

* * *

ولآن، وقد أدركت هذه الحقيقة، ينبغي أن تعلم أن أهم ما يجب أن يتغر الإنسان به حياته في هذه الدنيا، العمل الدائب على أن يزيح مما بينه وبين روحه هذه الحجب الكثيفة التي تراكمت على نفسه فأقصته عن مشاعر فطرته الإيمانية، وشغلته عن الإصغاء إلى حديث الروح وحنينها إلى عالمها العلوي الذي أهبطت منه لتستقر حبيسة إلى حين في هذا الجسد، وأعمته عن رؤية النور الرباني الذي ملأ فجاج الكون، ونذي به تحقق كل شيء واستقام كل شيء، على نحو ما قد تم بيانه في شرح الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله رحمه الله «الكون كله ضمة وإنما أناره وجود الحق فيه...».

(١) ينبغي أن تعلم أنني أتحدث عن طرب الروح، ذلك الذي يبعث الشحو في الفؤاد، ولست أتحدث عن الطرب الإيقاعي الوافد الذي يخاطب الغرائز ويستثيرها بعيداً عن الروح وأشواقها. وهو ليس طرباً ولكنهم يسمونه اليوم طرباً على سبيل التجوز والمشاكلة.

وليس السبيل إلى إزاحة هذه الحجب، محاربة الغرائز النفسية والانقطاع عن الحاجات الجسدية، كما هو الشأن عند متصوفة الهند وبعض المتفلسفين عن ثنائية الروح والجسد.

وإنما السبيل إلى ذلك عقد مصالحة حقيقية بين الروح وأشواقها، والجسد وحاجاته، على أن يكون الجسد بكل ما يحتاج إليه في خدمة الروح دون العكس. ذلك لأن الروح هي الحقيقة الباقية، والجسد آيل إلى الاضمحلال فالزوال.

وفي يوم البعث والنشور يخلق الله للروح وعاء من جسد جديد، يتفق في إمكاناته وطاقاته وحاجاته مع نظام ذلك العالم الجديد.

ومنهج هذا الصلح مثبت ومرسوم في كتاب الله عز وجل.

والأداة إليه تتمثل في منهاج طويل من أخذ النفس بالكثير من ذكر الله ومراقبته وقراءة القرآن بدراية وتدبر، وتغذية القلب بالمزيد من عوامل محبة الله تعالى وتعظيمه والمخافة منه. والغذاء الأول والأقوى لذلك كله، هو ربط النعم دائماً بالمنعم، وتذكر الإله المتفضل عند كل أعطية وفضل.

ومن المعلوم أن تعظيم الجليل، وهو الله، أقصر طريق إلى تحقير القليل وهو الدنيا.. فإذا عظم الجليل في قلبك، هانت الدنيا وصغرت في نفسك، وعندئذ ترتفع الحجب وتزول الغشاوة، وترى الله بعين قلبك ليس دونه أي حجاب يستره عنك. إذ كان الحجاب سحياً أفرزتها رعونات نفسك، فلما غاب سلطان الدنيا عنها، وحلت في

مكانه محبة الله وتعظيمه والثقة التامة به، تبددت تلك السحب في وهج ذلك الحب والتعظيم.

فإن تعسر عليك أن تأخذ نفسك بهذا المنهاج، وتغلبت أهواء نفسك عليك، وصدك الشيطان عن سبل مجاهدة النفس، فالعلاج الأيسر والطريق الأقصر، هو كثرة الالتجاء إلى الله والتبتل على أعتابه والإقبال إليه بالتضرع والدعاء أن يأخذك من نفسك وأن يقيك من سوء حالك وأن يرفع الحجب المسدلة على عين قلبك. فإنك إن تابرت واستقيمت على هذه الحال أكرمك الله بالاستجابة وأذاقك برد إحسانه ولطفه وأنقذك من رعونات نفسك مهما كانت عاتية، ومزق عنك حجب أهوائك مهما كانت متراكمة وكثيفة.. والذي اختاره لي ولك أن نجتمع بين هذين العلاجين فنسلك السبيل إلى مجاهدة النفس، ونقرع في الوقت ذاته، بيد من الذل والانكسار، باب الرحمة الإلهية، داعين متضرعين أن يقبلنا ويصلح حالنا، وأن يرفع عن قلوبنا حجب الغفلة والنسيان، حتى نذكره بالحب والتعظيم ولا ننساه، وأن يسدل علينا ستر رحمته ولطفه، كي لا يطلع على تقصيرنا في جنبه وعلى سوء حالنا معه أحدٌ سواه.

* * *

الحكمة الرابعة والثلاثون

((اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف يناقض عبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً))

أوصاف البشرية هذا الجسم الترابي الذي كون الله الإنسان منه، بالإضافة إلى جملة الطباع والغرائز التي ركبت في كيانه. وهي طباع وغرائز كثيرة متنوعة، منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم.

فمن هذه الصفات أو الطباع فطرة الشعور بمعنى العبودية لله، وحاجة الإنسان إلى الطعام والشراب والمأوى، وغريزة حب التملك، واستئناسه بأخيه الإنسان والتطلع إلى التعاون معه، وركون الجنس إلى الجنس.. ومن الصفات المذمومة التي من شأنها أن تتسرب إليه، استعداده للعجب بنفسه والاستكبار على الآخرين، والتكالب على المال، والحسد والضغينة والشحناء والبغضاء، والعصبية للذات أو القوم أو الجماعة..

تلك حقيقة معروفة وملموسة، يعرفها كل منا في نفسه، ولقد وصف الله الإنسان بجملة هذه الصفات، بعبارة جامعة، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧/٩١-٨].

وجاء التعبير عن هذا المعنى ذاته، ولكن بشيء من التفصيل أو المستند العلمي، في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢/٦٧] أي إن النطفة التي قضى الله أن يخلق الإنسان منها، تحتوي على أخلاط من الطبائع والصفات المختلفة، هي في داخل النطفة مجرد بذور ذات رموز وإشارات، فإذا تكامل الخلق، وتحولت النطفة إلى بشر سوي، تفتحت البذور الخفية، وتكونت منها الطبائع الظاهرة الجلية، ويتبع الله عز وجل هذا البيان العلمي بالكشف عن حكمته عز وجل من تحميله الإنسان كل هذه الطبائع والصفات التي كثيراً ما تكون متعارضة بل متقادمة، وهي أن يزرّحه الله عز وجل من ذلك كله في حالة من الامتحان والابتلاء.

وأنت تعلم أن كل ما يقوله العلماء اليوم عن الشريط الوراثي «الكروموزومات» لا يعدو أن يكون شرحاً لهذا الذي يقرره بيان الله عز وجل.

إذا تبين هذا، فلنعد إلى هذه الحكمة الجديدة التي يخاطبنا بها ابن عطاء الله. إنه يقول: انظر إلى ما ركب فيك من أوصاف البشرية، وتبين كل ما لا يتفق مع عبوديتك لله منها، فابتعد عنه وأخرج نفسك منه أي أبعد ذاتك عنه.

ويتبين لك بهذا أن «من» في قوله «من أوصاف بشريتك» للبيان وليست بمعنى التجاوز، لأن المعنى الذي يرمي إليه هو: انظر إلى ما تراه من أوصاف بشريتك، فأخرج نفسك عن كل ما يتناقض مع

عبوديتك لله منها. أو تكون من بمعنى التجاوز، على أن يكون قوله: «عن كل وصف مناقض لعبوديتك» بدل بعض عن كل، أي يكون بدلاً عن قوله: «(من أوصاف بشرتك)». وهذا كما لو قلت: تحرر من صفاتك، من كل صفة سيئة منها.

إذن، فلسنا بصدد الحديث عن الصفات والطباع التي لاتتناقض مع عبودية الإنسان لله، مما يتوقف عليه أصل الحياة أو كمالها، بل المطلوب من الإنسان أن يرعى تلك الصفات ويحافظ عليها. إذ المحافظة على الحياة، برعاية ضرورياتها وحاجياتها وتحسينياتها مقصد من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية، والمحافظة على ما به تستقر وتكمل الحياة، يدخل حكمها في المحافظة على الحياة ذاتها.

غير أن المهمة الخطيرة التي يجب أن ينهض بها المسلم، تتمثل في ضرورة التخلص من الطباع والصفات التي لاتتفق ومسالك عبودية الإنسان لله عز وجل كالكبر والعجب، والحسد والحقد والشح والتكالب على المال أي المبالغة في حبه بحيث يندفع إلى الحصول عليه أينما لاح ومن أي السبل أمكن.

ولعلك تسأل: أفتعد هذه الصفات، صفات جبيلة فطر الله الناس عليها، أم هي صفات مكتسبة تتسرب إلى الإنسان لأسباب عارضة؟

والجواب أن الإنسان مفطور على قابليات واستعداد لها، يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢/٧٦] وقد مرّ بيان معناه، وقوله تعالى:

جَزَىٰ نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿﴾ [الشمس: ٧/٨-٧/٩١]
وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿﴾ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴿﴾ [النساء: ٤/١٢٨].

ومعنى قولنا: إن الإنسان مفطور على الاستعداد لها، أن التربية
والتحضر في الظروف الاجتماعية من شأنها أن تلعب دوراً كبيراً في ترسيخها أو
تقضاء عليها.

وربما سأل بعضهم فقال: فلماذا فطر الله الإنسان على هذه
صفات المرذولة، ثم أمره بالتخلص منها؟

ولا يتكامل الجواب عن هذا السؤال إلا بشطرين اثنين:

الشرط الأول أن جوهر هذه الصفات، بقطع النظر عن الغلو فيها أو
سوء استعمالها، ذو أثر إيجابي مفيد في حياة الإنسان الفردية
والاجتماعية. فلولا سريان شعور الأنانية في كيان الإنسان لما اهتم
بذاته ورعاية حاله، ولما توجه إلى امتلاك مال ولا إلى الدفاع عن
حق.. ولولا شيء من الشح يتغلب عليه لأنفق كل ما قد تعب في
تحصيله وجمعه.. ولولا حبه للمال لما بحث عنه ولما حصل على شيء
منه، وما تعمر عندئذ أرض ولا تستقر الحياة. ولولا غضب يدافع به
مظلوم عن حقه لاستشرى الظلم وضاعت الحقوق. ومن المعلوم أن
كبر والعجب والحسد والحقد، كل ذلك من فروع وآثار أساسها
يأتم، ألا وهي الأنانية.

إذن فمادّة هذه الصفات لها فائدة ودور إيجابي في حياة الإنسان
وعلاقاته الاجتماعية. ولله حكمة باهرة في تجهيز الإنسان بها.

غير أن فقد التربية وغياب عوامل ضبطها وتهذيبها، مع تسليط الرعونات النفسية عليها، يجعلها تتجاوز حدودها الصالحة وتتحول من جرعات دوائية مفيدة، إلى سموم قاتلة، وإنما تعدّ هذه الصفات مذمومة في ميزان الإسلام عندما تتحول من حدود الماء المحيي إلى الطوفان المهلك، وعندما ينسى الإنسان أنها جرعات محدودة من دواء للعلاج، فيقبل إليها على أنها غذاء للشبع.

الشرط الثاني من الجواب أن هذا السؤال ينبغي أن يصدر ممن لا يعلم أن الله سيحشر عباده غداً لنيل الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.. أما الذي يعلم أن الإله الذي فطر الإنسان على هذه الصفات المذمومة، ثم أمره بالتخلص منها، قد أعدّ له الجزاء الأوفى يوم القيامة، نعيماً وسعادة للمحسنين وعذاباً وشقاء للمسيئين، فسؤاله من العبث بل الخلط الذي يتنزه عن الخوض فيه العقلاء.

إذا كان المطلوب أن لا يكلف الإنسان بجهد يتحمّله للتحرر من هذه الصفات الذميمة، فقيم يكون على موعد مع الأجر والجزاء؟

إذا كانت مقدمات التكليف في هذه الدنيا لا معنى ولا موجب لها، ومن ثم تستشكلها، فلماذا لا تستشكل نتائج الأجر والجزاء التي هي الأخرى لا معنى ولا موجب لها؟ لماذا تعلم كيف تمدّ يدك إلى الأجر الذي تناله، ولا تعلم كيف تؤدي الجهد الذي يستوجبه؟

متى عرفت أن هذه الدنيا دار تكليف، وأنها قاعة امتحان زُجَّ فيها الإنسان، وتأمّلت في البيان الإلهي القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الإنشاق: ٦/٨٤]، أدركت لماذا يكلف

هذا «المكلف» بجهد التخلص من صفاته الذميمة، وعلمت أن حياة الإنسان فوق الأرض بدون هذا التكليف الذي يستتبع نتائجه وآثاره، عبث لا معنى له.

هذا بالإضافة إلى أن التخلص المطلوب من هذه الصفات لا يكون بامتلاكها من جذورها والقضاء عليها، فإن هذا لا يتأتى ما دام الإنسان إنساناً، وما دامت إنسانيته تعني أن يكون مفطوراً على هذه الصفات التي علمنا في الشطر الأول من الجواب عن هذا السؤال، أنها في جوهرها الذاتي ومادتها الأساسية، ليست صفات سيئة، ولكنها تحتاج إلى إخضاعها لمنهاج من التربية والتهديب كي لا تتجاوز حدّها، ولكي لا تتحول في حياة صاحبها من دواء يسعفه إلى سمّ يهلكه.

إن تهذيب هذه الصفات، وضبطها بالكوابح التي تقطع شرّتها وتقضي على ضراوتها، هو المعنيّ بالتزكية التي يطالبنا بها البيان الإلهي بأساليب شتى وفي مواقف متكررة. وهو المعنيّ بكلمة «الجهاد» في السور المكية حيثما وردت.

والمنهج إلى ذلك وإن كان داخلياً في معنى التكليف، ومتوقفاً على شيء من الجهد، إلا أنه ليس خارجاً عن وسع الإنسان وليس داخلياً في حدود العسر المخرج. وآثاره الحميدة في حياة الفرد والمجتمع تفوق أعباءه المطلوبة. وذلك هو شأن التربية أيّاً كانت وأياً كان نوعها، في حياة الإنسان.

* * *

ثم إن الذين يطرحون هذا السؤال، ويستشكلون السبيل إلى التخلص من هذه الصفات الذميمة، يغيب عن بالهم أن العقيدة الإسلامية إذا ترسخت في العقل وغذيت بغذاء العبادة والطاعات والأذكار، تكفلت هي وحدها بتهديب هذه الصفات وقطع شررتها، وإعادتها إلى حدود المصلحة والاعتدال.. وعندما يغيب عن بالهم هذا العلاج الذي لا بد أن يأخذ كل عاقل نفسه به، بقطع النظر عن وجود هذه الصفات وخطورتها، يخيل إليهم أن معالجة هذه الصفات أو الطباع لتهديبها وإعادتها إلى حدّ الفائدة والاعتدال، جهد ضائع وسعي غير مفيد، وربما استشهدوا في هذا بما يزعمه بعض المتفلسفين من أن الأخلاق غير قابلة للتبدل.

ولعلّ أحدهم يقول لك، مؤكداً ضياع أي جهد يُبذل في سبيل التخلص من هذه الطباع أو الأخلاق البشرية، إن سائر علماء الفلسفة والأخلاق بدءاً بأقدمهم من أمثال أبيقور وزينون، إلى فلاسفة العصر الحديث من أمثال هوبز وكانت وستوارت ميل، بذلوا جهوداً كبيرة للتصعيد بالأخلاق الإنسانية وتهذيبها وتقويم المعوج منها، فلم يصلوا من جهودهم إلى أي نتيجة.

ونحن نقول لهم: حقاً إن جهودهم ضاعت سدى ولم تأت بأي نتيجة، ولكن لأنها لم تتجه إلى حيث العلاج الذي رسمه الله تعالى لهذا الأمر، لا لأنه يستعصي على المعالجة والإصلاح.

والعلاج الذي حدثنا الله عنه وأمرنا به، هو ما تضمنته الرسالات الإلهية التي جاءت تتوالى إلى الناس منذ فجر الحياة الإنسانية فوق هذه

الأرض، من التنبيه إلى فطرة العبودية لله والكامنة في نفوس الناس جميعاً، والأمر الصادر إليهم بوضع هذه العبودية لله، من حياتهم الاعتقادية والسلوكية موضع التنفيذ، مع التنبيه إلى ضرورة تغذية معاني هذه العبودية بغذاء الطاعات والعبادات المتنوعة التي شرعها الله عز وجل، فبذلك ينتقلون من معرفة أنفسهم إلى معرفة الله عز وجل وإلى اليقين بأنه المالك لهم وأنه المتصرف بهم، وأنه وحده النافع والضار، والمعطي والمانع، والمحيي والميت، وأن مردّهم إليه للحساب ثم الجزاء.

فما الذي تتصوره من آثار هذا اليقين إذ يهيمن على العقل، ثم يزداد رسوخاً بغذاء العبادات والأذكار والطاعات المستمرة؟.. في كل صلاة يلهج اللسان بالتوحيد، ويعلن عن وحدانية المعبود بالحق، ويعترف بضعف العابد وعجزه وحاجته إلى المعونة الدائمة، قائلاً:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥/١].

إن الأثر الذي لا بدّ أن يحققه هذا اليقين في نفس صاحبه، مع استمرار هذا الغذاء، هو أن تتنامى فيها مشاعر عبوديته ومملوكيته لله فتتحرر بذلك من أحقادها وأضغانها، وتتساقط منها حوافز الكبير والأنانية، وتصفو من كدورات الأهواء الجانحة، ذلك لأن يقين الإنسان بكونه عبداً مملوكاً لله عز وجل، خلقه الله ليمارس هذه العبودية له عملاً وسلوكاً مع بني جنسه، يتناقض بشكل حادّ مع هذه الأخلاق الذميمة التي من شأنها أن تسرب إلى النفس الإنسانية في غفلة عن التنبه لهويتها وعن معرفة ذاتها.. ومن ثم فإن الإنسان ما يكاد يصحو

إلى عبوديته لله عز وجل، ثم يعمد فيغذي هذا الصحو، بل هذه المعرفة، بوظائف العبادات، حتى ترتد هذه الصفات والكدورات عن نفسه شيئاً فشيئاً، لتعود إلى خط الاعتدال ولتقف عند حدود الفطرة الصالحة للإنسان. وتلك هي التزكية التي يتحدث عنها الفاطر الحكيم، ويأمر بها، في كثير من المناسبات، من مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤/٨٧-١٥]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩/٩١-١٠].

* * *

وفي قول ابن عطاء الله «لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً» إلماح إلى أن المسلم مهما أكثر من الطاعات وداوم على العبادات، لا تدنيه طاعاته وعباداته من حضرة الحق جل جلاله، إن بقي مثقلاً بتلك الصفات التي تتعارض مع عبوديته لله عز وجل.

وإنما يتمتع صاحب هذه الصفات المرذولة، من تلك الطاعات والعبادات بصورها ومظاهرها فقط، إذ لو امتدت لها جذور من الإخلاص لله عز وجل إلى القلب، لتحقق لها من تلك الجذور حرارة بل حرقة تقاوم تلك الصفات الذميمة حتى تذيبها وتقضي عليها.

فالصلاة التي يعبر بها المصلي عن عبوديته لله عز وجل، ثم يواظب عليها مندفعاً إليها ينسب عبوديته له عز وجل، لا بد أن تنمي مشاعر عبوديته هذه من خلال صلواته وركوعه وسجوده، وإذا اصطبح الكيان

بِخَتَائِقِ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، لَمْ يَبْقِ لِلشَّعُورِ بِالِاسْتِكْبَارِ فِي الْقَلْبِ مَكَانٌ.

كذلكم سائر الطاعات والعبادات على اختلافها وتنوعها، إن مارسها الإنسان بنية خالصة وقصد متجرد، لا بدّ إذن أن تقضي على هذه الصفات السيئة أو تقضي على شرّتها وتعيدها إلى حدود الفائدة والصلاح. وبذلك يكون العبد لربه مجيباً ومن حضرته قريباً.

وإن لم يمارسها الإنسان، أو أداها على غير وجهها، أو أداها مجتثّة من جذور الإخلاص لله عز وجل، فلسوف تكون عوناً على رسوخ تلك الصفات عنده، بدلاً من أن تكون أداة للتخلص منها، ومهما داوم على صور هذه الطاعات فلن يكون لنداء الله مجيباً ولن يكون من حضرته قريباً.

ثم إن هذه الحقيقة تؤكّد ما هو ثابت ومقرر، من أن الإسلام بأصوله الاعتقادية، وفروعه السلوكية من عبادات وتشريعات، إنما شرف الله به الإنسان، ليستعين به في التخلص من هذه الطباع والانعتاق من أسرها.. وبذلك يرقى الإنسان إلى سدة التكريم التي ارتضاها الله له.

فإن هو بقي مستسلماً لتلك الطباع، يركن إليها ويخضع لسلطانها، لم تنفعه مظاهر طاعته وقرباته الشكلية، ولا بدّ أن تهبط به تلك الطباع إلى شر من الدرك الذي تعيش فيه الوحوش والسباع، وهذا الفريق هو الذي عناه البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ١٥/١٥].

إذا تبين لك هذا، فاعجب معي ممن يعمن في تجميل ظاهره
 با(لديكورات) الإسلامية، بياناً وفصاحة في اللسان، وعبادات يروض
 لها الأعضاء، ومعارف يرددها عن تاريخ الإسلام وعظمة الإسلام،
 وغيره يحتاج بها، على حدوده أن تضيع، وسلطانه أن يتقلص، فإذا
 احترقت هذا الظاهر منه، رأيت إعجابه بنفسه، واستكباره على
 الآخرين، وتلهفه على المال وسعيه إلى جمعه بشتى السبل، وتنظر فإذا
 هو يجتر مشاعر الحسد والشحناء تجاه الآخرين، ولا يتردد في التعبير
 عنها كلما انعقد مجلس لغبية وسنحت بذلك الفرص.

والقلب السليم الذي دعا به خليل الرحمن لنفسه، يتناقض مع هذا
 كله مناقضة حادة. ألم يدع الله عز وجل، فيما حكى الله عنه، قائلاً:
 ﴿..وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى
 اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٧-٨٨].

اللهم طهر قلوبنا من كل وصف يبعدنا عن مشاهدتك ومحبتك،
 وأدم علينا عين عنايتك، واسترنا بسترك الجميل في الدنيا والآخرة.

* * *

الحكمة الخامسة والثلاثون

((أصل كل معصية وغفلة وشهوة، الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه. فأبي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه))

خلاصة ما ترمي إليه هذه الحكمة، أن السبيل إلى مرضاة الله يتمثل في اتهام السالك نفسه وعدم رضاه عنها، وأن السبيل إلى سخط الله يتمثل في إعجاب السالك بنفسه ورضاه عنها.

ولكن ما هي النفس؟ وما المراد بها في هذا المقام؟

تطلق النفس على أكثر من معنى في اللغة، تأتي بمعنى الروح، وذلك في مثل قولهم: فاضت نفسه، أي خرجت روحه، وتأتي بمعنى الدم، ومن ذلك قول الفقهاء: يعنى عن كل ما لا نفس له سائلة، أي ليس له دم يجري عند خروجه. وتأتي بمعنى ذات الشيء، من ذلك قول أحدهم: رأيت الملك نفسه.

إلا أن مراد ابن عطاء الله بالنفس هنا، الغريزة الحيوانية المركبة في كيان الإنسان، والتي تجمح به إلى الانقياد لما فيها من الأهواء والشهوات.

ويبدو أنه مصطلح ديني مأخوذ من مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣/١٢] إذ لم أجد من أثبت لها هذا المعنى، من علماء اللغة.

وعلى كل فإن المراد بالنفس، في هذه الحكمة، هذا المعنى حصراً، أي المعنى الجامع للشهوات وللأهواء الغريزية التي يشترك الإنسان فيها مع كثير من الحيوانات الأخرى^(١) وهي مصدر الطباع الذميمة التي مرّ الحديث عنها في الحكمة السابقة.

ونبدأ الآن فنسأل:

أولاً: من أين لابن عطاء الله أن أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس؟ ومن أين له نقيضها؟

ثانياً: ما السبب في أن يكون هذا هو أصل كل معصية.. إلخ.

ثالثاً: كيف السبيل إلى أن يكون المسلم غير راض عن نفسه، حتى لا يتورط في هذه المنزلاقات؟

ونقول في الجواب عن السؤال الأول: إن مصدر هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّبُ مِنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤٩/٤] والاستفهام هنا

(١) انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٤/٣.

استنكاريّ، أي ألا ترى إلى قباحة شأنهم، إذ يمدحون أنفسهم ويعبرون عن إعجابهم بها ورضاهم عنها!!..

وأصرح من هذا، في التعبير عن المعنى ذاته قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢/٥٣]، أي لا تحكموا لها بالصلاح والسمو عن الزغل والشوائب، ولا تمدحوها وتثنوا عليها بما قد تتوهمون.. فإن الله أعلم بما في نفوسكم منكم.

وتعبيراً عن هذا المعنى ذاته يقول رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(١) وهو المعنى الذي أكده رسول الله في حديث آخر إذ قال: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك...»^(٢)، وليس بين الرضا عن النفس والإعجاب بها أي فرق.

* * *

ثانياً: ما السبب في كون الرضا عن النفس أصل كل معصية؟

زيادةً في تحديد المعنى المراد بكلمة النفس هنا، وتوطئة بين يدي بيان السبب، نذكر بالفرق الذي ينبغي أن نتبينه بين السلوك، أي العمل الذي يصدر من الإنسان، والنفس الكامنة بين جوانح الإنسان.

فالسلوك هو النتيجة العملية لصراع الإنسان مع مشاعره ودوافعه النفسية: وقف بين اختيارين لا ثالث لهما، أحدهما يرضي الله عز وجل، ويخالف النفس والهوى، وثانيهما يرضي الرغبة النفسية ومشتهاياتها ويخالف أمر الله

(١) أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وحسنه.

ورضاه، وبعد تردد وصراع بين دواعي استجابته لله وحوافز رغباته ومشتهياته النفسية، آثر الانقياد لحكم الله عز وجل، فقام ينفذ أمره، أو ربما آثر العكس فقام ينفذ ما دعته إليه غرائزه الشهوانية. فهذا الانقياد العملي هو السلوك. وهو كما ترى نتيجة تطبيقية، للصراع الذي يظل دائراً بين الفطرة الإيمانية والغريزة الحيوانية في كيان الإنسان.

أما النفس فهي - كما قد عرفت - مجموعة الرغائب الشهوانية الغريزية التي تجمّح بالإنسان وتدفعه إلى الاستجابة العملية لها. فهي إذن وضع كامن في طوايا الكيان، وليس السلوك العملي إلا أثراً من آثار هيمنتها وجموحها.

إذا تبين لك الفرق، فلتعلم أنه لا حرج ولا مانع من أن ينال السلوك من صاحبه شعور الرضا أو شعور نقيضه، بل المطلوب من الإنسان أن يرضى عن العمل الصالح الذي وفقه الله له، وأن يكره العمل السيء الذي تورط فيه، وقادته النفس إليه.

وعندما يرضى المسلم عن عمل صالح يسّره الله له وهداه إليه، فهو لن يترجم لدى التحقيق إلا بشكر الله عز وجل على ذلك، ومن ثم فإنه أبعد ما يكون عن الإعجاب الذي نهى الله تعالى عنه، وأبعد ما يكون عن الرضا عن النفس. وإذا لم تتوافر لدى المسلم حوافز الرضا عن العمل الصالح الذي وُفقَّ إليه، فلن تتوافر لديه إذن حوافز الكراهية للعمل القبيح الذي قد يتورط فيه.. إذ يسقط بذلك، في تقديره، الفرق بينهما.

غير أن على من رأى أن الله يوفقه للأعمال الصالحة ويحببها إليه، أن لا ينسب الفضل في ذلك إلى نفسه، فيزعم أنها تسامت فوق شهواتها وأهوائها، وأصبحت مبرأة من النقائص والغرائز الحيوانية. بل عليه أن يعلم أن النفس ما تزال أماراة بالسوء، وأنه على خطر من وسوسها وحوافزها، وإنما تداركه الله فأقدره على مخالفتها والتحرر من سلطانها. وبذلك يستغرق في مشاعر قدسية وعلوية من شكر الله عز وجل.

ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَأَحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] ألا ترى كيف أن الحكم جاء بهذه الصفة القبيحة على عموم لأنفس دون استثناء ولا تخصيص؟ وعندما أتى على من تساموا بسلوكهم عن هذه الصفة، لم ينسب ذلك إلى نفوسهم، بل نسبه إلى وقاية الله لهم، مع بقاء نفوسهم على ماهي عليه، فقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩/٥٩].

أو لم تقف على قول الله عز وجل، في وصف بعض الصالحين من عباده، وثنائه على أعمالهم، إذ قال: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَى حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨/٧٦] ألا ترى إلى قوله «على حبه» كيف أوضحت أن نفوسهم ما تزال على حالها من الشراهية وحب المال والتكالب عليه، ولكنهم بتوفيق من الله عز وجل جاهدوا أنفسهم وتساموا على أهوائهم ورغائبها سعياً إلى مرضاة الله عز وجل.

أو لم تقف أيضاً على قول الله عز وجل: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤/٣﴾ [آل عمران: ١٤/٣].

فأين هو مكان هذه الزينة والحب لهذا كله في كياناتهم؟.. إن مكانه النفس التي كانت ولا تزال أمانة بالسوء.. ومؤدى هذا التقرير الرباني أن الناس.. كل الناس فطرت نفوسهم على حب هذه الشهوات التي شاء الله عز وجل أن يزينها لهم، للحكمة التي تم بيانها خلال شرح الحكمة السابقة. فمهما صعّد المسلم أو هبط في التزاماته السلوكية، فلسوف تظل نفسه التي بين جنبيه نزاعة إلى هذه المشتبهات وغيرها مما ذكره الله في أماكن أخرى من كتابه المبين، كالكبر والعجب، والانطواء على الضغائن والأحقاد.

لا يصحّ أن يقول أحدهم: ولكني بقيت دهرًا طويلاً أجاهد نفسي وأمعن في تربيتها وترويضها، حتى استطعت أن أسمو بها عما كانت عليه من التعلق بهذه المشتبهات والطبائع الذميمة، فهي اليوم لا ترغب إلا فيما يرضي الله، ولا تنفر إلا عما لا يرضي الله.

يجب أن يقال لصاحب هذه الدعوى: إن صح ما تقول فإن بشرّيتك قد غاضت بل غابت عنك، وتحوّلت إلى ملك من الملائكة الذين يجوبون في ملكوت الله عز وجل. وهذا ما يخالف الوصف الذي وصف الله به الإنسان، الإنسان أياً كان، كما أنه يخالف الآيات التي مرّ ذكرها الآن، وكلها تأكيد للرجاء الشهوانية الغريزية التي أثقل الله بها نفس الإنسان.

ويقال له: إن صح ما تقول، فأنت لم تعد مكلفاً من قبل الله بشيء، لأنك لن تشعر بأي كلفة فيما يأمرك به، إذ أصبحت نفسك سبقة بكامل رغبتها وسرورها إلى هذا الذي يأمرك الله به. ولا بد أن يصبح أمره عندئذ عبثاً وثوابك عليه باطلاً.. ولكن أمر الله عز وجل نافذ وسيظل نافذاً في حق عباده أجمعين، وثوابه جار ومهيأ لجميع المحسنين. ولا يكون ذلك إلا لأنهم جميعاً مكلفون، ولا يكونون مكلفين إلا عندما تكون التكاليف الإلهية مخالفة لرغبات نفوسهم متشاكسة مع تطلعاتها وأهوائها.

وإن جميع الربانيين من عباد الله الصالحين، وأوليائه المقربين، ظلوا في جهاد دائم مع أنفسهم حتى أتاهم اليقين الذي نقلهم إلى رحاب مولاهم الجليل. وإنما كان مصدر الأجر الذي وعدهم الله به وأدّخره لهم مخالفتهم الدائبة لأهواء نفوسهم وتطلعاتهم الشهوانية.

حتى الرسل والأنبياء الذين يجب أن تثبت لهم العصمة من سائر المعاصي والزلات، إنما تمثلت عصمتهم في سلوكهم (وقد أوضحت لك الفرق بينه وبين ما قد يستكن في طوايا النفس) وإنما تحققت مكائبتهم الرفيعة بسبب تحرر سلوكياتهم من سلطان نفوسهم البشرية. وإنما تحققت لهم هذا التحرر، بعناية من الله عز وجل أولاً، وبتغلب مشاعر حبهم وتعظيمهم لله على نوازع نفوسهم ثانياً. وربما غابت هذه النوازع في ضرام حبهم وتعظيمهم له، ولكنها موجودة وإن خفيت على كل حال.

إذن فالنفس البشرية تظل نزاعة إلى شهواتها وأهوائها، ما دامت الحياة باقية، مع تفاوت في ذلك من حيث الكمّ والنوع، ما بين الطفولة والشباب والكهولة والهرم.

فإذا كان الإنسان راضياً عن نفسه، فليس يعني رضاه عنها إلا انقياده لما تحبه وتدعوه إليه، ولا بدّ أن توردّه عندئذ المهالك. وأول هذه المهالك إعجابه بنفسه الأمانة بالسوء، وادعاؤه أنها مزكّاة عن النقائص، متسامية على الرذائل والقبائح من الطباع، وهو نقيض ما قد أمر الله به أو نهى عنه إذ قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢/٥٣].

فقد صدق إذن أن «أصل كل معصية وغفلة وشهوة، الرضا عن النفس» وهذا يستلزم العكس وهو أن «أصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها».

وقد عرّف الشيخ أحمد زروق رحمه الله، في شرحه لهذه الحكم، المعصية بأنها مخالفة أمر الله الواجب، والشهوة بأنها الاسترسال مع النفس في طلب الملمات، والغفلة بأنها إهمال الحقوق المندوبة والواجبة بالاسترسال مع دواعي الهوى.

وعرّف الطاعة بأنها موافقة أمر الله واجباً كان أو مندوباً، وعرّف العفة بأنها ترك الدناءة من كل شيء، واليقظة بالانتباه لأوامر الله عز وجل^(١).

(١) شرح الحكم للشيخ أحمد زروق ٩٩-١٠٠، بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف.

ثالثاً: كيف السبيل إلى أن يكون المسلم غير راض عن نفسه حتى لا يتورط في الانقياد لها؟

وأقول لك في الجواب: إن الله عز وجل قد وضع - وهو اللطيف الحكيم الرحيم - بين يديك الدواء، وليس عليك إلا أن تقبل عليه فتستعمله. وضعه بين يديك عندما قضى بأن تكون هابطاً عن مستوى العصمة، متورطاً بين الحين والآخر في الخطأ. وهو ما قد أخبر به رسول الله ﷺ في الحديث الذي يقول فيه: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(١).

وإنما يكون الإنسان خطاء، لأن الله ابتلاه بالضعف أمام جموحات نفسه، فهو كثير التأثير بها سريع الاستجابة لها. وصدق الله القائل: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨/٤] ومهما جاهد ذاته في التغلب عليها والتحرر من أسرها، فلا بد أن يبقى لها سلطان سارٍ عليه، يتجلى أثره بين الحين والآخر في انزلاقات يتورط فيها وأخطاء تبدر منه.

فإذا تأملت في هذه الحال التي أقامك الله عليها، وتنبهت إلى الأخطاء التي تزينها لك نفسك، وتدفعك إليها من حيث تعلم أو لاتعلم، فلسوف تكون شديد البغض لها والحذر منها. اللهم إلا إن كنت ممن يتبرم بشرائع الله وأحكامه، يعافها ولا يرى فيها إلا أعباء ثقيلة لا جدوى منها ولا خير فيها، فعندئذ لا بد أن يترجم تبرُّمك وسخطك هذا، بالرضا عن نفسك التي تدعوك إلى ما يروق لك من الآثام والانحرافات!.. وأسأل الله أن لا تهوي إلى هذا الدرك الذي يدفنك في ظلام الكفر والهلاك.

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم من حديث أنس رضي الله عنه.

وإذا تأملت، تبينت عظيم حكمة الله وواسع رحمته ولطفه، في هذا الذي قضى به، إذ جعل الإنسان ضعيفاً بين يدي جموحات نفسه. إنه لون دقيق وعجيب من التربية الربانية للعبد، تجعله دائم الحذر على ذاته من نفسه، وتبعده عن الإعجاب بها أو الركون إليها، وتسوقه - خائفاً قلقاً - إلى موقف الضراعة والتذلل بين يدي الله، يدعو أن يقيه شر نفسه وأن يحصّنه ضد عواصف شهواته وأهوائه.. فمنذا الذي يتلقى هذه التربية من مولاه الحكيم الرحيم، ثم يرضى عن نفسه ويعجب بها أو يركن إليها.

* * *

ثم إن ابن عطاء رحمه الله، يبني على هذه القاعدة التي أحسب أنه قد اتضح شرحها وتجلت لك حقيقتها، نتيجة هامة تتعلق بالعلم، وإنها لمن الأهمية بمكان:

ليس في العقلاء من يجهل قيمة العلم، وليس فينا من لم يقرأ في كتاب الله تعالى الآيات التي ينوه فيها بشرف العلم ويرفع فيها من شأنه، ويدعو دائماً إلى الاحتكام إليه.

ولكن فلتعلم أن العلم يظل وسيلة، ولا يرقى إلى أن يكون غاية في أي من الأحوال. فإذا صادف العلم إنساناً صافي الفطرة سليم الطوية سامي القصد، كان العلم مصباحه المنير والهادي له إلى الحق المطلق والدافع له إلى الانضباط به، والسير على سننه، ولا بدّ أن يصل من وراء ذلك إلى سعادتي دنياه وعقباه معاً.

أما إن صادف العلم شخصاً ملتوي الفطرة، فاسد الطوية، هابط التقصد، فلسوف يكون العلم تحت سلطانه لسان دعوة وتبرير لطويته نفاسدة ومقاصده السيئة، وكلما ازداد علماً ازداد بذلك قدرة على تدجّل والمكر والخداع وإيذاء الآخرين، وصدق من قال: «زيادة العلم في رجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد رباً ازداد مرارة».

ومنع الاستقامة والرشد في الإنسان أن يكون دائم الخوف على ذاته من نفسه، وأن يكون غير راض عنها. وعندئذ تكون علومه ومعارفه مصاييح هداية وارشده، ولكل من يصحبه، وحتى لو كان جاهلاً، فإنّ تخوفه من نفسه وحذره الدائم منها، يكون دليل خير ولسان موعظة وعبرة للآخرين.

ومنع الانحراف والضلال بأنواعه في الإنسان، أن يكون راضياً عن نفسه معجباً بها مبرراً لجموحاتها. وعندئذ لا بدّ أن تتحول معارفه وعلومه كلها مهما كثرت وتنوعت، إلى جنود خاضعة لسلطان نفسه، ولا بدّ أن تصبح ألسنة تبرير لأهوائها وانحرافاتهما.

فهذا هو معنى قول ابن عطاء الله: «ولأنّ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه. فأبي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه».

وانظر إلى هذه الآيات التالية من كلام الله عز وجل، في سورة الأعراف كيف تعبر عن هذا المعنى الذي يذكره ابن عطاء الله، بأبلغ بيان، مجسّداً بمثال إنسان لم ينفعه علمه الغزير الذي منحه الله إياه،

عندما انساق وراء نفسه، واستسلم لمشاعر غروره، بل تحول علمه إلى وبال عليه، انظر وتأمل في هذه الآيات:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الأعراف: ١٧٥/٧-١٧٦].

وسواء أكان الذي يعنيه بيان الله تعالى في هذا المثل الذي يضربه «بلعام بن باعوراء» على ما ذهب إليه جمهور المفسرين ومنهم الحافظ ابن كثير، أو غيره، فإن المعنى ينطبق على كل من أوتي علماً فصادف منه إنساناً أخلد إلى هواه واستسلم لغرائزه الشهوانية، لابد أن يتحول العلم في رأسه إلى سكرٍ يحيل إنسانيته إلى وحش ضار لا يتقن إلا فن الفتك بالآخرين.

وما أشد ما ينطبق ذلك على قادة المجتمعات الغربية اليوم، ألا ترى كيف أصبحت العلوم التي في رؤوسهم، أسلحة فتك ودمار مشرعة أو مشهورة في أيديهم، ألا ترى كيف يلهثون بطمع لا يعرف الاكتفاء ولا الشبع، وراء كل مكاسب الدنيا أينما لاحت وحيثما وجدت، ليدخلوها في ممتلكاتهم ويخضعوها تحت سلطانهم، وعلى الذين يقفون في طريق (مصالحهم) إليها أن يتعدوا عن طريقهم إلى مكان قصي أياً كان المصير أو الهلاك الذي ينتظرهم فيه.

ألا فليعلم الناس جميعاً أن النفس الإنسانية إن لم تتهذب فلسوف يكون أصحابها أخطّ من الوحوش في بغيرهم، ومضرب المثل في عسفهم وجورهم، ولن يهذب النفس الإنسانية شيء إلا رقابة الله عز وجل، ولاتأتي هذه الرقابة إلا من سيطرة الإيمان الحقيقي بالله على قلب بعد العقل.

فإذا استيقظت مشاعر الرقابة الإلهية في القلب، عاش صاحبها حياته كنها، عدواً لنفسه، خائفاً منها، متهماً إياها، إلى أن يرحل من دنياه مكلوءاً بالخاتمة الحسنة التي هي مطمح أبصار السالكين بل العارفين والمقربين. وعندئذ فقط يتحقق معنى النفس المطمئنة، وينطبق عليها قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾ [الفجر: ٢٧/٩-٣٠].

* * *

الحكمة السادسة والثلاثون

((شعاع البصيرة يشهدك قربك منه، وعين
البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق
البصيرة يشهدك وجوده، لاعدمك ولا وجودك))

هذه الحكمة تتضمن بيان ثلاث رتب، يتدرج في طريقها المؤمن إذ يسعى للوصول إلى درجة الإحسان التي نوّه بأهميتها، وأهمية الجهاد للوصول إليها، رسول الله ﷺ.

عبر ابن عطاء الله عن أول هذه الرتب وأدناها، بكلمة «شعاع البصيرة»، وعبر عن الرتبة الثانية التي تليها، بكلمة «عين البصيرة» وعبر عن الرتبة الثالثة والأخيرة بكلمة «حق البصيرة».

وقد نوّه بيان الله عز وجل في كتابه المبين، بهذه الرتب الثلاث، ومزية كل منها، وتفاوتها من حيث درجة القرب من الله عز وجل، كما سيتبين لك فيما بعد.

ولنشرح كل رتبة من هذه الرتب الثلاث على حدة، مع بيان أثر كل منها في حياة صاحبها، مستدلين على ذلك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وسيرة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم.

الرتبة الأولى، هي تلك التي يعتمد فيها الإنسان على «شعاع البصيرة»، فما البصيرة؟ وما شعاعها؟..

المراد بالبصيرة العقل والإدراك، يقال: فلان يتمتع ببصيرة ثاقبة أي بإدراك أو ذكاء حاد.

وشعاع البصيرة، أي العقل، نوره. ومن المعلوم أن نور العقل يتزايد ويقوى بواسطة العلم وقواعده. بل إن بينهما تفاعلاً دائماً، فالعقل يقوى بواسطة العلم، والعلم أيضاً يتنامى ويزداد بواسطة العقل، وكل منهما سند دائم للآخر.

فالمرتبة الأولى التي يتبوؤها السائرون في هذه الحياة إلى معرفة الحقيقة الكونية وكشف أسرارها، هي مرتبة اليقين بوجود الله ومعرفة صفاته، تحت أشعة العقل الهادي إلى العلم والعلم الدال على العقل.

هذه المرتبة تشكل الجامع المشترك لكل المؤمنين بالله عز وجل على اختلاف فئاتهم وتفاوت درجاتهم، إذ لا بدّ للناس جميعاً أياً كانوا إذا أرادوا التعرف على الله والقرب منه، أن يسلكوا الطريق إليه من خلال باب واحد لا ثاني له هو تحكيم العقل الهادي إلى العلم. وهذا هو السبب في أن الله عز وجل يحاكم الناس جميعاً (إذ يدعوهم إلى معرفته وإلى الإيمان به) إلى العقل والعلم، ويأمرهم أن يتخذوا منهما الأساس أو المنطلق إلى كل شيء. فهو يقول مثلاً منوهاً بأهميتهما معاً:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:

ويقول محذراً من اتباع ما لادليل عليه من العلم الذي هو شعاع العقل، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦/١٧].

ويقول، مستنهضاً الناس إلى إعمال العقل في كل ما يُدعون إليه، وفي كل ما يلوح أمامهم من المشاهد الكونية المتنوعة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤/٢].

ويقول مهتداً أولئك الذين يطوون عقولهم عن النظر والتفكير والوصول بها إلى النتائج السليمة:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩/٧].

ما هي المرتبة التي ينالها، أولئك الذين يعتمدون في سيرهم إلى الله على «شعاع البصيرة» على حدّ تعبير ابن عطاء الله، أي على الدلائل العلمية المنبثقة من بصيرة العقل؟

تتلخص هذه المرتبة، في اليقين بوجود الله إلهاً مبدعاً خالقاً لهذا الكون، قائماً بأمره، مهيمناً على شؤونه. يلي هذا اليقين التعرف على

صفاته، وأولها وأهمها صفة الوجدانية. فإذا استقر لديه هذا اليقين، واصطبغ فكره وشعوره بصفاته عز وجل، أدرك عندئذ قربه الدائم من الله عز وجل، أينما حلّ وحيثما ارتحل، إذ قد علم من خلال ما عرفه ووعاه من صفات الله عز وجل أنه لا يحده مكان ولا يحصره زمان، إذ هو ربّ الزمان والمكان، ومنشئ كل منهما، وعاش مع قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦/٥٠] وأدرك معنى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾^(١) [الحديد: ٤/٥٧].

ومن أولى وأهم ثمرات هذه الرتبة الأولى، تنامي مراقبة العبد للرب جلّ جلاله. أي إن يقينه بقربه الدائم من الله عز وجل، يجعله يصطحب شعوراً يساوره على الدوام بأن الله يراه.. يراه في سائر تقلباته وأطواره، بل يراه في خواطره وأفكاره التي تطوف برأسه، ولا بدّ أن يحمله شعوره بهذه الرقابة الإلهية على الابتعاد عما نهى الله عنه وتنفيذ كل ما قد أمر به جهد استطاعته، فإذا جمحت به الغريزة وتغلّبت عليه فانحرف إلى محرم أو قصر في واجب، طاف به من ذلك طائف من الخجل والخوف والندم، يدفعه إلى أن يترامى، بذل وانكسار، على أعتاب رحمته وكرمه، يلحف بالدعاء والرجاء أن يغفر ذنبه وأن يستر عيبه، وأن يرحم ضعفه الذي جرّه إلى ما قد تورّط فيه.

وما أكثر ما أراحت هذه الرقابة الإلهية، إذ تعمل عملها في كيان الإنسان نتيجةً لإيمانه هذا، الحكام في قصورهم، والقضاة في محاكمهم،

(١) سبق أن فصلت القول في معنى قرب الله من العبد في هذه الآية وأمثالها، في الجزء الأول من هذا الكتاب، انظر الصفحة ٢٤٤ وما بعدها.

والشرطة في دوائرهم. وعصر أصحاب رسول الله ﷺ، ثم عصور السلف الصالح من بعده، خير شاهد على هذه الحقيقة. ولعلنا جميعاً لانزال نذكر ما حفظناه من دروس التربية الدينية والأخلاقية التي كنا نتلقاها بجد واهتمام، في المرحلة الابتدائية، من أن الهرمزان لما قدم المدينة يسأل عن القصر الذي يقيم فيه أمير المؤمنين عمر، دلوه على أرض عراء كان يتمدد فيها، متوسداً نعله، بعد جهد طويل بذله إذ كان يهنأ! إبل الصدقة «يطليها بالقطران» فوقف ذاهلاً متعجباً، ثم أفاق من ذهوله قائلاً: «عدلت فأمنت فنمت ياعمر»^(١).

ولم يكن عدل عمر متمثلاً في فنّ اخترعه أو فلسفة اجتماعية ابتدعها، ولكن عدله كان ظلاً لما يثمره الإسلام في نفس صاحبه المسلم، إذ يوقظه إلى مراقبة الله عز وجل، فترتكز من ذلك محكمة ربانية تستقر جاثمة في طوايا قلبه.

والإسلام الذي أقام هذه المحكمة في نفوس المسلمين بالأمس، لا يزال يقيم هذه المحكمة ذاتها في نفوس المسلمين الصادقين اليوم.. دعك من المسلمين التقليديين الذين يمتطون سهوة الإسلام بحثاً عن مصالح ومغانم شخصية لهم، ولكن قف معي أمام المسلمين الذين صدقوا مع الله في إسلامهم، ثم غدوا إيمانهم العقلي بهذا الذي سماه ابن عطاء الله «شعاع البصيرة» تجد عجيب تفاعلهم مع رقابة الله لهم في خلواتهم وجلواتهم وخطراتهم؛ كم وكم تلوح أمامهم فرص نادرة

(١) كم وكم تشبعنا في مدارسنا الابتدائية آنذاك بما تفعله التربية الإسلامية في النفوس، وكم خدمت كتب «القراءة» هذه الحقيقة في تعليمنا وكم حفرت معاني رائعة في نفوسنا.. سقى الله تلك الأيام، وأعاد إلينا مشرقها على أحسن حال.

لكسب غير مشروع، فيشيحون بوجوههم عنها، ويترفعون فوقها، تحسباً لرقابة الله لهم. وكم فيهم من عادت به رقابة الله إلى أيام شروده عن حماه وابتعاده عن صراطه، فأخذ ينقب عما تسرب إلى جيبه آنذاك من المال الحرام، يلتقطه ويعود به إلى أصحابه، أو يضعه في مصالح المسلمين إن لم يعرفهم أو لم يتمكن من إعادته إليهم.

والعجيب أنك قد ترى الرجل يلحد في ذات الله وآياته، ولا يقيم وزناً للدين ولا لأهله، فإذا احتاج إلى من يرعى له مصلحة مالية، أو يمسك له دفاتر حسابية، أو يأتمنه على صفقة تجارية، بحث للنهوض بهذه المهمة عن أكثر الناس تديناً والتزاماً بأوامر الشرع وأحكامه، ووضع ثقته فيه من دون الناس كلهم. فما سرّ هذه المفارقة؟! وكيف يستقيم أن يستخف العاقل بالدين وأهله، ثم لا يثق إلا بالمتدين الصادق ولا يطمئن إلا إليه!..

فهذه هي الرتبة الأولى، على صعيد معرفة الله والإيمان به والالتزام بأمره. إنها رتبة الاعتماد على العقل مشفوعاً بما يشع به من نور الحقائق العلمية.

* * *

أما الرتبة الثانية، فهي التي عبر عنها ابن عطاء الله بقوله: «وعين نبصيرة يشهدك عدمك لوجوده». وإليك خلاصة ما يعنيه بهذا نكلام:

الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته، بالأدلة العلمية، مرحلة لا بدّ منها، كما قد سبق بيانه في شرح بعض الحكم السابقة.

فإذا أخذ صاحب هذه الاستدلالات نفسه، بعد ذلك، بورد دائم من الأذكار الماثورة، وألزم نفسه بزيادة دائمة من العبادات والنوافل يثابر عليها ويستزيد منها، وفطم فمه عن تناول المال الحرام، وبذل ما يملك من جهد للابتعاد عن المعاصي على اختلافها، تشربت نفسه حقائق الإسلام وعقائده، وغدا الإيمان بالله وصفاته جزءاً لا يتجزأ من كيانه، وبقينا مهيمناً على قلبه ووجدانه.

وإذا استقرّ به الأمر عند هذه الحال، لم يعد بحاجة إلى مقدمات منطقية يصوغها، ولا إلى أدلة يعتمد عليها، إذ كان دور الأدلة والمقدمات المنطقية متمثلاً في ردّ غائلة الشكوك وإبعاد الشبهات. ولكنه اليوم، وقد ثابر على التزود بما قد ذكرت، تحرر من كل تلك الشكوك والشبهات، إذ غدا إيمانه بالله وصفاته روحاً ثانية تسري داخل روحه، فقيم يبحث عن عصبي الدلائل والبراهين ليعتمد عليها، وقد عوفي من العرج وعادت قدماه تحملانه بكامل ما قد أودع فيها من قوة؟! (١) ..

إذن، فالفرق بين هذه الرتبة والتي قبلها، أن الأولى تتمثل في اليقين العلمي، أما هذه فتتمثل في الشهود العملي.

أما المزية التي ينالها صاحب هذه الرتبة، فهي أن الوجود الذاتي للمكونات، يتلاشى أمام ناظره، إذ إنه تجاوز المرحلة التي كان الوجود الذاتي للمكونات، مع الله عز وجل، مظهراً لثنائية الدليل مع

(١) ذكرت تفصيلاً لهذا الكلام يغني عن إعادته في شرح الحكمة الرابعة عشرة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

المدلول، أمام بصيرته.. إنه اليوم لم يعد يرى في المكونات شيئاً ذا وجود مستقل حتى يرى فيه الدليل المستقل عن المدلول، ومن ثم يرى فيه البرهان الدال عليه. إنه الآن، وفي ظل هذه الرتبة، أصبح كلما نظر إليها، لم يجد فيها إلا صفات الخالق عز وجل.. إن نظر في النجوم والأفلاك المتلألئة في السماء، أو تأمل في البحار والأمواج التي تهدر بها المحيطات، أو نظر في الرياحين والزهور والنباتات والثمار، أو أتبع بصره حياة الوحوش والحيوانات العجماوات في الأدغال، لم يجد في شيء من كل ما يراه إلا صفات الله عز وجل. فهو يرى بعينه المخلوق، ولا تريه بصيرته من ذلك إلا الخالق.. وهذه هي الرتبة التي يتبوؤها أصحاب وحدة الشهود، وقد سبق التعريف بها مفصلاً في شرح الحكمة الرابعة عشرة.

والمهم أن تعلم أن المؤمن يتجاوز في هذه المرحلة الحاجة إلى وساطة الأدلة، إذ لا يجد بعين بصيرته أمامه إلا المدلول وهو الله عز وجل أما المكونات التي كان يرى فيها مظهر البرهان والدليل، فهي الآن في حكم بصيرته معدومة.

وليس المراد هنا بالعدم، العدم الذاتي، وإنما المراد به عدم الفاعلية والجدوى، ذلك لأن المخلوقات لا تكون مخلوقات إلا وهي موجودة، ولكنها مجرد أشباح لا حراك بها ولا فاعلية لها ولا قوة فيها.

وهذه عقيدة كل مؤمن سار في معتقده على هدي القرآن والسنة. ولكن المؤمن إذ يكون في الرتبة الأولى التي مرّ بيانها، يخزن هذا

الاعتقاد في عقله، وينسأه عند الخوض في معترك الدنيا والتعامل مع المكوّنات. أما في هذه المرحلة الثانية، فإن عقيدته هذه تظل مهيمنة على وجدانه ومشاعره في أحواله وتقلباته كلها. ومن ثم يظل في كل أحواله وأوضاعه وتقلباته الدنيوية والمعيشية، أمام مشهود واحد هو الله عز وجل. وبعبارة أخرى: إنه مهما تقلب في أموره الدنيوية والمعاشية لا يتعامل إلا مع الله ولا يرى أمامه إلا فاعلية الله وسلطانه. وربما هيمنت عليه هذه الحال فزجته فيما يسمونه «الفناء» أي الفناء حتى عن ذاته، أي زجته في حالة من عدم الشعور بها وبالآخرين.. وهذه الحال إذ تهيمن على صاحبها، إنما تكون مظهراً من مظاهر الضعف التي ينبغي أن يتجاوزها السالك إلى الله عز وجل.. وعندئذ يرقى إلى المرتبة الثالثة التي سنتحدث عنها بعد قليل، والتي يسمونها «البقاء».

ومصدر هذه الرتبة بشرطها في السنة النبوية حديث رسول الله الذي رواه مسلم بسنده من حديث عمر بن الخطاب إذ تحدث عن الإحسان، وعرفه بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ذلك لأن هذا الإحسان أثر من آثار وحدة الشهود التي نحن بصدد بيانها وشرحها. فإن الحجاب الذي يحول دون بلوغ المسلم رتبة: «أن تعبد الله كأنك تراه» رؤيته للمكونات موجودات ذات أهمية وفاعلية. إنه، والحالة هذه، مهما وقف متبتلاً في المظهر بين يدي الله، ومهما حاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥/١] لا بد أن يشرد به الفكر والخيال إلى هذا الذي يقوم أمام ناظره من الحجب الكونية

الكثيفة، المتمثلة في الدار والأهل والتجارة والمال.. ونحو ذلك. ومن ثم فلن يستطيع أن يعبد الله مشدوداً ببصيرته وفكره ومشاعره إليه، كأنه يراه.

ولكن إذا أخذ العبد نفسه بما قد ذكرته من الوظائف التربوية والسلوكية، واستقام على ذلك مدة من الزمن، استيقظت بصيرته لصاحب الوجود الحق الذي لا ثاني له، وغابت فاعلية الموجودات الوهمية أو الظلية كما يقول علماء هذا الشأن، عن بصيرته، واضمحلّت كثافتها، وارتفع معنى الحجاب عنها، إذ تغدو عندئذ أمام ناظره مجرد مظهر لصفات الله عز وجل. فإذا وقف يناجي الله في عباداته، مخاطبه متجهاً إليه بكل مشاعره وكيانه، كأنه يراه. وربما أوقعه الضعف تحت سلطان هذه الحالة في الفناء عن الذات، كما قلت، إلا أنه أمر عارض، يمرّ ويزول، ولسوف يستقر به الحال عند الوضع الذي كان عليه رسول الله، غياباً عن الأغيار مع الشعور بالوجود الظلي لها.

فإن قلت: فهل كانت حياة رسول الله العملية في أصحابه، خاضعة أو متأثرة بوحدة الشهود هذه بقطع النظر عن حالتها الفناء والبقاء؟ ألم يكن يتعامل مع الدنيا ويتقلب في غمارها، كأبي واحد من عامة الناس؟ أقول لك في الجواب:

إن المهمة التشريعية التي كلف الله رسوله بالقيام بها، والتي شاء الله أن يجعل من رسوله نموذجاً لأصول التعامل الإسلامي السليم والدقيق، مع الكون والحياة، اقتضت أن يكون في علاقاته بالدنيا

وأسبابها، وسيلة إيضاح للنهج الإسلامي السليم الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون في حياتهم المعيشية.. وهذا لا يتم إلا بإقباله إلى أمور المعاش وأسبابها طبقاً للنهج الذي ترسمه شريعة الله عز وجل، وحسب ما هو داخل في طوق عامة المسلمين؛ وبوسعك أن تعلم أن رسول الله ﷺ، كان يتقلب في غمار الدنيا وشؤونها في ظاهر أمره، تنفيذاً لهذه الوظيفة. أما سريرته الداخلية، فكانت مع الله عز وجل في كل التقلبات والأحوال.

وآية ذلك مواقفه وأوضاعه الشخصية إذ كان ينفرد بها مع ذاته عن الناس، خارج نطاق تعليمهم وإرشادهم، فلو تأملت في مواقفه تلك، لرأيتته ساجداً في بحر لا ساحل له من شهود الله عز وجل، لا يعكر عليه شهوده ذاك أي من المظاهر والصور الدنيوية التي تحيط به، مع إيمانه بوجود شكليّ لها.

تأمل فيما يرويه البخاري من حديث عبد الله بن المغفل، من وصف حال رسول الله ﷺ، إذ كان على مشارف مكة متجهاً إليها يوم الفتح، كان مستغرقاً في حالة من شهود الله عز وجل، يقرأ سورة الفتح يرجع في تلاوتها، دون أن تجد نشوة النصر والظفر العظيمين إلى نفسه أو مشاعره من سبيل. ويزيد في تصوير هذه الحقيقة ما رواه ابن إسحاق من حديث أنس من أنه ﷺ لما وصل إلى ذي طوى، كان قد طأطأ رأسه تواضعاً لله واستغراقاً في شكره وشهود إنعامه وفضله، حتى إنّ عثونه ليكاد يمسّ واسطة رحله.. لقد كان مندجماً بكل مشاعره في حالة من العبودية لله عز وجل، ذاهلاً بل غائباً عن كل

ما يبدو حوله من مظاهر النصر النادر الفريد، وصغار الشرك وصناديد
مُشركين من حوله وبين يديه... كان مستغرقاً في حالة فاض الزمان
كله فيها. بمعنى العبودية التامة لله وحده.

فهل تتألق وحدة الشهود التي تترجم معنى الإحسان في كيان
مسلم، بأبهى وأجلّ من هذا المشهد؟!.

ثم تأمل في سيرة رسول الله إذ كان يختلي مع نفسه، بعيداً عن
لمعالجات والعلاقات الاجتماعية، في ليل أو نهار، تجده مستغرقاً في
هذه الحالة ذاتها من الشهود والانصراف بكليته إلى الله عز وجل.

أما الصحابة، فيجمعهم جامع مشترك يتمثل فيما اتفق عليه أهل
نسنة والجماعة، من اتصافهم بالعدالة، ونزاهتهم عن الفسق
وموجباته.. ولكنهم يتفاوتون بعد ذلك في هذه الرتب التي يتحدث
عنها ابن عطاء الله. لن تجد فيهم من تدانت درجته الإيمانية عن الرتبة
الأولى التي تم بيانها وشرحها، ثم فيهم الكثير ممن ارتقى إلى رتبة
إحسان هذه، رأوا الله بعين البصيرة، دون احتياج إلى أي سند من
أشعتها أي من البراهين والمقدمات العلمية، التي نحاور ونناقش
الملاحدة اليوم بها.. ولعل هذا هو الشأن بالنسبة لأكثرهم.. وفيهم من
تبوؤوا الرتبة الثالثة التالية التي سنتحدث عنها الآن.

* * *

الرتبة الثالثة هي التي يعبر عنها ابن عطاء الله بقوله: «وحق البصيرة
يشهدك وجوده، لا عدملك ولا وجودك».

ينبغي أن تعلم أن هذه هي الرتبة الثانية ذاتها، مع ملاحظة أن يعود صاحبها من الفناء إلى البقاء.. أي أن يعود من حالة الغيوبة عن ذاته، وعن المكونات التي من حوله، إلى ملاحظة الوضع الواقعي، الذي يتركز مجمله على وجود الله سبحانه وتعالى، قيوماً على كل شيء، إليه وحده الخلق والأمر، تقوم السماوات والأرض بأمره، يمسكهما وما بينهما بحكيم تدبيره أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما أحد من بعده. مولياً هذه الحقيقة الكونية إدراكه وفكره كله، غير ملتفت إلى شيء من الظلال والآثار لاجحكم وجود عليها ولا بحكم عدم... فإن التفت إليها أو تعامل معها فبأمر من الله يلتفت إليها وتنفيذاً لشرعه يتعامل معها.

وهي الرتبة التي إذا تبوأها الإنسان أصبح رباني المشاعر والنزعة والسلوك. يتعامل مع الدنيا خادماً لديانها، ويعبّد منها طريقاً يمشي فوقه إلى مرضاة مولاه وخالقه، فكل شيء فيما يراه بعينه وفيما يدركه بعقله من الله مبدؤه وإليه منتهاه، وفي سبيله التعامل معه والإقبال عليه.

وهي الرتبة التي كان الرسل والأنبياء أول المتبئين لها والمصطبغين بها، يليهم الصديقون والربانيون، الذي كان يفيض بهم عصر السلف الصالح، ثم امتدت منهم قلة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أولئك هم الذين قال الله عنهم: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٥٦-١٣-١٤].

فهؤلاء، لا يتجهون في تعاملهم، إلا إلى الوجود الحق الذي هو وجود الله عز وجل، إذ كل ما عداه فهو بالله، ويستحيل أن يكون له

وجود مع الله. وهؤلاء معافون من حالة «الفناء» التي قد تضطرهم إلى قول «ما في الجبة إلا الله» أو ما يشبهها. لأن استغراقهم في شهود الذات الإلهية لم يغيبهم عن المكونات، ولم يبق في نفوسهم أي قيمة أو فاعلية لها. فهم موقنون بوجودها، ولكنهم غائبون عنها.

ومن وعى معنى قول الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤/٧]. أدرك أن كل ما قلته عن هذه الرتبة الثالثة مندرج في هذه الجملة القرآنية الجامعة: له الخلق. والمخلوق موجود.. وله الأمر، والمأمور مغيب في حكم الأمر وتدييره.

اللهم بصّرنا بحقائق كتابك، وأرنا مظاهر خدمتها لشرعك، وحققنا اللهم بذلك يقيناً وسلوكاً، ولا تجعل قصارى نصيبنا من ذلك نصاعة القول وبراعة البيان.

* * *

الحكمة السابعة والثلاثون

((كان الله ولاشيء معه. وهو الآن على ما عليه كان))

أما الفقرة الأولى من هذه الحكمة، فحديث ذكره رسول الله، وهو موجود في الصحاح. وقد أورد البخاري في ذلك ثلاث روايات: إحداها جاءت بلفظ «كان الله ولم يكن شيء غيره» والثانية بلفظ «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء» والثالثة بلفظ «كان الله ولم يكن شيء قبله» ومن الواضح أن المعنى الذي تدلّ عليه الرواية الثالثة هذه من مستلزمات المعنى الذي تقرره الروايتان الأولى والثانية. فإنا إذا علمنا أن الله كان ولم يكن شيء غيره، علمنا من باب أولى أنه لم يكن قبله شيء. إذ الشيء الذي لا وجود له مع الله، ليس له وجود قبله من باب أولى. إذن فهذه الروايات الثلاث متألّفة متوافقة، ولعله ﷺ أكد هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى، بهذه الصياغات الثلاث ذكرها في مناسبات عدّة.

ثم إن هذه الحقيقة نصت عليها بعبارة كلية جامعة الجملة القرآنية من كلام الله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٣/١٦] [الزمر:

وقد أفاض علماء العقيدة في بيان الأدلة العلمية، العقلية والنقلية، على أن كل ما عدا الله عز وجل مخلوق وحادث. وأن القدم صفة ذاتية خاصة بالله عز وجل. وقد أطالوا في بيان أسخف ما توهمه الفلاسفة القدامى، من أن جزئيات الموجودات هي التي تتصف بالمخلوقية والحادث. أما كلياتها، أي الأنواع التي تفرعت تلك الجزئيات منها، فهي قديمة قدم الله عز وجل، أي إنها كانت ولا تزال موجودة معه منذ الأزل الذي لا أول له.

وحسبي أن ألفت نظرك إلى البرهان الذي ما ينبغي أن يغيب عن إدراك عاقل، من أن العجز الذي تعاني منه جزئيات الموجودات، والذي يوجهها إلى موجد ينقلها من ظلمات العدم إلى ساحة الوجود، هو ذاته العجز الذي تعاني منه كليات تلك الأجزاء، بل إن العجز لم يسر إلى الجزئيات إلا من كلياتها.. ثم إن الشادين من طلاب الفلسفة والمنطق، يعلمون أن الكلي لا يتقوم إلا بجزئياته. أي فحيثما وجد الكلي لا بد أن تكون جزئياته ماثلة في قوامه. فإذا صحت دعوى القدم النوعي، أي الكلي، للأشياء، إذن لا بد أن تتبعها بالضرورة دعوى قدم الجزئيات بل الأجزاء أيضاً، التي لا يستقيم وجود ما هو كلي إلا بها^(١).

إذن، فالفقرة الأولى من هذه الحكمة، ترسيخ وتأكيدها لحقيقة من أهم حقائق العقائد الإسلامية، ولسنا الآن بصدد ذكر أدلتها العلمية التي تتمثل في بطلان تسلسل العلل غير الذاتية إلى ما لانهاية، وفي

(١) والعجب أن ابن تيمية رحمه الله تورط في هذا اللغو الباطل عقلاً والمنكر نصاً وشرعاً. انظر كتابه (نقد مراتب الإجماع) على هامش مراتب الإجماع لابن حزم، وانظر كتابي (السلفية) ص ١٦٤.

بطلان الدور، وفي بطلان القول بترجيح الشيء على غيره بدون مرجح. وإن كنت حريصاً على الرجوع إلى تفاصيل هذه البراهين، فارجع إلى بحث «سرمدية العالم ووحدته» من كتابي (نقض أوهام المادية الجدلية)، أو إلى الصفحات من ٧٨ إلى ٩٦ من كتابي (كبرى اليقينيّات الكونية).

* * *

أما الفقرة الثانية التي جاءت الأولى تمهيداً وتأسيساً لها، فهي قوله رحمه الله «وهو الآن على ما عليه كان».

أي كما أن الله عز وجل لم يكن معه شيء في ظلمات الماضي القديم، قبل أن توجد المكونات، فهو الآن أيضاً ليس معه شيء. لم يختلف الزمن الحاضر عن الأزلي والماضي السحيق في هذه الحقيقة قط، بل لن يختلف الماضي والحاضر في ذلك عن المستقبل الآتي أيضاً.

وأصحاب الاستعراضات السطحية العاجلة لما يقرؤون أو يسمعون، لا بدّ أن يستنكروا هذا الكلام، وأن يعدّوه تحدياً باطلاً للمشاهدات المحسوسة. فهاهي ذي السماوات والأرض والأفلاك والحيوانات موجودة أيضاً مع وجود الله عز وجل.

ولكي تتجلى الحقيقة الكامنة وراء هذه النظرة السطحية العجلى، يجب أن نتساءل: أتشترك المخلوقات التي نراها مع الله عز وجل في صفة الوجود؟ لا تستطيع أن تقول في الجواب: نعم، إنها تشترك معه في صفة الوجود، إلا إن استطعت أن تقول عن الطفل الصغير الذي يوقفه

والده على قدميه بيديه إذ يمسكه بهما: إنه يشترك مع والده في صفة الوقوف على القدمين.

إن من الأمور البديهية أن الطفل في هذه الحال إنما يقف على قدميه بإيقاف والده له، فهو ما دام يمسكه بيده، يشدّه إلى الأعلى، يظهر بمظهر الواقف كأبيه، فإذا تركه حرّاً واقعاً على الأرض، إذن فوقوفه متحقق بأبيه، لا مع أبيه. وكم بين العبارتين من الفرق الشاسع الكبير.

فكذلكم المخلوق بالنسبة للخالق، إن الله هو الذي أمده بصفة الوجود ابتداءً، وهو الذي يتمتع بهذه الصفة دواماً، أي إن استمرار وجود المخلوق أيّاً كان، باستمرار إمداد الله له بالوجود لحظة فلحظة، فلو تخلّى الله عنه فلسوف يتحول في اللحظة ذاتها إلى هلاك وعدم.. فكيف يكون المخلوق شريكاً مع خالقه في صفة لا يملك أن يستبقها عنده لحظة واحدة؟

ومن هنا قال رسول الله ﷺ: أصدق ما قاله لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أي كل شيء ما خلا الله في حكم المعدوم، وليس بينه وبين أن يتبين لك هلاكه وبطلانه، سوى أن يتخلّى الله عنه، أي سوى أن ينتهي الإمساك الذي عبر عنه بيان الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٣٥/٤١].

ولكن فما المعنى السلوكي أو التربوي الذي يذكر به ويدفع إليه ابن عطاء الله، من وراء بيان هذه الحقيقة؟

المعنى التربوي الذي ترسخه هذه الحقيقة في نفس المؤمن، هو حصر الربوبية، ومن ثم الألوهية، في ذات الله وحده، فلا يرجو الخير إلا منه، ولا يخاف الضر إلا منه، وإذن فلا يتكل إلا عليه، ولا يتخذ لنفسه ولياً من دونه. له وحده كل حبه، ومنه فقط كل رجائه.

ومن شأن هذا المعنى التربوي، أن لا يشغله شيء من المكونات التي يراها حوله عن الله عز وجل، ولا يحجبه عنه، بل الشأن فيها أن تذكره بالله عز وجل إن نسيه، وأن يعيش منها مع صفاته ومظاهر آلائه كلما رآها أو تعامل معها.

ولا يتحقق العبد بتوحيد الله عز وجل، إلا إن أدرك الحقيقة التي يقولها ابن عطاء الله بيقينه العقلي، وهي أنه ليس مع الله أي موجود لا اليوم ولا من قبل ولا من بعد، ثم اصطبغ وجدانه بهذا المعنى التربوي.

وملاك هذا الأمر أن تكون على بينة من الفرق بين الوجود مع الله وهو باطل ومستحيل، وبين الوجود بالله وهو ثابت وحق.

* * *

الحكمة الثامنة والثلاثون

((لاتعدنية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال))

هذه الحكمة تأتي بعد الحكمة السابقة، كالنتيجة بعد المقدمة.

إذ قد عرفنا لدى تأملنا في الحكمة السابقة ودراستنا لها، أن صاحب الوجود الحق، أي واجب الوجود، واحد لا ثاني له هو الله عز وجل. فهو الذي وجوده من ذاته وليس فيضاً من غيره، ومن ثم فهو صاحب الوجود الأزلي الذي لا أول له. ثم عرفنا أنه كان ولا يزال المتفرد بالوجود الحق أي الوجود الذاتي الواجب، فمهما رأيت اليوم مكونات من حولك ومن فوقك، فليس لها أي وجود ذاتي مع الله، وإنما هي موجودة لحظة فلحظة بالله أي بمدد سار إليها من الله.

وإذ قد عرفنا ذلك، فلا بد إذن أن نعرف بأن سائر المخلوقات التي حولنا، لا تملك بحد ذاتها حولاً ولا قوة، ولا نفعاً ولا ضرراً. وكيف تملك ذلك أو شيئاً منه، وهي لا تملك وجودها الذي هو مصدر كل المزايا والقدرات. فالناس أياً كانوا بقدره الله يتحركون، وبسلطانه ينشؤون ويعمرون ويحكمون..

فإذا اصطبغ عقلك بهذا اليقين، واستقر علماً وحقيقة في فؤادك، فذلك هو التوحيد الذي أزمنا الله به، وهو المعنى المنطوي في الكلمة التي وصفها بيان الله تعالى بالكلمة الطيبة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

فكيف يكون سلوك من ترسخت في عقله حقيقة هذا التوحيد؟

عند الإجابة عن هذا السؤال، يأتي دور النتيجة أو الثمرة التي لا بد أن تزدهر بها الحكمة السابقة، وهي قول ابن عطاء الله: «لا تتعدّ نية همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال».

إذا علمنا أن ليس مع وجود الله، وليس مع قدرته أي قدرة، وليس مع كرمه أي كرم أو كريم، وليس مع مالكيته أي مالك، وليس مع غناه أي غني.. إن بدا لك وجود شيء من ذلك، فهو من الله وبالله وإليه، أقول: إذا علمنا ذلك، فبمن يجب أن تتعلق آمالنا؟

يجب أن تتعلق بمن يملك وحده كل المعاني والصفات التي ذكرتها.

وقد عرفت أن الذي يملك الوجود وثمرات الوجود واحد لا ثاني له هو الله عز وجل... إذن يجب أن لا تتخطى الآمال، أيأ كان نوعها، وأياً كانت تطلعاتها، يجب أن لا تتخطى الآمال الواحد الأحد، وهو الله عز وجل.

وإذا تعلق منك الآمال بالرزق، فاتجه بها إلى من بيده وحده خزائن السموات والأرض وهو الله.. وإذا تعلق منك الآمال بالصحة والعافية فتوجه بها إلى الله الذي قال عنه خليله إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٠].. وإذا تعلق منك الآمال بالطمأنينة

والسعادة والأمن، فاتجه بها إلى الله القائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ١٦/٩٧].. وإذا تعلقك منك الآمال بمنعة تتحصن بها ضدّ ظالم أو عدو، فاتجه بها إلى الله الذي خاطب موسى وأخاه هارون قائلاً: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٢٠/٤٦].

ولعمري إن الذي تتجه منه الآمال، ابتغاء أي من هذه الحاجات، إلى غير الله وحده، مشرك وليس موحداً. ومهما ردّد الكلمة الطيبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فإن ترداد لسانه لها، مع تعلق آماله بغير الله عز وجل، لا يجعله من الموحدين.

فإن قلت: فما بال موسى وهارون أعلنوا الخوف من فرعون قائلين: ﴿... رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٢٠/٤٥] أقول لك: إنهما اتجها بآمالهما في التخلص من طغيان فرعون إلى الله، لا إلى فرعون. إذ كان سؤالهما له ورجاؤهما منه، وكان الأمل الذي توجهها به إلى الله عز وجل، أن لا يسلط الله فرعون عليهما بأي إساءة أو طغيان. فكان هذا التوجه منهما بهذا الرجاء منتهى التوحيد لذاته العلية وصفاته السنية، ولذلك طمأنهما الله عز وجل في الجواب الذي خاطبهما به إذ قال: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

وإذن، فتوحيد الاعتقاد والقول اللساني، لا بدّ أن ينبني عليهما توحيد التطلعات السلوكية والعلاقات الاجتماعية. وهو، أي هذا التوحيد الثاني، هو ما أمر وأوصى به رسول الله ﷺ سيدنا عبد الله ابن عباس، إذ قال له - وكان قد أردفه رسول الله خلفه - : «(يا غلام،

إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١).

وهما (أي توحيد الاعتقاد والقول اللساني) ليسا توحيدين كافيين في الحقيقة، وإنما هي العقيدة التي يجب أن لاتنفصل عن ثمراتها التطبيقية.

* * *

والآن.. هل في هذا التوحيد الذي يذكرنا به ابن عطاء الله بل الذي يأمرنا به الله عز وجل، ويوصينا به رسول الله في مثل هذا الحديث، ما يتعارض مع الانبعاث في مناكب الأرض للتعامل مع الأسباب الكثيرة المتنوعة؟

بوسعك أن تعرف الجواب من استعمال ابن عطاء الله في حكمته هذه لكلمة «الآمال».. إن المطلوب منك أن لاتتجاوز آمالك المشفوعة بالهمة والنية، الكريم الذي هو الله عز وجل.

فإذا تحقق التوجه بالقصد والأمل إلى الواحد الذي لاثاني له، فالتعامل بعد ذلك مع الأسباب.. أسباب الرزق والعافية والقوة والأمن والطمأنينة والعلم والمعرفة، تنفيذ لأمر الله وجزء لايتجزأ من توحيد الله.

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وإذا كان هذا واضحاً، فنبغى أن تعلم أنه لافرق بين الأسباب نادية المتمثلة في الكدح للرزق والطعام للشبع والدراسة للعلم.. إلخ وبين أسباب الرحمة الإلهية ووسائلها، كمكانة الرسل والأنبياء، لاسيما خاتمهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومكانة الصالحين مقربين إلى الله من بعدهم.

فإن الله كما أقام من المطر سبباً للنبات، وأقام من الطعام سبباً شبع وأقام من الدواء سبباً للشفاء، أقام من مكانة رسول الله عند ربه ومن حبه له سبباً لرحمة العباد وشفاعتهم، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١] ألم يقل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤/٤].

إذن، فكما يجوز للمسلم أن يتوسل بالدواء إلى الشفاء، وبالطعام لشبع، وبالماء للري، وبالكدح للرزق، يجوز أيضاً أن يتوسل برسول الله لاستنزال رحمة الله، والحصول على آماله من الله عز وجل.. على أن لا يغيب عن باله أن الوجود الحق الذي لا ثاني له هو وجود الله عز وجل، وأن الخلق له والأمر إليه، وأن لا حول ولا قوة لشيء إلا بالله عز وجل. وأن يعلم أنه إنما يتعامل مع هذه الأسباب ويقف عندها، لأن الله أمره بذلك فهو في مشيه في مناكب الأرض باحثاً عن الرزق، وفي إقباله على الطعام عند الجوع، وإلى الشراب عند الظمأ، وإلى ندواء عند المرض، إنما ينفذ أمر الله وشرعته، كذلك الحال عندما يتوسل برسول الله أن يرحمه الله ويلطف به ويصلح حاله، إنما يتوسل

به لأن الله أقام منه وسيلة لذلك كله تكريماً له، أي فالرحمة واللطف وصلاح الحال إنما يأتي ذلك كله من عند الله تعالى. وهل في الخلائق كلها من يملك أن يرحمك أو يصلح حالك أو يرفع عنك الضر، إلا الواحد الأحد جل جلاله!.. ولكننا تلقينا من الله الأمر بأن نتعامل مع النظام الذي أقام كونه هذا على أساسه، وأن نقاد له طاعة له وتنفيذاً لأمره عز وجل. ولاشك أن هذا الانقياد بهذا القصد جزء لا يتجزأ من توحيد الله تعالى.

والعجيب أن تجرد في الناس من إذا سمع أحدهم مريضاً يقول لطيبه، وقد أمضه الألم، أرجوك أيها الطيب أن تخلصني من هذه الأوجاع، لا يبالى بهذا الكلام ولا يستنكره، ولا يرى في هذا الطلب من الطيب ما يחדش التوحيد. فإذا اتجه هذا الإنسان ذاته إلى الله قائلاً: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد، ﷺ، أن تشفيني من هذه الآلام، قام في وجهه مكفراً ومشرّكاً، وربما أمره أن يجدد إسلامه!...

فما الفرق بين السببية الجعلية التي قضى الله بها في الدواء للشفاء، والسببية الجعلية التي قضى الله بها في مكانة رسول الله والتوسل به للشفاء ذاته؟..

مع العلم، الذي لا يجوز أن يغيب عن بال أحد أنها سببية جعلية هنا وهناك، فالله هو الشافي والمعافي، ولكنه شاء لحكمة باهرة، أن يشفي المريض عند تناوله الدواء، أو عند توسله إلى الله للأمر ذاته بحبيبه محمد عليه الصلاة والسلام، أو عند توسله إلى ذلك بشربه من ماء زمزم.

وأعجب من هذا وأغرب، أولئك الذين يفرقون بين حياته صلى الله عليه وسلم ومماته، فيرون التوسل برسول الله مشروعاً في حياته، وغير مشروع بعد وفاته!!..

ولاريب أن هؤلاء الناس يفهمون أن التوسل إنما هو بقوة رسول الله الجسدية وسطوته المادية، ونظراً إلى أن ذلك يزول بوفاته، فإن التوسل به بعد وفاته يغدو شيئاً لامعنى له ولا فائدة منه.

ولاشك أن الذي يتصور أن محمداً عليه الصلاة والسلام يملك قوة ذاتية بها يحقق للناس رغائبهم فهو متورط من ذلك بشرك خطير. إن القوة الذاتية إنما هي قوة الله وحده وصدق الله القائل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

من المعروف والثابت بداهة أن التوسل المشروع الذي نتحدث عنه إنما هو بالمكانة التي أولاها الله تعالى لرسوله والمزية التي تمتعه بها، إذ جعل منه باباً للدخول على الله في طلب مغفرة أو شفاعة، أو شفاء من مرض، أو التخلص من غم وهم، أو نحو ذلك من الحاجات الإنسانية التي ينبغي أن يطرق بها أحدنا باب الله عز وجل.

والمكانة التي يتمتع بها رسول الله، لاتنطوي ولاتنسخ بعد وفاته، معاذ الله، من قال هذا؟ إن مقام رسول الله عند ربه باق مستمر، وهو في علوّ دائم، وما الدعاء الذي ندبنا إليه رسول الله بعد الأذان إلا دليل ناطق بذلك.

* * *

ثم إياك أن تتوهم أن ما نسميه أسباباً فيه قوة مودعة بها تؤثر. فإن هذا الوهم يستلزم أن تكون القوة المودعة المزعومة ذات وجود ذاتي مستقل في الكون، وتقتضي أن الله عمد إليها فأودعها في بعض المكونات لتعطيها القدرة والفاعلية!.. فهل هذا إلا الشرك الصريح الواضح بذاته؟!.. ما الفرق بين أن تتخذ الأوثان أو الأشخاص آلهة مع الله، وبين أن تتخذ ما تسميه بالقوة المودعة إلهاً معه؟ ألسنت تزعم بهذا أن الله عز وجل عشر من هذه القوة النادرة الرائعة، على ما يستعين به لإيجاد الأسباب الكونية وتمكينها من الفاعلة وتحقيق النتائج المطلوبة فأخذها وبثها في كل هذه الأشياء التي شاء أن يجعل منها أسباباً بفضل هذه القوة الفريدة؟

إما أن هذه القوة هي قوة الله عز وجل، إذن فهي تظل منسوبة إليه ولا تنفصل عنه لتتحول إلى ودیعة فيما يسمى بفضلها أسباباً. فنقول إننا شعبنا بقدرة الله وحكمه لدى تناول الطعام، وشفينا بقدرة الله ولطفه لدى أخذ الدواء.. إلخ.

وإما إن هذه القوة ليست قوة الله عز وجل، فعندئذ يتسنى لك أن تتوهم بأنها شيء مستقل عن ذات الله عز وجل، مودع وموضوع فيما نسميه أسباباً. ولاشك أنك نتخذ عندئذ من هذه القوة الذاتية المأخوذة من هنا والموضوعة هناك، شريكاً مع الله عز وجل. بل إنك لتجعل منها عندئذ الشريك الأقوى الذي لاتتأتى ألوهية الله إلا بالاستعانة به، تعالى الله عن هذا الوهم المتهافت الباطل علواً كبيراً، وصدق الله القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾

والقائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ
مَسَّكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ والقائل: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ
فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ والقائل: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾.

قل لي.. أين بقي مكان القوة المودعة في هذه القرارات التي تقرأها
في هذه الآيات؟!..

ألا إن الكون كله بسائر ما فيه من تحركات وتموجات وأطوار،
كبرت أو صغرت، ظهرت أو خفيت، ينشد بين يدي إلهه الحي
القيوم تسبيحاً لا يفتر عنه، وتوحيداً لا يسكت عنه، إنه نشيد: لا حول
ولا قوة إلا بالله.

فاللهم أحيينا وأمتنا واحشرنا على هذا النشيد يهيمن يقيناً على
عقولنا، ووجداناً في قلوبنا، وذكراً على ألسنتنا، واجعل من ذلك
شفيعاً لنا بين يدي كل إساءة وتقصير.

* * *

الحكمة التاسعة والثلاثون

((لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك. فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً؟))

لا تزال سلسلة هذه الحكم المتلاحقة تتلاقى من جوانب متعددة، وبأساليب شتى، على بيان وحدانية الله عز وجل في ذاته وصفاته وأفعاله، وأن الذي يتصرف في الكون كله واحد لا ثاني له. ثم ينبه ابن عطاء الله من خلال ذلك إلى أن على العبد أن لا ينصرف بآماله وآلامه ورغباته إلا إلى هذا الإله الواحد، وأن لا يشرده عنه إلى الآخرين الذين هم مثله في العجز والضعف والمملوكية لله عز وجل.

وهو رحمه الله، لا يخرج عن هذا التنبيه وهذه النصيحة، في حكمته الجديدة هذه. ولكنه ينطلق هنا إليها من حجة منطقية، وعلمية مجردة، دون أن يلزمك بقرار غيبي أو نصّ ديني.

إنه يقول: إذا نزلت بك حاجة أو طافت بك مشكلة ما فابدأ قبل كل شيء بالبحث عن مصدر تلك الحاجة أو المشكلة، من الذي أنزلها

بك أو ابتلاك بها، فإذا علمت الفاعل أو المتسبب فاتجه إليه، واطلب منه أن يرفع عنك البلاء الذي أنزله بك أو الحاجة التي حَمَلَك إياها.

ويبين رحمه الله الحجة المنطقية في هذه النصيحة، قائلاً: كيف يتسنى لكائن من كان أن يرفع عنك من الحاجة أو البلاء، ما قد وضعه فيك أو جرّك إليه غيره؟ يقول المنطق: إن الذي ساق إليك واقعة ما، أياً كانت، خيراً أم شراً، هو لاغيره الذي يتمكن من جذبها عنك. إذ إن من بيده قوة الإرسال والدفع، هو الذي يكون بيده قوة الجذب والرفع.

إن الالتزام بهذه النصيحة المنطقية العلمية البعيدة عن غيبات الدين ودوافع التقيد بالنصوص، يقتضي أن تبدأ فتساءل عقلك.. عقلك المتحرر عن أي أسبقية أو تحيز: ما هو، أو من هو الذي يسري إليك منه الخير بكل أنواعه، والشر بكل صنوفه وألوانه؟

ولقد علمت مما تم شرحه وبيانه من خلال دراسة الحكم السابقة، أن كل ما يتراءى لك من حركة أو فاعلية أو قدرة، في الكون، فإنما هو سارٍ إليه من عند الله عز وجل. وقد علمت أن الله لو قطع حوله وقوته عن هذه المكونات لتحولت إلى حطام وأنكاث. وقد تم بيان ذلك بأدلة منطقية وعلمية، قبل أن نستند فيها إلى معتقدات غيبية أو نصوص دينية.

كما عرفنا أن ظاهرة الأسباب المنتشرة والمنتشرة في الكون، ما ينبغي أن تحجبنا عن إدراك هذه الحقيقة، أو أن تمدّ أي غاشية من الإشكال أو اللبس عليها. إذ قد علمنا أنها أسباب جعلية أي إن الله جعل منها

أسباباً عندما قضى باقترافها لما يخلقه الله عز وجل مما قد شاء خلقه بمحض قدرته وتقديره. بل لقد عرفت أنه ليس فيما نسميه أسباباً أي قوة مودعة فيها لتمارس بها وظيفة السببية، وإنما يخلق الله ما نسميه مسبباً بمحض قدرته، عند اقترانه بما اصطالحنا على تسميته سبباً. والمراجع التوحيدية فياضة بعرض الأدلة التفصيلية العلمية على ذلك.

فإذا استقرت في أذهاننا هذه الحقيقة، علمنا بيقين أن الحاجات التي تنزل بنا، أو المشكلات التي تعترضنا، أو النعم التي نتمتع بها، إنما ينفذ ذلك كله إلينا من الله عز وجل، بقطع النظر عن البريد الذي قضى الله أن يسخره لحمل هذه الحاجات أو المشكلات أو النعم إلينا.

إذن، فأبي باب نظرق، عندما نبحث عمّن يقضي لنا الخوائج، أو يزيع عنا المشكلات، أو عندما نبحث عمّن نشكره على العطايا والمنح؟

ماذا يقول المنطق في الإجابة عن هذا السؤال؟

يقول المنطق: يجب أن تعود بالحاجة التي تلاحقك، إلى من قد أنزلها فيك وأخضعك لها؟ وأن تعود لحلّ المشكلة التي نعاني منها إلى من قد ابتلاك بها، وأن تعود لشكر النعمة والعطايا إلى الذي متمك بهما. وقد علمت أنه الله وحده، لا يشركه في ذلك أحد، وليس من قبله، ولا من بعده، ولا معه من ينوب عنه أو يعينه في شيء من ذلك.

ولكي تقوى على تنفيذ هذا الذي يقضي به المنطق، يجب أن تنسى الوسائط وسعاة البريد، وأن تخرق بعقلك وإدراكك الصور المتحركة إلى ما وراءها.

والعجيب الذي يبعث على التساؤل، أن هذا النسيان للوسائط والأسباب سهل جداً لدى التعامل مع الوسائط والوسائل الدنيوية التي تتحرك ما بين الفئات والأشخاص. فليس في الناس من إذا أخذ جائزة مالية من موظف أو ساعي بريد، ينسى الثري الذي أرسلها إليه، أو المؤسسة التي اختصته بها، ويتجه بالشكر والحب وعبارات الفرح والامتنان إلى المسكين الفقير ساعي البريد.. وقس على هذا المثال الأمثلة الكثيرة الأخرى.

غير أن هذا النسيان ذاته للوسائط والأسباب يكون في غاية الصعوبة والعسر، عندما تكون هذه الوسائط قائمة بين العبد وربّه عز وجل.. تفد إليّ النعمة من الله عز وجل عافيةً، غنىً، ثقافةً وعلماً، طمأنينةً وأمناً.. إلخ. فيغيب عن فكري المنعم المتفضل، ولا أذكر إلا الوسائط التي أقام الله منها خادماً لمنه وعطائه. فأذكر تجارتي التي ازدهرت بالنجاح، والطبابة الجسيمة والرياضة البدنية التي أكسبني العافية والنضارة، والانكباب على الدراسة وأسبابها مع نباهتي التي أعتز بها، والتي أكسبني عمق المعرفة واتساع العلم. وكلها لا يعدو في الفاعلية والقيمة عن كونها سعاةً بريد، وخداماً واقفين على تنفيذ أوامر الله.. ولكن يا للعجب!.. إنني مع هذا أنسى المتفضل الفعال، وأذكر في مكانها هؤلاء الخدم الذين لا يتأتى منهم إلا تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من المنعم المتفضل الوهاب.

وهذا الذي أقوله عن النعم والأعطيات الوافدة إلينا من الله، ينطبق أيضاً على الابتلاءات والمصائب الوافدة إلينا منه.

تنتقص حقوقنا، وتستلب أوطاننا، فتتذكر الأيدي المستخدمة،
والوسائل المرسلّة، ونحدّق النظر فيها، دون أن نتذكر الحقيقة الساطعة
التي ما ينبغي أن تغيب عن بال عاقل آمن بالله عز وجل، وهي أن
هذه الأيدي المستخدمة والقوى المتحركة، ليست إلا جنداً يتحركون
تحت قهر الله وسلطانها، إيقاظاً وتأديباً لنا، بمقتضى سنة ربانية ماضية
أخبرنا عنها وألزم ذاته بها.

تحتبس الأمطار، ويمضي الشتاء أو يكاد، والأرض ما تزال جافة
قاحلة، فنتيه عن الإله المتصرف في الكون الفعال لما يريد، ولا نتذكر
إلا الوسائط التي لاشأن لها ولا قيمة: هي دورة ثلاثينية تأتي بها
الطبيعة في ميقاتها المتكرر على رأس كل ثلاثين عاماً.. أو هي أثر من
آثار الخروق التي أصابت طبقة الأوزون.. أو هي من نتائج الوهج
الحراري الذي ألحق اضطراباً بالتوازن الطبيعي وعلاقة ما بين الأقاليم.

فهل في العقلاء من يجهل أن هذه الافتراضات كلها، على تقدير
صحتها، ليست أكثر من خدّام صغار على مسرح الطبيعة، ينفذون
الأوامر الصادرة إليهم من الله؟.. كيف لا يغيب عن ذهن العاقل أن
محرك السيارة ليس هو الذي يسيرها، وأن المقود الذي فيها ليس هو
الذي يوجهها، وإنما الذي يسيرها ثم يوجهها، هو السائق الذي
يتحكم بها، وليست الأجهزة التي بين يديه والتي تحت قدميه، إلاّ
أدوات تشتغل لحسابه وتتحرك تحت سلطانه؟ حتى إذا وقف أمام
المحركات والأجهزة الشكلية التي تبدو وكأنها هي التي تسيّر هذا
الكون حبس بصره وبصيرته عندها وغاب عنه مسيرها الحقيقي
الأوحد، وهو الله عز وجل!..

يا للعجب!.. أليس الكون كله، مهما عظم، كهذه السيارة مهما صغرت؟ أليست حركة هذا الكون ووظائفه وتسياره عائدة إلى الإله الذي خلقه ثم نظمه ثم ساسه ودبره، كما أن حركة السيارة ووظائفها عائدة إلى ذلك الجاثم فيها المتحكم بأجهزتها ومقودها، ولله تبارك وتعالى المثل الأعلى؟!..

على أن المراد بضرورة نسيان الوسائط والأسباب الشكلية، ليس الإهمال السلوكي أو الإعراض عن الالتزامات الأخلاقية والأدبية تجاهها، وإنما المراد، أو المطلوب، أن يستقر في يقينك الاعتقادي أنها مجرد وسائط شكلية، لا أثر لها ولا فاعلية فيها.

أما التعامل معها فمطلوب، لأنها مظهر للنظام الذي أقامه الله وارتضاه، والخضوع لهذا الذي أقامه الله وارتضاه، جزء لا يتجزأ من الخضوع لسلطان الله وأمره، وقد سبق بيان ذلك في شرح بعض الحكم السابقة.

ونعود في بيان المزيد من هذا الأمر إلى مثل ساعي البريد، فإنك على الرغم من معرفتك لهويته، ومعرفتك بالجهة التي أرسلت إليك الجائزة المالية، تتجه إلى ساعي البريد بلسان شاكر، وربما أكرمته بشيء من المال.. إنه بعض ما يقتضيه أدب التعامل وذوق التواصل الأخلاقي. والإسلام كان ولا يزال سبباً إلى رعاية هذه القيم ألم يقل رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(١).

(١) رواه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

فإذا تبين لك الآن أنه ما من حاجة تنزل بك أو مشكلة أو مصيبة تحوم (والعياذ بالله) حولك، إلا وهي وافدة إليك من الله عز وجل، فإلى من تعود للعمل على قضاء هذه الحاجة، أو حلّ المشكلة أو صرف المصيبة؟

يقول لك العقل، أياً كان صاحب الرأس الذي هو فيه، يجب أن تعود، في ذلك، إلى الله. إذ منه وفدت إليك الحاجة أو المشكلة، ومن ثم فهو الذي يملك أن يرفعها عنك.

ومعنى العود في ذلك إلى الله، أن لاتعلق آمالك إلا به، وأن تعلم مستيقناً أن الوسائط مهما تكاثرت أو تسلسلت، فليس فيها أي فاعلية أو تأثير مع الله عز وجل، وذلك طبقاً لما تم بيانه وتأكيداه.

فإذا علمت ذلك، وذابت من أمام ناظريك حجب الأسباب والوسائط، وظهرت أمامك جليلة واضحة فاعلية الله عز وجل، وتجلي حكمه وسلطانه لك في كل سكونة وحركة، فأقبل عندئذ إلى عالم الأسباب وعاملها طبق ما أقامها الله فيه من مظهر السببية الجعلية، والوساطة الشكلية.. وأشعر نفسك أنك إنما تلبى في ذلك وظيفه كلفك الله بها، وأدباً أقامك الله فيه، على أن لاتنسى للحظة واحدة أن قيام الكون كله إنما هو على قراري خلق الله وأمره بقرار من خلق الله وجد، وقرار من الأمر الرباني الصادر إليه ينشط ويتحرك، وصدق الله القائل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأعراف: ٧/٥٤].

واجعل من هدي رسول الله ﷺ في قصة هجرته قدوة لك، في كلاله طرفي السلوك والاعتقاد. تأمل في الوسائط والأسباب الشكلية المادية التي استحضرتها وسخرها لنجاح هجرته، في باب اللياقة والأدب مع الله، ثم تأمل في نسيانه لهذه الأسباب ووقوفه بيقينه الجازم أمام حكم الله وتدبيره، عندما قال لأبي بكر وهما محتفيان في غار ثور وقد أحدق المشركون بغم الغار: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما...» ثم اجعل من هدي رسول الله هذا قدوة لك في سائر أحوالك وتقلباتك.

واعلم أنك إن تمتعت بهذا اليقين الذي هو واحد من أهم دعائم توحيد الله عز وجل، فمضيت تطرق باب الأسباب بيدك، وتطرق باب المسبب القهار الذي لا ثاني له بإدراكك ويقينك، أراك الله عز وجل بين الحين والآخر من مظاهر لطفه بك وحمائه لك، ما يزيدك توحيداً له وتعلقاً به ونسياناً لحواجز الوسائط والأسباب.. من هذه المظاهر أنه كثيراً ما يخرق لك العوائد، ويطوي عنك مقتضيات الأسباب، ويسخر لك ما لا تتوقعه من البديل عنها. تنفيذاً لحاجتك التي طرقت بها باب مولاك وخالقك، لا تتأملها إلا منه، ولا تمضي بها إلى إليه.

دعني أضعك أمام مثال يعود إلى خصوصيات حياتي وتعاملي مع الله عز وجل، ليزيدك يقيناً بهذا الذي أقول، إن كنت من أهل هذا اليقين، وليزيل عن بصيرتك غيبش الأوهام والشكوك، إن كنت ممن لا يزالون يتطوحنون في عالم الأوهام ويقبعون في سجون الصور والأشكال.

عدت إلى كلية الشريعة من جامعة دمشق حاملاً شهادة الدكتوراه التي أوفدت للحصول عليها، على نفقة الجامعة، عام ١٩٦٥م، وعينت في ذلك العام مدرّساً فيها.

كنت أحمل ثانوية شرعية قبل أن تصبح معادلة، دون أن تتبين الجامعة ذلك، ودون أن يخطر في بالي أي مشكلة قد تنشأ عنها. وبعد خمس سنوات من تعييني علمت إدارة الجامعة بطريقة ما أن الثانوية التي بنيت شهادتي الجامعية عليها، ومن ثم بني إيفادي عليها للحصول على الدكتوراه غير معادلة.. كان المصير الذي لامحيد عنه هو إلغاء تعييني مع تحميلي سائر التكاليف التي أنفقتها الجامعة على إيفادي.. وكانت الفرصة الزمنية التي أعطيت لي لتدبير أمري المدة الباقية إلى نهاية ذلك العام الدراسي.

عدت إلى نفسي وتأملت في العامل الذي نقلني من عملي أستاذاً في وزارة التربية إلى معيد فمدرس في جامعة دمشق، فتذكرت أنني لم أتكلف لذلك شيئاً، ولم أوسّط لذلك أحداً، ولم يكن الأمر حتماً يراودني أو يؤرقني، وإنما هو الله عز وجل ألهم القائمين على كلية الشريعة آنذاك أن يستقدموني إليها معيداً طبق النظم المرعية.

قلت في نفسي: فإذا كان في قضاء الله الذي شاء أن أعمل في كلية الشريعة هذه السنوات التي خلّت، أن أعود إلى ما كنت عليه من عملي في الثانويات العامة، فمرحّباً بقضاء الله وحكمه، ولاشك أن له في ذلك حكمة باهرة وإن خفيت عن العقول.

وفي تلك الأيام أخبرني والدي رحمه الله ذات صباح أنه رأني في الرؤيا، أقبلت إليه قائلاً: لقد سُرحت من الجامعة.. ثم غبت عنه، قال رحمه الله: فما هو إلا أن رأيت أمامي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه، في بزة عسكرية يمتطي سهوة جواد، يلوح على وجهه الغضب قائلاً: لن أتركه!..

تلقيت هذا النبأ الغريب من والدي، من خلال رؤياه، دون أن أحرك ساكناً أو أن أنهض إلى أي وسيلة أو سبب، إذ كانت الأبواب كلها موصدة والأسباب غائبة، ولكنني تركت الأمر موضوعاً بين يدي الله عز وجل مسبب الأسباب.

وبعد أيام... جاء من يخبرني أن إعلاناً قد علّق عند مدخل وزارة التربية، يتضمن قراراً وزارياً بعقد امتحان خاص للحصول على ما يعادل شهادة الثانوية العامة، بوسع كل من يحمل ثانوية غير معادلة أن يتقدم للاشتراك في هذا الامتحان.

قرار فريد من نوعه، يولد لأول مرة في تاريخ وزارة التربية، على حدّ علمي!.. أقبلت فقدمت هذا الامتحان الخاص في ميقاته، ورأيت من حولي ثلة قليلة قد اشتركوا معي فيه.. دون أن أرى أمامي إلا المدبّر الأوحّد الذي يسخر كل ما يشاء لما يريد.. كنت أذهب وأجيء.. أقدم الأوراق.. أتابع المعاملة.. أجلس في قاعة الامتحان.. أكتب الإجابات، وأنا غائب بذهني وفكري عن هذه الأحوال والتقلبات كلها، وكيف لا أغيب عنها وقد أبصرت يد الله عز وجل كيف تسخر خلقه لتنفيذ حكمه وقضاء أمره.

وكان في قضاء الله أن أنجح في الحصول على شهادة الثانوية العامة المعادلة، وأنا دكتور في الجامعة مهدد بالطرد منها!.. ثم كان في قضاء الله أن تكون المعلومة التي وصلت إلى إدارة الجامعة سبباً في ترسيخ تعييني وإزالة الإشكال القائم في مستنده وأساسه.

فما الذي تبصره عينك من هذا الحدث الذي سمعت، الصورة الشكلية التي سخرها الله، أم القرار الغيبي الذي قضاه الله؟..

أما إنه لا يتيه عن الجواب إلا من كان منكراً لوجود الله وقيوميته على هذا الكون، أو ممن يداخله الريب في ذلك. والله هو المسؤول والمستعان أن يكشف عن بصائرنا جميعاً غشاوة الجهالة والريب، وأن يرينا من باهر خلقه وتدييره، ما يجرنا من سجون الصور والأسباب.

* * *

الحكمة الأربعون

((إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه،
حسن ظنك به لوجود معاملته معك. فهل
عودك إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا مننا؟))

المؤمنون بالله عز وجل، في تعاملهم معه فريقان، فريق عرف الله إذ آمن بوجوده، ثم أيقن تبعاً لذلك بجميل صفاته، فعلم أن ألوهية الله عز وجل تستلزم اتصافه بسائر صفات الكمال، وسمّوه عن سائر صفات النقصان. ثم وافق النقل الذي وضعه أمام أسماء الله الحسنی وصفاته الأسنى، العقل الذي بصّره بكل ما ينبغي أن يتصف به من صفات الكمال، فعلم أن الله رحمن رحيم، وأنه لطيف ودود، وأنه حكيم عليم، سمیع مجيب، كريم رزاق محسن غفور، وهاب شكور.. إلى آخر ما تعلم من صفات الكمال في ذاته العلية عز وجل، وازداد يقيناً بذلك كله.

وفريق آخر لم تستقر في يقينه هذه الصفات حتى رأى آثارها ومصداقها في حياته، فرأى دلائل لطف الله به ورحمته له، ورأى واسع كرمه وعظيم صفحه، رأى كل ذلك في معاملة الله له.

أما الفريق الأول، ويمثل أفراد الصفة الممتازة من عباد الله الصالحين، فالشأن فيهم أن يحسنوا الظن بالله عز وجل، غيباً، دون حاجة إلى بينة من المعاملة، أو إلى برهان من الوقائع والأحداث. ثم إن المعاملة الربانية لهم تزيدهم يقيناً، وتزيدهم طمأنينة وتأثراً وشكراً.

وأما الفريق الثاني، فالشأن في أفرادهم أنهم يحفظون أسماء الله الحسنى ويكررونها ربما، ويدركون ما تدلّ عليه هذه الأسماء من جميل الصفات ومعاني الكمال. ولكنها لا تستطيع أن تستقل وحدها (أي بمجرد الإيمان الغيبي بها والإدراك العقلي لها) بالتأثير على نفوسهم، بأن تتجه نفوسهم إلى الله بالحب له، وحسن الظن به، وصدق التوكل عليه والتفويض إليه، اعتماداً على مجرد ذلك إلا الإدراك الغيبي. بل لا بدّ لتحقيق ذلك من أن يتجلّى مصداق تلك الصفات في معاملة الله لهم وفي الوقائع والأحداث التي تتوالى وتترى من حولهم.

فابن عطاء الله يخاطب المؤمن بالله، أيّاً كان، قائلاً: إن عجزت أن تكون من الفريق الأول، فلم تر ما يملك على حسن الظن بالله، لما تعلم من جميل صفاته، فيما حفظته ووعيته من أسمائه الحسنى، فإن بوسعك أن تجد ما يملك على حسن الظن به من واقع معاملته لك، فهل عودك إلا على الإحسان، وهل وصلتك منه إلا جلائل النعم، وهل عاملك إلا بتمتھی الرحمة والحنان؟...

تلك هي خلاصة ما تنطق به هذه الحكمة.

ولكن فلنتجاوز هذا الملخص إلى شيء من التفصيل الذي يجيب على ما قد يخطر في البال من بعض التساؤلات، أو يحل ما قد يعرض للذهن من بعض المشكلات:

إننا لانطمع أن نكون من تلك الصفوة التي استغنت بما عرفته من صفات الله تعالى، طمأنينةً و يقيناً غيبياً، عن الحاجة إلى برهان المعاملة والتطبيق. ولقد عامل الله عباده في كتابه المبين الذي خاطبهم به، بوصفهم من الفريق الثاني، ضعفاء، يحتاجون لدعم يقينهم الغيبي بالله عز وجل، إلى ما يؤيده من الواقع المشاهد والمعاملة الجارية. فهو لا يذكرهم فقط بأسماءه الحسنی وصفاته الأسنى، بل يضعهم أمام براهين إنعامه ومننه ومظاهر لطفه بهم ورحمته لهم.. ألا ترى إلى ما تقرؤه في سورة النحل مثلاً من الحديث عن سلسلة النعم التي يغمر الله بها عباده، إلى جانب الحديث عن بالغ حكمته في الخلق والإبداع، وما سخر لهم من مكونات الأرض الخفية، ومستولداتها ومعطياتها الظاهرة، وما استخدمه لمعاشهم من أنظمة النجوم والأفلاك، وما أداره لأرزاقهم من الرياح والسحب والأمطار والنبات؟!!

فكأن الله عز وجل يقول لعباده: أنا لا أكلفكم بأن تستيقنوا من معاملتي لكم ما تدلّ عليه صفاتي التي تجدونها وتقرؤونها، دون مصداق من الواقع، ولكنني أريد منكم أن تعلموا ذلك كله، وأن تستيقنوه من خلال واقع ما أعاملكم به، ومن خلال ما يصل مني إليكم من مظاهر الحماية والرعاية والرحمة والألطف، في دنياكم هذه التي تتقبلون فيها.

وأنت عندما تستجيب لهذا الذي يلفت البیان الإلهي نظرك إليه من لطف المعاملة ودقة الرعاية ودوام الحماية واستخدامه كل ما حولك من المكونات لما فيه صلاح عيشك، فتتنظر إلى هذا الذي أحاطك الله به، من ذلك كله، تجد شيئاً عجباً لا يكاد ينتهي الحديث عنه.

ينشئك الله منذ يوم ولادتك، داخل حماية عجيبة مما يسميه الأطباء «المناعة» ضد كل الأخطار والجراثيم والأوبئة المحدقة، يملأ قلب أمك رحمة بك وحنواً عليك، فترعاك وتسهر عليك بهذه الرحمة، وتفديك بنفسها، إن اقتضى الأمر، بهذه الرحمة، وإنما هي رحمة الله لك أو دعها في صدر أمك.

يستحضر الله لك (إن جاز التعبير) الغذاء الذي يناسب جسمك ويلبي حاجتك، ويلدّ في فمك، من سماء يأمرها أن تمطر، وأرض يأمرها أن تنبت، وأنعام يسخر لك لحومها وألبانها، ويخضع القويّ منها لتنقلاتك وحاجاتك.

ولكي لا تغرق في بحر متلاطم من الزمن الذي لا شطآن له، سخر لك من حركة الكواكب والأفلاك ما قسم لك هذا الزمن المتشابه المتلاطم إلى سنوات، ثم قسم السنة إلى أشهر، ثم الأشهر إلى ليال وأيام، ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٧/١٢] يا أيها الإنسان المدلل على الله..

ثم أطال لك ليل الشتاء على حساب نهاره، وأطال لك نهار الصيف على حساب ليله، ليكون كل من الشتاء والصيف أصدق خادم لك ولمصالحك بأمر من إلهك الفاطر الحكيم جل جلاله.

متّعك من الأرض بقرار يجذبك إليها بجنين وودّ، دون التصاق يعوق
 حركتك عليها، ولا ارتداد يجرمك من ساعات سكونك فيها، ثم ثبتها
 تحت قدميك، بانياً، زارعاً، حافراً، منقباً، بأوتاد من الجبال الراسية
 والمرسّية، ثم فجرّ لك ينايبها وأجرى لك أنهارها، لتحيلها كما تحب
 إلى جنان وارفة الظلال. وصدق الله القائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ
 كِفَاتًا^(١)﴾، أحياءً وأمواتاً، وجعلنا فيها رواسي شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً
 فراتاً^(٢)؟ [المرسلات: ٢٥/٧٧-٢٧]. أجل.. إنه يخاطبك أنت يا أيها الإنسان
 المدلل على الله. بذلك كله، مذكراً متحجباً.

هل أتابع الحديث عن نعم الله من حولك وفي داخل بدنك؟..

هل أخوض بك غمار حديث لا نهاية له عن المسخرات الكونية
 التي أدارها الله منذ فجر وجودك على خدمتك؟

إنها كلمات الفضل والمنن الإلهية التي غمر الله بها عباده.. غمر
 بها هذا الإنسان المكرّم والمصنوع على عينه.. وهيئات للدفاتر
 والكتب أن تحصي مضمون هذه الكلمات وصدق الله القائل: ﴿قُلْ لَوْ
 كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي
 وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا^(٣)﴾ [الكهف: ١٨/١٠٩].

* * *

(١) أي جاذبة لكم إليها، والكفت الجذب

والآن.. ما هي النتيجة التي ينتهي إليها الإنسان، إذ يتأمل في هذا كله، ويرى سابغ نعم الله عليه، وعظيم رعايته له، وكيفية دوران المكونات والأفلاك التي حوله، كلها، على خدمته وتحقيق مصالحه؟

النتيجة التي لامناص منها، أن يدرك جازماً أن الله لا يعامله إذن إلا بما هو خير له، ولا يوصيه أمراً أو ناهياً إلا بما فيه مصلحته وسعادته.

ومن ثم لا بدّ أن يحسن الظن به في كل تقلباته وأحواله معه عز وجل. سواء علم وجه المصلحة والخير في ذلك أو لم يعلم. لأن الله عز وجل لم يعوّده إلا الإحسان ولم يصل منه إليه إلا المنائح والمنن، فمن أين ولماذا يصدر سوء الظن به بعد ذلك؟

وإليك هذا المثال المقرب، والمخجل: إن الطفل إذ يرى كيف يتلقى من أبويه الرعاية والمحبة والحنان، ويتلقى دائماً منهما ما يسره ويهجه ويحميه من أنواع الأذى والأضرار، يستقر في روعه وفي عقله الغض أنهما لا يريدان به إلا خيراً، فمهما نصحاه أو حذراه، يعلم بمقتضى هذا اليقين الذي استقر في روعه، أنهما لا يأمرانه إلا بما فيه خير له ولا يحذرانه إلا عما فيه شرٌّ له، عرف وجه الخير والشر في ذلك أم لم يعرف، وحتى عندما يتبرم بأوامرهما ويحجم عن طاعتهما أو طاعة أحدهما، يعلم أنهما لا يلاحقانه بهذا الأمر إلا حباً وغيره عليه.

أليس هذا المثل صورة مصغرة عن نصائح ووصايا الرب عز وجل لعباده؟ أي أفليس مما يقتضيه المنطق البين أن يتمتع الإنسان الرشيد الكبير تجاه مولاه وخالقه بمثل الثقة التي يتمتع بها الطفل الصغير تجاه أبويه؟..

إذن أليس منجلاً حقاً، أن نكون مع فرق ما بيننا وبين الأطفال الصغار في قصور الدراية والعقل عندهم، وكمال كل منهما عندنا، أن نكون غير مدركين من عظيم لطف الله ورحمته بنا، ما يدركه أولئك الأطفال من ذلك في آبائهم وأمهاتهم؟..

دعني أشرح لك هذا المعنى الذي يوقفنا عنده ابن عطاء الله بمزيد من التفصيل، فلعل ذلك يزيد الأمر وضوحاً، ومن ثم يزيدنا نجلاً من الله عز وجل.

إن الله عز وجل يسوس عباده ويرببهم ويرعاهم، بلونين من التوجيهات والأوامر. أحدهما ما يسمى بالأوامر التكوينية، والثاني ما يسمى بالأوامر التشريعية. وهما المرادان بقوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فأما الأوامر التكوينية، فتتمثل فيما وجهه الله من الأمر المتمثل بقوله عز وجل «كن» إلى المكونات كلها بأن توجد من عدم، ثم بأن يوزع عليها وظائفها ومهامها، ويُجبرها بأمره التكويني هذا على النهوض بها على أحسن وجه. وقد عبّر عن ذلك البيان الإلهي بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القدر: ٤٩/٥٤] وبقوله عز وجل على لسان موسى يخاطب فرعون: ﴿... رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠/٢٠]، وبقوله سبحانه، وهو يتحدث عن الأشياء كلها ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١/٢٤] فهذا الأمر التكويني الصادر من الله عز وجل لمخلوقاته، يتحرك كل شيء منها، صغر أو كبير، طبق المهمة التي كلف بها.. ينطبق هذا الذي أقوله لك على أصغر الجزئيات التي

لا ترى إلا بالمجهر، وعلى أكبر الأجرام المتمثلة في المجرات والأفلاك ونحوها، كما ينطبق على الوظائف العضوية الداخلية والخارجية التي يفيض بها جسم الإنسان، وعلى الغرائز المثبتة في طبائع الأحياء على اختلافها.

وأما الأوامر التشريعية فهي مجموعة الوصايا التي خاطب الله بها عقل الإنسان أمراً... ناهياً.. معلماً.. ثم وكلها إلى جهده وقدرته التنفيذية لها، بعد أن جهزه، إلى جانب الإدراك، بالاختيار والقدرة على اتخاذ القرار. وأكد له في بيانه الذي خاطبه به أنها ليست إلا الضمانة التي لا بدّ منها لخيره وسعادته في عاجل أمره وآجله، فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤/٨] وقال له مؤكداً هذا المعنى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥/٥-١٦].

وقد كان من اليسير أن يجعلها الله عز وجل هي الأخرى جزءاً من أوامره التكوينية فيغرس أحكامه ووصاياه التشريعية هذه طبعاً في نفوس عباده، فتصبح غريزة ينقادون لها بالطبع والجلبة دون اختيار، فيكونون في ذلك كسائر الحيوانات الأخرى. ولكنه عز وجل سما بالإنسان عن هذا المستوى الذي قضى به للحيوانات العجماوات، وارتقى به صعوداً إلى المرتبة التي أهله فيها لمخاطبته ونحوها، فخاطب بهذه الشرائع والتكاليف عقله، وحاوره في بيان فائدتها وأهميتها، وبيّن له نتائج

تنفيذها، ومغبة الإعراض عنها. بل زاد فبين له مدى علاقة أوامره التشريعية هذه بنظامه التكويني، موضحاً أن استفادة الإنسان من النظام الكوني الذي سخره الله للإنسان متوقف على اتباعه للنظام التشريعي الذي عرفه به ودلّه عليه.

وإن البيان الإلهي إذ يلفت أنظارنا إلى أن وصاياه التشريعية ليست إلا تنبيهاً إلى السبيل الذي لا بدّ منه لصيانة النظام الكوني والمحافظة على جدواه وخدمته الدائبة للإنسان على الوجه الأمثل، يضعنا من ذلك أمام المثال المكرر المعروف لكل منا.. إنه مثال الجهاز الذي تتلقاه من المعمل الذي أنتجه من خلال إبداع تكويني لاعلاقة لك بإيجاده ولا بمقومات إبداعه، ولكن إدارة المعمل تقرن به إليك كتيباً يتضمن أهمية هذا الجهاز وطرق استعماله، ثم توصيك بمجموعة تعليمات ينبغي التزامها لحماية الجهاز من العطب، ولصيانته، ولضمانة قيامه بالمهمة التي صنع من أجلها على أحسن حال.

إن الجهاز في موضوعنا الذي نتحدث فيه، هو هذا الكون الذي أبدعه الله بأمره التكويني خادماً لنا محققاً لمصالحنا.

وإن الكتيب الذي يتضمن التعليمات المتعلقة به (ولله المثل الأعلى) هو هذا التشريع الرباني المنزل في محكم تبيانه. فمنذا الذي يقبل على الجهاز الذي تلقاه هدية ثمينة من صانعه دون أن يقبل على كتاب التعليمات المقرون به، ليرعى من خلال اتباعها جهازه هذا ويحميه من العطب والفساد؟

ياللعجب... بل يا للحجل، ممن يتقلب في أرجاء هذا النظام الكوني مخدوماً مدلاً من قبل كل ما فيه.. بدءاً من وظائفه البدنية إلى قوانين

الأرض التي يمشي عليها والهواء الذي يحيا ويتنفس به، والأفلاك التي تدور على خدمته، والأنواء التي كلفت بتقديم رزقه.. ويرى بأَم عينيه وبثاقب بصيرته مظهر لطف الله به ومحبه وتكريمه له في ذلك كله، ثم إنه يسيء الظن بعد ذلك بالنصائح التي يقدمها له والوصايا التي يأمره بها!... فيتأفف، ويجادل، ويستثقل، ويرى أن الله إنما حمّله من ذلك إصراراً لا لزوم له، وابتلاءه من تلك الوصايا بأعباء يسعد العالم الغربي التائه بالابتعاد عنها والتحرر منها.

يا ابن آدم: كيف تجعل من أَلطاف الله التي أنت غريق في بحارها، شجرة تثمر في يقينك سوء الظن به؟.. كيف تجهل، وأنت العاقل الرشيد، ما لا يفوت الطفل الصغير علمه؟ حقاً إن الإنسان لظلوم جهول!...

أرأيت إلى الأمانة التي يتحدث البيان الإلهي عن تشریف الله الإنسان بها، والارتقاء به إلى مكانتها، دون سائر الأحياء والمخلوقات الأخرى؟.. إنها هذه الأوامر التشريعية التي حاوره بها، بعد أوامره التكوينية التي متعه بها.. ولكنه - إلا من رحم ربك - ظلم نفسه وجعل قيمة المرتبة السامية التي اختصه الله بها، فأساء الظن بربه من حيث رضي الله له ما به سعادته وخيره!

وصدق الله القائل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢/٣٣].

فلا تكونن، أيها الإنسان، جهولاً بربك، ظلوماً لنفسك، توردها موارد الهلاك من خلال شروذك عن وصاياها، وإعراضك عن أحكامه وأوامره. تتأفف من ثقلها آناً، وترتاب في جدواها آناً آخر، وتملّ من استمرارها وتقادمها آناً ثالثاً.

كيف تتصور أن يكون الله عز وجل حفيماً بك في أوامره التكوينية التي تسعى مجتمعة في خدمتك، ثم ظالماً لك في أوامره التشريعية التي لم يشرعها إلا إتماماً لسعادتك؟!..

وإذا طافت بك هذه الريبة لسبب ما، أفلا يمحوها ويذيقها هذا التحبب الذي تراه واضحاً جلياً، في قوله عز وجل لك: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣/٥].

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾!! انظر، كم في هذا الخطاب الذي ينزل من علياء الربوبية إليك، من معنى التحبب والرعاية والإكرام!.. يقول لك مولاك: يا عبدي، لقد أحببت لك هذه الشرعة، فالزمها.. ثم تسيئ الظن به وتشيح بوجهك عنه، وتناقشه في الفائدة والجدوى، وتبرم بقدمه الذي شرفك به، لتشقي نفسك بجديك الذي تتقممه من هنا وهناك!..

آه من لؤم الإنسان، تجاه مولاة الخالق له، المتفضل عليه، المتحبب إليه، المتودد إليه بقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠/٥٥] إذ يقابل ذلك كله بالجحود أو الريب، أو التبرم وسوء الظن.

أما أنت أيها القارئ، فتعال ندخل معاً إلى رحاب مولانا الواحد
الجليل، تائبين آيين، مستعينين به أن يملأ قلوبنا حباً له وثقة بشرعته
وحكمه، واستقامة على نظامه وهديه. إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

الحكمة الحادية والأربعون

((العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه،
ويطلب ما لا بقاء له معه (فإنها لاتعمى الأبصار
ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)) ((

ما الشيء الذي لا انفكاك للإنسان عنه، منذ فجر وجوده، إلى
قراره الأخير إن في جنان الخلد، أو في العذاب المقيم؟

إنه الله سبحانه وتعالى، لا انفكاك للإنسان عنه، أياً كان، ملحداً أو
مؤمناً أو فاسقاً، وأينما كان في أرض الله الواسعة، مشرقاً أو مغرباً.
وفي أي الأحوال والظروف تقلب وتنقل.. سواء في ذلك حياته التي
يعيشها فوق الأرض، وموته الذي ينقله إلى باطنها، وحياته الثانية إذ
يحشر ليوم الحساب.

لا انفكاك لك عن الله في حياتك التي تعيشها اليوم، إذ هو معك
أينما كنت، أياً كانت القارة التي تعيش فيها، وأياً كانت الساعة التي
تمرّ بك، وصدق الله القائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤/٥٧].

ومعنى هذه المعية أن الله معك بعلمه، معك برعايته، ومعك
بتدبيره، ومعك بالمعنى المطلق للمعية، دون أن تفهم منها قيود التحيز

في مكان، أو الانتقال من جهة إلى أخرى.. إنها معية بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني، ولكن دون أي تكيف يستلزم التشبيه ويتنافى مع قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١١].

أما الشيء الذي لا بقاء له مع الإنسان، فهو كل ما عدا الله عز وجل. كل ما يركن إليه الإنسان مما عدا الله عز وجل، فمآله إلى الانفكاك عنه. إما أن يهلك الإنسان فيتركه، أو أن يهلك الشيء الذي كان يركن إليه، ويبقى الإنسان بعيداً، بل غائباً عنه.

يركن الإنسان إلى الدار التي بناها، وإلى الأثاث الذي زينها به، يركن إلى الزوجة والأولاد، يتعلق بالمال الذي جمعه وادخره، بالمركز الذي تبوأه، والشهرة التي نسجت له.

يتعلق بعالم الأسباب وظواهرها، منصرفاً عن المسبب الذي يحركها. يرى المطر الهاطل من السماء، فيناجي السماء ويشكرها، ويمضي يحدث الناس عن رحمة السماء؛ يبعث بصره في الأرض المخضرة والينابيع الثرة فيناجي في ذلك الطبيعة ويشكرها، ويمضي يحدث أصحابه عن فنون الطبيعة وإبداعاتها..

يستطيل بقاءه في الدنيا بغير طائل، يجمع إلى الثروة الطائلة مثلها، ويرهق ذهنه ويتعب نفسه بحثاً عن المزيد.. يبني مع الآخرين صداقات وعلاقات يضحى معها وفي سبيلها بالمبادئ وربما الأخلاق والأوامر الإلهية، يستطيل أمدها ويغيب عن نهاياتها، ركوناً منه إلى شهوات لا يريد أن يفارقها، ومتع لا يتخيل نهايتها.

ولكن هل تتجاوب أشياء الطبيعة (على حدّ تعبيرهم) مع هذه الأمانيّ في استبقائها له، وفي أن يبقى هو لها؟

لقد أنطق الله (الطبيعة)، وبالتعبير الأدق: أشياء الكون كلها، بالجواب العلمي الواقعي عن هذا السؤال، عندما أقامها على سنة كونية لا تتبدل. إذ قضي بأن تكون مدارج الوجود لكل شيء مؤلفة من بداءة ضعف، ثم من تنقّل في درجات القوة، إلى أن تصل منها إلى الأوج، ثم من تدرج في العود إلى الضعف فالذبول فالانمحاق.

كل شيء في الكون مطبوع بهذا القانون، بدءاً من الإنسان إلى النباتات والزهور والورود والرياحين، إلى الكواكب والأفلاك، إلى الأرض التي نعيش فوقها.. لقد وضعك الله من هذا القانون الكوني العام أمام مثاله المصغر الذي يتجلى في الشجرة وقصة وجودها، تبدأ نواة فشتلاً أو نبتاً صغيراً، ثم يتدرج الشتل في مراحل النمو والقوة. ثم يقف هذا التدرج عند حدّ، ثم ما هو إلا أن تعود متدرجة إلى الضعف فالذبول فالموت، وتعيد لك الحكمة الإلهية هذه القصة بل الحقيقة في الزهرة أو الوردة التي تراها وفي الفصول الزمنية السنوية التي تولد ثم تتنامى ثم تذوي وتغيب، وفي الشمس التي تشرق ضعيفة في مظهرها وفي أشعتها، ثم تتجه إلى القوة والحرارة وإلى مزيد من الضياء والتألق، ثم إنها تعود فتراجع إلى الضعف، وإلى مثل اصفرارها وذبولها ساعة الشروق.. وتريك الحكمة الربانية القانون ذاته في صورة القمر إذ يولد قوساً دقيقاً لا يكاد يُرى، ثم تمتد فيه القوة ويتجه إلى النمو والتكامل، حتى يصل إلى أوج ذلك بدرّاً يتألق في جوّ السماء، ثم إن السنة

الإلهية تعود به شيئاً فشيئاً إلى مثل الحالة التي بدأ منها، وصدق الله القائل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩/٣٦] أي كأصل العذق من النخل، إذ ينقطع العذق منه فيتقوس ويدق.

فماذا يقول هذا الواقع المتشابه الذي تنطق به أشياء الكون كلها؟ أنه يقصّ عليك قصة النهاية التي سيختفى في مغربها كل هذه المكونات التي تتألق في عينيك ويأخذ الكثير منها بمجامع نفسك، كي لا تغتر بها فتعلق بها وتركن إليها، تنشد سعادتك وراء اللحاق بها.

وانظر كم يجسد لك البيان الإلهي هذه الحقيقة، ويجذرك من خديعة العين، وغياب البصيرة، عندما يشبه حياتك الدنيوية كلها بالنبات الذي يتفجر غضاً، ثم يخضر زاهياً، ثم يعود ذاوياً، ثم يصبح هشياً.. تأمل في قوله لك:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥/١٨].

وانظر في هذا البلاغ الذي يتجه به الله إليك قائلاً: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧].

فهذا الذي يجمل مرآه - من أشياء الكون - في العين ابتداءً، ثم يذوي ويتراجع نحو الضعف فالأفول، ينطبق على سائر متع الدنيا ومبتغياتها، وينطبق على ما يراه الإنسان أسباباً لرغائب، ووسائل لغايات، ومفاتيح لمبتغيات.

فما الذي يتطلبه المنطق، وما الذي يقرره ميزان العقل، فيما يجب على الإنسان أن يفعله، أمام هذه الحقيقة التي تم بيانها، ولم يبق مجال لأي لبس فيها؟

يقول كل من العقل والمنطق الذي هو ميزانه: شدّ صلتك و متنّ أصرتك بذاك الذي يملك وجوده الذاتي، دون حاجة إلى موجد. ودون تسلّط من معدم، ذاك الذي صدر منه، بالإرادة والخلق، وجود كل الموجودات، وبإمداده المتجدد استمر بقاؤها، وبقدره المحتوم خمدت جذوتها، وانتهى أو ينتهي وجودها. وتعامل مع ما قد تحتاج إليه من هذه الموجودات، على أنها عواري مردودة، ومنح ربانية مستهلكة.

تكن عندئذ مقبلاً إلى هذه الموجودات في الظاهر، ومتعلقاً بموجدتها في الحقيقة والباطن.. فإذا وافاها ميقات الانقضاء والزوال، فلن تكون كمن كان مستنداً إلى ركام من ثلج، فلما أشرقت عليه الشمس وذاب من حيث لا يشعر، تهاوى إلى الأرض، بل ستجد نفسك عندئذ مع الموجد الذي لا انقضاء لوجوده.. يعوضك عن المتعة التي مرّت بك وتلبثت عندك قليلاً ثم غابت عنك، ويمتعك بما يغنيك عنها... ويخلق لك في مكان السبب الذي سخره لك ردحاً من الزمن، سبباً آخر

يؤدي لك النتيجة ذاتها.. كيف لا وهو خالق الأسباب والمسببات، وهو الذي خلق المتع والرغائب، ثم وجه هواك إليها.. لن يضيرك غياب الجنود وابتعادهم عنك، مادمت قد وثقت الصلة ومنتت العلاقة بقائدهم الأعلى.

كذلك الحال تماماً، إذا وافاك أنت ميقات الانفصال فالابتعاد، عن الموجودات التي كنت تتعامل معها وتستفيد منها، وذلك عندما يدعوك داعي الموت إلى الرحيل من الدنيا، والتوجه إلى الحياة البرزخية التي تفصل، بتنظيم أقامه الله عز وجل، ما بين الحياة الدنيا واليوم الآخر.. فإنك لن تأسى ولن تحزن على فراق شيء منها. إذا كان إقبالك إليها أيام حياتك تعاملًا مع الله، وتمتعك بها استلاماً - مع الثناء والشكر - من يد الله. فما الذي فاتك، وما الذي غاب عنك في هذه الحال إلا الوساطة أو البريد الذي كان بينك وبين الله. ولاريب أنك ستغدو عندئذ أسعد حالاً من ذي قبل، إذ ترتفع الوسائط ويغيب حاجز البريد لترى يد المنعم المتفضل تغدق عليك ألوان المتع والنعيم ذاتها دون سُتر من الوسائط والأسباب.

إن الحي الذي ظلّ مشدوداً إلى الله في آماله وآلامه، ويقينه بأنه هو الفعال لا العلل والأسباب، لن يختلف الأمر عليه قط، عندما يوافيه الأجل، وينقله الموت إلى عالم البرزخ، إذ كان وهو يتقلب ويتحرك

على ظاهر الأرض، مع الله، وهو إذ يتمدد الآن في قبره من باطن الأرض أيضاً - بل من باب أولى - مع الله^(١).

فإذا انقضى ميقات الحياة البرزخية، وحن ميقات قيام الساعة وعودة الأرواح إلى أجسادها، وقام الناس كلهم لرب العالمين، سيظل الأُنس بالله مصاحباً له، بل لا بدّ أن يزداد شعوراً وسعادة به. فقد كان هذا الإنسان متعلقاً بالله مستأنساً به، يوم كانت صور الملهيات والمنسيات العارضة تتراقص من حوله، ثم أصبح أكثر أنساً به وتوجهاً إليه يوم فارقت وابتعدت عنه تلك السحب كلها متجهاً إلى حياته البرزخية بعد الموت. وهاهو اليوم، وقد حشر مع الناس كلهم إلى الله في ميقات اليوم المعلوم، قد أصبح أقرب إلى الله وأكثر أنساً به وأشد توجهاً إليه وتعلقاً به.

إذن، من الذي صاحب هذا الإنسان في رحلته كلها ذات المراحل أو الفصول الثلاثة المترابطة؟ لم يصاحبه خلال ذلك كله إلا الله عز وجل، وكل ما عداه من متع ورغائب وأموال ومساكن وأقارب وأحباب تخلوا وغابوا عنه، كلٌّ في حينه وميقاته الذي قضاه الله عز وجل.

إذا تبين لك أن هذا ما يقوله العقل، ويقرره المنطق الذي هو ميزانه، فلامناص من أن نعجب مع ابن عطاء الله من ذاك الذي يهرب من إلهه الذي لا انفكاك له عنه، متعلقاً بما لا بقاء له معه.

(١) أنا لا أعني الجسد الذي انفصلت عنه الروح وتعرض للتفسيخ والفساد، وإنما أعني الروح التي لاتزال موجودة كما كانت، ولاتزال تتمتع بالشعور والإحساس كما كانت، بل هي مصدر الإحساس للجسد كله.

وإنما يكون الهروب من الله بإنكاره وجحوده، أو بنسيانه والإعراض عنه، والتعامل مع مسخراته وجنوده فقط، أو بالتعلق بالنعم والسكر بها والذهول عن المنعم. ومصدر العجب في هذا، أنه يرى بمقتضى بصيرته وعقله أن كل هذه المظاهر التي يتعامل معها ويتعلق بها ويعلق مصيره بها، صور زائلة لا استقرار لها، ويرى بملء قدراته الفكرية أنها مطبوعة بطابع الزوال، كما أوضحنا وفصلنا. ومع ذلك فهو يغيب بفكره وإدراكه عن موجدتها والإله المتصرف بها والمسخر لها، ويواصل رحلته في فجاج هذا الدنيا متشبثاً بها، ويسلم مصيره إليها شأن من يأمل منها الاستقرار والخلود.

ثم إن الذي يزيد الأمر عجباً، أنه يرى كل يوم ظاهرة انقطاع هذه المتع وغياها عن الناس المتعلقين بها واللاهثين وراءها، أو ظاهرة انقطاع الناس وابتعادهم عنها، إذ يتخطفهم الموت، ويمضي بهم مجردين عرايا عن كل شيء.. قد تخلى عنهم، بل تخلوا هم عن كل شيء، اللهم إلا مولاهم الذي لانفكاك لهم عنه، مهما تقلبت بهم الرحلة ومهما طالت بهم الحياة، ويعلمون أن المصير ذاته ينتظرهم، وأنهم يقفون من ميعادهم مع الموت في «الطابور» ومع ذلك فهم يظلون متشبثين بما لا بدّ من مفارقتهم له، ويفرون من مولاهم الذي لانفكاك لهم عنه!..

ويزداد الأمر عجباً، إذ يسمع التحذير تلو التحذير، ويأتيه النذير بعد النذير، فيظل معرضاً عن هذا وذاك، ويبقى مستمراً في الاستناد إلى ركام الثلج وهو ماضٍ في الانحلال والذوبان، غير مبال بأنه سيهوي

عما قريب في عمق أعماق الوادي الذي لا يفصله عنه إلا ذلك الركام!.. يسمع قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٢٤/٣٩].

ويسمع قوله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/٤٦].

ويسمع قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [التقصص: ٢٨/٦٠].

يسمع هذا كله، فلا يوقظه من سكره، ويظل يعانق الوهم، ويتقلب مع الوهم، ويجعل منه مستند استقراره الذي لا يحيد عنه. فإذا وافته المنية رأى عندئذ بأم عينيه ما ولى وأدبر عنه، مما كان يظنه مستند نعيمه وبقائه، ورأى ما بقي ماثلاً أمامه مما ظل غائباً بل محبوباً عنه بوهمه القتال!..

* * *

ثم اعلم أن التعلق بالله عز وجل، من دون سائر الأعراض الزائلة، لا يستدعي الإعراض عن التعامل معها والصوم عن التمتع بها، فإن الكريم الذي بسط للناس مائدة عطائه وإكرامه، لا يرضيه منهم إعراضهم عنها، ولا معنى لاستغنائهم به عنها. إذن لما كان للكرم معنى يميزه عن الإمساك والشح. ألا تتأمل في قوله عز وجل: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سأ: ٣٤/١٥] وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ

مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٣٢٧﴾
[الأعراف: ٣٢٧].

ولكن المطلوب من العبد المملوك تجاه ربه الذي لا شريك له في ربوبيته ومالكيته له، أن يعلم مستيقناً أنه هو لا غيره مصدر كل فضل وعطاء، فلا يتبغي رزقه إلا منه، وأنه هو لا غيره مسبب الأسباب كلها، فلا يشرد به الوهم إلى العلل والأسباب الوهمية يتعلق بها ويجعل منها شريكاً مع الله أو مؤثراً من دون الله، وأن يعلم أن كل شيء مما يحلو لعينيه مرآه، أو مما تتمتع به نفسه، أو مما يشعر بالأنس به والحب له والركون إليه، سيتخلى عنه عما قريب، بل سيؤول إلى الزوال. ولن يبقى من صاحب ولا أنيس ولا سمير ولا أهل ولا حبيب معه إلا الله عز وجل.

والشأن فيمن يعلم كل ذلك أن لا يركن إلى ما قد علم أن مآله إلى الهلاك والزوال، بل أن يتعلق بالهه الذي لا يتخلى عنه، فيتخذه مصدر أنسه وموئل آماله، ومعين سعادته ونعيمه، وملاذه الوحيد من كل المخاوف والأخطار.

وذلك هو حال المؤمن حقاً بربه والموقن بوحدانيته: يجلس على مائدة الرحمن، ويتناول منها ما لذ وطاب، وكلما تمتع منها بمزيد ازداد بالله تعلقاً، وازداد له حباً وشكراً. ذلك لأنه يتعامل مع النعم ويتمتع بها، ولكنه لا يرى إلا المنعم، إذ هو - كما قلنا - المتفضل والمعطي والمسبب والمسخر.. وإذا ما طاف به كرب أو داهمه سوء أو ألت به مصيبة، لم يطرق بها إلا باب الله عز وجل. أي إنه إن استخدم

الوسائل والأسباب وإنما يطرق بها، في يقينه ومعتقده، باب الله عز وجل.

هذا الإنسان، لن يكون هوى قلبه إلا لله، ولن يكون مذكوره، كلما طمع في مغنم أو توجس خيفة من مغرم أو تطلع إلى كسب، إلا الذات العلية جلّ جلاله. وسوف يكون هذا الوضع الملازم له أول مصدر لراحة باله وسكينة نفسه وغياب همه وحزنه، ولعله ينشد مع ذاك الذي كان يتمتع بهذه الحال ذاتها، قوله:

كانت لنفسي أهواء مغرقة فاستجمعت مذراتك العين
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذصرت
تركت للناس دنياهم وشأنهم شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي
والعجب كل العجب، أن يدرك أحدنا هذه الحقيقة بعقله وأن
يتمثلها بيقينه، ثم ينسى - على الرغم من ذلك - إلهه الباقي الخالق
الرازق المعطي المانع المتصرف بملكوته كما يشاء، ولا يتذكر إلا حجارة
الشطرنج التي لا تتحرك إلا بتحريك الله، ثم إن مآلها إلى الزوال
والاندثار.

أنبأني والدي رحمه الله، أن رجلاً من الصالحين، هاجر من بلده
لأمر ديني اقتضاه ذلك، وانتهى به المقام إلى إحدى القرى. فتعرف
عليه إمام المسجد الذي كان الرجل الصالح يختلف إليه ويصلي فيه.
وسأله فيما سأله عن مورد رزقه، فأجابه مطمئناً: إن الله لا ينساه!..
وبعد أيام عاد الشيخ إمام المسجد يسأله عن حاله، ويستوضح منه

مصدر رزقه، فأكد له أن الله يكرمه وأنه لا يعاني من أي مشكلة في رزقه.. ولكن الإمام لم يطمئن بالاً وعاد يسأله في لقاء ثالث: ولكن من أين تأتيك أسباب معيشتك؟ فقال له: إن في هذه القرية يهودياً عرفني واطلع على وضعي، فأجرى لي جراية من المال تكفيني وتسد حاجاتي. فقال له الشيخ: حسناً، لقد زال القلق الذي كان يساورني عليك!.. قال له الرجل الصالح: يا هذا، لأقضيّن الصلوات التي صليتها ورائك!.. لقد أكدت لك مراراً أن الله قد تكفل برزقي ولن ينساني، فلم يقع ذلك منك موقع الطمأنينة والقول، ولما أخبرتك بأن الذي تكفل برزقي يهودي من الناس، وثقت بكفالاته وإكرامه!..

تلك هي حال كثير من المسلمين اليوم.. تعظم الأسباب الشكلية والوهمية أمام أبصارهم، ثم لاتزال تعظم، حتى تنسيهم خالقها ومسببها، فيعيشون مع الوهم ويذهلون عن الحقيقة. يتعلقون بالسراب الذي لا وجود له، ويعرضون عن المعين الذي هو ملء الكون كله! يعرضون عن خالق السماء وقيومها، ثم يتحدثون عن رحمة السماء!.. يعرضون عن اليد التي تضع ملعقة الطعام بمنتهى العطف في أفواههم، ويتغزلون بالملعقة التي تكرمهم وتفرغ الطعام في أشداقهم!..

إن لم يكن هذا هو الكفران في أحط مظاهره، فقل لي: كيف يكون؟

* * *

وينهي ابن عطاء الله هذه الحكمة مستشهداً بقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤١/٢٢]. ومؤكداً بأن كل من كان يعاني من هذا التيه العجيب، فإنما هو واحد ممن أصيب بعمى القلب. وهو العمى الذي إذا وقع لا يمكن أن يستعاض عن ظلامه بأي نور. إذ القلب هو مصدر النور أينما كان تجليه وظهوره، فإذا طمس الله عليه وأفقده نوره، فهيهات لبقية الأعضاء أو الكيان، أن يسري أو يتجلى فيه قبس أو بصيص منه.. ومهما بقيت العينان مبصرتين، فإنهما تبصران بدون نور، أي بدون إدراك للحقائق مهما كانت جلية ساطعة. وهذا هو مرمى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا..﴾ [الأعراف: ١٧٩/٧] أي إن لها رؤية غيبية غير ذات جدوى.

إذن فالعمى الحقيقي الخطير هو ذلك الذي يتلى به القلب. ولا جدوى معه لرؤية العين. والإبصار الحقيقي، ذلك الذي يتمتع به القلب، ولاضير معه من عدم الرؤية بالعين.

أجل.. وصدق الله القائل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦/٢٢].



الحكمة الثانية والأربعون

((لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى،
يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه.
ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون)) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢/٥٣] وانظر إلى قول رسول الله ﷺ
((من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله
ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة
ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) فافهم قوله عليه
الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم))

الكون كل ماعدا الله، والمكوّن هو الله. والكون، أو الأكوان
وسائط وأسباب، والمكوّن الذي هو الله غاية الغايات، ومنتهى الآمال.
هل يرتاب في هذه الحقيقة أحد، ممن عرف الله وآمن به؟!..

إذن فالمطلوب من كل من عرف الله وآمن، حقاً، به، أن يجعل من
كل مظاهر الحياة الدنيا وأسبابها ومقوماتها، وسائط يسخرها لبلوغ
مرضاة الله، وأداء حقوق الربوبية عليه، وأن لا يتغنى بالأنشطة

والأعمال التي أقامه الله عليها، إلا أداء الوظيفة التي كلفه الله بها، تقرباً وتحبباً إليه.

فإن هو فعل ذلك، وابتغى في كل تحركاته وشؤونه هذا القصد، فقد نسق بين الوسائط، والغاية الكبرى التي هي غاية الغابات، وأعطى كلاً منهما حقه في العمل والاهتمام.

وإن هو تعامل مع الأكوان للأكوان، واستخدم الوسائط للوسائط، وسخر الأسباب لمزيد من الأسباب، دون أن يخرج من هذه الدائرة إلى ما وراءها، حيث الهدف الكلي الذي خلق من أجله، ثم أمضى حياته كلها على هذه الحال، فالشأن فيه كشأن حمار الرحى (أي الطاحون) يمشي دائماً في حركة دائرية ضمن مساحة مغلقة؛ يسير، والمكان الذي ارتحل منه سرعان ما يعود إليه، يكرر ذلك المرة تلو المرة، دون انقطاع.

أجل.. التشبيه دقيق، والمثال ينطبق على الواقع الممثل له دون اختلاف.

بيد أن شأن الدواب من البشر، إذ يجنحون إلى دائرتهم المغلقة هذه، أشنع وأسوأ حالاً، من شأن الدابة التي تؤدي من خلال دورانها هذا عملاً كلفها به صاحبها لصالح الرحى التي تطوف من حولها.. فهذا الإنسان الذي ينشط في الدوران المغلق ضمن عالم المكونات وأسباب العيش والطعام والشراب، ثم لا يتجاوزه، لا يتجه نشاطه المغلق ذاك إلى أي هدف كالذي يتجه إليه نشاط تلك الدابة، بتوجيه من صاحبها وآمرها... وإنما هو السير إلى المتعة والعيش، ثم عود إلى المتعة والعيش،

وهكذا دواليك إلى أن ينتهي قسطه منهما، ويأتي ميقات انتقاله من ساحة هذه الحياة.

ولا يصح في العقل والمنطق، أن يقال: إن غاية وجود الإنسان في الدنيا، أن يتقلب في ألوان النعيم، وأن يتناول الطيبات من الطعام، ويسكن في القصور الباذخة، ثم ينفذ يديه من ذلك كله، ويتخلى عنه إلى حيث لا يدري، وهو يجترّ من فراقه لكل تلك المتع غصصاً وآلاماً لا يقوى على وصفها البيان. ولاتنس أننا إنما نحاطب من كان مؤمناً إيماناً حقيقياً بالله عز وجل. فأما من لا يزال يعاني من جحوده بالخالق، ويتوهم أن الإنسان إنما يعيش ليأكل ثم يعيش ليأكل.. بأمر من الطبيعة التي لاتناقشُ ولا تجادلُ ولاتُسالُ، ثم تنهي الطبيعة قصة الحياة كلها على هذا المنوال، فليس لنا من سبيل إلى هذا الحديث معهم قط، إنما هو سبيل واحد نسلكه إليهم، هو الدعاء من الله عز وجل لهم أن يوقظهم إلى حقيقة هذا الكون وأن يريهم الحق حقاً ويرزقهم اتباعه والباطل باطلاً وأن يرزقهم اجتنابه.

إذن أعود فأقول: إن كلاً من العقل والمنطق يأبى أن يقال إن الله إنما أودع في هذه الحياة الدنيا مقومات العيش الإنساني وأسباب الرغد فيها، ليجد الناس أسباب سعادتهم ولذائذ عيشهم في جنباتها، دون أي غاية أخرى وراءها.

ذلك لأن حاجة الناس إلى تلك الأسباب إنما تتجلى بعد وجودهم وخلق الله لهم؛ وإذا افترضنا أن ليس لإيجاد الله الإنسان من حكمة وموجب سوى أن يتمتع بما يحفظ حياته وعقله وبنعيم المتع العضوية

المختلفة. فمقتضى ذلك أن تنتهي مقاصد الخلق بطي هذه الحياة الدنيا وانقضائها، ومن المعلوم أن حاجة الإنسان إلى متع العيش وأطاييه، إنما تتحقق بعد وجوده؟ ولكن لماذا وُجد حتى اقتضى وجوده أن توفر له تلك المتطلبات؟ ليس من جواب على هذا السؤال الذي لا بد أن ينبثق عن هذا التوهم الباطل، إلا أن يقال: إنه قد وجد عبثاً. وهذا ما نفاه الله عن ذاته العلية، إذ قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥].

ولاريب أن ألوهية الله عز وجل ذاتها، هي الدليل الذي لا يقبل الريب، على أن الإله الحق أجلّ من أن يعبث.

إذن فالمنطق يقرر أن مقومات العيش التي جهز الله بها مكان الإنسان في حياته الدنيا هذه، إنما هي أسباب لتدبير عيشه وتنظيم حياته.. وليست هي السبب أو الحكمة لأصل حياته ووجوده.

أصل حياته وإيجاده يعتمد على حكمة أخرى، تتلخص في أن الله عز وجل قضت مشيئته أن يقيم خليفة له في الأرض يعمرها على النهج الذي يرتضيه وطبق الشريعة التي أوحى بها إليه، بموجب عقد واختيار، لا بسائق قهر واضطرار. فيكون ذلك العمران القائم على النهج الذي أمره به والمنضبط بالشريعة التي علّمها له، مظهراً آخر من مظاهر ربوبية الله وحكمته وعدله وعظيم تدبيره، ثم ليجزيه بعد ذلك الجزاء الأوفى، إن هو أحسن الخلافة ووفى العهد ونفذ الأمر، وإنما الجزاء الأوفى أن يكرمه الله بالخلود الدائم بعد أن يقوم الناس لرب العالمين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر مكرّماً بكل أصناف السعادة والتكريم.

فالحكمة من إيجاد الله الإنسان، هي هذه، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ الآيات.

أما الأقوات والأرزاق وامتع الحياة الدنيا ومصالحها، فإنما هي خدام للإنسان وحاجاته على الطريق، إذ يباشر واجباته وينهض بأداء حقوق هذه الخلافة التي كلفه وشرفه الله عز وجل بها.

إذن فتوجه الإنسان بالحياة إلى رضا الله، بأداء رسالته وتنفيذ شرعته هو الهدف الكلي الأقدس، أما تعامله مع مقومات العيش وأسباب الرزق والمتع التي تزخر بها المكونات، فخدم وحشم أرقامهم الله في الطريق إلى تحقيق رسالته وتنفيذ أوامره والنهوض بأعباء الخلافة عنه.

* * *

والآن، بعد هذا الذي تبين لك، تدرك مدى أهمية نصيحة ابن عطاء الله في هذه الحكمة، وتدرك مدى خطورة الشرود عنها. إنه يقول لك: ألا فلتعلم أن المكونات المسخرة لك، إنما هي سبل ووسائل سخرها الله لك، لتستعين بها في التوجه إلى الله، فإياك ثم إياك أن تركز إليها وتحبس نفسك في أقطارها، وتنسى في غمار ذلك رحلتك التي أنت بصدها إلى الله.

والحق أن الداء الوييل الذي يعاني منه أكثر المسلمين اليوم، متمثلين في أفراد أو هيئات أو مجتمعات أو قيادات ورئاسات، أنهم عن هذه الوصية الكبرى غافلون، وعن الهدف الأقدس الذي خلقهم الله لأجله معرضون. وداخل أقطار الوسائل والأسباب والمتع الكونية قابعون. فهم كما قال ابن عطاء الله يتحركون (بحثاً عن أهوائهم ومتعهم) من

كون إلى كون إلى كون، يراوحون في أماكنهم، وينسجون من ذلك خيوطاً عنكبوتية تلتف عليهم من حيث لا يشعرون، وعاقبة ذلك، الاختناق الذي لا محيص عنه.

ودعني أضعك أمام نماذج من الحياة التي يتقلب فيها اليوم كثير من المسلمين، والتي تشكل مصداقاً دقيقاً لهذا الذي يحذر منه ابن عطاء الله، بل الذي يحذر الله منه مراراً وبأساليب شتى في قرآنه المبين:

هذه النماذج تنقسم إلى قسمين: اعتقادية، وسلوكية.

إليك أولاً هذه النماذج الاعتقادية: ينظر أحدهم إلى الكون فيراه مليئاً بعالم الأسباب والمسببات التي أقامها الله تعالى وقرن بينهما محض سلطانه وتدييره وخلقه، فتزيغ عيناه وتتيه بصيرته داخل هذا العالم ثم لا يتعداه ولا يتجاوزه إلى المسبب الخالق قط..

يرى السماء وقد تكاثفت فيها الغيوم، فيحلل ذلك ويعلله، ويعيده إلى فاعلية الأكوان وما يسميه الطبيعة، من الأبخرة التي تصاعدت من البحار فتجمعت وتكاثفت.. ثم يعيد هذه الظاهرة الكونية إلى مثلها من عوامل الكون وأسبابه.. فإذا رأى أن الشتاء قد أقبل وحطّ برحاله، وكاد أن ينقضى دون أن يرى الناس أمطاراً هطلت ولا غيوماً تكاثفت، بحث لذلك عن عوامل كونية أخرى كالاحتباس الحراري، أو كخلل في طبقات الأوزون... فإن سئل عن سبب هذه العوامل ذاتها، تلمس لها سبباً كونياً آخر، كفساد البيئة، واختلال التوازن في غازات الغلاف الجوي، وهكذا دواليك، لا يبحث عن علّة لظاهرة كونية إلا في ظاهرة كونية مثلها، ويظل يتيه بين هذه الأغصان الفرعية الكونية، دون أن يرحل منها أخيراً إلى المكون جل جلاله.

يرى أمراضاً تتسرب إلى أجسام، ثم تتفاقم الأمراض، فيعقبها الموت وأحياناً الشفاء، فيبحث لذلك كله عن أسباب كونية طبيعية، ثم يتلمس لتلك الأسباب أسباباً وعوامل كونية مثلها، ثم ينشد مصدر ذلك كله، فلا يعود به التيه إلا إلى العوامل الكونية ذاتها، دون أن يتنبه، خلال بحثه هذا إلى أن هذه السلسلة تبدأ من لدن الفاطر الحكيم جل جلاله، الذي خلق كل شيء ثم ربط هذا بذلك فجعل من الأول سبباً ومن الثاني مسبباً، وأخضع الكل لسلطانه وتديره.

وإليك هذه الصور من النماذج السلوكية:

يفتح أحدهم عينيه على الحياة التي أمده الله بها والنعم التي متعه بها، فيرى العاقبة التي تسري في كيانه، والمال الذي أغدقه الله عليه، والدار التي أسكنه وآواه فيها.. فيبحث لعافيته عن المتع والمشتهيات التي يحكم بها، ويبحث للمال المتراكم عنده عن الحفلات والسهرات التي ينتشي في أحوائها، ويملاً الدار التي آواه الله فيها بأنواع التحف والرياش التي يفاخر ويباهي بها.. فإذا اهتزت أو اضطربت منه العافية لمباغته في العكوف على المشتبهات هرع إلى الأطباء والعلاجات والمصححات والتحاليل، ليستعيد عافيته وليطمئن إلى أنه سوي الجسم والدخائل العضوية، فيعود إلى التمتع بمشتهياته.. وإذا قلّ المال وتراجع الكمّ الحسابي لديه من جراء الليالي الساهرة والحفلات العامرة، أسرع يغامر ابتغاء مزيد من المشاريع التجارية، ومدّ يده لاهناً إلى ما يمكن أن تصل إليه من أموال الآخرين وحقوقهم بشتى الطرق المتلوية الممكنة.. وينظر ليجد أن أثاث منزله قد تقادم عليه العهد، وأن النمط الذي كان

قد أعجبه منه قد نسخ، فيضطره الحال إلى أن يعود فيجدد أو يضعف من نشاطه المالي.

وهكذا، فإن كل جانب من جوانب مبعثاته المعيشية أو الكونية، يسلمه إلى جانب آخر، وما يلبث هذا الجانب الثاني أن يسلمه إلى جانب ثالث، وقد تحولت حاجاته المعيشية كلها إلى هدف كلي، بعد أن جعلها الله له وسائل إلى الوظيفة القدسية التي خلق من أجلها.

فانظر كيف يرحل هذا الإنسان وأمثاله من كون إلى كون إلى كون، ليعود إلى النقطة التي بدأ منها.. ثم يواصل الدوران مرة أخرى، فتالفة فرابعة، حتى توافيه المنية وهو على هذه الحال.

وتأمل في حال هذا الإنسان، كيف حول نفسه من عبد لله موظف لديه، مكلف بإنجاز المهمة التي خلق من أجلها، إلى عبد للإمكانات التي سخرها الله له، يعيش في غمارها، ويجس نفسه في أقطارها، وقد أصمّ أذنيه وأعمى قلبه عن نداء الله القائل له: ﴿وَأَبْغِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ..﴾ [التقصص: ٢٨/٧٧] وعن قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٨٤/٦] وعن قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٩٦/٨].

وفي قول ابن عطاء الله «ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون» ما يدل على أن الإنسان ليس مكلفاً بالإعراض عن المكونات التي سخرت له، بل ينبغي أن يلتفت إليها ويهتم بها ويستخدمها، ولكن على أنها مطية ذلول، تنقله إلى رحاب المكونّ جل جلاله من خلال استخدامه لها واستفادته منها وارتحاله إلى الله منها. العافية مطلوبة،

والمال لا بدّ منه، والمسكن الفاره نعمة وأي نعمة، وبناء الأسرة عن طريق الزواج ومتعته خير وأي خير.. والصناعات والتجارات والعلوم والمعارف مفاتيح لا بدّ من استعمالها. ولكنها جميعاً يجب أن توضع في خدمة المهمة التي خلق الإنسان من أجلها، وفي عون الأمانة التي حمّله الله إياها.. إنها سلّم ذو درجات من المكونات، يجب أن تستعمل مرقاة لبلوغ مرضاة المكون وتنفيذ أوامره، لا أن تتخذ أداة لصدّ صاحبها عن السير إلى الله وتلمس السبيل إلى مرضاته.

* * *

غير أن الذي هو أسوأ وأخطر من هذا، أن يرحل الإنسان من المكوّن إلى الأكوان!!.. وإنما يكون ذلك بأن يؤدي الوظائف والواجبات الدينية المختلفة من عبادات وقربات مختلفة، ولكنه يتخذ منها مطايا وأدوات لنيل مبتغياته الدنيوية، من جاه أو مال، أو حظوة، أو شهرة، أو غير ذلك من حظوظ النفس.

والمناذج الحية الواقعية لهذا النهج كثيرة:

إن هذه الفصول التي أكتبها في الدعوة إلى الله، والتعريف بآداب السلوك إليه، واحد من هذه المناذج إن أنا ابتغيت منها مالاً أناله، أو شهرة أتمتع بها، أو ثناء أطرب له. والله هو المستعان أن يجعلني في حصنه الواقفي من شرّ نفسي وشرّ ما جبلت عليه.

وإن الفتاوى التي تحبك حبكاً مصلحياً، ثم تصدّر أماً في مغانم أو فراراً من مغارم أو مصانعة لفئات أو جماعات، واحدة من هذه

النماذج، يغيب عنها سلطان الإله المكوّن، ليهيمن عليها سلطان المكوّنات ذات الألوان والجاذبيات المتنوعة.

وإن الانتصار للرأي الاجتهادي في الدين، واحد من هذه النماذج، عندما تكون العصبية للذات هي العامل الكامن وراء هذا الانتصار، وما أكثر ما تستعمل الاجتهادات الدينية غذاءً خفياً للأناية الفردية أو الجماعية، وأداة سباق في حلبة الصراع بين الفئات أو الأقران.

وإن التحمل بألقاب الدين ومظاهره في الكيان والملبس، وشغل اللسان بأحاديثه وبما يدّل على مشاعر الاهتمام به والغيرة عليه، هو الآخر من هذه النماذج، عندما يتغنى منه ترويج تجارة، أو جذب مزيد من الزبائن، أو إخفاء ما تتم ممارسته من غش المعاملة.

إن الصورة في هذه النماذج كلها، صورة تعامل مع الله، وإقبال على الخالق المكون، ولكن الحقيقة الخفية الكامنة، أنها رحلة من الله إلى الدنيا، وخوض في غمار المكوّنات.

وهذا ما نبه إليه ابن عطاء الله وحذر منه عندما وضعنا من هذا الخطر أمام قول رسول الله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، إذ الهجرة في شكلها تعامل مع المكون وتقرب إلى الله بعمل هو من أجلّ القربات والمبرات.. ولكن عندما يغيب القصد الرباني وتختفي الغاية القدسية المتمثلة في بلوغ مرضاة الله تعالى، يهبط هذا العمل بصاحبه إلى ساحة التعامل مع المكونات والسير وراءها والتفوق داخل أقطارها.

بقي أن كلاً منا، لا بدّ أن يتساءل - بعد هذا الذي تمّ بيانه - عن العلاج.. العلاج الذي إذا أخذ به المؤمن نفسه تحرر من أسر الأكوام وانتقل منها إلى المكون: يدين له، ويتعامل معه، ويستخدم الدنيا كلها لبلوغ مرضاته؟.. أجل، ما العلاج؟

العلاج، أن نعود إلى الحكمة التي قبل هذه مباشرة والتي يقول فيها ابن عطاء الله «العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه»، فتتذكر أن الإنسان مهما عاش وطال به الأمد فوق هذه الأرض، لا بدّ أن يوافيه الأجل الذي سيواجهه في ميقاته المحدد، دون تقدم ولا تأخر، والذي سيحمله على أن ينفذ يديه من المكونات كلها، وعلى أن يتخلّى عنها، متجهاً في أعقاب ذلك إلى المكوّن جل جلاله.

فإذا استقر في ذهني وذهنك أننا من الدنيا كلها في مستودع، وأنا مشدودون خلال كل لحظة من وجودنا فيها إلى المقرّ، حيث وقفة الحساب بين يدي الناقد البصير جل جلاله، وحيث يطرح على كل منا السؤال القائل: لقد متعتك بعُمرٍ بماذا ملأته؟ ومتعتك بعافية، فم صرفتها؟ ومتعتك بمال فم أنفقته؟ ومتعتك بعلم ماذا صنعت به؟.. فلسوف نحصر اليوم كل الحرص، على أن لا يكون جوابنا آنذاك: لقد اتخذت من ذلك كله سجنًا قبعت في أرجائه، ومعبوداً اتخذته من دونك، وغاية أنستني لقاءك في هذا اليوم الموعود..

ولسوف نعلم أن سييلنا إلى ذلك، أن نبدأ فنشدّ صلتنا بالله عز وجل عن طريق الذكر والفكر، نذكر دائماً معيته لنا ومراقبته إيانا،

ونصائحه ووصاياه التي يلاحقنا بها.. ثم نذكر الميقات المحدد الخفي لمفارقة هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها، وضجعة الموت التي ستسلمنا إلى الحياة البرزخية، فالحياة الآخرة التي هي دار الخلود والقرار.. ثم نذكر أن الذي يصحبنا خلال هذه المراحل والتقلبات كلها هو الله.. هو أنيسنا، وهو نجينا، وإليه وحده مفتاح سعادتنا أو شقائنا.

فأي عاقل، يبقى بعد معرفته لهذا كله، قابلاً متطوحاً في سجن المكونات، يراوح في مكانه، ينتظر قضاء الله أن يقذف به إلى الغاية التي تناساها ولم تنسه، وفرّ منها إلى هذا السجن فتابعته ولحقته؟!..

اللهم أيقظنا قبل فوات الأوان، وألهمنا الخروج من سجن المكونات إليك آمنين مطمئنين، قبل أن يخرجنا منه أذلاء نادمين، قضاؤك المبرم في يومك الموعد، إنك الحكيم اللطيف الودود، والسميع المجيب.

* * *

الحكمة الثالثة والأربعون

((لاتصحب من لاينهضك حاله، ولايدلك على الله مقاله))

كثيراً ما يطرح أحدهم السؤال التالي متلهفاً:

لقد أكرمني الله بالهداية بعد الضلال، والتزمت أوامره بعد طول إعراض وشروء، ولقد عزمت على الابتعاد عن نواهيه، ولكن الغريزة البشرية ما تزال تهتاج بي، وتسوّل إليّ المحرمات، وتدفعني للرجوع إليها، وأجد نفسي ضعيفاً أمام هذا الصراع. فما الملاذ وكيف الخلاص؟

أعتقد أن الجواب عن هذا السؤال، في أكثر الأحيان، واحد، هو هذا الذي يقوله ابن عطاء الله!..

إن المناخ الذي يحيط بالإنسان الذي هداه الله (لاسيما إن كان شاباً) يلعب دوراً كبيراً في تثبيت هدايته أو في بعث عوامل الاضطراب والضعف فيها.

فإن كان الناس الذين من حوله، والذين يشكلون المناخ الذي يتحرك وينشط فيه، من الصالحين المستقيمين على أوامر الله، ومن

الذين فاضت قلوبهم بمشاعر العبودية لله، فلسوف يزداد هداية وحباً للاستقامة، وتقرباً إلى الله عز وجل، وكرهية للحال التي كان عليها من قبل.

وإن كانوا من أصحابه التائبين الذين كان يلقاهاهم ويسامرهم على موائد اللهو والعصيان، وكانوا لا يزالون يتيهون في انحرافاتهم وغيهم، فلسوف يلقى من صحبتهم عنتاً كبيراً، وسوف يثور بين جوانحه الحنين إلى ماضي فسوقه معهم، ولا بد أن تمتد من ذلك ظلل من الضيق إلى قلبه وأن تهتاج عاصفة من الرغبات داخل غرائزه، فيقوم من ذلك بين جوانحه صراع، الله أعلم بنتائجه.

والمشكل أن في الناس من لا يعلمون، أن من وراء المادة المرئية أسراراً تدق عن الرؤية والرصد، تفعل أفعالها الهامة والخطيرة في الكيان، وأن لكل من الفسوق الذي يتراكم ويهيمن على النفس، وللتقوى ومشاعر العبودية الواجفة لله إذ تهيمن هي الأخرى على النفس، جاذباً خفياً عجيباً، أشبه ما يكون بالجاذب الذي أودعه الله في هذا المعدن الذي نسميه «المغناطيس».

إن لله تجليات على عبادته.. له تجليات رحمة يقبل بها على المتحققين بمعاني العبودية له عز وجل، التزاماً وذكراً وتعظيماً ومهابة وحباً، واستغفاراً وتوبة عند كل إساءة وتقصير.. وله تجليات مقت يقبل بها على السادرين في غيهم، العاكفين على فسقهم، المستخفين بشرائع ربهم...

أفتظن أن الرحمة التي يتجلى الله بها على الصنف الأول من عباده، تبقى خفية داخل سرائرهم وفي عمق كياناتهم؟.. إن الأمر ليس كذلك، لا بدّ أن تطفح آثار هذا التجلي، أو التوجه، على ظواهرهم وأشكالهم، ولا بدّ أن تسري منه أشعة تمتد من نفوسهم إلى أبصارهم، فتخترقها لتسري إلى طوايا نفوس الأقربين منهم والجالسين إليهم، دون أن تدركها الأبصار، إذ هي ليست من نوع الأشعة المحسوسة التي تعكس أنوارها على الجدران والأرض والبقاع، وإنما هي أشبه بتلك الألوان التي تسمى فوق البنفسجية.. وسرعان ما يظهر أثر ذلك على أولئك الذين يجالسونهم ويقبلون إليهم، رقةً في القلب، وانشراحاً في الصدر، وحيناً إلى الحق جل جلاله.

كذلك الحال عندما يكون الأمر على النقيض من ذلك: فإذا تجلى الله تجلّي مقت على الفريق الثاني من عباده، فلا بدّ أن تطفح آثار ذلك المقت والغضب الإلهي على ظواهرهم، تمتدّ من ذلك قتره على وجوههم وقسماتهم، وتخرق من ذلك المقت أشعةً غير مرئية، نفوسهم فأبصارهم، لتسري إلى نفوس الأقربين منهم والجالسين إليهم، قسوةً في القلب، وضيقاً في الصدر، وضعفاً واستخذاء أمام الغرائز والأهواء.

إن لتجليات الله قصة وأبي قصة، يضيق عن ذكرها البيان، تبرز الصورة الباهرة الأخاذة منها، في تجلّي الله عز وجل لجبل الطور إذ كان يناجي كلمه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فانعكس من آثار ذلك التجلي على موسى الذي لم يكن يرى إلا الجبل، ما جعله يقع أرضاً ويخرّ صعقاً.

وتبرز الصور الملتفة والمصغرة عنها في تجليات الله على قلوب عباده، فما كان منها تجلي تحبب وجذب وأطاف، تنسي صاحب ذلك القلب ذاته والدنيا التي من حوله، وتقذف به في يم من النشوة والنعيم لا ساحل له، وتملاً كيانه رضا، أياً كانت الحال التي هو فيها... وما كان منها تجلي مقت وغضب، يغلف قلب صاحبه بغلاف من القسوة التي تتجاوز قسوة الحجارة، كما قال الله عز وجل، ويستثير في كيانه أسوأ الغرائز والطباع، ويحجبه عن بوارق الحقيقة اللامعة، وعن آيات الله الباهرة.

والمهم أن تعلم أن لكل من هذين التجليين آثاراً تمتد إلى الآخرين من المجالسين والأقربين، فتجليات الحب والرحمة تسري أنوارها وأشعتها غير المرئية إلى نفوسهم بسائق الرشاش والعدوى، وتجليات المقت والقهر، يمتد دخانها وفيح ظلماتها إليهم أيضاً بالسبب ذاته.

وصدق رسول الله القائل: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو أن تجد ريحاً خبيثة»^(١).

إنك لتلاحظ أن رسول الله ﷺ، ينقل آثار التجليات الإلهية بنوعيتها، وهي معنوية شعورية، إلى ساحة التجليات المادية والحسية، ليؤكد لك أن آثار الأولى بالنسبة للجليس، ليست أقل أهمية وفاعلية من الثانية.. ولتعلم أن الحقائق العلمية اليوم لم تعد كما كانت في وهم

(١) رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري.

الناس، أيام ديكرات وغاليله، محصورة في المادة التي تراها العين أو تخضع للحواس.. إنها اليوم تجاوزت دائرة المادة إلى ماوراءها من دنيا الروح وسلطان العلاقات الشعورية والمعنوية.. إن الأشعة الخفية المنبثقة من النفس من شأنها أن تحترق عيني صاحبها متجهة إلى نفسية الجليس المقابل، دون رؤية منه لها. أما سلطان هذه الأشعة فعائد إلى الله عز وجل، إذ هي في أصلها آتية من عنده منبثقة، كما أوضحنا، من تجلياته..

* * *

فإذا استيقنت هذا الذي قلته لك، وعلمت أنها حقيقة علمية ثابتة، قبل أن تكون خبيراً دينياً مجرداً، تجلت لك عندئذ أهمية النصيحة التي يتوجه إليك بها ابن عطاء الله. إذ يقول لك: «لاتصحب من لاينهضك حاله، ولايدلك على الله مقاله».

هما حال ومقال، ينبغي أن يجتمعا ويتحققا فيمن تصاحبه وتجالسه. أما الحال، فوضع يتلبس كيان الإنسان من جراء ما انتهى إليه باطنه من تركية النفس، وطهارة القلب، وتحوّله إلى وعاء يفيض بمراقبة الله وتعظيمه والخوف منه والحبّ له. وبالجملة فالحال المعنيّ بها هنا هي تحلّص الإنسان مما سماه الله باطن الإثم.

صاحب هذه الحال، ينبعث تأثير من كيانه، من نظراته، من قسّمات وجهه، من سرّ ينبعث من عموم وضعه، إلى جلسه القريب منه والمقابل له، دون حاجة إلى أن يتكلم وينصح ويناقش.. إذ إن هذا

السّرّ الذي سبق أن حدثتك عنه، والذي تنبعث آثاره من باطن الكيان إلى ظاهره، يترك في نفس الجليس من النتائج ما لاتستطيع المواعظ الكلامية أن تحققه. وما أكثر الأعراب الذين انتقلوا خلال دقائق معدودة، من أقصى أودية التيه إلى أعلى درجات الهداية، عندما ضمهم مجلس فيه رسول الله ﷺ، وصافحت أعينهم قسما ت وجهه، فسرى من حاله القلبية مع الله عز وجل، إلى نفوسهم، ما أيقظ فيها كوامن الفطرة، وألهب فيها مشاعر الحنين إلى الحق واسقط منها ركام الأهواء والعصبيات.

وكم في أصحاب رسول الله، ثم في التابعين الذين جاؤوا من بعدهم، فالذين جاؤوا من بعدهم، من هدى الله في مجالسهم ضالين وزائغين عن محجة الإسلام، دون أن يتجهوا إليهم بأي موعظة أو يحدوهم بكلمة. إنما هو الحال التي شعت من داخل نفوسهم إلى أعينهم ووجوههم، فسرى منها تأثير رباني إلى أفئدة أولئك التائهين والزائغين، فكان ذلك منطلق اصطلاحهم مع الله، وانقيادهم لسلطانة وأمره.

تلك هي الحال، ذكرتها لك باختصار، وأما المقال فيتمثل في أن يكون هذا الذي تصحبه وتجالسه، ممن لا يألو جهداً في نصيحتك، يأمرك بالمعروف إن نسيته أو أعرضت عنه، وينهاك عن المنكر أن تلبست به، يشدّ همتك إلى مزيد من الإقبال على الله بكل ما يملك من أساليب الإرشاد والتوجيه، يتجه إليك بذلك كله بدافع من الإخلاص لوجه الله عز وجل، متقيداً بالحكمة الحسنة، وبالآداب المعروفة التي يجب أن يتقيد بها المرشد والناصح.

والشأن في هذا الناصح، إن كان متقيداً بهذه الضوابط والآداب، أن يذكرك بالله ولا يجاملك إن رآك على حالة لا ترضي الله عز وجل، ولكن تحت مظلة من الستر، كما قد أمر الله عز وجل، وبطريقة محببة حكيمة، كما هو شأن الرسل والأنبياء والربابيين.

ولا يكفي في الصاحب الذي تركز إليه أن يكون ذا حال صامتة، لا يذكرك بأخطائك ولا ينهاك عن عثرتك. إن مثل هذا الإنسان إن كان صاحب حال حقاً، فلا بد أن يكون من أهل الجذب الذين شغلهم حالهم عن النظر في أمر الآخرين والاهتمام بشؤونهم.. وعندئذ فإن اقتصارك على صحبة من كانوا على هذه الشاكلة خطأ لا مبرر له.

كما لا يكفي أن يكون هذا الصاحب، ذا منطق متوهج بالنصح والموعظة والإرشاد، إن لم يكن قبل ذلك أو مع ذلك ذا حال مما قد وصفت لك. إن مثل هذا الناصح سيتخذ من نصحه إذن سلم علو في الأرض.. فإن كان دونك في الرتبة بنى لنفسه من نصحه لك أجماداً أمام الناس، وإن كان فوقك في الرتبة أغلظ لك في النصح وتسامى عليك بما ينصحك به ويدلك عليه، ودرّبك على كيفية توقيره وتعظيمه ومعرفة كبير حقه عليك. وبالجملة: الناصح الذي لا يتمتع بالحال القلبية التي وصفتها لك، سيجعل من أنشطة نصحه ومواعظه وإرشاداته حرفة دنيوية يتغني من ورائها حظوظ النفس وأهواءها.. وهيئات لمثل هذا الناصح أن تسري نصائحه من الآذان إلى القلوب.

فمن هنا يطلب منك ابن عطاء الله، أن تستعين للاستقامة على الرشد بمجالسة الصالحين دون غيرهم، ثم يصف الصالحين بأنهم

أولئك الذين اجتمعت فيهم صفتان اثنتان: الحال القلبية مع الله، والنصيحة اللسانية مع عباد الله. فبحاله الصامته يستنهضك إلى تقويم الاعوجاج والمبادرة إلى التوبة، وبنصحه اللساني، يعرفك على الطريق ويصّرّك بالأحكام ويبعدك عن الشبهات ومطارح اللبس. ولا تغني واحدة من هاتين الصفتين عن الأخرى.

ولأشك في أن الذين يتاح لهم الالتزام بهذا النصح، سيجدون منه الحصن الذي يقيهم من وساوس نفوسهم، ومن كيد شياطين الإنس والجن. والصعوبة لا تكمن في صعوبة العثور على الإخوة الصالحين والناصحين، فلا يزال في مجتمعاتنا من هذه النخبة كثير بحمد الله عز وجل. وإنما تكمن الصعوبة في أن يظلّ أحدها - مهما تقلب وقام بأنشطته الدنيوية التي لا مناص منها - داخل المناخ الإسلامي الصالح والناصح!.. لا بدّ أن تدفعه مصالحه الدنيوية وتحركاته المعيشية إلى الاحتكاك بالآخرين، وأعني بالآخرين، الذين لا ينهضك حالهم ولا يدلّك على الله مقالهم.

فكيف السبيل للتغلب على هذه الصعوبة؟

السبيل أن تفرق بين الصحبة التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، التي ما ينبغي أن يفوز بها منك إلا أولئك الصالحون في أحوالهم الصامته ونصائحهم الناطقة، واللقاءات العابرة التي تأتي وتمضي بها المصالح العارضة. اجعل صحبتك المقصودة لذاتها مع الذين وصفهم لك ابن عطاء الله، واجعل علاقتك بالآخرين بالقدر الذي تضطرك إليها ضرورات معاشك وواجبات وظائفك.

بقي أن في الناس من يسأل: فكيف السبيل إلى هذه النصيحة الهامة، لمن زجت بهم ظروفهم إلى العيش دواماً أو مؤقتاً، في المجتمعات الغربية، الأوربية أو الأمريكية؟

وأقول: إن مناط الحلّ والحرمة في عمل هؤلاء الناس، يتمثل في المناخ الذي يعيشون ويتقلبون فيه. فإن أتيح لهم أن ينسجوا لأنفسهم مجتمعاً صغيراً يحيط بهم، يتألف من أفراد صالحين ناصحين، لهم حال إسلامية تهيمن على بواطنهم، والتزام إسلامي يضبط أعمالهم وسلوكاتهم، بحيث تتوفر لهم ولأولادهم في ذلك المناخ أو المجتمع الصغير، النشأة الإسلامية والتربية الإيمانية، بعيداً عن المؤثرات التي تعكر عليهم صفو حياتهم الإسلامية، فلا حرج عليهم في أن يقيموا حيثما نحقق لهم فيه هذا المناخ أو المجتمع الصغير.

أما إن لم يتمكنوا من أن ينسجوا لأنفسهم هذا المناخ الذي وصفت، وكان شأنهم هذا الذي نراه غالباً، من أنهم كلما أرادوا إيجاد هذا المناخ لأنفسهم تغلبت عليهم واهتاجت من حولهم التيارات الضالة الفاسدة، فبددت لهم المناخ وفتت نسيجه، واقتحمت عليهم دُورهم ومؤسساتهم، وملتقياتهم الأسرية والعائلية، لتلون حياتهم وأفكارهم شيئاً فشيئاً بلون المجتمع الذي يقيمون فيه، ريباً في العقائد الإيمانية، أو إعراضاً عن الالتزامات السلوكية، أو استئناساً وتقبلاً لما يرونه حولهم من مظاهر الفسوق والعصيان، فليعلموا أنهم إذن يخسرون، شيئاً فشيئاً، أئمن وأجلّ ما قد خلقهم الله من أجله.. وليعلموا أن كل ما تسوله لهم نفوسهم من مبررات بقائهم على هذه

الحال، كالضرورات واقتضاء المصالح، ومستلزمات الدعوة، أو هام باطلة لاتقرها موازين الشرع وأحكامه.

أما الفتاوى التي تتوالى بتبرير ذلك كله وإعطائه السمة الشرعية المقبولة عند الله عز وجل، فلا أشك في أنها فتاوى حرفية يبتغى من ورائها مغنم دنيوي أو تجاوب مع سياسة مرسومة رعاية لمصلحة فئة أو جماعة.. إن سائر تلك الفتاوى تحبك ثم تدار على محور أو أساس ما يسمونه «الضرورة»، وأشهد أن الضرورة الشرعية بمعزل عن ضرورتهم التي يفترضونها أو يتخيلونها. الضرورة الشرعية المعروفة هي تلك التي إن لم يراعها صاحبها، تعرّض هو أو أي من زوجه وأولاده (يقيناً أو ظناً) لهلاك، من جراء جوع أو عري أو شرود في العراء..

ولقد زرناهم في بلدانهم ومناطقهم التي يقيمون فيها، وتعرفنا على أحوالهم وأوضاعهم، فلم نجد أي ضرورة تطبق على أحد منهم أو تتابعه وتتهده، إنما هي الرغبة في مزيد من المتعة والتوسع. ويأتي ذلك كله - مع الأسف - على حساب الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، نظراً لمقتضيات انسجامهم مع الأنظمة السائدة والتيارات المهيمنة. وهي كلها مناقضة لدين الله وهديه في المنطلق الأساسي وفي نسلوكيات الجزئية العملية.

وصفوة القول: أن المناخ أو المجتمع الصغير الذي يحيط بالمسلم، والذي لاينهضه حاله إلى الانقياد لأوامر الله، بل الشأن فيه أن يتخبطه كما يتخبطه الشيطان من المسّ وأن يهون عليه سبيل الشرود عن أوامر الله ويبعث في نفسه مشاعر الاستخفاف بمبادئه وأحكامه، ثم لا يجد

فيه مقالاً يدلّه على شرائع الله وأوامره ويحذره من نواهيه، فهو مجتمع سيء آس يجب الإسراع، جهد الاستطاعة، في الابتعاد عنه والتخلص منه سواء كان مجتمعه ذاك جزءاً من دار كفر أو دار إسلام، كي لا يقع يوم القيامة تحت طائلة قول الله له ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧/٤].

أما إن كان المناخ أو المجتمع الذي ينشط ويتحرك فيه، له حال ينهضه إلى الانقياد لسلطان الله وأداء حق العبودية له، وفيه من التذكرة القولية ما يبصره بأحكام الله وحدوده، وأمامه ومن حوله متسع يمكنه من تنفيذ شرائعه وأحكامه وآدابه، فهو مجتمع إنساني مفيد، ولا حرج في الركون إليه والإقامة فيه، سواء كان هو الآخر جزءاً من دار كفر أو دار إسلام. وصدق الله القائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥/٦٧].

فالأصل إذن، كما يقول الله عز وجل، الإباحة.. إباحة التنقل والإقامة في بلاد الله الواسعة. ولكن حكم الإباحة يبقى أو يتبدل، حسب الأسباب الطارئة والعوارض المتبدلة، والمقياس، أو الميزان ليس إلا هذا الذي ذكرته لك.

وإنما يقدر هذا المقياس حق قدره ويعلم مدى أهميته، من عرف نفسه عبداً مملوكاً لله، ودان لما بعد الموت، واتخذ دنياه التي يسعى إليها مطية لدينه الذي خلق من أجله، وبوسعي أن أقول لمثل هذا الإنسان، مطمئناً: استفت نفسك، وإن أفتاك المفتون.

* * *

الحكمة الرابعة والأربعون

((ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك
صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك))

هذه الحكمة مرتبطة بالتي قبلها و متممة لها.

زيد من الناس مؤمن بالله، يمارس إسلامه إجمالاً: يؤدي فرائضه الخمس، وينهض بالواجبات الأساسية من الدين، ولكنه مقصر في جنب الله عز وجل، منصرف إلى دنياه، منغمس في متعه وأهوائه، يصرف جلّ وقته لمصالحه الدنيوية العاجلة... وهو في الوقت ذاته يركن إلى صحبة أناس هم أسوأ حالاً منه، فاسقون، مارقون، لا يؤدون حتى الفروض الأساسية التي يؤديها هذا الإنسان.

إن من شأن هذه الصحبة أن تخيل إلى زيد هذا أنه نموذج للمسلم المستقيم على أوامر ربه، وأنه من النخبة الممتازة في المسلمين، وأنه يؤدي حقوق الله عليه، كاملة غير منقوصة!.. ولاريب أن هذا الخيال، إذ يستحوذ على صاحبه يجرّه إلى أخطر النتائج وإلى أسوأ الأحوال، إذ ينسيه مظاهر عيوبه وتقصيره في جنب الله.

إن المطلوب من الإنسان المسلم أياً كان في واقعه ومستواه، أن يتيقظ إلى نقائصه وعيوبه، وأن يتلمس في الناس الذين يريد أن يصطفيهم لصحبته، من يكون عوناً له في الكشف عن عيوبه ومظاهر انحرافه وتقصيره. وإنما يتيسر له العثور على هذه النخبة، عندما يحرص على أن لا يصاحب إلا من هو أسبق منه في الاصطلاح مع الله، وأكثر التزاماً بأوامر الله. فإن هو تورط فوقع في نقيض ذلك، أعجبه نفسه بحكم النسبية التي تفرض ذاتها عليه، من خلال صحبته لأقرانه الذين هم أسوأ حالاً منه، فلم يجد ما يحفزه إلى النهوض بنفسه نحو أي إصلاح، بل الشأن فيه أن يتراجع شيئاً فشيئاً إلى التغلب وأن تجنح به النفس إلى حال من اللامبالاة!..

إن ثمة عوامل كثيرة من شأنها أن تدفع مسلماً ما، على غرار زيد هذا الذي وصفته لك، إلى مصاحبة من هم أسوأ حالاً منه. ولكن من أهم وأخطر هذه العوامل، ما يحدث به هذا المسلم نفسه، من أنه سيتسرب إلى صفوف هؤلاء التائهين، فيصاحبهم، ويخلط نفسه بهم، ويلقاهم على موائد عصيانهم، وفي تقلبات لهوهم، ريثما يستأنسون به ويركنون إليه، وعندئذ يوظف استئناسهم به وركونهم إليه، في توجيههم إلى الله، وإبعادهم عن الآثام والموبقات.

ولكن الذي يحدث أنه يتلى بأمراضهم، ويصيبه من رشاش انحرافاتهم، وأول هذه الابتلاءات أنه يزداد زهواً بنفسه وإعجاباً بها، كلما اختلط بهم ووقع على المزيد من انحرافاتهم وسوء أحوالهم، إذ يرى نفسه يصلّي ولا يصلون، ويصوم ولا يصومون، ويرتفع عن الموبقات ولا يترفعون.

وعندئذ بدلاً من أن يستأنسوا به، يستأنس هو بسوء أحوالهم، وبدلاً من أن يركنوا إليه يركن هو إلى فسوقهم، وإنما يتم ذلك كله في غمار صحبته لهم، وفي ظل إعجابه بنفسه إذ يرى نفسه المتفوق عليهم والتميز عنهم.

فهذا ما يقوله ابن عطاء الله من خلال حكمته هذه، إنه يقول: ربما خيلت صحبتك لمن هم أسوأ حالاً منك، أنك محسن في الالتزام بأوامر الله، مستقيم في السير على صراط الله، وحببتك عن شهود نقائصك وعيوبك، وعن تقصيرك في جنب الله عز وجل.. وكلمة ((ربما)) هنا للتكثير، وليست للتقليل، فهي في الدلالة كقول الله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢/١٥].

ولعلك تقول: فإن صح هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، فلا مجال إذن لتوجه المسلم إلى دعوة التائبين والمنحرفين إلى الله ونصحهم بالاستقامة على أوامر الله.

والجواب أن دعوة الضالين والتائبين إلى الله، لا تستدعي أن يركن إليهم بالصحة التي يحذر منها ابن عطاء الله، إنها تستدعي الوقوف معهم، والحديث إليهم، ومحاورتهم في أمور الدعوة ومستلزماتها.. وكل هذا يمكن أن يتم دون حاجة إلى أن يمدّ الداعي إلى الله معهم علاقات صحية.

إذن من شأن هذه العلاقات إغماض العين عن المنكرات، والسكوت على الموبقات، وفاء بحق الصحة، وحماية لخيوطها أن تنقطع أو تهتز.. أما التوجه إلى التائبين بالدعوة والنصح، فإنما

تستدعي نقيض ذلك، من مفارقة المنكر بعد التنبيه إليه والتحذير منه،
وفاء بحق الغيرة على حرمت الله، والشفقة على عباد الله.

وانظر إلى فرق ما بين الحالتين:

إن الشفقة على عباد الله تقتضي ملاحظتهم بالتنبيه والتحذير
والنصح، حتى إلى أوكار معاصيهم، وملتقى ليالهم ومجونهم.. أما
الغيرة على حرمت الله فتستدعي عدم الاجتماع معهم على منكر،
والافتراق عنهم لدى ظهور المحرم.. وانسجاماً مع هذين المطلبين:
مطلب الشفقة على عباد الله، ومطلب الغيرة على حرمت الله، لا يرى
الربانيون والدعاة المخلصون لله في دعوتهم، أي مانع من أن يقتحموا
نادياً ليلياً من نوادي المجون واللهو، للتوجه إلى من فيه بالتذكرة
والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أن يتوجهوا أولاً إلى
مدير إدارته أو المشرف على سير برامجه، فيطلبوا منه إعطاءهم فرصة
لدقائق محدودة، يتوجهون فيها إلى إخوانهم بشيء من التذكرة
والنصح، فيستجيب لهم، وعندئذ يدخلون إلى ذلك الوكر المظلم، غير
مبالين بظلامه، ولا مبالين بمراكزهم التي تعلو عن الوجود في مثل ذلك
المكان، شفقة على إخوانهم من عباد الله.. ولكنهم لا يجلسون مع
منكر ولا يجتمعون معه دون إنكار له وتحذير منه، غيرة على حرمت
الله... فذلك هو شأن الدعوة إلى الله، وتقديم النصح لعباد الله.

أما الصحبة التي يحذر منها ابن عطاء الله، فهي فارغة عن كلا
القصدتين، لاهي منطوية على دافع من الشفقة على الإخوة التائبين،
ولا هي مصحوبة بالغيرة الصادقة على حرمت الله عز وجل.

وإنما هي حال من أحوال الصداقة، يُبتغى منها حظ النفس، وإزجاء الوقت، والاستئناس بالغير. وهي أبعد ما تكون عن أداء رسالة أو تنفيذ مهمة، فضلاً عن أن تكون رسالة تقرب إلى الله، وتنفيذاً لمهمة التعريف بدينه والاستجابة لأمره.

* * *

وربما استشكل بعضهم سبيل التوفيق بين هذا الذي ينبه إليه ويحذر منه ابن عطاء الله، مما أوضحت معناه ملخصاً، وما قد افترضه الله على عباده من مواصلة الأرحام والأقارب، حتى عندما يكونون أو يكون فيهم التائهون أو الفاسقون الذين هم أسوأ حالاً من قرييهم الذي أمره الله بمواصلتهم.

وسبيل التوفيق مقرر ومعروف. على المسلم أن يصل أرحامه، كما قد أمر الله عز وجل، مهما كان من علو المرتبة تمسكاً بأوامر الله واستقامة على نهجه وشريعته، ومهما كانوا من سقوط المرتبة، شروداً عن أوامر الله وعكوفاً على المحرمات.

غير أن صلته الواجبة بهم يجب أن لا ترقى إلى درجة الصحبة التي حدثت عن معناها، وذكرت لك أنها حال من أحوال الصداقة، بل يجب أن تقف عند حدود ما يسمى في مصطلح الشرع «صلة الرحم». وهي أن يلقاهم في المناسبات التي تستدعي التزاور واللقاء، كالأعياد والأفراح والأتراح وأن يقدم لهم العون الممكن عند طروء الحاجات وعوارض الضيق.

فإن وافاهم في أي من هذه المناسبات، وهم عاكفون على معصية متلبسون بإثم، أدى بلقائه إياهم واجب التواصل، ونصحهم بالإقلاع عن المعصية والرجوع إلى جادة الشرع، فإن هم استجابوا فذاك، وإلا كرر النصيحة والتذكرة لهم ثم فارقتهم، معتذراً بأن الشرع لا يخوّل له البقاء معهم على تلك الحال... فإذا جدّت مناسبة أخرى، عاد إلى مواصلتهم وزيارتهم تنفيذاً لأمر الله عز وجل.. فإن رأى في مجلسهم منكراً كالمرة الأولى، عاد إلى نصحهم وتذكيرهم وتحذيرهم من التعرض لسخط الله، فإن لم يجد آذناً صاغية وبقي المنكر موجوداً، فارقتهم معتذراً كالمرة الأولى.

وهكذا دواليك، يكرر المواصلة استجابة لأمر الله في صلة الرحم، ويكرر المفارقة، إن رأى منكراً ولم يتمكن من إزالته، استجابة لأمر الله أيضاً، في مفارقة المنكر وأهله.. وهو في كل ذلك مأجور ومثاب.

وليس هذا من الصحبة التي يحذر منها ابن عطاء الله في شيء... الصحبة التي يحذر منها أن يتلاقى الأقارب في سهرات عائلية يتجادبون فيها أسباب المتعة، ويركنون فيها إلى اللهو والأنس المتبادل.. وتلك هي التي يجب أن تنضبط بالآداب التي ينبه إليها ابن عطاء الله في هذه الحكمة والتي قبلها.

* * *

الحكمة الخامسة والأربعون

((ما قلّ عملٌ برز من قلب زاهد،
ولا كثر عملٌ برز من قلب راغب))

لعل أجمع كلمة في بيان معنى الزهد أن يقال: إنه الإعراض عن كل ما عدا الله عز وجل.. والمراد بالإعراض عزوف النفس، فمن عزفت نفسه عن كل شيء سوى الله، من مال وجاه وأهل وولد، وشهرة، ومتع بأنواعها، فهو الزاهد حقيقة. وتلك هي الحال التي وصفها الحارث رضي الله عنه في نفسه لرسول الله ﷺ، عندما قال له: ((عزفت نفسي عن الدنيا)) والدنيا كل ما سوى الله مما شغل عن الله.

وعزوف النفس عن الشيء، لا يستلزم الابتعاد عنه ونفض اليد منه، فالمنديل الذي تتخلص به من الأقدار، تعافه نفسك وتعزف عنه، بدون ريب، ولكنك تلجأ إليه في الوقت ذاته، كلما رأيت حاجتك إليه.

كذلك الدنيا، إذ تعزف نفس المؤمن عنها.. تباعد عن مكان الحب والاهتمام من نفسه، ولكنه يظل يستخدمها فيما قضى الله أن تستخدم فيه. يبنى الدار، ويضع فيها الأثاث، ويمشي في مناكب الأرض بحثاً عن

الرزق، له ولأهله وأولاده. يتعب فيأوي إلى أسباب الراحة، وينعس فيوفر لنفسه ما يسر له طيب الرقاد.. ولكنه لا يكون مشدوداً برغائبه وعواطفه واهتماماته وثقته، خلال ذلك كله، إلا إلى الله، فلاتكون دنياه التي يتعامل معها عندئذ إلا كالحذاء إذ ينتعله الإنسان، يتقي به وحل الطريق وأشواكه وأقذاره.

فهذا هو الزاهد، وكذلك يكون الإنسان الزاهد. وعلى هذا المعنى ربي رسول الله ﷺ أصحابه: أن تكون أفئدتهم مطهرة من حب الدنيا بكل مظاهرها المتنوعة، ولا عليهم بعد ذلك أن يمارسوها ويستخدموها لكل من مصالح الدنيا والآخرة.

انظر إلى قوله ومسلكه التربوي هذا، وقد دخل السوق مرة، والناس مكتنفون به يميناً وشمالاً، فمرّ بجدي ميت، فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحبّ أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ فقال: والله للدنيا أهون على الله عز وجل من هذا عليكم^(١).

وانظر إلى قوله، وهو يركز على توجه القلب إلى الدنيا بالحرص والحب: «ما ذئبان ضاريان جائعان باتا في زريبة غنم أغفلها أهلها، يفتريسان ويأكلان بأسرع فيها فساداً من حب المال والشرف، في دين المرء المسلم»^(٢).

(١) رواه مسلم من حديث جابر، وأحمد من حديث ابن عباس وأبي الدرداء، بألفاظ متقاربة.

(٢) رواه الترمذي من حديث كعب بن مالك، والطبراني وأبو يعلى من حديث أبي هريرة.

ولقد فعلت هذه التربية فعلها الكبير في نفوس الصحابة والرعييل الأول من المسلمين فظهرت أفئدتهم من التعلق بما سوى الله عز وجل. ولما اندلقت عليهم الدنيا بعد ذلك من شتى الجهات وعلى أعقاب الفتوحات، سخروها لإقامة المجتمع الإسلامي كما يسخر الخادم المهين، متحررين من سلطانها، مترفعين فوق ألقها وإغراءاتها.

* * *

فإذا أقبل هذا الزاهد إلى الله بعبادة أو طاعة ما، فإنها مهما كانت قليلة وصغيرة، لا ترتفع إلى الله إلا وهي كثيرة وكبيرة.. إن ركعتين يركعهما هذا الذي صفا قلبه من الانشغال بما سوى الله، تنقلانه من دنيا الناس إلى شهود الله عز وجل. فهو إذ يقرأ فاتحة الكتاب، يكون منصرفاً بكل مشاعره وفكره ووجدانه، إلى ما يخاطب به رب العزة من آيات هذه السورة، وهو إذ يتلو بعدها ما قد تيسر له، يستغرق من ذلك في جوٍّ من النشوة المنبعثة من شعور قلبه إلى الله إذ يناجيه ببليغ بيانه وقديم كلامه.. فإذا ركع ثم سجد، تاه عن الشعور بحركة أعضائه وانحناء جذعه، وتمثل نفسه كتلة عبودية متذلة تترامى على أعتاب مولاها العليّ الأعلى الجليل. وكم يلدّ لهذا العبد، وهو يتمرغ في جنبات هذا الحال، أن يرسل حديث ذله وانكساره وضراعتة، من تراب الأرض التي نكس رأسه ساجداً عليها، إلى علياء ربوبيته وسدّة وحدانيته، مثنياً، شاكراً، معظماً، سائلاً ومستجدياً.

ذلك كله، لأن القلب الذي هو مكنن المشاعر والأهواء والرغبات والمخاوف، سائر معه، بل هو القائد له في الحضور الذي يعمر كيانه،

والخشية التي تنتابه، والتفاعل الذي يسري في مشاعره مع مناجاته لله تعالى إذ يخاطبه في قراءته ودعائه وثنائه.

ولماذا لا يكون معه، بل القائد له في كل ذلك، وهو فارغ عن كل الشواغل الدنيوية المختلفة، زاهد في كل ما سوى الله عز وجل (وقد عرفت معنى الزهد) وإنما القلب مرآة لا بد أن تنعكس عليها صوراً ما.

وإنما يتجلى على القلب الإنساني، بادئ ذي بدء، حنينه الفطري إلى الله، واستئناسه بمشاعر عبوديته الصافية عن الشوائب لله.. فإذا نشأ محصناً ضد التوجه إلى مطامع الدنيا بكل ما فيها من زخارف ورغائب، ازدادت مرآته صفاء، وازدادت التحليات الفطرية عليها وضوحاً وتألقاً ولم يعد فيه متسع إلا للمشاعر حبه لله وتعظيمه له ومحافته منه، وحنينه إليه.

وتغدو العبادات والقربات التي يوفق إليها - عندئذ - صاحب هذا القلب، لا مجرد غذاء له يقوى ويترعرع عليه، بل مصدر سكره ومبعث نشوته، إذ يزداد بذلك إقبالاً على الله عز وجل.

وقيمة هذه الطاعة، لا تكمن - والحالة هذه - في كميتها العددية، بل في كلفتها هذه التي وصفت. فقد تبدو هذه الطاعة؛ إذ يوفق إليها صاحبها، صغيرة من حيث الكم الذي ترصده العين، ولكن الله لا ينظر إليها بهذا الاعتبار الذي هو مقياس الموازين البشرية، وإنما ينظر إليها من خلال مدى يقظة القلب لها وتفاعله معها، وتأثره بها. ومن ثم فإن هذه الطاعة التي تبرز صغيرة في أعين الناس واعتباراتهم لاتصل إلى الله عز وجل إلا وهي كبيرة كبر القلب الذي قاد إليها، واندمج

بمشاعره العلوية معها. فركعته التي وفق هذا العبد إليهما على النحو الذي وصفت، تعدل كنوز الدنيا كلها، وتعدل قيام ليال كثيرة متوالية، عندما تكون الصلاة فيها حظاً من حظوظ الجسد والأعضاء ويكون القلب بمعزل عنها، مثقلاً برغائبه وأحلامه وأمانيه الدنيوية المسيطرة. فكيف إذا أصبح هذا القليل، بتوفيق الله كثيراً، قبل أن يصعد إلى سدّة القبول الرباني؟!.

* * *

أما القلب الراغب، على حدّ تعبير ابن عطاء الله، فهو ذاك الذي استهوته الدنيا، فأثاقل من ذلك إلى الأرض، وتحول حبه الفطري السابق لله إلى حب الشهوات والأهواء، وتعلق بالمال وجمعه، أو بالرناسة والمجد، أو بالزخارف والمبتغيات الأرضية التي يتنافس عليها المولعون بكل ما عدا الله، من المتع العاجلة التي تهفو إليها النفس..

وصاحب هذا القلب، لا بدّ أن يخضع لسلطانه، ويتحرك تحت قيادته فيكدّ ويتعب، ويذهب ويجيئ، وينشط ليلاً ونهاراً، في سبيل تحصيل ما يهفو إليه الفؤاد، وفي سبيل تحقيق الأحلام التي يظل ينسجها لنفسه... فإن تحققت، انصرف إليها القلب مبتهجاً ومنتشياً بها، بل متقلباً في سكره بها، وإن لم تتحقق، أو تحقق منها البعض دون الآخر، اضطرب القلب ووقع من جراء ذلك في همّ واصل.. فهو في كلا الحالين منصرف إلى دنياه متطوح منها في مشاعر من سكر التنعم بها، أو ألم اللحاق ورائها والأسف عليها. إنه حقاً كما قال الله عنه: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦/٧].

فما قيمة الطاعات التي يقبل بها صاحب هذا القلب، إلى الله عز وجل؟

إنها ليست، والحالة هذه، إلا شأنًا من شؤون الجسم والأعضاء، تتم بمعزل عن القلب الذي يفترض أن يكون هو الدافع والقائد.

وسواء تمثلت هذه الطاعة في صلاة أو نسك حج، أو ذكر، أو قراءة قرآن، أو ابتهاج ودعاء، أو غير ذلك، فإن الذي يستقبل هذه الأعمال على اختلافها إنما هو الكيان البدني، من جسم يتحرك، أو لسان ينطق، أو أعضاء تؤدي وظيفة حركية اعتادت عليها، وكثيراً ما يصرفها بعض رجال هذا الفريق، أصحاب هذه القلوب المثقلة بهذه الأعباء، إلى فوائد ونتائج رياضية تقوم الجذع وتفيد الجسم!!.

أما القلب فمعزول عن ذلك كله، ومشغول عنه بما قد حشي فيه وتعلق به من الآمال والأحلام والآلام الدنيوية المتنوعة التي علمت نماذج منها. والشأن في صاحب هذا القلب، أن يعيش، في أحسن أحواله، مزدوج الشخصية والكيان، يؤدي حركات الصلاة بجسده وأعضائه، وقلبه متطوِّح في هم مشكلاته الدنيوية، أو منصرف إلى تخطيط السبل الموصلة لآماله التوسعية. كذلك العبادات والقربات الأخرى. لا يمكن أن ينعكس شيء من ذلك على مرآة قلبه حضوراً أو خشية أو تفاعلاً ما بين البدن والشعور، وكيف ينعكس ذلك على مرآته، وقد سبقته إليها كل الرغائب الدنيوية بسائر فروعها الكثيرة المتنوعة، فاحتلت مساحة المرآة القلبية أجمع، ولم تبق منها بقية لوافد جديد؟!..

فهذه الطاعة، مهما كبرت في حجمها، أو زادت وكثرت في كمّها، لاتصل إلى الله إلا متضائلة صغيرة، ولعلها لاتصل إليه، بل تذوب وتنتهي في مرقة الصعود إليه، إذ يذيبها أو يمزقها قانون: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١).

أخي القارئ: فلنتواثق أن نظهر قلوبنا جهد الاستطاعة من شوائب التعلق بما سوى الله، مستعينين على ذلك باستلهاهم المزيد من معاني وحدانية الله عز وجل، وغرس المزيد من حقائقها ومستلزماتها في عقولنا.. إذن سنعلم أن الله وحده هو مصدر كل سعادة وخير، دنيا الناس خاضعة لأمره، لاتتحرك مقبلة أو مدبرة إلا بتدبيره وسلطانة، والنعيم كلّ، العاجل منه والآجل، إليه مردّه ويده صنعه وبحكم منه وحده ظهوره واختفاؤه.

وفي هذا اليقين - إذا استقر في العقل وسرى إلى القلب - ما يجعل آمال الفؤاد وآلامه ورغباته متجهة إلى الله وحده، إذ إن مفاتيح الخير كلها بيده، ومغاليق الشر كلها إليه.

هذا، فضلاً عن أن قلب الإنسان، كان ولايزال وعاء مهياً لحب الله وحده، بهذا نطق الفطرة، وبذلك شهدت قصة بدء الخلق، فلنكن رقباء على أوعية قلوبنا هذه أن لاتدنسها محبة الأغيار، أياً كانت، ولنضع كل شيء من المكونات التي حولنا في مكانها المناسب. إن فيها مبتغيات لاتصلح حياتنا الدنيوية بدونها، فلنضعها من حياتنا في المكان أو المركز الذي هيئ لها، دون أن تتجاوزته وتتعداه، ولقد يسّر الله إلى

(١) هو جزء من حديث رواه الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص.

ذلك سبيلاً سهلة، عندما سخرها لنا، وأخضعها لاحتياجاتنا.. فقيم نرقى بها إلى مستوى القيادة والحكم، ثم نبليغ بها من حياتنا إلى سدة التعلق والحب؟..

إننا إن فعلنا ذلك (ولن يتأتى إلا بجهد ولون من الصبر والمصابرة عليه) عظمت طاعاتنا عند مولانا عز وجل، وإن بدت في أعيننا أو في ميزان قدراتنا حقيرة صغيرة، أياً كانت هذه الطاعات، وإلى أي الأعمال الصالحة كان انتماؤها.

ولكننا إن أعرضنا عن هذا الواجب الجهادي الكبير، واستسلمنا للأهواء التي تتسرب إلى مكنن الحب من قلوبنا، واكتفينا من حقائق التوحيد، بشهادتها التي يكررها اللسان، ويغيب عن معناها الجنان، فلنعلم أن حب العاجلة الدنيوية، بكل أنواعها وأشكالها، لا بد أن يحتل قلوبنا، التي كان ينبغي أن تكون وقفاً على محبة الله وتعظيم الله والخوف من الله وحده.

وعندئذ مهما برزت الطاعات والقربات لله تعالى عظيمة جليلة في أبصارنا، فلن تصل إلى الله عز وجل إلا حطاماً زائفاً.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

* * *

(١) رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

الحكمة السادسة والأربعون

((حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال. وحسن
الأحوال من نتائج التحقق في مقامات الإنزال))

هذه الحكمة تأتي كاللتمة أو التوضيح لما تم بيانه في الحكمة التي قبلها.

والمقصود بالأعمال القربات والطاعات الظاهرة التي يؤديها المسلم ببدنه، كالصلاة والصوم والحج، والصدقات وأعمال الدعوة إلى الله. والمراد بالأحوال التوجهات القلبية إلى الله عز وجل، من حب وتعظيم وخوف ومهابة..

والمراد بمقامات الإنزال، الرتب التي يتدرج فيها العبد، إذ يعزم على السير إلى الله، والتخلص من آفاته النفسية التي تصده عن ذلك.

معنى هذه الحكمة إذن أن القربات والطاعات الظاهرة التي يؤديها المسلم إنما تتحقق فيها صفة الحسن والصلاح، بحيث تكون مقبولة عند الله عز وجل، بتوفر الإخلاص له في أدائها، وصفائها من شوائب العجب والرياء والغفلة عن الله تعالى.

غير أن هذه الصفة لا تتوفر في الأعمال إلا بنقاء الأحوال، أي بأن يكون القلب خالياً عن التعلق بالأغيار، على نحو ما تم بيانه في الحكمة السابقة.. ولكن كيف السبيل إلى أن يتطهر القلب من التعلق بالأغيار، حتى يتكوّن له من ذلك حسن الحال، الذي به تحسن وتصلح الأعمال؟

سبيل ذلك أن يأخذ المسلم نفسه متدرجاً بالمقامات أو الرتب التي تنزله أخيراً منزلة الأبرار الذين حسنت أحوالهم، فصفت وصلحت أعمالهم.

وسأضعك من هذه المقامات أو الرتب، أمام الظواهر السطحية التي تتناسب مع حالي وحالك. إذ لسنا من هذه المقامات إلا أمام شاطئ رقراق طويل، لا بدّ من اجتيازه بسلامة وفهم، قبل بلوغ عمقه المتلاطم.

المقام الأول الذي لا بدّ منه لاكتساب الحال القلبية السليمة مع الله عز وجل، هو التوبة. ولا يقولن قائل: إنني لم أرتكب ما يقتضي التوبة من الموبقات أو الآثام، فليس في الناس من لم يقصر في جنب الله عز وجل واستطاع أن يوفيه كامل حق الربوبية عليه. حتى الرسل والأنبياء - وقد ثبتت لهم صفة العصمة - لم يتسنّ لأي منهم أن يؤديه هذا الحق الذي يتمثل في من ونعم كثيرة لاحصر لها، ولا تستطيع القوى الإنسانية أن توفيه حقها. هذا بالإضافة إلى أن الناس كلهم - حاشا الرسل والأنبياء - كانوا ولا يزالون خطائين، وخير الخطائين التوابون. ولله عز وجل حكمة باهرة في الضعف الذي ابتلى الله عباده به،

والذي تسبب عنه تعرّضهم بين الحين والآخر لآفات المعاصي والانحرافات، ولكن لا مجال هنا لبسط الحديث عنها. فلذلك يقول الله تعالى خطاباً لعباده المؤمنين جميعاً ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٢/٢٤].

المقام الثاني من مقامات الإنزال التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، مقام الصبر، وهو من مستلزمات التوبة، ولا وجود ولا معنى له إلا على أعقابها. إذ الإنسان قبل التوبة يتبع نفسه هواها بشكل كلي أو جزئي، ومن ثم فلا حاجة له إلى الصبر. ولكن إذا تاب توبة صادقة وعزم على الابتعاد عن الآثام والموبقات، فقد بدأت رحلته إلى الله على طريق الصبر. وهو لون عزيز وغالٍ من الجهاد، يمتاز بالشدة في مجال التحمل، وبالثمرات العالية في نهاية التسيار.. وهو صبر عن الاستجابة للأهواء الجامحة، وصبر على أداء الواجبات والنهوض بالقربات، وصبر على الغيوبة عن كل ما سوى الله، بأن لا يقيم بعد الله وزناً لمدح المادحين ولا لقدح القادحين، ولا لدنيا ازدهرت أمامه بإقبالها أو اكتأبت أمامه بإدبارها.

ومعنى الصبر في هذا الطريق، أن يأخذ السالك نفسه شيئاً فشيئاً بأداء هذه المهام، مستعيناً في ذلك بدوام الالتجاء إلى الله وطلب العون منه، موقناً أن لا حول له ولا قوة في تحمل شيء من هذا الجهد، إلا بالله عز وجل، واضعاً نصب عينيه قوله عز وجل: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٦/١٢٧].

واعلم أن للصابر حالتين قد تبدوان متناقضتين:

الحالة الأولى: الشعور بالشدة التي لا قبل له بتحملها والصمود أمامها، ومآل هذه الحال أن ينصرف عن تجربة الصبر وقد فشل في السير على طريقها، بدءاً من الخطوات الأولى، وإنما تكون هذه الحال عندما يعتمد الصابر في ذلك على نفسه، ناسياً أن لا قبل له بذلك إلا بعون من الله عز وجل.

الحالة الثانية: الشعور بالتوفيق إذ يغالب الشدة فيغلبها، ويكابد المشقة فيتحملها. وإنما يكون ذلك عندما يستعين الصابر على صبره بالله، موقناً أنه لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة، وأن العون والتوفيق والقدرة على الصبر، إنما يأتي ذلك كله من عند الله عز وجل، فيجعل من التجائه الدائم إلى الله داعياً متضرعاً منكسراً، أن يمدّه بالتوفيق والثبات وأن يكسبه القدرة على الصبر الذي أمره به، ترجمان ثباته وصبره، ومآل هذه الحالة الثانية أن يزدهر الصبر بالوصول إلى غايته ومآله، وأن يفوز الصابر بما قصد إليه وابتغاه، وإن طالت المدة وكثرت المعاناة.. فتتحول صعوبات الصبر، بلطف الله وتوفيقه، إلى اعتياد ويسر، وتنقلب مرارته في النفس إلى حلاوة وأنس.

المقام الثالث في مدارج السالكين على هذا الطريق، مقام الرضا. وهو من أهم ثمرات الصبر ونتائجه، إذا ثابر عليه المؤمن وصبر...

والسبيل إلى بلوغ الصابر المثابر على صبره، منزلة الرضا، يتمثل في أن يعلم أنه ينال الأجر الذي ادّخره الله للصابرين، وهو أجر عظيم عبر البيان الإلهي عن أهميته وعظمته بقوله: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠/٣٩].

وهو من أهم أسباب محبة الله للعبد، كيف لا وهو القائل: ﴿...فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦/٣].

فإذا أحب الله عبده، توهج، من ذلك، قلب العبد بالحب له عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿...يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤/٥] وترتبُ الفعل الثاني على الأول في الآية ملاحظ ومقصود.. وإذا هيمن حب الرب عز وجل على قلب العبد، حلّ الرضا فيه بكل ما يأتيه من قبل الله عز وجل، محلّ الصبر على الضيق والضرر من المصائب والنوائب التي تتابها فيغيب الصبر على البلاء ويحلّ محله الرضا بالقضاء.

وفي الناس، كما روى حجة الإسلام الإمام الغزالي، من يرى أن الإنسان لا يملك، أمام المصائب والأحداث التي تخالف الرغبة والهوى، إلا الصبر، ويقول لو رضي الإنسان بالمصيبة كما يرضى بالنعمة، إذن لسقط الفرق بينهما، ولا اجتماعا تحت اسم النعمة والمتعة، فلم يعد في حياة هذا الإنسان وشعوره ما يسمى مصيبته قط!^(١)..

وإنما يدخل هذا الوهم على أصحابه، من جراء جهلهم بحب العبد لله عز وجل أو من جراء إنكارهم له.. فأما من عرف أن قلب الإنسان إذا صفا عن الأغيار، توجه، بالضرورة، بسائق الحب إلى الله، فلا بدّ أن يوقن بأن الحب ينقله من منزلة الصبر إلى منزلة الرضا بكل ما يأتيه من عند الله عز وجل.

(١) إحياء علوم الدين ٣٤٧/٤، طبعة المكتبة التجارية بمصر.

ويتحقق الرضا، ويصفو عن منغصات الصبر، بعاملين اثنين ذكرهما الإمام الغزالي، أذكرهما لك بإيجاز، وأضيف إليهما عاملاً ثالثاً أحسب أنه من الأهمية بمكان.

العامل الأول: ما يفعله الحب عادة في كيان المحب إذا تفاقم أمره وهيمن سلطانه، من حجز مكامن الشعور ومصادر الإحساس فيه، لحسابه. فتمرّ به الآلام وتنوشه الأوجاع، دون أن يلقي لها بالاً، أو أن يشعر لها بالوقع الطبيعي الذي يشعر به سائر الناس، فيحدث الحب في كيانه ما يفعله المخدّر، وإنما ينكر هذا أو يرتاب فيه من لم يجرفهم سلطان هذا الحب، فلم يتذوقوه ولم يعرفوه.. وإنكارهم لذلك يستند إلى برهان صحيح لامطمع في نقضه، ولكن ضمن حدود تجاربهم الذاتية الخاصة بهم، ومن ثم فمن الخطأ أن يقيسوا الآخرين، في ذلك، على أنفسهم.

والحب الرباني إذا هيمن على قلب الإنسان، سرى منه تأثير (لاترى مثله في مشاعر حب الإنسان للإنسان) إلى كيانه الشعوري أجمع، وتسربت منه نشوة بالغة إلى مكامن الإحساس وجذوره، قد تتمثل في أنس وشوق، وقد تتمثل في إجلال وتعظيم، من شأنها أن تصادر إحساس المحب لحسابها، وأن تصرفه عن الشعور بالأغيار إلى الذات الإلهية التي هيمن حبها على مجامع القلب.

العامل الثاني: ما يحدث كثيراً من تلذذ المحب بالألم الذي يفد إليه من محبوبه فالمحب في هذه الحالة يشعر بوقع المصيبة وآلامها، ولكن

الحب المهيم على قلبه، لمن جاء هذا الألم من عنده أو بسببه، يجعله يتلذذ بالألم مع شعوره به^(١).

وإننا لنعلم أن في الحب الأرضي الذي يسري ما بين الناس، بعضهم مع بعض، ما يزوج المحب في هذه الحال، فيعرض نفسه لأذى محبوبه بل يرجوه أن يذيقه بيده الرائعة الجميلة من أذاه، وإنه ليتأوه إذ يشعر بالألم، ولكنك لا تدري كم يلدّ له هذا التأوه، إذ يطلقه على سمع محبوبه. فكيف إذا استحكمت محبة العبد لمالكه وخالقه عز وجل؟ لا ريب أن كل آلامه التي قد تفد إليه منه جل جلاله لاتأتيه إلا وهي مكسوّة بأردية الرضا بالله عز وجل.

أما العامل الثالث الذي أضيفه إلى هذين العاملين اللذين ذكرهما الإمام الغزالي، فهو ثقة العبد بالله عز وجل، والمفروض أن جذور هذه الثقة ملازمة لإيمان العبد بالله عز وجل في كل المنازل والأحوال، إذ إن الإيمان بالوهمية الله عز وجل، تستلزم الإيمان بحكمته. والإيمان بحكمة الله يستلزم الثقة بعده ورحمته وفضله في كل ما قد يفد منه، حتى وإن لم يتبين له وجه ذلك.

إلا أن هذه الجذور تنمو وتزدهر وتقوى في مشاعر الإنسان وبقينته، في ظلال حبه لله عز وجل. فتثقة العبد الذي فاض قلبه حباً لله عز وجل، أضعاف الثقة التي يشعر بها المؤمن الذي ليس بينه وبين الله عز وجل إلا عقد الإيمان العقلي به، مع انصراف قلبه إلى ما هو مشدود إليه من الرغائب والأهواء. إذن فمحبة الله عز وجل تنمي الثقة به

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٤٧-٣٤٨.

وترسخ اليقين التام بلطفه ورحمته وعدله في كل ما يقضي به، مهما كان في ظاهره مبعث شدة وآلام.

ومن شأن هذه الثقة إذ تنامي في كيان المسلم وتبلغ حدّ الكمال، أن تكسبه الرضا التام بكل ما يقضي به الله تعالى ويختاره له.

وليس دقيقاً أن نضرب مثلاً له، ثقة المريض بطيبه الجراح إذ يستسلم لمبضعه ساكتاً على ما يشعر به من آلام. ذلك لأن مبعث الثقة بالطبيب في نفس المريض حديث الناس عن عميق خبرته وعن واسع نجاحه في عملياته الجراحية، ومن شأن هذه الثقة أن تحمل المريض على الصبر لا أكثر. وهي منزلة دون منزلة الرضا التي نتحدث عنها، كما قد مرّ بيانه.. أما مبعث الثقة بالله في حديثنا هذا، فهو بعد الإيمان العقلي به عز وجل، عظيم محبته له. فإذا استسلم هذا المحب لما يأتيه من عند الله عز وجل، من المنغصات والآلام، فإنما يستسلم له بسائق من الرضا بحكمه، وذلك هو شأن الحب فيما يفعله في كيان المحب تجاه المحبوب، وقد ترجم هذه الحقيقة على خير وجه المثل الدارج القائل: «ضرب الحبيب زيب». والألم الذي يجده المحب يترجمه صاحبه إلى لذة من نوع فريد لا يعرفه إلا هو، ومن كان على شاكلته.

ولا يقولن قائل: إن هذا التكلف في تشفيق القول عن الصبر والرضا والفرق بينهما، لم يكن مألوفاً ولا معروفاً في عصر الصحابة.. فإننا نقول: بل إن هذا الإنكار الذي يأتي قفزاً فوق الأدلة، هو التكلف المجوج الذي تنزه عنه أصحاب رسول الله ﷺ والرعييل الأول من المسلمين.. لقد صح أن سيدنا عمران بن الحصين أثبتته المرض العضال

على سرير من خوص النخل ثلاثين عاماً دون أن تفارق البسمة شففته، ولما دخل عليه مرة مطرّف وأخوه العلاء، ورأى العلاء أخاه على هذه الحال، أخذ يبكي. فقال له: عمران لم تبكي؟ قال له: لهذه الحال التي أنت فيها. فقال له عمران: مه، فإن أحبه إلى الله أحبه إليّ.. فانظر كيف غاض الصبر في ضرام هذا الحب وتجلّى في محله الرضا^(١).

* * *

بقي أن في الناس من قد يقول: لو جاز الرضا عن كل شيء لأنه يأتي من عند الله عز وجل، لجاز الرضا بكفر الكافر ومعاصيه!!.. بل إن في الناس من لم يفهموا معنى هذا الذي تم بيانه، فأدركوه على نحو غير صحيح، وراحوا يقولون بضرورة الرضا بالفجور والفسوق، وضرورة ترك الاعتراض، لوجوب الرضا والتسليم بقضاء الله عز وجل.

ولقد أجمت عن هذا الوهم بتفصيل وبسط في أواخر كتابي (الإنسان مسير أو مخير). وهأنذا أذكره هنا ملخصاً بالقدر الذي يتناسب مع شرح هذه الحكمة:

هنالك فرق كبير بين القضاء والمقضي. القضاء معنى مصدرى كما هو واضح، أما (المقضي) فاسم مفعول ينطبق على الوقائع الكونية والتصرفات الإنسانية التي تعلق بها المعنى المصدرى، وهو قضاء الله عز وجل.

(١) عمران بن حصين من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ، أسلم عام خيبر. وانظر ترجمته وخبر مرضه هذا في الإصابة للحافظ ابن حجر ٢٧/٣.

فعلم الله المصحوب بإرادته المتعلقة بإيجاد مادة الخير والشر مثلاً (أي ما به يحصل فعل كل من الخير والشر) قضاء الله وحكمه.. وأما إقدام الإنسان على تسخير مادة الخير أو الشر لكسبه وإيجاده، فهو المقضي الذي جاء نتيجة للقضاء الإلهي بإيجاد مادة الخير والشر، وإقدار الإنسان على فعل كل منهما.

فإذا تبين لك الفرق بينهما، فاعلم أن رضا العبد عن الرب يستلزم الرضا بالقضاء دون المقضي. ذلك لأن قضاء الله تابع لعدله وحكمته، فبينهما لزوم دائم لا انفكاك له. ومن ثم فإن رضا العبد بقضاء الله ضروري ما دام موقناً بأنه عز وجل عادل وحكيم. ثم إن هذا الرضا يزداد رسوخاً وقوة بالعوامل التي ذكرتها لك.

ولكن - وقد عرفت الفرق بين القضاء والمقضي - هل يستلزم الرضا بقضاء الله الرضا بالأمر المقضي؟ أي هل يستلزم الرضا بقضاء الله يجعل الناس أحراراً مختارين يختارون لأنفسهم الإيمان أو الكفر، الرضا بالمقضي المتمثل في كفر كثير منهم وممارستهم للفسوق والعصيان؟

يجب أن نعلم أنه لا يوجد بين هذين الأمرين أي لزوم، ذلك لأن رضاك بقضاء الله هو رضاك بما يتمتع به زيد من حرية الاختيار ومن القدرة على اتخاذ القرار، ولا ريب أن لله في ذلك حكمة باهرة، أما رضاك بالمقضي فهو يعني انضمامك إلى زيد في اختيار ما اختاره من الكفر ورضاك به. وهذا ما لا يرضى به الله تعالى، ولا يرضاه لك، كيف وهو القائل: «ولا يرضى لعباده الكفر».

وإن رضاك بقضاء الله في دفعه الناس بعضهم ببعض، كما نص في محكم بيانه، يعني رضاك بأن يتلي الله الناس بنوازع الأثرة والاستبداد وحب الذات، بالإضافة إلى ما متعهم به من حوافز الإيثار والمسامحة ونكران الذات، وإلى ما علمه وأراده لهم من التفاوت في القدرات والملكات والممتلكات (وهذه كلها مواد جاهزة لاستصناع كل من الخير والشرّ منها) وهذا الرضا من أوليات الدين ومن أهم نتائج محبة الله والثقة بعدله وحكمته.

أما رضاك بالشر الذي يصنعه كثير من الناس من مجموع تلك المواد التي قضى الله بإيجادها وتجهيز الإنسان بها، عن طريق العدوان وإزهاق الأرواح البريئة، فهو رضاً بالمقضي!.. وليس بينه وبين الأمر الأول أي ترابط أو لزوم. ولاشك أن رضاك بهذا المقضي هو رضاً بالشرور الذي استوقد أولئك الناس نيرانه، ومن ثم فإن الرضا به في حكم الاشتراك في صنعه، وهو محرم بدون ريب.

وربما استشكلت هذا الذي أقوله، بما يخيل إليك من أنه كلما وجد القضاء وجد المقضي، وكلما فقد الأول فقد الثاني، ومن ثم فإن الرضا بالقضاء يجزّ إلى الرضا بالمقضي، وهو يعني ضرورة الرضا بكفر الكافر وجحوده، وهو ما لا يتفق مع أوليات الدين وبدهياته.

والجواب أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين، كما هو معروف في بابه، أما القسم الأول منه فيتعلق بالأمور التكوينية القهرية، التي لا دخل لإرادة الإنسان وحرية فيها. كتقلب الليل والنهار واختلاف الأزمنة،

وهطول الأمطار وهبوب الرياح واخضرار العشب والنبات والزلازل والأعاصير.

وأما القسم الثاني منه، فمرده إلى اختيار الإنسان وتصرفاته التكليفية وقضاء الله في هذا القسم يعني كما ذكرنا علمه وإرادته بخلق عناصر الخير والشر في طريق الإنسان مع إقداره على أن يستجيب لأوامره فيستخدمها في الخير وعلى أن لا يستجيب لها، فيستخدمها في الشر الذي نهى عنه.

إذا تبين هذا فاعلم أن بين القضاء والمقضي في القسم الأول تلازماً مضطرباً. فقضاء الله باختلاف الليل والنهار هو المصدر الذي إليه مردّ وقوع هذا الاختلاف، والاختلاف الفعلي هو النتيجة التي لا بدّ منها والتي لا تصدر إلا من قضاء الله بذلك، ومن ثم فإن الرضا بقضاء الله في هذا القسم لا بدّ أن يسري إلى الرضا بالمقضي.. وهذا يقتضي أن نقول: إن الرضا بقضاء الله بوقوع كارثة في مكان ما، كزلزال وخسف، يستلزم الرضا بالمقضي الذي هو وقوع تلك الكارثة فعلاً في ميقاتها الذي حدده قضاء الله عز وجل. وفي هذا إشكال كبير يشعر به الباحث لأول وهلة.

ولكن الأشكال ينمحي في ظل ثقة العبد بحكمة الله عز وجل.. إن الرضا، في ظل هذه الثقة، لا يكون بالكوارث من حيث ذاتها أي من حيث هي كوارث، وإنما لما قد يكون فيها من إيقاظ وإصلاح وتربية، يعود أثره إلى الناس بالخير والشر.

أجل.. فإن اليقين المجرد بحكمة الله وعدله ورحمته، من شأنه أن يوحى إلى النفس أن كل ما قد يواجهه الإنسان من الكوارث

والمصائب، خاضع لسُلطان بيان الله القائل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦/٢] فكيف إذا صاحب هذا اليقين الحب؟ إن النفس عندئذ تتلقى، مع هذه الثقة طمأنينة القبول والرضا، كما قد فصلت لك من قبل.

ولا أرى مثلاً أشبه بهذا الذي أقول، من المحب الصادق، إذ يتلقى ضربة موجعة من محبوبه، إن هذه الضربة بحدّ ذاتها من أوضح أنواع الشر الذي تكرهه النفوس، بما فيها نفس هذا المحب. ولكنه عندما يرى نسبة هذه الضربة إلى محبوبه الذي هو متعلق به، يختفي منها كل معاني الشر والإيلام، ويتلقاها منه بكامل الرضا والسرور، فكيف إذا وثق بأن محبوبه حكيم ودود رحيم، لا يقدم على ما أقدم عليه إلا لمصلحة رآها؟!..

أما القسم الثاني من القضاء، وهو ما كان مردّه إلى اختيارات الإنسان وتصرفاته التكليفية، فإن المقضي الذي تعلق به قضاء الله في هذا القسم، إنما هو واقع ما يتمتع به الإنسان من الحرية والاختيار.. ذلك هو القضاء، وهذا هو مقضيّه، ولاشك أن بينهما تلازماً بيننا، وليس في ذلك أي إشكال. إذ التلازم قائم بين قضاء الله بأن يكون الإنسان حراً مختاراً، وبين أحد خيارَي الخير والشر إذ يتسنى للإنسان أن يتجه إليه. ولا إشكال في أن يرضى المؤمن بقضاء الله في حق الإنسان، وأن يرضى بالمقضي الذي هو القدرة السلوكية على التوجه إلى أيّ من الخير أو الشر.

ولكن أفيستوجب هذا أن يرضى أحدنا بالمعصية التي اختارها زيد من الناس؟ لا، لأن المقضيّ ليس هو اختياره للمعصية بالذات، حتى يستوجب الرضا بالقضاء الرضا بها.. وإنما المقضيّ تمكنه من اختيار أحد الشيئين: الطاعة أو المعصية.

وإذا تبين هذا، فإن واجب المسلم أمام قضاء الله هذا (أي القسم الثاني منه) يتلخص فيما يلي:

أولاً: وجوب الرضا بالقضاء الذي قضى به في حق عباده: أن يخلقهم مختارين قادرين على اتخاذ القرار الذي يشاؤون، ووجوب الرضا بالمقضي الناتج عنه، وهو تمتعهم فعلاً بهذه المزية، بعد خلقه لهم.

ثانياً: وجوب الرضا بما سيختاره المسلم إن كان طاعة مما قد أمر الله به، ووجوب عدم الرضا بما سيختاره إن كان معصية مما قد نهى الله عنه.

هذا باختصار هو الجواب عن هذا الإشكال. فإن بقيت في نفسك شائبة منه، أو كان في فكرك غموض في بعض ما قد أوضحت، فارجع إلى كتابي (الإنسان مسير أو مخير) بدءاً من الصفحة ٢٢٠ فما بعد، تجد تفصيلاً وافياً لهذه المسألة.

* * *

إذن فصلاحيّة الأعمال تتوقف على حسن الأحوال، ويتلخص حسن الأحوال في فراغ القلب من الشواغل وعدم تعلقه بالأغيار،

ليصفو له التوجه إلى الله حباً ومهابة وتعظيماً، وحسن الأحوال رهن بالتحقق، أي التدرج السلوكي في مقامات الإنزال.

وقد علمت أن أول هذه المقامات التوبة، يليها الصبر والمثابرة عليه، يليه الرضا الذي يجيل مرارة الصبر إلى حلاوة، ويسقط الفرق بين المنح والمحن، وبين إقبال الدنيا وإدبارها، وبين الشدة والرخاء.

وقد علمت أن من أهم العوامل التي تنقل المؤمن إلى منزلة الرضا، الحب. وإنما يزدهر الحب في القلب على أعقاب الصبر إذ يصبر ويتأبر عليه السالك.

ولكن فكيف السبيل إلى ذلك كله؟.. كيف السبيل إلى التدرج في هذه المنازل، حتى يصل إلى هذا الشأو؟

لا سبيل إلى ذلك إلا الإكثار من ذكر الله.. فهو وحده عدّة السالكين، وبمصباحه يستنير الطريق، وبأسراره تزول العوائق وتردم الأخطايد وتتحطم التضاريس.

ولكن ماهي آداب الذكر وسبيله، والرتب التي يتدرج فيها الذاكر؟
يجيب ابن عطاء الله عن ذلك في الحكمة التالية.

* * *

الحكمة السابعة والأربعون

((لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره. فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة. ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور ﴿وَمَا ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ﴾)).

المراد من الذكر الذي يكثر القرآن من الأمر به وبيان مدى أهميته، التذكر، وهو عمل من أعمال القلب أو النفس ينافي الغفلة. يقول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥/٧].

فذكر النفس هو التذكر، وقوله: ولا تكن من الغافلين، تأكيد لهذا المعنى المطلوب، وتحذير من الوقوع في نقيضه وهو الغفلة.

بيد أن الذكر اللساني واحد من السبل الموصلة إلى الذكر القلبي الذي هو التذكر. لذا فقد كان رسول الله يوصي ويأمر به. روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد

كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبهت به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

ولاريب أن أمره ﷺ بالذكر اللساني، أمرٌ بما لا بدّ منه للوصول إلى الذكر القلبي الذي هو المبتغى والمقصود.

غير أن في الناس من يتطلع إلى الغاية التي أمر الله بالذكر من أجلها، فلا يجد في نفسه سبيلاً إليها، وينظر فيجد أن لسانه الذي يذكر الله به في واد، ومشاعره وهواجسه النفسية في واد آخر، فتحدثه نفسه بأن يتوقف عن الذكر اللساني، نظراً إلى الغفلة الدائمة التي تصاحب ذكره.

يقول ابن عطاء الله له: لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره.

وقد عدد الشيخ أحمد زروق رحمه الله ذلك في ثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن في الذكر اللساني إقبالاً إلى الله، بوجه ما، وفي انقطاع اللسان عنه غفلة وإعراض عنه بالكلية.

السبب الثاني: أن في الذكر اللساني تزيين جارحة من جوارح الجسم بالعبادة، وفي انصراف اللسان عنه حرمان من ذلك.

السبب الثالث: أن في الذكر اللساني تعرضاً لنفحات ربانية من شأنها أن تكون سبباً ليقظة القلب وتفاعله مع ما ينطق به اللسان^(١).

(١) شرح الشيخ أحمد زروق للحكم، بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود، الشيخ محمود بن الشريف، ص ١٢٣.

وابن عطاء الله يركز على هذا السبب الثالث، إذ يقول: فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة.

إن انشغال جارحة اللسان بذكر الله تعالى عبادة بحدّ ذاتها، ولكنها عبادة اقتصر حظها على اللسان وحده من دون سائر الجوارح الأخرى، بل من دون كيان الإنسان من حيث هو ذات ومجموع.

غير أن دوام هذا الحظ للسان باستمرار تحركه بذكر الله عز وجل، يسري بالتأثير إلى الكيان كله، شيئاً فشيئاً، وفي مقدمة ذلك القلب. ألا ترى إلى تحرك اللسان باللغو من القول أو بالغيبة ونحوها، كيف يكون سبباً في مدّ غاشية من الغفلة والقسوة على القلب، فكذلك العكس، لا بدّ إذا تحرك اللسان بذكر الله أو بتلاوة القرآن، وثابر على ذلك، أن تمتدّ من هذه الطاعة التي يجبها الله نفحة نورانية إلى القلب، توقظه من الغفلة وتبعث فيه مشاعر الرقة.

إن الشأن في الغافل الذي يصرّ مع ذلك أن يحرك لسانه بذكر الله، أنه يقدّم بذلك معذرتة إلى الله عز وجل، قائلاً بلسان الحال: اللهم لئن كان قلبي مشغولاً عنك بأهوائه التي لا قبل لي بصرفه عنها إليك، فلقد شغلت بذكرك لساني الذي أقدرتني على التحكم به، وصرفته عن الخوض فيما لا يرضيك إلى ذكرك وشكرك والثناء عليك.

والمظنون حينئذ بكرم الله وفضله، أن يعتقه من أسر ضعفه، فيقدره على إيقاظ قلبه إليه، كما أقدره على تحريك لسانه بذكره. وهو ما تعبر عنه كلمة «عسى» في قول ابن عطاء الله «فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة».

والمراد بيقظة القلب هنا، انتباهه إلى معنى الذكر الذي ينطق به اللسان، وعدم غياب الشعور عما يردده اللسان. وهو أول درجات توجه القلب إلى الله، وأولى خطوات الابتعاد عن الشواغل الدنيوية وأسبابها.

* * *

فإذا انتقل الذاكر من تحريك اللسان بألفاظ الذكر، مع الغفلة عن التنبيه إلى ما يقول، إلى تحريك اللسان بألفاظ الذكر، مع التنبيه إلى ما يقوله ويقظته إلى ما يتضمنه من المعاني، ثم ثابر على هذه الحال، ولم يتراجع إلى ما كان عليه من اشتغال اللسان بالذكر مع شرود الذهن عن التنبيه إلى ما يقوله، واتخذ لنفسه ورداً دائماً من ذكر الله تعالى، على حال يشترك فيه اللسان مع يقظة الخاطر والذهن، فإن المأمول من كرم الله وفضله أن يرقى به الفضل الرباني إلى حالة الحضور مع الله تعالى أثناء ذكره.

فما الفرق بين اليقظة والحضور؟

يقظة الذاكر تعني، كما قلت لك، مجرد سيره الفكري مع معاني الكلمات التي يقولها أو يرددتها، بقطع النظر عن مدى تفاعله الشعوري معها، وبقطع النظر عن مدى يقينه الاعتقادي بها.

أما الحضور، فهو انجذاب مشاعر الذاكر إلى المذكور حباً أو خوفاً أو مهابة وتعظيماً، حسب ما يتضمنه الذكر الذي يتجه به إلى الله عز وجل من استغفار أو تسبيح أو ثناء وتمجيد وتوحيد. ومن آثار هذا

الحضور أنه يصرف الذاكر شيئاً فشيئاً عن شواغل الدنيا وهمومها. إذ ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه، فإذا حضر القلب مع الله أثناء ذكره له متجهاً إليه بعواطفه الدافعة أو الرادعة أو الممجدة، فلا بد أن يغيب - بمقدار حضوره مع الله - عن أفكاره وأحلامه وهمومه الدنيوية.

لعلك تقول: إنني أملك اليقظة الفكرية إلى ما أقوله وأردده بلساني أثناء ذكر الله تعالى، ولكنني لا أجد لديّ نعمة هذا الحضور الذي تصفه.

والجواب أن المداومة على المرحلة التي أنت فيها، مرحلة اليقظة، ستكون أكبر عون لك على الانتقال إلى مرحلة الحضور.. لأن اليقظة العقلية من شأنها أن تبعث في المشاعر أسباب التعلقات الوجدانية.

ولأضرب لك مثلاً بتلاوة القرآن، وهي من أجلّ أنواع الذكر، إنك إن تجاوزت مرحلة الغفلة أثناء تلاوته إلى مرحلة اليقظة إلى معانيه، فإن استمرار تلاوتك له على هذه الحال، يغرس في أفكارك معاني الآيات التي تقرأها، فإذا ترسخت فيها هذه المعاني، سرت منها إلى مشاعرك عوامل حبك لله عز وجل وعوامل تعظيمك له وخوفك منه، إذ القرآن فيه من المعاني ما يبعث على حب الله وفيه ما يبعث على تعظيمه والخوف منه.

كذلك المداومة على الاستغفار، أو على التسييح أو الحمد أو التوحيد، إن من شأن ما تحمله هذه الأذكار المتنوعة من المعاني، أن تبعث برسائل مثيرة ومهيجة إلى مكنن العاطفة بين جوانح الإنسان

الذاكر، فتتجه منه العاطفة إلى الله تعالى بالتعظيم والحب والخوف والثقة... ومن ثم تتلاقى يقظة العقل مع عاطفة القلب، فيتحقق من ذلك الحضور الذي أوضحت لك معناه.

واعلم أن الذاكر في مرحلة اليقظة، لا يحتاج إلى أن يشغل نفسه بالذكر اللساني، بل بوسعه أن يتحول إلى الذكر النفسي أي أن لا يكون غافلاً عن الله تعالى بأن يكون دائم التذكر له، اللهم إلا الأذكار اللسانية المأثورة، كالأستغفار في الأسحار، وكالتسبيح بعد الفجر وعند الغروب، وكالإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ، فالمطلوب في ذلك اجتماع اللسان مع الجنان.

غير أن المراد بالذكر العام من وراء المأثورات التي ضربت لك المثل ببعض منها، التذكر ويقظة العقل إلى المذكور جل جلاله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠/٣-١٩١].

فقد شرح البيان الإلهي الذكر الذي يدعو إليه في سائر الأحوال، بالتفكير في خلق السماوات والأرض، وهي دعوة مكررة في كتاب الله عز وجل.

* * *

فإذا أكرم الله الذاكر بنعمة الحضور أثناء ذكره له، وثابر على ذلك، واتخذ من ذكره لله على هذا النحو ورداً يواظب عليه، فالمأمول

من فضل الله عز وجل، أن ينقله الذكر إلى رتبة أعلى، ألا وهي غياب
الذاكر عما سوى المذكور.

أي إن الذكر ينسيه الدنيا التي من حوله، بكل مظاهرها وأنواعها
وألوانها، فلا يتجه منه الشعور والإحساس إلا إلى الله وحده، على
الرغم من أنه يعيش ويتعامل معها ويخوض في غمارها.. إن ذكره
القلبي، أو اللساني المرتبط بالحضور مع الله عز وجل، يغيبه شيئاً فشيئاً
عن المعاش الدنيوية وأسبابها وينسبه توجهاته إليها واهتماماته بها،
ويتحول كل ما كان من ذلك، شاغلاً له عن الله، إلى مذكر له بالله،
فهو أنى التفت من حوله لاتقع عيناه إلا على الآيات الناطقة بصفات
الله، وأينما وجه سمعه من الدنيا التي حوله لا يسمع منها إلا نشيد
التسبيح مقروناً بحمد الله. فكأنه يرى أن الدين بكل ما فيها تذكّر الله
معه: تسبحة مع تسبيحه، وتثني عليه مع ثنائه، وتحمده مع حمده،
وتعظمه مع تعظيمه^(١)...

وكن على يقين، أيها القارئ، أن صفوة أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وعلى آله وسلم قد تبوأوا هذه المرتبة، كانت أنفاسهم مقرونة
بذكر الله، وكان ذكركم لله حجاً يفصلهم عن الدنيا ويغيبهم عن
آلامها وآمالها. وكان سيدنا رسول الله هو القدوة لهم في ذلك، وهو
الواصل من قبل إلى ذلك الشأو.. كيف لا وهو سيّد الذاكرين، وهو
الذي تستنطق الحجارّة بذكر الله كفه، ويجعل من معاشه التي يتقلب

(١) ارجع إلى تفصيل هذا الأمر في الصفحة ١٩٤ وما بعدها، من الجزء الأول من هذا
الكتاب.

فيها محاريب لذكر الله، فما يركن إلى رقاد، ولا يستيقظ منه، ولا يدخل خلاء، ولا يباشر وَضُوءاً، ولا يجلس إلى طعام، ولا يرتدي جديداً من ثياب، إلاّ وغاب عن ذلك كله بشعوره إلى ذكر الله^(١). وهل ترقى مرتبة الغياب عما سوى المذكور، إلى أعلى وأتمّ من هذا الشأو؟

وإذا استغرق الذاكر مع الله في هذه الرتبة، غائباً عن الدنيا التي يتقلب فيها، قد يخيل إلى من كان بعيداً عن معنى الذكر وآثاره، أن مساً من جنون قد أصابه.. فلا يلتفتن بأي اهتمام إلى هذه التهمة، وليمض في نشوة ذكره لله عز وجل، متذكراً قول رسول الله ﷺ، فيما رواه أحمد والحاكم وأبو يعلى وابن حبان، من حديث أبي سعيد الخدري: «أكثرُوا ذكرَ الله، حتى يقولوا مجنون».

وإذا جُذِبَ الذاكر إلى الله أثناء ذكره، فاستغرق في شهوده، وعيَّته حاله مع الله عن الدنيا وأهلها، فلا يلتفتن إلى من قد أعوزتهم هذه الحال، وجعلوا من بلاء فقرهم حجة ضد الآخرين، وليستبشر بأنه واحد ممن قال عنهم رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذي وغيرهما: «سبق المفردون»، قالوا ما المفردون يا رسول الله؟ قال: المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون الله يوم القيامة خفافاً^(٢).

(١) ورد في الصحيح بسط وتفصيل لذلك كله، وقد سبق بيانه بشيء من التفصيل في شرح بعض الحكم السابقة.

(٢) الحديث رواه مسلم والترمذي بسنده عن أبي هريرة، وهذا اللفظ للترمذي.

فانظر إلى كلمة ((المستهترين)) التي عبر بها رسول الله ﷺ، وهي تستعمل غالباً في نقد من أفرط في الشيء وتجاوز به الحدّ المألوف أو المطلوب، فأصبح من المولعين به، ولكنه ﷺ يجنده ويدعو إليه، ويجعل من هذا الاستهتار شهادة سبق في مضمار السير إلى الله والقرب منه.

* * *

وصفوة القول أن السلوك إلى الله تعالى، ليس له بعد الإيمان به، إلا سبيل الذكر، وإنما مفتاحه الذكر اللساني ولا حرج أن يكون القلب غافلاً. إذ حركة اللسان بالذكر من شأنها أن تبعث شيئاً فشيئاً إلى يقظة القلب..

فإذا صبر الذاكر على ذكره اللساني واتخذ لنفسه من ذلك ورداً يثابر عليه، أدركته يقظة القلب، وبدأ يشعر بجلاوة الذكر.. فإذا ازداد إقبالاً إليه وتعلقاً به، ومثابرة عليه، هيمن الذكر على مشاعره وانتقل إلى مرتبة الحضور، وأصبح الذكر سجية له، وغدا عملاً من أعمال الفكر.. ثم إن مواظبته على ذكر الله بهذه الحال، تنقله شيئاً فشيئاً إلى الغيبوبة عن المكونات كلها والاستغراق في شهود الله عز وجل، وهي الحال التي تسمى بوحدة الشهود، وقد سبق شرحها وبيانها في الجزء الأول من هذا الكتاب.

إذن فذكر الله هو المدخل، بل الطريق الذي لا بديل عنه، للسير في مدارج السالكين.. وهو الرفيق الذي لا غنى عنه في أي من المراحل التي يتدرج فيها السالكون، وهو المعنى الذي إذا فرغت منه الطاعات

والقربات، تحولت إلى رسوم لا حقيقة لها ولا فائدة منها، بقطع النظر عما قد توصف به من صحة أو بطلان، إذ إن مواصفات الصحة والبطلان للطاعات والعبادات، جزء لا يتجزأ من رسومها وأشكالها الظاهرة.

من أجل هذا قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟.. قالوا بلى. قال: ذكر الله»^(١).

وإياك أن تفهم أفضلية الذكر على تلك القربات الأخرى التي عددها رسول الله على غير وجهها، فتتوهم أن المسلم إذا ثابر على ذكر الله لم يعد يطالبُ بزكاة ولا صدقة ولا جهاد في سبيل الله... إن المعنى الذي نبه إليه رسول الله كما ذكره الشراح، هو أن قبول الله للطاعات التي يؤديها المسلم أياً كان، متوقف على سلامة القصد وإخلاص النية وصفاء العمل من شوائب العجب والرياء والمقاصد الشخصية، ولا يتأتى ذلك إلا بطهارة القلب من سائر الآفات التي تحجب العبد عن الله وتحول دون توهج الفؤاد بحبه، وإنما السبيل الوحيد إلى ذلك ذكر الله. فهو الشرط إذن لصلاحية القربات والصدقات والجهاد، وقبول الله لها وخلق النتائج المترتبة عليها.. فمعنى الحديث: إن ذكر الله تعالى خير عند الله عز وجل من صدقات

(١) رواه أحمد والحاكم والبيهقي وابن أبي الدنيا والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي الدرداء، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ورواه أحمد أيضاً من حديث معاذ، بسند فيه انقطاع.

وأعمال جهاد تؤدي بمعزل عن ذكر الله عز وجل، إذ لن تكون عندئذ صافية عن الشوائب التي من شأنها أن تودي بفائدتها وآثارها. فهو كقولك إن الضوء الذي يسبغه المسلم استجابة لأمر الله، خير من الصلاة التي يؤديها بلا ضوء.

وحسبك من دلائل أهمية انصراف القلب إلى ذكر الله، وخطورة انصرافه عن ذكره، قول الله عز وجل لرسوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٨].

اللهم اجعل أفئدتنا نابضة بذكرك، واجعله أنيسنا الدائم في اجتيازنا لمفاوز الدنيا إليك، واجعله سلّم وصولنا إلى شهودك وأجرنا اللهم من آفات نفوسنا وضعف جبلتنا، فإنه لا حول ولا قوّة إلاّ بك.

* * *

الحكمة الثامنة والأربعون

((من علامات موت القلب عدم الحزن
على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم
على ما فعلته من وجود الزلات))^(١)

ما المراد بحياة القلب وموته، في مصطلح التربية الإيمانية التي نحن
بصددها؟

عندما يكون القلب عامراً بمشاعر حب الله وتعظيمه والخوف منه،
فهو إذن قلب حيّ. وعندما يكون خالياً عن هذه المشاعر، فهو إذن
قلب ميت. ولكل من حياة القلب وموته آثار هامة تتجلى في حياة
صاحبه وسلوكه، وأنت تعلم أننا لانعني بالقلب هنا تلك العضلة التي
يتحدث عنها الأطباء وتخضع لعلاجاتهم وعملياتهم المختلفة.. وإنما
نعني به في هذا الصدد المشاعر التي تنعكس، بفعل الروح، على هذه
العضلة، مما يسمى بالعواطف الدافعة والرادعة والممجدة..

(١) هكذا رأيت في سائر النسخ، ولعل حذف كلمة «وجود» أولى. إذ الفعل لا يسلط
عليه.

وإني لأفترض أنك قد تسأل ناقدًا، أو مستشكلاً، بعد أن عرفت معنى كل من القلب الحي والقلب الميت: لماذا لا تكون علامة القلب الميت ارتكاب الزلات، من حيث تكون علامة القلب الحي النهوض بسائر «الموافقات» أي الطاعات. ومصدر هذا السؤال أو الاستشكال أن من شأن القلب العاثر بحب الله وتعظيمه والخوف منه أن يحمل صاحبه على أداء سائر الطاعات والابتعاد عن جميع المحرمات. إذ لا ثمرة لحياة القلب الحيّ إلا ذلك، ومن ثم فالمفروض أن يكون المتورط في الزلات ذا قلب ميّت، سواء داخله الندم على ذلك أم لا.

والجواب عن هذا الاستشكال أن الله، لحكمة باهرة، متع الإنسان بفطرة إيمانية ترقى به إلى مستوى الملائكية، وجهزه بقلب مهياً لأن يكون وعاء صافياً لأقدس حب في الكون، ألا وهو حب الله عز وجل، وقضى بأن تكون الروح السارية في كيانه، سرّاً هابطاً إليه من الملاء الأعلى، منتمياً بنسب التكريم والتمييز إلى ذاته العلية، ومن ثم فهي تظل في حنين دائم إلى العالم العلوي الذي أهبطت منه، وفي شوق شديد إلى الذات الإلهية التي شرفها بخصيصة التمييز والتكريم.. إذن فالكيان الإنساني مهياً قلباً وروحاً لأن يفيض بأسمى مشاعر الحب والتعظيم والمهابة لله عز وجل.

أما الطاقة التي يتمتع بها الإنسان، فقد قضى الله عز وجل، لحكمة باهرة كما قلت، أن تكون مشدودة إلى كثير من عوامل الضعف. فقد شاء الله تعالى أن تكون قدرته الجسمية والمادية محدودة، وأن تتسلط عليه نوازع الغريزة بكل أصنافها وتطلعاتها، وأن تتسرب إليه وساوس

الشياطين، وأن تهتاج بين جوانحه نيران الشهوات المختلفة، إلى جانب الفطرة الإيمانية التي متعه الله بها، وموازن إدراك الحقائق التي جهز دماغه بها. وهكذا فقد غدا الإنسان محور صراعٍ وملتقى أطماعٍ لهذه العوامل المحيطة به كلها، وكان لا بدّ أن يصبح ضعيفاً تحت وطأة هذا الصراع الدائب، وتلك هي الحقيقة التي أخبر بها البيان الإلهي القائل: ﴿وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨/٤].

إذن فالكيان الإنساني يحوي طاقة علوية تتجه بالحب والحنين إلى الملاء الأعلى، وتتمركز هذه الطاقة في الروح التي تعكس إيجاباتها إلى القلب. إلا أنه في الوقت ذاته يعاني من ضعفٍ آتٍ من تسلط العوامل الغريزية والشهوانية والوساوس الشيطانية، ومحدودية الطاقة الجسدية.. فينشأ التناقض عندئذ بين الطاقة الروحية التي يترجمها القلب إلى مشاعر الحب والخوف والتعظيم، والضعف الطبيعي الذي تترجمه الغرائز والأهواء والشهوات.

فما هي النتيجة التي تنشأ من هذا التناقض؟

النتيجة التي لا محيص عنها هي الوقوع بين جاذبي الخطأ والصواب، أو الطاعة والعصيان، وصدق رسول الله القائل: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(١).

تعلو به الروح ومشاعر القلب نحو الطاعة، وتسمو به سعداً لأداء حقوق الحب والمهابة والتعظيم، وتثاقل به أعباء الشهوات والغرائز

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرک، من حديث أنس بن مالك، وسنده صحيح.

والضعف البشري إلى حظوظ النفس وأهوائها، فيصيب ويخطئ، ويستقيم على الصراط ويتعثر، ويطيع ويعصي.. ذلك هو شأن الإنسان، بل ذلك هو شأن المسلم في كل زمان ومكان، حاشا الرسل والأنبياء فقد ميزهم الله بالعصمة عن الانحرافات والآثام، ليتأتى لهم النجاح في الدعوة إلى الله، والنصح بالسير على صراط الله، وليكونوا في حياتهم وسلوكهم قدوة للآخرين.

ولكن، ما الحكمة من هذا التناقض بين تسامي الروح والقلب إلى عالم الاستقامة والحب وآمال الانقياد الدائم لأمر الله، واتجاه الكيان البشري مثقلاً بالغرائز إلى حيث الشهوات والأهواء؟.. ما الحكمة من قيام التناقض بين قوة الحب الرباني المهيمن على الفؤاد، وضعف الطاقة البشرية المهيمن على الذات والكيان؟

الحكمة أن يرى العبد المؤمن بالله عز وجل من هذا التناقض، مشكلة لا مخلص له منها، إلا الفرار إلى الله والاستعانة به.. يفرّ إلى الله من ضعفه، ويلوذ به من وقع غرائزه وضراوة شهواته، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه وأن لا يتركه لسُلطان أهوائه ووساوس شيطانه.. معترفاً بأنه ضعيف مهين، لا يملك - من دون معونة الله له - حولاً ولا قوة.

وهذا المصير الذي ينتهي إليه هذا العبد، فراراً من التناقض الذي وصفته لك، هو المعنى بكلمة «العبودية» وهي الغاية القصوى من تقلبات الإنسان في حياته الدنيا، ولا فائدة للعبادات السلوكية الظاهرة، بدون التحقق بمشاعر العبودية الواجفة.. وهي في خلاصة معناها حالة

من الافتقار الكلي يشعر به الإنسان تجاه ربه عز وجل. فيقوده إليه بالدعاء والرجاء والاسترحام، وطلب العون.. موقناً بأنه لا يملك من أمر نفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.. وهي سلّم القرب إلى الله، ومفتاح الوصول إلى مرضاته.

ومهما صلى العبد وصام، ومهما تفنن في النسك والعبادات، لا يقربّه شيء من ذلك إلى الله، إلا إن كان مضمخاً بذل الافتقار إلى الله ممزوجاً بمشاعر الانكسار بين يديه.

ولكن من أين يأتي هذا الانكسار؟ ومن أين يصدر الشعور بهذا الافتقار؟

إن شيئاً من ذلك لا يصدر إلا من هذا التناقض الذي قضا به الله عز وجل، بين القلب الذي جعله الله وعاء مهياً لأقدس معاني الحب.. الحب الصاعد من فؤاد العبد إلى الرب عز وجل، وبين الكيان البشري الذي ابتلاه الله بالضعف والعجز عن أداء حقوق ذلك الحب..

تصور، لو أن الله عز وجل أكرمك بقدرات بشرية تتناسب ولو اعججت محبتك لله ورغبتك في الاستقامة على أوامره ووصاياه كلها دون أي تقصير، إذن لهيمنت عليك نشوة الشعور بالنصر ولطاف بك الزهو، ولنال منك الإعجاب بقوتك ونجاح جهودك.

فما الذي يقودك عندئذ إلى الالتجاء إلى الله، وما الذي يملك على الانكسار بين يديه، وكيف تشعر بمصداق قوله لك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٢٥].

بل ما الذي يقودك عندئذ إلى الدعاء الذي هو العبادة أو مخ
 العبادة، مستجيباً لأمر الله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾
 [غافر: ٤٠/٦٠] مادامت قدراتك البشرية متجاوبة ومتكافئة مع مشاعرك
 وطموحاتك القلبية، ومادامت الاستقامة الدقيقة على أوامر الله
 لا تتخلّى عنك؟

* * *

فقد تبين لك إذن أن من سنن الله في عباده أن تكون قدراتهم
 البشرية وإمكاناتهم السلوكية متقاصرة عن طموحاتهم الروحية، وعن
 مشاعرهم القلبية، قد يسمو أحدهم بحبه لله إلى أعلى الرتب إخلاصاً
 وتفانياً، فإذا استنهض كيانه البشري لأداء حق هذا الحب فوجئ
 بالعوائق والعجز، للعوامل التي ذكرتها لك.

وقد علمت أن الحكمة من هذه السنة الإلهية، أن تنقذ مشاعر
 العبودية لله والافتقار إليه، من خلال هذا التناقض القائم بين الروح
 العلوية والغرائز الأرضية، أو بين القلب المتعاضد بحب الله، والبشرية
 المثقلة بقيود الأهواء.. ومن ثم فلا مطمع في أن يكون الإنسان أياً كان
 (حاشا الرسل والأنبياء) معصوماً عن الزلل والآثام.

وإنما يقوم مقام العصمة التي لا مطمع فيها، أن يحزن العبد على ما
 قد فاته من الطاعات، إذ عاقته أهواؤه أو قعد به ضعفه عنها، حزناً
 يسوقه إلى التضرع بين يدي الله والاتجاء إليه أن يغفر له تقصيره وأن
 يوفقه لتدارك ما فاته.. وأن يندم على ما اقترف من الزلات ندامة

تقوده إلى التوبة إلى الله والخجل منه والاستعانة به أن يقيه من ضعفه وأن يحميه من الوقوع ثانية في براثن عجزه.

فذلك الحزن على فوات الطاعات، وهذه الندامة على الوقوع في الزلات، تحلّان - بفضل الله وعظيم رحمته - محلّ العصمة التي اقتضت حكمة الله أن يحجبها عن عباده، بل نقول بتعبير أصح وأدق: اقتضت حكمة الله أن لا يكلفهم بها ولا يحملهم مسؤوليتها، وذلك عندما جعل من الندامة الحقيقية التي تقود إلى التوبة بديلاً عنها.

إن التحقق بالعبودية، يرقى بالإنسان إلى أعلى من الشأو الذي تنبوؤه الملائكة بعصمتها ودوام تسبيحها وطاعتها..

نعم، إن الملائكة تنعم بالعصمة عن الوقوع في المعاصي، ولكنها لا تتمتع بما يتمتع به الإنسان الذي عرف ربه، من لذة التبتل بين يديه والانكسار على بابه، ولا تذوق لذة اللحظة التي يتوب فيها العبد إلى الله إذ يسمع نداء الله قائلاً: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيختر العبد ساجداً لمولاه تائهاً ما بين نشوة الشكر له ولذة التذلل على أعتابه. وهذه المزية لا تتحقق إلا من جراء الضعف الذي يعرض الإنسان لمنزلقات الأخطاء والتقصير، كما مرّ بيانه.

وتأمل في هذا المعنى، وانظر كم يبدو جلياً في خطاب الله لإبليس، وقد آلى على نفسه مخاطباً الله عز وجل أن يغلق على بني آدم صراطه المستقيم، وأن يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم، يصدّهم عن شكر الله وعن الاستجابة لأوامره، إذ أجاب

الله فقال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١/١٥-٤٢].

تأمل في قوله عز وجل ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وسائل نفسك: من هم الذين يعينهم بـ((عبادي))؟ إن الناس كلهم في الواقع، والحقيقة، عباد لله عز وجل مسلمين كانوا أو كافرين أو ملحدين، فكيف يصدق هذا القرار الإلهي عليهم جميعاً؟ كيف لا يكون للشيطان سلطان على المارقين والجاحدين والملحدين؟

إن المراد بكلمة ((عبادي)) الذين تحققوا بوصف العبودية لله ووضعوها من حياتهم موضع التنفيذ. والتحقق بوصف العبودية لله، لا يقتضي العصمة، ولكنه يقتضي العود إلى حمى الله بعد كل شروء عنه، ويقتضي الحزن على فوات الطاعة والندم على ارتكاب المعصية، والحزن والندامة يقودان إلى التوبة، وإذا تاب العبد توبة صادقة تاب الله عليه.

فمن هنا لا يكون للشيطان سلطان على من تحقق بوصفه العبودية لمولاه عز وجل، ووضعها من حياته في موضع التنفيذ: يغيره الشيطان بالمعصية ويزينها له ويفتح له إليها كل سبيل، وما يزال به حتى يوقعه في شركها.. ويفرح الشيطان عندئذ إذ نجح في إغوائه، وانتهت أتعابه بالنجاح.

ولكنه ما يكاد يصحو من وقع المعصية وترتد عنه نشوتها، حتى تهتاج به مشاعر عبوديته لله، فتثور من ذلك آلام الخوف والحجل من مولاه بين جوانحه وتقوم في نفسه عاصفة من الندامة على ما بدر منه،

ولا بدّ أن يقوده ذلك كله إلى التوبة والاستغفار، وإلى التضرع بين يدي الله عز وجل أن يقبل توبته ويغفر ذنبه، فيتوب الله عليه ويغفر له ذنبه ويحط عنه أوزاره، وتذهب بذلك جهود الشيطان سدى، ويتحول فرحه إلى كمد وغيظ.. ولكنه يعود الكرة فيغريه مرة ثانية بالعصيان، ويستشير إلى ذلك أهواءه وغرائزه، وربما نجح فأوقعه ثانية في حباله العصيان، ولكن مشاعر عبوديته لله تعالى تلهب بين جوانحه مرة أخرى نيران الندامة وتملأ كيانه بمزيج من الخوف والحياء من الله تعالى، فيعود إلى التوبة مرة أخرى، ويعود الله عز وجل إليه بالمغفرة والقبول، كما هو شأنه.

وهكذا.. كلما أصيب هذا العبد برشاش المعصية، اهتمت به مشاعر عبوديته لله، وقاده الحزن والألم والخوف منه عز وجل إلى التوبة الصادقة، فكان ذلك طهوراً دائماً له. فذلك هو معنى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ١١٥/٤٢] أي إن مشاعر عبوديتهم لله لا بد أن تسوقهم إلى التوبة، ولا بد أن يتوب الله عليهم ويضع عنهم أوزارهم، وتلك هي حماية الله لهم من سلطان الشيطان وكيده.

* * *

ولكن الداء الذي لا دواء له، أن يكون القلب ميتاً قد اختفت منه مشاعر العبودية لله، وغابت عنه نبضات الحب له والخوف منه، فلا يجزن على ماقد فات من الطاعات، ولا يندم على ماقد تلبس به من المعاصي والزلات، فأنى للتوبة أن تجد، والحالة هذه، سبيلاً إليه.

وإنما يتبلى القلب بهذه الحال، عندما يبرر العاصي عصيانه، ويرى في نفسه أنه على حق فيما ارتكب، وهي نتيجة لغياب إيمانه بالله. إذ لو كان مؤمناً بالله، لأيقن أنه عبده، وأن عليه أن يدين له بالولاء وأن يخضع له بالسمع والطاعة في كل ما قد أمر به ونها عنه. فإن وفق لذلك شكر الله وفرح بتوفيقه له، وإن تغلبت عليه نفسه وزلت به القدم، ندم وتألّم وأقبل إلى الله مستغفراً تائباً.

فلما استخف بالمعصية التي وقعت منه، ولم يقم لها وزناً، ولم يشعر من بعدها بأي جزع ولا ندامة، دلّ ذلك على أنه غير مبال بأمر الله وحكمه، وأنه ذاهل عن كونه عبداً مملوكاً لله، مكلف بالانقياد لأمره والخضوع لسلطانه.

هما نقيضان لا يجتمعان: العبودية الواجفة لله، والاستكبار على سلطان الله!.. فإن عمُر قلبك بمشاعر العبودية له وقيت شرّ معاصيك وشر أهوائك وشيطانك، وجعل الله لك من التوبة الدائمة سبيلاً ميسراً إلى صفحه ومغفرته.

وإن فاض قلبك بمشاعر الاستكبار عليه، لن تنفك بعدها طاعة، ولن تجد سبيلاً إلى توبة، ويصدق عليك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾

[الأعراف: ٤٠/٧].



الحكمة التاسعة والأربعون

((لايعظم الذنب عندك عظمة تصدّك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه))

هذه الحكمة ساقها ابن عطاء الله استدراكاً أو تقييداً للحكمة التي قبلها. فإنه لما لفت النظر إلى ضرورة الحزن على ما قد يفوت المسلم من فرص الطاعات، وإلى ضرورة الندم على ما قد ارتكبه من المحرمات، لم يبعد أن يوجد في الناس من يسترسل في الحزن، وفي الندامة، إلى أن يزجّه كل منهما في حالة من اليأس، فيقع في نفسه أنه لم يعد أهلاً لمغفرة الله وصفحته، وربما وسوس له الشيطان عندئذ أن انقياده إلى الطاعات وابتعاده عن المحرمات، لايفيدانه بعد اليوم شيئاً، فخير له أن يمتنع نفسه بما يشتهي، من أن يجرمها من حظوظها دون فائدة.

فغقب عليها بهذا الاستدراك محذراً من أن يعظم الذنب عند العاصي عظمة تصده عن حسن الظن بالله، وتنسيه واسع فضله وعظيم رحمته وصفحته، ومنبهاً إلى الرجوع بالذكر إلى صفات الله والتأمل فيها، فإن من عرف ربه من خلالها، أي من خلال معرفة صفاته، لايدّ أن يستصغر أمامها ذنوبه، مهما كثرت في العدد وعظمت في النوع.

وقد تستشكل سبيل التوفيق بين هذا الكلام والذي قبله، فتقول:

إن العبد إذا فتح باب الحزن على نفسه من جراء تقصيره في طاعات فاته شرف النهوض بها. أو فتح على نفسه باب الندم من جراء معصية ارتكبتها، فإن الشأن أن يتناول سلطان كل منهما عليه، إلى أن ينتهي به ربما إلى مضيق اليأس. ومن علم حق الربوبية على العبد، ووقف على دلائل قهر الله وسطوته، وما أعدّه للعصاة والمارقين، يصعب عليه أن يتحكم بحزنه وندمه، وأن يضع لكل منهما حداً. إذ إن كلا منهما انفعال قسري وليس فعلاً اختيارياً. فكيف يتأتى له أن يستجيب لنداء الحزن والندم، ثم يتحكم بهما ويتحرر منهما، ليجنح إلى الطمأنينة والاستبشار بأن الله قد غفر له ذنبه وأصلح له حاله، وأنه جل جلاله سيكون يوم القيامة عند ظنه به.

والجواب أن مصدر هذا الاستشكال ما قد تتوهمه من أن سبب الحزن أو الندم يجب أن يكون الخوف من سخط الله وعقابه، وعندما يكون سبب ذلك هذا الخوف فالإشكال وارد، لأن الخوف مرتبط بموجبه وهو العقاب الذي يتوعد الله الضالين والعاصين به، وإذا استحكمت الخوف بالنفس، فلا بد أن يشوش على حسن الظن الذي هو مبعث الأمن والطمأنينة في النفس.

غير أن الشأن في المؤمن الذي عرف ربه من خلال صفاته الأسنى وأسمائه الحسنى، ومن خلال ما لاحصر له من النعم التي يكرمه بها، ومن خلال ما سخر لخدمته من المكونات، أن يسارع دائماً في الاستجابة لأوامره ووصاياه، وفي الابتعاد عما ينهاه ويحذره منه من

المحرمات، حباً له و يقيناً منه بأنه لا يوجهه إلا إلى الخير، ولا يحذره إلا من الشر.. فإذا ساقه الضعف إلى مخالفة أمره، أو الوقوع في نهيه، فاض قلبه خجلاً وتأثراً من هذا الذي بدر منه تجاه مولاه، الذي هو غريق ألطافه ومننه وإحسانه. فذلك هو مصدر حزنه وندامته.. بل الشأن فيه أن يزداد حزناً وندماً كلما ازداد يقيناً بمغفرة الله له وصفحته عنه.

وتلك هي الحال التي انتابت فضيلاً، يوم كان يقف مع الححيح في عرفة، روى ابن الجوزي في صفة الصفوة عن مهران بن عمرو الأسدي قال: سمعت الفضيل بن عياض عثية عرفة بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء بالبكاء، يقول: واسوأته، وافضيحتاه، وإن عفوت عني^(١).

فهذا الحزن والندم لا يتعارضان مع حسن الظن بالله عز وجل، بل هما من آثاره ونتائجه، كما قد رأيت من حال فضيل.

والأليق بحال العبد أن يكون مبعث حزنه على مافات من الطاعات وندمه على ما ارتكب من الموبقات، الحياء من الله عز وجل، والتأثر من سوء معاملته لله مع حسن معاملة الله له.. فذلك هو الدليل على حبه وتعظيمه له. أما الحزن أو الندم الذي يكون مصدره الخوف من عقاب الله وعذابه، فقصارى ما فيه أنه دليل على اهتمامه بذاته وحبه لنفسه، وحرصه على أن لا يمسّه سوء وأن لا يناله أذى.

كم وكم من فرق في مقام القرب والحب، بين من يجزع من المعصية التي ارتكبها، لما قد أناط الله بذلك من آيات الوعيد بالعقاب

(١) انظر صفة الصفوة ٢/٢٣٩.

والنكال، وبين من يجزع من المعصية ذاتها ويندم على ارتكابه لها، إذ يقف وقفة تدبر أمام قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠/٥٥].

مبعث الجزع والحزن هناك الخوف من عصي التعذيب أو التأديب.. ومبعث الجزع هنا العتب الأخاذ الرقيق إذ يتوجه من المحسن المتفضل الكبير..

والذي ينتابه الجزع الأول، قد لاتعنيه الذات الإلهية التي تتوعده بالعقاب، وإنما يعنيه العقاب الذي يبحث عن ملاذ منه.. أما الذي ينتابه الجزع الثاني فإنما يعنيه الذات الإلهية دون سواه، حباً ومهابة وتعظيماً له.

والذي يهيمن عليه خوف العقاب، قد لا يدرك أهمية المشاعر المذبية التي تنبعث من قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.. ولكن القلب الذي أحب الله، ووقع في أسر الإحسان الرباني الذي لا ينفك عن صاحب هذا القلب في ليل ولا نهار، يأخذه من هذا العتب الإلهي الرقيق ما قد يذيبه.

وانظر.. وتأمل، بمشاعر حبك وتعظيمك لله عز وجل، إن كان قلبك يتمتع بشيء من مشاعر حبه وتعظيمه، في هذه الصياغة القرآنية العجيبة التي يقابل فيها البيان الإلهي إحساناً بإحسان على وجه المسائلة التي تنم عن وعد الله بالإحسان لعبده المحسن، وتنم في الوقت ذاته عن عتب الله على عبده الذي لا يلتزم بمثل ما التزم الله له

به، فيتلقى أنواع الإحسان من مولاه دون أن يقابل إحسانه هذا بمثله!..

وانظر كيف يساوي البيان الإلهي بين العبد والرب، على سبيل التنزل، في التذكير بالقانون المنطقي العادل القاضي بأن يقابل الإحسان بمثله.

وينطبق هذا القانون بصياغته القرآنية الدقيقة على الذات الإلهية، كما ينطبق على العبد سواء بسواء. فالآية تقول لك: هل من جزاء للإحسان الذي يتجه به العبد إلى الرب، إلا الإحسان المقابل الذي ينبغي أن يتجه به الرب إلى العبد.. وهي تقول لك في الوقت ذاته: هل من جزاء للإحسان الذي يتجه به الرب جل جلاله إلى العبد، إلا إحسان مقابل ينبغي أن يتجه به العبد إلى ربه عز وجل؟

وإذا كان عطاء الرب لعبده إحساناً وتفضلاً، فهيئات أن يكون الواجب الذي ينهض به العبد لربه إحساناً مماثلاً أو مقابلاً، ولكنها مشاكلة اقتضاها اللطف الإلهي بعباده، والتنزل في قرار التعامل معهم إلى مستوى تعاملهم معه وتلقيهم منه، فإذا كانت نعم الله الوافدة إليهم تفضلاً منه وإحساناً، فليكن شكرهم الواجب عليها فضلاً منهم وإحساناً، على غرار قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥/٢] وقد علمت أن الله أجلّ من أن يحتاج فيستقرض أو أن يتعرض لجهد أو عجز فيتفضل بالإحسان إليه من يعينه فيدراً عنه الجهد والعجز.. وهل القربات التي

يتقرب بها العبد لربه، مما يسميه الله، تلطفاً منه وفضلاً، «إحساناً» إلا بتوفيق وعون من الله عز وجل؟..

إن طاعات المسلم إذ يتقرب بها إلى ربه، ليست في الحقيقة إلا من مظاهر إحسان الله له، وفضله عليه.. وستقف على تفصيل واف لهذا الكلام عند شرح الحكمة الآتية التي يقول فيها ابن عطاء الله «من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك».

* * *

الحكمة الخمسون

((الاصغيرة إذا قابلك عدله. ولا كبيرة إذا واجهك فضله))

يقسم العلماء المعاصي إلى كبائر وصغائر. وأساس ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣٠/٤].

ولهم في تعريف الكبائر وتحديدتها كلام كثير. وأنا أوجزه في تعريفها ثم في ذكر أنواعها:

أما تعريفها، فهو: كل ما جاء فيه وعيد من الله بعذاب في الآخرة، أو أنيطت به عقوبة في الدنيا كالحدّ ونحوه.

وأما تعدادها وذكر أنواعها فهي المعاصي التالية:

* الشرك بالله. والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨/٤].

* عقوق الوالدين. والوعيد الذي جاء في حقه، المفهوم المخالف لقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣/١٧].

* قتل النفس بغير حق، والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣/٤] هذا إلى جانب القصاص الذي أنيط به.

* قذف المحصنات المؤمنات، ومثله قذف المحصنين من المؤمنين، والوعيد الذي جاء فيه، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣/٢٤] هذا إلى جانب الحد الذي أنيط به.

* أكل الربا... والوعيد الذي جاء في حقه قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥/٢].

* الفرار من الزحف. وهو أن يولي المسلم في القتال ظهره للغزاة المهاجمين بينما يزحف إخوانه مقبلين مهاجمين؛ والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلَّهْمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير﴾ [الأنفال: ١٦/٨].

* أكل مال اليتيم، والوعيد الوارد في حقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠/٤].

* الزنا... والوعيد الوارد في حقه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩/٢٥].

* كتمان الشهادة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

* اليمين الغموس، وهو أن يحلف الإنسان على شيء أنه فعله، وهو لم يفعله أو العكس، أي أن يقسم على شيء يعلم أنه كاذب فيه. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

* شرب الخمر، وحسبك من الوعيد عليه أن الله قرنه بالوثنية، فقال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠/٥] هذا إلى جانب الحد الذي أنيط به.

* ترك الصلاة: لقوله تعالى في حقه ﴿... مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢/٧٤-٤٣] هذا إلى جانب الحد المنوط به.

* نقض العهد وقطيعة الرحم، لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٢٢-٢٣].

* يضاف إلى ذلك الإصرار على الصغائر مما دون هذه الأمور التي جاء الوعيد في حقها أو أنيط الحد والعقاب الديني بها، فقد اتفق

جمهور العلماء على أن الإصرار على صغيرة ما يدخل صاحبه في زمرة الفاسقين، قال صاحب الجوهرة:
والعدل من لم يرتكب كبيرة ولم يكن ملازماً صغيرةً
ومن المعلوم أن الفسق نقيض العدل.

وإنما عُدَّ الإصرار على الصغيرة من الكبائر، لأن الشأن فيمن يصرَّ عليها الاستهانة بتعاليم الله وأوامره، والدخول في مداخل المكرِّ به عز وجل، إذ يتوب ويجعل من توبته مقدّمة أو مبرراً للرجوع إلى المعصية التي تاب عنها. والله عز وجل لا يُمكّرُ به، وقد توعد الماكرين بالعقاب الذي سماه مكرّاً على سبيل المشاكلة التي مر بيانها، فقال عز وجل: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤/٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣/٣٥].

إذا تبين هذا، فكل ما عدا الذي مرّ ذكره، مما توعد الله عليه بعقاب في الآخرة، أو أناط الله به عقاباً أو حداً في الدنيا، فهو من الصغائر؛ وقد تسمى بالسيئات، وقد تسمى لمماً، وهما من الأسماء الواردة لها في القرآن.

* * *

والآن.. يجب أن نعلم أن هذا التصنيف الذي انقسمت المعاصي بموجبه إلى كبائر وصغائر، إنما هو ناظر إلى ميزان الشريعة الإسلامية التي أقامها الله تعالى في عباده لرعاية مصالحهم ودرء المفسد عنهم.

إن الكبائر التي توعدها الله عليها بالعقاب يوم القيامة، لم تصنف في الكبائر، إلا لما فيها من إهدار لحقوق العباد.. وإن الصغائر التي وعد الله بالصفح عنها والمغفرة لها، لم تصنف في الصغائر إلا لأنها خادمة لحقوق الله أو دائرة على التحسينات من حقوق العباد.

والقاعدة الفقهية المعروفة تقول: «حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحة».

إذن فهذا التصنيف الذي مرّ بيانه، ناظر إلى مصالح العباد في الدنيا، وليس ناظراً إلى حق الربوبية في أعناق العباد.. وفي هذا من اللطف الإلهي بالعباد ما لا يغيب عن بال عاقل.

فأما إن نظرت إلى حقوق الربوبية في أعناق عباد الله عز وجل، بقطع النظر، عن الأنظمة والشرائع التي تتوقف مصالحهم على الأخذ والانضباط بها، فلن تجد عندئذ أثراً لهذا التصنيف، بل لا بد أن تستوي المخالفات كلها عند حدّ من الخطورة والجسامة واحدة. إذ من أهم حقوق الله على عباده أن يطاع ولا يعصى. بقطع النظر عن نوع الطاعات وأهميتها، وعن نوع المعاصي وخطورتها.. إذ العصيان بحد ذاته، أي من حيث هو عصيان، جريمة كبرى، عندما تصدر من العبد في حق الرب. وإلى هذا المعنى الذي أقول، يشير قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٢٥/٤٥].

فالمعاصي المعنية بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أعم من خصوص الكبائر أو الصغائر، إذ هي شاملة لها جميعاً. وها أنت ترى كيف

احتفى هذا التصنيف فيها أمام قوله عز وجل: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهو وعيد كبير مخيف، ولكنه مطوي عن التنفيذ في تلافيف فضل الله وكرمه، والإحالة إلى ما قد قضى الله به في يوم المعاد.

إذن، فالمعاصي كلها، من حيث هي خروج عن طاعة الله تبارك وتعالى، ذات درجة واحدة في السوء والتعرض لعقاب الله تعالى. ولكن الله، تفضلاً منه وإحساناً، جعل مناط الإثم في المعاصي ما يتسبب عنها من الفساد في حياة الإنسان الفرد، أو في التركيبة الاجتماعية، ولما كانت درجة الفساد في كل منهما متفاوتة، استتبع ذلك تفاوت المعاصي في الإثم الذي يتسبب عنها، وانقسامها إلى كبيرة وصغيرة.

ونتيجة ذلك، أن الله عز وجل إذا أراد أن يحاسب عباده طبقاً لما يقتضيه ميزان العدالة الذي يبرز حقوق الرب عز وجل على عباده، فلسوف تكون المعاصي كلها من الكبائر الموبقة، دون أي تفاوت بين ما يسمى كبيرة وصغيرة ولمأ.. أما إذا أراد أن يحاسبهم طبقاً لما يقتضيه فضله وتجاوزه وكرمه، فلسوف تضل المعاصي كلها ويهون خطبها، حتى لا يبقى فيها ما يجدر أن يسمى كبيرة.

* * *

ولكن ماهو السبيل الذي إن سلكه الإنسان كان على موعد مع فضل الله وكرمه وتجاوزه، وماهو السبيل الذي إن سار فيه الإنسان كان على موعد مع ميزان العدالة الإلهية التي ترعى حقوق الربوبية كاملة غير منقوصة؟..

السبيل الموصل إلى مواجهة فضل الله وكرمه، هو أن يعزم العبد على أن يطيع الله في كل ما قد أمر به، وأن ينتهي عن كل ما قد حذر ونهى عنه، موقناً أنه لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة، ومن ثم يستمد القدرة والتوفيق وأسبابهما من الله عز وجل.. فإذا حالفه التوفيق وأمدّه الله بالحوال والقوة لتنفيذ أوامره والانتها عن نواهيه، حمد الله موقناً أن الفضل في ذلك لله، وأن ثواب طاعته له إنما يتمثل في الشكر الذي يجب أن يصدر منه لله عز وجل، لا في الأجر الذي يتوقع أن يصدر من الله إليه. ونظراً إلى أن واجب الشكر لله عز وجل يتوقف هو الآخر على توفيق الله وعونه، فإن الشأن في حال هذا العبد إذا رحل إلى الله أن يقبل إليه خائفاً من عواقب تقصيره لا طامعاً في الأجر الذي يرى أنه يستحقه على طاعته. مصداق ذلك قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

[المؤمنون: ٢٣/٦٠].

وأما إن لم يحالفه التوفيق، وزلت به القدم في حمأة المعاصي، وجمحت به نفسه إلى ارتكاب الآثام، فسبيله إلى ذلك أن يصحو بعد تجاوز المعصية وارتكابها إلى ذلّ عبوديته لله، وأن يقف متضائلاً متصاغراً تحت مظلة عفو الله ومغفرته، وأن يخاطبه بقلب متلوع، لابلسان مفصول عن مشاعر فؤاده، قائلاً: اللهم إنني ما عصيتك حين عصيتك استكباراً على أمرك أو استهانة بحكمك، ولكن لسابقة سبق بها قضاؤك فالمغفرة منك والتوبة إليك.

فإنه إن فعل ذلك واجه من الله فضله، بدلاً من أن يقابله منه عدله.. ولا فرق عندئذ بين أن تكون المعصية التي تورط فيها كبيرة أو صغيرة.

ومهما عاد بعد ذلك فزلت به القدم ثانية وثالثة في المعصية أو المعاصي، فسلك هذا السبيل ذاته صادقاً مع الله في مشاعره وخطابه عازماً على أن لا يعود، فإن الله لن يعامله إلا بفضله، وقد سبق تفصيل ذلك في الحكمة السابقة.

ولا يقولن قائل إن عمري الذي مضى ملئ بالفواحش والكبائر وأن احتمال صفح الله عنها ومغفرته لي بعيد غير مأمول.. فإن هذا الاعتقاد بحد ذاته معصية حذر القرآن منها. ألم تقرأ قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧/١٢].

وسبب كونه معصية أن صاحب هذا الاعتقاد لا يعرف لله منة ولا فضلاً، متوهماً أنه إنما يعامل الناس بمقتضى ما قد ترتب له عليهم من حقوق.

أما السبيل الموصلة إلى مواجهة عدل الله عز وجل بعيداً عن التفضل والصفح والغفران، فهي تلك السبيل التي يسلكها بعض الناس إذ يتباهى أحدهم بالطاعة التي أداها ناسياً أن الله هو الذي وفقه إليها وأعانه على أدائها. فإذا انحرف إلى معصية، استهان بها وعدّها من اللمم الذي لاضير فيه ولا خطر منه.

إن هذا السبيل من شأنه أن يزهق قيمة الطاعة التي تباهى صاحبها بها، وأن يُعظم من خطر المعصية التي استهان العاصي بها.

إنَّ جِلَّ الثَّوَابِ الَّذِي يَنَالُهُ الْمُطِيعُ عَلَى طَاعَاتِهِ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا قَدْ انْبَثَقَ مِنْ أَدَائِهَا مِنْ مَشَاعِرِ الْعِبُودِيَّةِ وَالتَّذَلُّلِ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ.. فَإِذَا خَلَّتِ الطَّاعَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ فَقَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَعْنَاهَا وَانْفَصَلَتْ عَنْهَا رُوحَهَا، فَعَادَتْ بِمَجْرَدِ شَكْلِ لِلْعِبَادَةِ وَصُورَةِ لِحَرَكَاتِهَا.

وَإِنْ جَلَّ الْعِقَابُ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَهُ الْعَاصِي عَلَى مَعْصِيَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا قَدْ انْبَثَقَ فِيهَا مِنْ دَلَائِلِ اسْتِهَانَةِ الْعَاصِي بِهَا، وَلَا مِبَالَاتِهِ بِالْعِقَابِ الَّذِي قَدْ يَنَالُهُ بِسَبَبِهَا. فَإِذَا خَلَّتْ حَالُ الْعَاصِي مِنْ مَشَاعِرِ الاسْتِهَانَةِ بِهَا وَاسْتِصْغَارِهِ أَوْ احْتِقَارِهِ لَهَا، فَقَدْ انْفَصَلَ عَنْهَا أَهَمُّ مَا كَانَ سَبَباً لِسُخْطِ اللَّهِ عَلَى الْعَاصِي فِي مَعْصِيَتِهِ.

وَدَعْنِي أَضْعُكَ أَمَامَ بَعْضِ الْأَمْثَلَةِ لِمَعَاصٍ أَوْ حَتَّى لِمَكْرُوهَاتٍ يَسْتَهِينُ بِهَا مَرْتَكِبُوهَا، وَيَعَاوِدُونَ ارْتِكَابَهَا فِي اسْتِخْفَافٍ بِهَا، مَطْمَئِنِينَ إِلَى أَنَّهَا مِنَ اللَّيْمِ الَّذِي سَيَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ.

مِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ إِصْرَارُ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى الْأَكْلِ بِالشَّمَالِ طَبَقاً لِمَا يِقْتَضِيهِ عَرَفَ السَّكِينِ وَالشُّوْكَةِ. إِنَّ مِنَ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَكْلَ بِالْيَمَنِ الْيَمْنَى مِنَ السَّنَنِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَلَا الْفَرَائِضِ.. وَلَوْ أَنَّ مُسْلِماً تَغَلَّبَتْ عَلَيْهِ عَادَةٌ دَرَجَ عَلَيْهَا، أَوْ اسْتَسَلَّمَ لَتَهَاوَنَ تَحْكَمَ بِهِ، فَأَخَذَ يَأْكُلُ بِالْيَسْرَى بِدَلِ الْيَمَنِ، لِمَا كَانَ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ وَمَا ارْتَكَبَ مِنْ جِرَاءِ ذَلِكَ وَزُرّاً. وَلَكِنَّ النَّاسَ الَّذِينَ أَعْيَنَهُمْ بِهَذَا الْمَثَالِ، هُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَسْتِخْفُونَ بِهَذَا الْأَدَبِ النَّبَوِيِّ، وَيَتَرَفَعُونَ عَنِ الْإِتِّزَامِ بِهِ اسْتِكْبَاراً أَوْ إِشَاراً لِتَقْلِيدِ دَرَجَ عَلَيْهِ عِشَاقُ الْحَضَارَةِ الْأَسَنَةِ. إِنَّ الْإِنْصِرَافَ عَنِ الْإِتِّزَامِ بِهَذِهِ السَّنَةِ بَدَافِعَ مِنْ هَذِهِ الاسْتِهَانَةِ،

تحيل السنة إلى فريضة، وتجعل الانصراف عنها تلبساً بمعصية كبيرة، وربما تسربت إلى مكنن الإيمان فزلزلته أو قضت عليه.

يتضح هذا جلياً من الحديث الذي رواه سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت!.. ما منعه إلا الكبر. فما رفعها إلى فمه^(١).

مما لا ريب فيه أن رسول الله ﷺ لم يكن ليدعو على هذا الذي كان يأكل عنده بشماله، لمجرد أنه قد ترك السنة. إذ السنة ما لا حرج في تركه مع ثبوت المثوبة على فعله. ولكنه لما قال لرسول الله لا أستطيع، وعلم أنه إنما قال ذلك تكبراً، انبثق من موقفه ذاك وضع ورطه بأخطر أنواع الموبقات التي اقتضت أن يواجهه من الله عدله. فمن أجل ذلك دعا عليه بقوله: لا استطعت. ولا ريب أن من مقتضى عدالة الله أن يستلب الله منه نعمة القدرة اليدوية التي أخضعها الله لإرادته ومصالحه، عندما تجاهلها بل أنكرها، في الوقت الذي كان يتباهى بها.

ومن الأمثلة على ذلك استهانة بعض الناس بارتكاب محرمات بلغهم أنها من الصغائر، أو وجدوا أن القرآن ينعتها باللمم، يقتحمونها دون أي مبالاة بها أو خوف من عواقب التورط فيها.. كأنواع من الاختلاط اللامنضبط بالنساء.. وكمقدمات محرمة من العلاقة بهن.. وكتساهل النساء في إبراز بعض مظاهر الإغراء والزينة، اعتماداً على كلام من يطمئنهن بأن ذلك كله من اللمم الذي قرر الله في محكم

(١) رواه مسلم.

تبيانه أنه يتجاوز عنه.. وكالركون إلى بعض المحرمات في نظام التعامل التجاري، اعتماداً على أنها من الصغائر التي وعد الله بالصفح عنها.

إن هذه المحرمات، هي فعلاً من الصغائر، في التصنيف الشرعي الذي سبق بيانه، ولكنها في ميزان الحقوق الإلهية المنوطة بأعناق العباد لا تختلف في الخطورة وجسامة النتائج عن غيرها.. فإذا تورط فيها الإنسان بسائق ضعف، وتغلب شهوة، موقناً بأنه قد أهدر بذلك حقاً من أجلّ حقوق الله عليه (وقد سبق أن قلت إن من أهم حقوق الله على العبد أن يطاع ولا يعصى بقطع النظر عن نوع الطاعة ونوع المعصية) وقاده ذلك إلى الندم والحياء من الله تعالى واللجوء إليه بالتوبة والاستغفار، فإن الله عز وجل يعدّها عليه صغيرة، ويعامله عليها بفضله ورحمته، فيغفرها له كما وعد.

أما إن ارتكبتها آمناً مطمئناً، مستبشراً بأنه لن يلقي على أعقابها من الله أي مكروه، ناسياً بأنه قد أهدر بارتكابه لها حق الله عليه وهو أن يطيعه ولا يعصيه في أي أمر من الأمور، فإنها تتحول باستهتاره هذا من صغيرة إلى كبيرة، إذ لا كبيرة أكبر، بعد الكفر والشرك بالله، من الاستخفاف بحقوق الله تعالى.. وإذا شرد الإنسان عن مظلة الرحمة الإلهية وابتعد عن سوانح فضل الله ومغفرته. يمثل هذا الاستهتار واللامبالاة، فالذي سيواجهه عندئذ من الله عز وجل إنما هو عدله.. ومن البدهة بمكان أن الله عز وجل لو قضى بأن يحاسب الناس بعيداً عما قد ألزم به ذاته العلية من الرحمة بهم والمغفرة لهم، محاكماً لهم إلى ميزان عدله المجرد، إذن لهلكوا جميعاً، وقد ذكرتك في بيان هذه

الحقيقة بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾^(١) [فاطر: ٤٥/٣٥].

وانظر إلى هذه الحقيقة كم تبدو واضحة في هذا الذي يقوله رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر ليرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا»^(٢).

وإنك لتلاحظ أن رسول الله لم يفرق في هذا بين كبيرة وصغيرة.

وتدخل في ميزان هذه القاعدة الطاعات أيضاً. فعلى الرغم من أنها متفاوتة في مقياس القواعد الشرعية التي ترعى في ذلك ما تحققه من أنواع المصالح والمقاصد المتفاوتة، إلا أنها جميعاً ترقى إلى درجة واحدة من القدسية والأهمية، عندما ينظر العبد إليها على أنها أحد شطري القانون القائل: إن من حق الله على عباده أن يطاع ولا يعصى. فطاعة الله حق من الحقوق المنوطة بأعناق العباد، بقطع النظر عن أنواع الأعمال التي تعلق بها أوامره عز وجل.. إن التفاوت الذي تراه في حديث رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» إنما هو ناظر إلى أثر شرائع الله وأحكامه في تحقيق مصالح العباد، فأما إن نظرت إلى علاقة ما بين العبد وربّه، فإن أوامر الله الصادرة إليه تقف من الأهمية والقدسية والخطورة في درجة واحدة. ومن ثم فإن إقبال العبد إلى

(١) انظر صفحة ٢٢٧ من هذا الكتاب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود.

تنفيذها ينبغي أن يكون بدرجة من الاهتمام واحدة، لاسيما إن تذكرت أن مناط قبول الله لها والمثوبة بها، ناظران إلى حال العبد من حيث الدوافع التي حملته على تنفيذها، من تعظيم حرمان الله والغيرة على شعائره وأحكامه، ومدى الإخلاص لذاته العلية في إقباله عليها واهتمامه بها.

وهذا المناط هو الذي يجعل الطاعة الصغيرة، في رأي العين، كبيرة عند الله عز وجل. وذلك عندما يندفع العبد إليها بقدر كبير من حب الله وتعظيمه والغيرة على حرمانه.

روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة بشر بن الحارث المشهور بالحافي، أن سبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة كتب عليها اسم الله تعالى، قد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية (نوع من أنواع الطيب) فطيب بها الورقة، وجعلها في شق حائط. فرأى فيما يرى النائم أن قائلاً يقول له: يا بشر، طيبت اسمي، لأطيين اسمك في الدنيا والآخرة^(١)

إن المكانة التي تبوأها بشر بن الحارث بهذا العمل، ليست منبعثة من سرّ في ذلك العمل ذاته، وإنما انبعثت من شعوره بعظيم حق الله عليه، ومن عظيم غيرته على حرمانه عز وجل. وهذا هو المصدر الأول والأخير لتقوى الله عز وجل، وصدق الله القائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢/٢٢].

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٩١/٥، طبعة دار الفكر.

وإذا أدركت هذه الحقيقة، أدركت أن نقيض العمل الذي قام به بشر، قد يحمل نقيض نتائجه وثمراته، وذلك لنقيض السبب ذاته. فالذي يرى في طريقه مثل هذه الورقة التي كتب اسم الله عليها وقد استهان بها المارة وداستها الأقدام، فأشاح بوجهه عنها مستخفاً بالأمر، مترفعاً عن الانحناء أمام الناس لالتقاطها وتعظيمها ووضعها في مكان لائق، يتعرض لنقيض المكانة التي تبوأها بشر بن الحارث رحمه الله، لا لذات الترك أو الإعراض، وإنما للاستخفاف أو الازدراء الذي دفعه إلى الإعراض.

إذن فقد عرفت الجواب عن السؤال الذي قد يطرحه أحدنا قائلاً: ما السبيل الذي إن سلكته أمام أحكام الله وأوامره، كنت على موعد مع مقابلة فضل الله وعفوه وتجاوزه، بدلاً من مواجهة عدله المجرد عن صفحه ومغفرته؟

السبيل، أن تنقاد إلى تنفيذ أوامر الله والابتعاد عن نواهيه، بدافع التعظيم لذاته، والغيرة على حرمانه، والشعور بعظيم حق الله عليك. وعندئذ تتساوى الطاعات كلها أمامك في الأهمية والضرورة، وتتساوى المعاصي كلها أمامك في السوء والخطورة.. فإنك إن سرت على هذا النهج لم يواجهك من صفات الله عز وجل إلا فضله وصفحه وغفرانه. فإن وفقت للطاعة ضوعف لك عليها الأجر، وإن زلت بك القدم وشرد بك الضعف إلى فسوق أو عصيان، واجهك من فضل الله وإحسانه ما يحطّ عنك أثقال ذلك الوزر.

فالزم هذا السبيل خلال حياتك كلها، يكن فضل الله وعظيم عفوه رفيقك الدائم على الدرب، وشفيعك بين يدي الله يوم المعاد.

الحكمة الحادية والخمسون

((لا عمل أرجى للقبول من عمل
يغيب عنك شهوده، ويحتقر عندك وجوده))

لابدّ لإدراك المعنى الجليل الذي ترمي إليه هذه الحكمة، من مدخل يعيدنا إلى عقيدة التوحيد التي هي الأساس الذي لابدّ منه لصلاح سائر الأعمال، وإلى واقع الضعف الذي يصطبغ به الإنسان في أحواله كلها. إن من معاني التوحيد التي ينبغي أن نعلمها وأن نصطبغ بها، أن الله هو الخالق لأفعال الإنسان، وأن الإنسان إنما يتحرك ويذهب ويحيى بمعونة الله وتوفيقه، فإذا انفكت عنه معونة الله وعونه، ووكله إلى نفسه، تحول إلى كتلة عجز ولم يتأت منه شيء.. ولذلك علمنا الله عز وجل إذا خاطبناه في صلاتنا، أن نقول له، بعد الثناء عليه: إياك نعبد، وإياك نستعين، ففي الجملة الأولى نعلن عن عبوديتنا وانقيادنا لأمره وحكمه، وفي الجملة الثانية نعلن عن كامل توحيدنا له، من خلال الإقرار بعجزنا الكلي، وحاجتنا الدائمة إلى عونه وتوفيقه. وهذا العجز الكلي هو الذي تعبر عنه الكلمة القدسية التي علّمنا إياها رسول الله ﷺ: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وهو الذي تنبئ عنه النصيحة

النبوية الغالية التي يقول فيها «استعن بالله، ولا تعجز»^(١) أي اجعل من استعانتك بالله السبيل الأوحى إلى التخلص من عجزك.

أما ضعف الإنسان الذي هو نتيجة قرار الله القائل: ﴿وَوَحَلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨/٤] فمصدره ما قد سلطه الله عليه من نيران الشهوات وسلطان الغرائز، ووساوس الشيطان، إلى جانب إمكاناته المحدودة كما سبق بيانه.

ومن آثار هذا الضعف فيه، أنه لا تكاد تصفو له عبادة من زغل، وأنه يظل مشدوداً إلى سلطان غرائزه وشهواته، فتكون طاعاته وقرباته مشوبة بشائبة الأهواء، مغموسة بالغفلات ممزوجة بالكثير من رعونات النفس وحظوظها.

فإذا صحا الإنسان لهاتين الحقيقتين في كيانه: علم أنه مدين في حركاته وسكناته وأنشطته وقدراته وسائر جهوده لتوفيق الله وعونه، وعلم أنه مهما توجه إلى الله بالطاعات والعبادات، فإنها تظل مثقلة بأسباب التقصير ممزوجة بالغفلات والأخطاء وحظوظ النفس.

وإذا علم الإنسان ذلك، فإنه مهما أقبل إلى الله بالطاعات والقربات، فلن يشعر في أعقابها إلا بعظيم منة الله عليه إذ شرح صدره لها، وأطلق قدراته في أدائها، ثم بشديد حيائه منه عز وجل إذ

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة في كتاب (القدر). وأوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

كان ضعفه البشري حائلاً بينه وبين النهوض بها على النحو الذي يليق بربوبيته وعظيم حقه عليه. ولسوف يدعوه شعوره الخجلُ هذا إلى أن يقبل على الله في أعقاب طاعاته قائلاً: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» كما كان يفعل رسول الله ويعلمه أصحابه^(١).

ومن هنا، فقد كان الربانيون من عباد الله عز وجل لا يعودون من طاعاتهم وعباداتهم إلا بأثقال من مشاعر الفضل والمنن لله عليهم، إذ أعانهم وأمدهم بأسبابها من انشراح الصدور وتيسير الأمور، وصرف العوائق، وبأثقال من مشاعر الحياء والخجل من الله تعالى، إذ لم تكن طاعاتهم وقرباتهم من الصفاء والطهارة من الزغل وكدورات النفس، بحيث تليق بحضرة الله عز وجل وربوبيته لهم وحقه عليهم.

من ثم فإن أحدهم لم يكن يطمع بأكثر من أن يقبلها الله منه على علائها وعلى ما فيها من نقص وتقصير، موقناً بأنه لا يملك أن يطلب عليها أي مثوبة أو أجر، بل موقناً بأنه هو المدين فيها لله عز وجل بالشكر على توفيق الله له ومدد العون إليه، وعلى قبولها منه على ما فيها من زلات وإساءات وتقصير.

فهؤلاء هم الذين يتقبل الله منهم قرباتهم وطاعاتهم، يتقبلها منهم لأنها غابت - كما يقول ابن عطاء الله - عن شهودهم، إذ الله هو

(١) روى أبو داود والنسائي من حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: يا معاذ، والله إنني لأحبك. ثم قال: أوصيك يامعاذ، لاتدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

الموفق والمعين والميسر. ولأنها أحقر من يتراءى لها وجود يناسب ألوهية الله وعظيم حق الله عليهم. إذ هي مليئة فيما يرون ويجزمون بمظاهر العيب والتقصير وحفظ النفس.

ولكن من أين لابن عطاء الله هذا القرار، بأنهم هم الذين يتقبل الله منهم أعمالهم، وأن الآخرين لا يرجى أن يكون لهم حظ في القبول؟

إن مستند ذلك في كتاب الله عز وجل، قوله، وهو يصف هذه النخبة من عباده الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي يتقربون إلى الله بما يتقربون إليه به من الطاعات والعبادات، وهم خائفون، من مغبة ما اقترنت به من مظاهر السوء والتقصير، أن لا يقبلها الله منهم، وأن يعاقبهم على العيوب والآفات التي تسربت إليها، روى الإمام أحمد والترمذي وابن أبي حاتم، من حديث عائشة أنها قالت يارسول الله - تسأله -: الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟! .. قال لا يا ابنة أبي بكر، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل أن لا يتقبل منه.

فأصحاب هذه الصفة والصفات التي قبلها، امتدحهم الله عز وجل بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:

. [٦١/٢٣

ومن الأدلة على هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، الدعاء الذي علمه رسول الله لمعاذ وأوصاه أن يدعو به بعد كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» إذ إن هذا الدعاء شأن من لا يرى

لعبادته أثراً في جنب عظيم سلطان الله، وكبير حقه عليه. فهو يلجأ إليه ويدعوه أن يعينه على أن يعبد العباد اللائقة به، السليمة من النقص والشوائب، والبعيدة عن آفات تقصيره وحظوظ نفسه.

ومن الأدلة على ذلك أيضاً شدة خوف أصحاب رسول الله، لاسيما المبشرين منهم بالجنة، من عاقبة أمرهم ومن أن يفاجؤوا بسخط الله عليهم. وإنك لتعلم من حال الخلفاء الراشدين الكثير والكثير من مظاهر هذا الوجع.

أين كانت عبادات عمر وطاعاته من خاطره وشهوده، يوم أسرع يحمل عدل الدقيق على ظهره ليمضي به إلى المرأة التي كان يتضور أولادها جوعاً، فقال له غلامه: أنا أحمله عنك، قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك؟^(١).

أين كانت طاعاته، وهي كثيرة وكبيرة، من خاطره وشهوده، يوم تلى في الصلاة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨] فخرّ مغشياً عليه^(٢)؟ وأين كانت طاعاته هذه من خاطره، إذ كان يسأل حذيفة حائفاً قلماً: أنشدك الله أنا من المنافقين؟ وأين كانت طاعاته الكثيرة هذه من خاطره إذ كان يلقي الصبيّ فيأخذ بيده قائلاً: ادع لي فإنك لم تذنّب بعد؟^(٣)

* * *

(١) تاريخ الطبري: ٢٠/٥ سيرة عمر لابن الجوزي ص ٥٩.

(٢) حلية الأولياء: ٥١/١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١٠/٣.

ثم إن الشأن فيمن كان قريب العهد بالهداية والالتزام، أن لا يفهم هذا الكلام، وأن يرى في أداء الفرائض الأساسية من الصلاة والصوم ونحوهما، وفاء كاملاً لحق الله عز وجل، ومهما كانت عباداته شكلية خالية من مضمون الخشية والحضور، ومهما كانت حظوظ النفس متسربة إليها، فإنه يرى أنه قد أنجز بفعلها كل ما هو مطلوب منه.. ذلك لأن قلبه لا يزال فارغاً من العواطف الإيمانية المتمثلة في تعظيم الله والشعور بحقوقه الكبيرة التي لا تحصى عليه، والمتمثلة في حبه له بسبب ما يتوارد إليه من نعمه التي لا حصر لها... وإنما هو الإيمان العقلي الأعزل، ولعله لا يزيد في أول الأمر على كونه إيماناً تقليدياً مندفعاً إليه بسائق التيار الاجتماعي المؤثر من حوله.

فإذا سار في الطريق إلى ترسيخ إيمانه هذا بضع خطوات، عن طريق مزيد من دراسة دلائل التوحيد والتنبيه إلى حقائقه، والركون إلى شيء من مجالس الذكر وأهل الصلاح والتقوى، أدرك أن الله أجلّ من يتقرب إليه بطاعات وعبادات شكلية، لا يشترك القلب فيها بشيء من الحضور والخشية. ويبدأ بالارتياح في صحة صلواته التي ينصرف خاطره فيها إلى مشاغله الدنيوية ورغائبه النفسية، بينما يردد لسانه ما حفظه واعتاد عليه من آيات الفاتحة وغيرها من سور القرآن الكريم.. وإنك لتجد كثيراً من الناس على اختلافهم، يسألون - في هذه المرحلة - عن السبيل الأيسر والأمثل إلى الحضور والخشوع في الصلاة، والتخلص من عوامل الشرود والغفلة فيها.

فإذا تابع هذا السالك طريقه، وازداد إقبالاً على معاني التوحيد يتدبرها ويتأمل فيها، وازداد عكوفاً على مجالس ذكر الله بالقلب

والشعور لا بمجرد اللسان والسبحة، كما قد مرّ بيان، أخذ قلبه يستقبل مشاعر جديدة وافدة من تعظيم الله ومهابته، وأخذ يدرك أنه هو المحرك لهذا الكون كله، وأن العبد لا يتحرك ولا ينشط ولا ينطق ولا يفعل، إلا بالقدرة الإلهية التي يكرمها الله بها، فهو الخالق لفعله، وهو المدبّر لأمره، وأن مناط الثواب والعقاب في تصرفاته إنما هو «الكسب» الذي هو التعبير القرآني عن الاختيار والقدرة على اتخاذ القرار، وهما منحة ربانية للعبد، بها يستحق الثواب على الطاعات التي اختارها وعزم عليها، وبها يستحق العقاب على المعاصي التي آثرها بالعزم والاختيار.. ثم إنه في هذه المرحلة يتحرر شيئاً فشيئاً من غفلاته ومشاغله الفكرية بالدنيا وأهوائها، إذ يصحو إلى المنن والنعمة الإلهية التي تتوارد إليه من كل صوب وفي كل حين، فتحتاج من ذلك مشاعر الحب لله في قلبه، ولا يكاد ينفك عن الإحساس بعظيم منن الله عليه.. وعندئذ، وتحت سلطان هذه الحال، يخرج من طاعته وقرباته التي كان يزعم أن يؤدي بها حقوق نعم الله عليه، وهي لا تبلغ أن تكون كهباء أمام قيمة كنز عظيم لا ينفد!.. إذ يرى آثار ودلائل ضعفه المتحكمة في طاعته، من غفلة وعجز وتسرب لسطان الحظوظ النفسية إليها، هذا إلى جانب ما يعلم من أن الله هو المعين له في أدائها، وهو الذي يثبت في كيانه وأوصاله القدرة على فعلها والتحرك بها، فالفضل إذن في العبادة التي أقدره الله عليها، للمعبود الذي يتقرب بها إليه، وليس للعابد الذي لا حول له ولا قوة ولا يملك من أمر نفسه شيئاً إلا بمعونته وتوفيقه.

في ظل هذا الشعور يتقبل الله منه طاعاته، والحقيقة أن مناط القبول إنما هو شعوره بعجزه عن الوفاء بأي من حقوق الله الكثيرة عليه، فهو يبذل كل ما يتأتى له من جهد في أداء العبادات والقربات، ولكنه يعود موقناً بأنه أساء ولم يحسن، وبأنه قصر ولم يوفِ الله شيئاً من حقه، ويذوب عندئذ أمامه عمله وتغيب عنه جدواه، ولا يبقى أمامه إلا الأمل بمغفرة الله وعفوه.

ولا يقولنّ قائل: ولكنّ في المقربين من عباد الله من أحسنوا ولم يسيئوا، وأتموا ولم يقصروا، وأدوا كامل ما قد طلبه الله منهم، صافياً عن الشوائب وحظوظ النفس.. فإن رسول الله ﷺ هو أول المتقين والمتقين والتعبددين وسيدهم، ومع ذلك فهو القائل: «لن يدخل أحداً عمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

وأساس ذلك أن المسلم كلما ازداد معرفة لربه، ازداد تبصراً بضعفه وتقصيره، فكان ذلك سبباً في تساؤل قيمة عباداته وطاعاته أمامه، بل أمام معرفته لربه وإدراكه لعظيم حقه عليه.

* * *

أمامي الآن صور كثيرة لنقيض هذا الذي يذكّرنا به ابن عطاء الله، ويدعوننا إليه في حكمته هذه، مع الأسف. ولكني أكتفي منها بصورة واحدة، قد تكون أسوأها وأخطرها.

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى والطب، باب تمنّي المريض الموت، من حديث أبي هريرة.

كثيرون هم الذين يُدّلون على الله بإسلامهم وأعمالهم وقرباتهم الإسلامية، ويعتبون عليه عز وجل أنه قد سلّط عليهم مع ذلك أعداءهم الكفرة، ينتقصون من ديارهم ويستلبون حقوقهم.

والسوء الذي يترأى في هذا الأمر، ينبثق من عدة جوانب هامة:

الجانب الأول: أن المسلمين اليوم في مجموعهم الغالب، منصرفون عن إسلامهم، متبرمون بمبادئه وأحكامه، قد اكتفوا منه بالانتماء ثم بقشور من الرسوم والتصرفات التقليدية، فتمننهم على الله بأنهم مسلمون، واقفون عند حدوده، ملتزمون بأحكامه، كذب على الله عز وجل.

الجانب الثاني: أن المسلمين اليوم، حتى، ولو كانوا كما يزعمون، صادقين في إسلامهم، متمسكين بمبادئه وأحكامه مبتعدين عن الآثام والمحرمات، ومخلصين لله في ذلك كله، ما ينبغي أن يتباهوا بشيء من ذلك، ولا أن يطالبوا الله في المقابل، بما يستحقون على ذلك من نصر على أعدائهم، وتمكن في جنبات الأرض، وتقدم على أقرانهم في شتى ميادين الحياة ومقوماتها. فإن الفضل في صدق إسلامهم وصدق تمسكهم بمبادئه وأحكامه، إنما هو لله عز وجل. وصدق الله القائل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧/٩٤].

وما أخلص مسلم لله في إسلامه وفي طاعاته وعباداته، إلا وغاب عن مشاعره معنى الفضل له فيما قد هُدي إليه والتزم به، وتقلب بدلاً عن ذلك تحت ثقل من مشاعر منة الله وفضله عليه، إذ شرح صدره للإسلام وهدهاه إليه وأقدره على النهوض بأحكامه وواجباته.. ومضى

يحمد الله ويشكره وهو يردد قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥/٦].

وما تمنن أحد على الله بإسلامه وسلوكاته الإسلامية، إلا وهو كاذب في دينوته لله عز وجل، وفي دعوى عبوديته له عز وجل. ومعاذ الله أن يجتمع النقيضان فيلتقى هذا وذاك في كيان امرئ واحد.

على أن المسلمين اليوم، لو أرادوا أن يتناسوا عبوديتهم لمولاهم الخالق عز وجل ثم أرادوا أن يتخذوا لأنفسهم منه مكان الند من الند، إذ يتم بينهما تعاقد على نهوض أحدهما للآخر بمهمة ما، مقابل أجر يناله، ما كان لهم أن يطالبوه بشيء من هذا الأجر. إذ إنهم لم ينهضوا بمعشار المهمة التي تعاقدوا معه على النهوض بها.

أمرهم الله بصدق الاصطباغ بحقائق العبودية له دون غيره، فاصطبغوا بذلّ العبودية لكل ما يرهبون أو يرغبون، إلا له عز وجل!.. أمرهم الله أن يدخلوا تحت مظلة شرعه طائعين، فشرّدوا عنهم إلى سائر الشرائع والأحكام الأخرى، طبق ما يروق لهم، راضين مغتبطين!..

نهاهم الله عن الموبقات والظلم والفساد، فانخطوا في ذلك كله غير عابئين ولا متأثمين!..

أهاب بحمّة الأوطان، والواقفين على الثغور، والمتوثبين للدفاع عن الديار والحقوق في المعسكرات، أن يعودوا إلى الله ويذكروه كثيراً، فقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿﴾ [الأنفال: ٤٥/٨] فابتعدوا عن الله بدلاً من أن يعودوا إليه، وتناسوه بدلاً من أن يذكروه، وبالغوا في الإعراض عن وظائف الطاعات والعبادات، بدلاً من أن يزدادوا في مواقعهم إقبالاً عليها والتزاماً بها.

ثم أقبلوا بعد ذلك كله يمنون عليه إسلامهم، و(تحملهم) لأوامره وأحكامه!!.. ويعتبون عليه أن حجب عنهم النصر ومكّن لأعدائهم في الأرض!..

ولو أن المسلمين، إذ قصرُوا في جنب الله هذا التقصير، واستخفوا بحقوقه وشرعته على هذا النحو، عادوا فاعترفوا بسوء حالهم واستغفروا الله من تقصيرهم، وأدركوا أنهم لم يعودوا أهلاً للنصر الذي وعد به الله النخبة الصالحة من عباده، فأقلعوا عن السؤال والعتاب، إذن لكانت أبواب الأمل بمغفرة الله ورحمته مفتحة أمامهم، على الرغم من كل هذا الذي يتقبلون فيه من شرود وإساءة وتقصير.

ولكنّ المصيبة الكبرى، هي الجمع بين الإساءة في النهج والسلوك، والامتنان في الوقت ذاته على الله بالإسلام والانتماء إليه والتحلي برسومه وقشوره. مع الإصرار في العتاب على الله بأنه قد حجب عنهم النصر الذي يستحقونه بإسلامهم وبشاراته التي يرفعونها بأضواء النيون فوق ماذنهم.

ويأتي الجواب عن هذا كله بجملة واحدة يقرها بيان الله عز وجل في كتابه المبين، هي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧/٥] والتقوى حالة من المهابة والتعظيم تهيمن على القلب، مصدرها اليقين

بعبودية الإنسان لله ومملوكيته الكاملة له. وهيهات لمن أيقن عقله بهذه الهوية للإنسان وفاض قلبه بمشاعر المهابة والتعظيم لقيوم السماوات والأرض مالك الكون كله، أن يرى - مهما بذل من جهد - أنه قد أدى معشار حقوق الربوبية عليه. ومن ثم فهيهات أن يمتن على الله بإسلام هو الهادي له إليه، أو بقربات وطاعات هو الموفق له إليها والمعين له عليها.

إن العبادة مهما ضئلت وصغرت، تعظم عند الله عز وجل، في ضرام الشعور بذل العبودية لله والخضوع لسلطانه، ثم إنها، مهما كبرت وعظمت، تضؤل وتصغر، وربما تذوب وتفتنى، في مجال التباهي بها، وتسجيلها حساباً على الله عز وجل.

بقي أن أوضح أن رؤية العبادة بهذا المعنى شيء، وشكر الله على التوفيق إليها والعون عليها شيء آخر.. وبمقدار ما يكون الأمر الأول مذموماً، يكون الأمر الثاني حسناً ومطلوباً.

والمؤمن الذي فاض قلبه بمشاعر العبودية لله، لا يلبس عليه هذا بذاك، فهو إن رجع إلى نفسه وضعفه، لم يجد أنه قدّم من ذاته شيئاً لله عز وجل. ولكنه إن نظر إلى فضل الله عليه ورعايته له، وجد أن الله عز وجل قدّم له من فضله وتوفيقه الكثير. فهو يقول لله تعالى دائماً، إن بلسان حاله أو بلسان قوله: اللهم إن طاعاتي وقرباتي كلها، هدية هابطة منك إليّ، ثم إنها عائدة بتفضل منك إليّ، فتقبل اللهم مني ما تفضلت به عليّ، ولك الشكر على ما مننت به عليّ قدرة وعوناً وتوفيقاً.

* * *

الحكمة الثانية والخمسون

((إنما أورد عليك الوارد، لتكون به عليه وارداً.
أورد عليك الوارد ليستلمك من الأغيار،
ويحررك من رق الآثار. أورد عليك الوارد،
ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك))

هذه الحكمة تتألف من ثلاث فقرات كما ترى، وقد عدّ كثير من
الشارحين كلاً منها حكمة مستقلة. ولكن الظاهر أنها جميعاً حكمة
واحدة، لشدة ارتباطها بعضها ببعض، ولا يتكامل المعنى إلا من خلال
فقراتها الثلاث.

ولنبداً شرح هذه الحكمة بالوقوف عند كلمة «الوارد» ما المعنى
المراد بها؟.. يقول علماء هذا الشأن: الوارد ما ورد على قلبك من
المعارف الربانية واللطائف الرحمانية^(١).

ولكن ما الفرق بين هذا الذي يسمونه وارداً، وبين ما يرد إلى العقل
عن طريق التعلم والدراسة والإصغاء إلى مرشد أو القراءة من كتاب؟!!

(١) انظر شرح الشرنوبى على الحكم بتحقيق الدكتور عبد الفتاح البزم ص ١١٥، وشرح
الشيخ أحمد زروق على الحكم بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن
الشريف ص ١٣٢.

إذ من المعلوم أن كل ذلك واردٌ يرد على العقل أو الفكر، فيكسبه معرفة ومعلومة أو معلومات جديدة.

الفرق بينهما أن ما يرد أو يفد إلى الذهن عن طريق التعلم والتلقي بأنواعه الكثيرة المختلفة، قد يكون خيراً وقد يكون شراً، وقد يكون أوهاماً باطلة وقد تكون حقائق صحيحة. وفي حال كونها صحيحة قد تبقى حبيسة في خزانة العقل فلا تفيد صاحبها إلا رقماً جديداً في حساب المعارف والمعلومات، وقد تتحول إلى القلب فتقود صاحبها إلى التفاعل بها والسلوك بمقتضاها.

أما هذا ((الوارد)) الذي يتحدث عنه علماء هذا الشأن، فنفحة ربانية تهجم إلى العقل دون أي وساطة من تعليم أو تلقين أو قراءة من كتاب، ثم تتجه لتستقر في القلب، وقد تحولت فيه إلى وجدان مؤثر وقوة دافعة.

فالوارد إذن لا يكون إلا خيراً إذ هو لا يأتي إلا هبة من الله. ولا يكون معلومة تأخذ مكانها بين ذخر المعلومات الأخرى في دائرة العقل، بل سرعان ما تهبط منه لتتحول إلى وجدان يهيمن على القلب. مثال ذلك، الرجل يكون منصرفاً إلى تقلباته الدنيوية وأعماله التجارية مشغول البال بآماله وأحلامه التوسعية، وفجأة يقتحم عقله إدراك جديد لحقيقة هذه الدنيا وما فيها، ويستيقن أن كل ما فيها ظل زائل، وأنها لا تستأهل كل هذا الجهد الذي يبذله من أجلها، وأنه إذا نظر إليها غداً عندما يرحل عنها إلى الله، سيرها قمامة تجمعت في مظهر واحدة؛ وما يلبث هذا الإدراك العقلي أن يتحول إلى شعور قلبيّ

يهيمن على مجامع القلب بالقيادة والتأثير. فيتراجع الحب الكامن فيه
للدنيا وأهوائها، وتتقلص آماله فيها وتعلقاته بها.. فهذا يسمى وارداً
إليها اتجه إلى القلب من خلال العقل.

مثال آخر: يكون الرجل ساهياً لاغياً مقصراً في جنب الله، غير
مبال بشروده عن صراطه، غير متأثم ولا مبال لانقياده إلى وساوس
شيطانه، واستجابته لرغبات أهوائه وغرائزه. وتحين منه ذات يوم التفاتة
إلى آية أو آيات في كتاب الله تعالى يقرأها في القرآن، أو يصغي إليها
من قارئ، فإذا الآيات هي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠/١٨]
ويقف وقفة تأمل وتدبر أمام قوله عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟!﴾...! ويتنبه عقله إلى العتاب المؤثر الرقيق في
هذا الكلام المنزل من الرب الكريم إلى العبد اللئيم!.. وينساق منه
العقل إلى ما ينطوي في تضاعيف هذا العتب المؤثر: أمرت هذا المخلوق
أن يسجد لك سجود تكريم وتقدير، ولما أبيت، واستكبر عليك، طردته
من أحلك وحاقت به لعنتي في سبيلك، وبالغت في إكرامك، ومنحتك
السيادة على سائر أندادك، فكان جزائي منك على كل ذلك أن
أعرضت عني واتخذت من عدوك وعدوي ولياً لك من دوني؟!..
وما هو إلا أن يتجه فيح هذا الإدراك العقلي لما قد تضمنته هذه
الآيات، إلى مكمن العاطفة والوجدان ألا وهو القلب، فتهتاج فيه
مشاعر الخجل ويعتصره الألم من هذا اللؤم في مقابل ذلك الدلال
والإكرام.. فهذا مثال ثان لما يسمونه «الوارد».

ولعلك لاحظت من بيان المثال الواقعي مزيداً من الفرق الذي ذكرته لك بين المعرفة العقلية التي يكتسبها الإنسان، والوارد الرباني الذي يهجم على العقل ثم لا يلبث أن يسري منه إلى القلب.. ولعلك تأكدت الآن أن المعرفة العقلية المكتسبة ليست دائماً بريد هداية ورجوع إلى الله.. بل كثيراً ما تكون أداة إضلال، وسلعة تجارة، وساحة تنافس على الزعامة والشهرة والمجد... في حين أن الوارد الذي وضعتك أمام هذين المثالين له، لا يكون إلا سبيل هداية، ومفتاح اصطلاح مع الله، ودخول على الحضرة الإلهية، كما سنجد.

* * *

والآن.. ما المهمة التي يحققها الوارد الذي يكرمك الله به، على النحو الذي أوضحته لك؟

يضعنا ابن عطاء الله رحمه الله تعالى أمام ثلاث مهام لها على الترتيب، كل واحدة منها مبنية على التي قبلها و متممة لها.

أما المهمة الأولى، فهي ما عبر عنه ابن عطاء الله بقوله: لتكون به عليه وارداً. والورود على الله لا يكون بقطع المسافات ولا باجتياز المراحل، وإنما يكون بتوجه القلب إليه بالحب والمهابة والتعظيم... ولا يتأتى للقلب أن يتجه إليه بشيء من هذه المشاعر إلا بعد أن يخلو من التعلق بالأغيار، أي بالمال وبالشهوات وبالمبتغيات الشخصية من علو في الأرض وانتصار للعصية وحب للذات.. وتلك هي الآفة الكبرى التي نعاني منها جميعاً، إلا من رحم ربك.

فكيف السبيل إلى التخلص من هذه الآفة؟

سبيل ذلك أن يتلقى القلب وارداً إثر وارء من الله عز وجل، مروراً بالعقل واستقراراً في الفؤاد.

فإذا تلاقت هذه الواردات محتلة زوايا القلب، وردت بك من خلال قيادة القلب، إلى الله.

ولقد ضربت لك مثالين للواردات.. ولكن فلتعلم أن كتاب الله تعالى مليء بالرسائل الموجهة لتكون وارءة إليك، وأن المكونات التي صاغها الله من حولك كما يريد، فياضة هي الأخرى بالرسائل الوارءة إليك. وإنما الذي يحجبها ويصدّها عن الوصول إليك، تطوحك في بحار غفلاتك، ونسيانك لهويتك وذاتك.

فإذا أراد الله بك الخير، وجّه إليك من الوارء سهماً يخترق حجب غفلاتك، ويمزق غاشية لهوك ونسيانك، فإذا هو ضياء ينير جوانب العقل، ثم إذا هو قبس وهاج يهيمن على مجامع القلب.. فتلك هي أولى مراحل التوجه إلى الله ثم السير إليه. إذ يبدأ القلب عندئذ بالتحرر من أثقال رغباته وأهوائه وتعلقاته الدنيوية المختلفة، ويصحو إلى مصدر حنينه، ويتجه بالبحث عن محبوبه الحقيقي، ويقف بعد تيهٍ طويل على سيرة ذاته وقصة وجوده ونهاية رحلته، وعلى القبضة الإلهية التي يتحرك في داخلها ويخضع لسلطانها ويعيش على رفدها وإحسانها.. وعندئذ يحتوي السواقي ويملّ من تتبعها والسير بين منعرجاتها، إذ يبدأ يشدّ نفسه إلى حيث المعين والينبوع... إلى مصدر كل خوف وأمان، وموئل كل فضل وإحسان.. إلى الله الذي له الخلق والأمر ويبيده النفع والضرر وإليه وحده الملاذ والمآب.

فهذه هي المهمة أو الخطوة الأولى التي تتحقق على أثر الوارد أو الواردات التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، وعن النتائج المترتبة عليها. أما المهمة أو المرحلة الثانية التي تتحقق على أثر الوارد الإلهي، فهي ما عبر عنه ابن عطاء الله بقوله: «أورد عليك الوارد ليستلمك من الأغيار، ويحرك من رق الآثار».

وبيان ذلك أن القلب إذا توجه إلى الله بالخجل والخوف منه والتعظيم له، فذلك هو المؤشر على بدء الصراع بين ما تراكم في القلب من الرغبات الدنيوية، والشهوات الغريزية والعصبية للنفس والذات من جانب، وما أشرق في جنباته من مشاعر تعظيم الله وحبه والحياء منه من جانب آخر.

ونظراً إلى أن هذه الإشراق إنما تحققت بفعل الوارد الإلهي الذي سبق أن عرفتك عليه وذكرت لك مثالين له، فلا بد أن تكون الغلبة في هذا الصراع لسلطان الوارد، وإن استنفذ ذلك وقتاً قد يطول، واحتاج صاحب هذا الوارد إلى الاستعانة بقدر كبير من ذكر الله تعالى، والالتجاء بالدعاء والضراعة إليه عز وجل.

والنتيجة هي أن نفسه تعزف عن الدنيا بعد التعلق الشديد بها والسير الدائم وراءها، إذ يرى ضالة شأنها أمام ما هو مقبل عليه، وهو ما لم يكن يراه أو يحسّ به من قبل. وإذا فرغ القلب من التوجه إليها والتعلق بها، فلا بد أن تشرق عليه محبة الذات الإلهية، إذ هو كالمرآة لا بد أن تشرق عليه وتظهر فيه صورة ما.. فإن نكستها موجهة إلى الأودية والآبار المظلمة اصطبغت بالسواد واختفى من سطحها بريق

الشفافية والصفاء. وإن توجهت بها إلى الأعلى حيث الشمس المشرقة، تألقت بالضياء وانبعثت منها الأشعة الساطعة.

كذلكم القلب.. أصفا أداة في جهاز الإنسان، ما اتجه إلى شيء إلا تأثر به وظهر عليه.. ووظيفة الإنسان، بما أوتيته من عقل ورشد، أن لا يوجهه إلا إلى حضرة الله عز وجل، وأن لا يجعل عليه سلطاناً من دون سلطان ذلك الذي خلقه وبرأه. فإذا أراد الله بعبده خيراً، وقد سيطر عليه من الضعف ما جعل قلبه مملوكاً بيد الرغائب والأهواء، أكرمه بوارد من الواردات التي يفيض بها كتاب الله وتنطق بها آفاق الدنيا وصفحة المكونات، فالتمعت من ذلك بارقة نور سرت في أنحاء القلب، وما هو إلا أن تتقلص عنه ظلمات تلك الأهواء والرغائب وينقشع عنه الران الذي نسجته على سطحه محبة الأغيار، فإذا القلب وعاء طاهر مطهر عاد إلى يد مالكة وخضع لسُلطان بارئه.. وهكذا يستلمك الله، باستلامه لقلبك، من الأغيار، أي من محبة كل ما عدا الله. وإذا عاد القلب إليه عاش مع ما هو مقبل إليه، من الشوق إلى لقاء الله والأمل برحمته وعظيم إكرامه، والوجل من أحداث يوم القيامة، وبطشته بالممقوتين من عباده. فأنى للدنيا - والحالة هذه - أن تجد سبيلاً لها إلى هذا القلب الذي غدت الآخرة شغله الشاغل؟

وإنما كانت سبيل الوصول إلى الله في حياة أصحاب رسول الله، هذه الواردات التي سرت بفضل رسول الله إلى عقولهم ثم استقرت عاطفة ووجداناً في قلوبهم فوجهتهم إلى الآخرة وصرفتهم عن الدنيا وأعتقتهم كما يقول ابن عطاء الله من رق الآثار الكونية لتربطهم

بالمكون وسمت بهم عن التعلق بالأغيار إلى محبة الله الواحد القهار. انظر إلى هذا الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ، والحوارث بن مالك الأنصاري، لتبين أثر الواردات القلبية الوافدة من عند الله على حياة الإنسان وسلوكه، وتعلم شدة حاجتنا اليوم إليها:

قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارث؟

قال له حارث: أصبحت مؤمناً حقاً!

قال له رسول الله: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال حارث: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها.

قال له رسول الله: يا حارث، عرفت فالزم. وفي رواية: عبد نور الله قلبه^(١).

لعلك تقول: أين أنا من حارث بن مالك، وأمثاله من أصحاب رسول الله، حتى أتلقى مثل الوارد الذي تلقاه، فيفعل في نفسي مثل هذا الفعل؟

(١) رواه ابن المبارك في الزهد معضلاً، ورواه عبد الرزاق في مصنفه بسند متصل. ورواه الطبراني في المعجم وأبو نعيم في الحلية بأسانيد متعددة. ورواه البيهقي بسند ضعيف عن طريق يوسف بن عطية الصغار. والحديث في الجملة صحيح تقويه أسانيد المتعددة.

والجواب أن المعين الذي تلقى منه الحارث، الوارد الذي أوصله إلى هذه الحال، موجود أمامك، قد لا يكون أكثر من قول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦/٣-١٩٧] والاستعداد واحد والفترة الإسلامية موجودة في كيان كل إنسان، ويرحم الله ابن الوردي إذ يقول في لاميته:

لا تقل قد ذهب أيامه كل من سار على الدرب وصل

هذا عن انصراف قلبك عن الأغيار إلى الله عز وجل.

أما عن تحريك من رق الآثار، فهو من مستلزمات زول حجاب الأغيار مما بينك وبين الله عز وجل.. أنظر إلى هؤلاء الذين يحيلون ما يسمونه باضطراب الطبيعة، من موجات حرارية وافدة، أو زلازل أو عواصف وأعاصير، إلى شؤون طبيعية مثلها كطبقة الأوزون، أو بؤرات انهدامية في باطن الأرض أو موجات كهراطيسية.. إنها الآثار التي يجسسون أنظارهم وعقولهم في داخلها..

ولكن ماذا عن المؤثر الذي أوجد هذه الآثار، فجعلها أداة لهذه

التقلبات؟

إن اختراقها إلى المؤثر، يتوقف على الوارد الذي يجعلك تقف أمام اليد التي تحرك، والسلطان الذي يدير ويدبر.. وربما كان الوارد النفحة الربانية التي تدركها في مثل قوله عز وجل: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ١٦٧-١٧] أو في قوله عز

وجل عن سيدنا نوح: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسِّرَ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾ [القمر: ١٣/٥٤-١٤] فينقلك هذا الوارد الرباني، بعد التأمل فيه، من الوقوف أمام آثار القوانين الفيزيائية التي بها تقلُّ البحار السفن، أو آثارِ قانون الجاذبية الذي به تقلُّ الأرض من فوقها، إلى الوقوف بين يدي الإله الذي قننها ثم أقامها خادماً لمشيئته وأحكامه في هذه الدنيا.

وفرق ما بين التائه المتطوح بين هذه الآثار، والمتحرر من أسرها الواقف على سلطان خالقها المستخدم والمسخر لها، فرق ما بين نوح عليه الصلاة وابنه. يوم قال له ابنه من سجنه الذي هو فيه ﴿سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣/١١] وأجابه والده عليه السلام، وهو يطلُّ عليه من فضاء شهوده لحكم الله وسلطانه ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣/١١].

* * *

أما المرحلة الثالثة والأخيرة التي تتحقق على أعقاب الوارد الإلهي إلى القلب عن طريق العقل، فهي ما عبّر عنه ابن عطاء الله بقوله: ((أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك)).

فكيف يكون الإنسان سجين وجوده؟

أجل.. يكون الإنسان سجين وجوده، عندما يعيش مع ذاته، قاطعاً نظره وصلته بالعالم الذي ينتسب إليه، والغيب الذي نحدر منه، والمآل الذي سينتهي إليه. لاريب أنه، والحالة هذه سجين، إذ إنه لا يرى من

حقائق العالم المحيط به إلا جدران ذاته، متمثلة في رغائبه، ووحى غرائزه ومشتهياته وعصبيته لذاته.. ومآل احتباسه داخل جدران هذا السجن أن يتقلب مع الأوهام بعيداً عن الحقائق، إذ الحقائق لاتتجلى له إلا بعد الخروج من سجن ذاته والتأمل في صلة ما بينه وبين العالم المحيط به والذي انحدر منه، والذي سيؤول إليه.

أليس الذي يقطع صلة ما بينه وبين النظام الذي أقامه الله لهذا الكون من خلال أمره التكويني ويقطع صلة ما بينه وبين النظام الذي أقامه لحياة الإنسان، من خلال أمره التشريعي، ثم ينطوي على ذاته ليلزمها بالنهج الذي يراه (وهو لا يرى في هذه الحالة إلا ما تريه أهواؤه وغرائزه) أليس هذا الذي حكم على نفسه بهذه القطيعة، سجيناً، داخل سجن الذات بحكم من نفسه على نفسه؟!..

وما هي عاقبة هذا السجن الذي حكم على نفسه به؟

عاقبته الشقاء عاجلاً وآجلاً.. أما عاجلاً، فلأنه لما تجاهل النظام الرباني الساري من حوله في الكون والشرعة الهادية للسلوك الأمثل في تقلبات الحياة، كان لابد أن يصطدم بجدران هذا النظام الكوني ومعلمه وحدوده، فيعاني من ذلك مرارة الخيبة وآلام القلق واليأس!.. وأما آجلاً فلأن لوجوده قصة تجاهلها، ونهاية أعرض عنها، وأغلق على نفسه (وهو في سجن ذاته) نافذة ما بينه وبينها. فلا بد أن يقع في مغبة ما قد تجاهله وأعرض عنه.

وانظر.. تجد أن أقطاب الفلسفة الوجودية هم أبرز نموذج للمتوقعين في سجن الذات!.. إنهم يصرون، من خلال فلسفتهم

الوهمية الذاتية، على أن تبقى نوافذ السجن الذاتي الذي يقعون في داخله موصدة، إذ إنهم لا يريدون أن يطلّوا منها على ما يشغلهم ويقيّد حرّيتهم بصلة ما بينهم وبين الآخرين، وبالوقوف على أنظمة وقيم ليس فيها إلا ما يضيق عليهم مجال رغباتهم وينتقص من معنى وجودهم وأهميته.

ولكنهم في تقلباتهم المعيشية لم يستطيعوا أن يجعلوا من فلسفتهم الوهمية هذه حاكماً يجرهم من أنظمة الكون ومن سلطان المكون، بل كان لابدّ أن تكون تلك الأنظمة هي الحاكمة عليهم، وكان لابدّ للسلطان الإلهي أن يتحكم بهم.. فكانت العاقبة أن اصطدمت حرياتهم الممنّحة المطلقة بهذا النظام والسلطان، وكان لابدّ للحرية وأهوائها أن تكون هي المرتدة على أعقابها الخائبة في آمالها.. ونظراً إلى أنهم أصرّوا، حتى بعد هذا التصادم، على أن يظلّوا قابعين في سجن العكوف على الذات، فقد استخرجوا من آلام خيبتهم هذه قانوناً تواصلوا فيما بينهم بقبوله والخضوع له، وباقتطاف آلامه القدسية التي ينبغي أن يسعدوا بتحملها واجترارها.. إنه قانون ما يسمونه: اليأس والقلق والسقوط!!..

وإذا كان أصحاب هذه الفلسفة الخرقاء، هم العيّنة الأولى لمن آثروا أن يقبعوا من حياتهم التي يعيشونها في سجن الذات، فإن كثيرين هم الذين يشاركون أصحاب هذه «الفلسفة» في الوجود داخل هذا السجن.. وبكلمة جامعة أقول: إن كل من حاول أن يتخذ من أهوائه وسلطان غرائزه وعصبيته قانوناً هادياً لحياته، يحتكم إليه بدلاً من

القانون الرباني الساري في تضاعيف هذا الكون، فهو بلاريب، يشترك مع أقطاب الفلسفة الوجودية الخرقاء، في التقوقع داخل سجن الذات.

فإذا ساعد الوافد أو الوارد الإلهي الإنسان على خروجه من سجن ذاته، وكان قبل ذلك قد تخلص من حب الأغيار وتحرر من رق الآثار، على النحو الذي بينت وفصلت لك، فما الذي يواجهه هذا الإنسان بعد ذلك؟

غابت عن مركز الحب من قلبه الأغيار، بكل معانيها وتنوعاتها، ولم يعد يحفل بالآثار بعد أن بدأ يعيش مع المؤثر جل جلاله.. وهاهو الآن قد تخلص من سجن العكوف على ذاته: غرائزه، رغائبه الشهوانية، مشاعر العصبية والأنانية، إذن ما الذي سيجد أمامه الآن؟ سيجد نفسه أمام فضاء غير متناه من شهود الله عز وجل.. مهما وقعت عيناه على مشاهد للمكونات تتحرك أمامه، فلن ترى بصيرته من خلالها إلا المكون.. ومهما نظر فرأى من حوله عالم الأسباب تؤدي وظائفها وتنتج مسبباتها، فلن تراه عيناه منها إلا المسبب الفعال جل جلاله.

وتلك هي حالة وحدة الشهود التي سبق أن عرفتك بها وتحدثت لك عنها في مناسبة مرّت، فلاداعي إلى تكرار الحديث عنها اليوم.

غير أنني أذكرك بأن هذه الرحلة التي بدأت من النفس إلى القلب، فإلى فضاء الشهود الإلهي، إنما كانت بفضل الوارد الذي اتجه من الله إلى عقل الإنسان فقلبه.. ولقد بينت لك أن كتاب الله يفيض بالواردات الإلهية الكثيرة المتنوعة، وليس بينها وبين الإنسان من

مسافات تحتاج إلى اجتياز، بل هي قريبة منه، كل ما في الأمر أنه بحاجة إلى أن يتعرض لها، وأن يعلن لله عن افتقاره إليها، وصدق الله القائل: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥/١٢].

فلا يقولون قائل: فما لهذه الواردات لاتتجه إليّ ولا تفعل فعلها في كياني ونفسي.. هل تعرّضت لها بما تملكه من التأمل والتدبر، ثم لم تتجه بفضل الله إليك ولم تسرّ بك في المراحل الثلاث التي ذكرها ابن عطاء الله؟

والعجيب أن أحدنا يقطع مسافات طويلة من بيته ليصل إلى الكعبة المشرفة فيطوف بها ويقف منها على معالم الألوهية ودلائل الربوبية.. ثم لا يقطع المسافة القصيرة من نفسه إلى قلبه، ليوقظ فيه كوامن حب الله عز وجل ومشاعر مهابته وتعظيمه.

وسائل نقلك إلى بيت الله الحرام مكلفة وربما عسيرة، ووسائل انتقالك من نفسك الأمانة إلى مرآة قلبك موفورة ويسيرة. إنها الواردات الإلهية التي تنتظر.. تنتظر منك التفاتة إليها وإقبالاً شعورياً منك عليها.

ومع ذلك فإن الآلاف المؤلفة يرحلون كل عام، خلال سياحة مكانية يجتازون فيها آلاف الأميال ليصلوا إلى معالم الألوهية من بيت الله الحرام، ثم يعودون فيجتازون المسافة ذاتها، كما رحلوا.. ومعالم الألوهية كامنة في قلوبهم، ليس بينهم وبين الوصول والانجذاب إليها والخضوع لسلطانها، سوى أن يخرقوا إليها حواجز نفوسهم وغواشي أهوائهم وعصبياتهم!..

ليس المهم، على طريق التقرب إلى الله، قطع ما بين دارك والبيت الحرام من المسافات، وإنما المهم قطع ما بين نفسك وقلبك من الشهوات والأهواء وغواشي الطباع المذمومة التي تحجبك عن الله.

وإذا كانت وسائل النقل لطبيّ المسافات الطويلة بين دارك والبلد الحرام كثيرة وميسرة اليوم، فإن وسائل النقل لطبيّ ما بينك وبين قلبك أكثر وأيسر.. إنها الواردات الإلهية التي يفيض بها خطاب الله لك في محكم كتابه.. وإنها لتناديك دائماً، فأقبل إليها وتعرض لنفحاتها، تنقلك من أثقالك النفسية إلى أشواقك العلوية، في رحلة ذات ثلاث مراحل، هي تلك التي حدثك عنها ابن عطاء الله في هذه الحكمة، والتي شرحتها لك بما قد علمت^(١).

* * *

(١) ليس هذا الذي أقوله، والذي قاله العلماء الربانيون من قبلي، تهويننا من أمر شعيرة الحج من حيث هو ركن من أركان الإسلام.. ولكنها دعوة لمن اتخذوا من الحج ديناً لهم يكررونه كل عام لأمانيّ وأعرض شتى لهم، أن يحجوا مرة أيضاً من خلال رحلة ربّانية إلى قلوبهم..

الحكمة الثالثة والخمسون

((الأنوار مطايا القلوب والأسرار))

المراد بالأنوار هنا التحليات الإلهية التي تسري إلى القلب، فتنشله من غفلاته وتعيده من عوارض القسوة إلى فطرة الرقة واللين. وإنما تفد هذه الأنوار عن طريق الواردات التي حدثك عنها ابن عطاء الله في الحكمة السابقة.

والمطايا جمع مطية، وهي الأداة التي تركيبها فتوصلك إلى مبتغاك، سواء كانت حيواناً أو وسيلة من وسائل النقل الحديثة.

ولما كانت الأنوار الوافدة إلى القلب عن طريق الواردات الإلهية، سبباً في إخراج القلب من سجن الأغيار ومن رقّ التعامل مع الآثار، ليوصل رحلته إلى شهود الله عز وجل والمثول أمام حقائق وحدانيته، شبه ابن عطاء الله هذه الأنوار في تأثيرها هذا، بالمطية التي تبلغ صاحبها مقصده، وتقيه أخطار الانقطاع في المهامه والمتاهات.

وبيان ذلك أن قلب الإنسان (والمراد به كما قد علمت مكنن العواطف الدافعة والرادعة والمجددة من هذه العضلة المعروفة) مهياً بالفطرة لحب الله عز وجل دون غيره، ولتعظيمه هو دون سواه،

وللخوف منه وحده.. ولكن الإنسان، صاحب هذا القلب، عندما يخوض في حمأة هذه الدنيا بما فيها من مغريات وملهيات ومنسيات، سرعان ما تطلع عليه قوانص الشهوات والأهواء، فتقطع عليه الطريق وتصدّه عن مواصلة السير، وسلاحها في ذلك ليس تخويفاً ولا تهديداً بقتل، كما هو شأن قطاع الطرق، وإنما سلاحها الزينة التي أمكنها الله منها، بقراره القائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤/٣].

فتصادر هذه الشهوات عواطف القلب المتجهمة في أصلها لله عز وجل، وتقتنصها لحسابها، فيتقطع بصاحب هذا القلب السبيل، ويتحول، تحت سلطان هذه القوة المصادرة، عن مواصلة السير إلى الإقامة، وربما إلى الاستيطان، في ذلك المنقطع راكناً إلى تلك الملدّات مستأنساً بتلك الشهوات. وشيئاً فشيئاً يتحول الحب الذي كان مهياً بل متجهاً في حنايا الفؤاد لله عز وجل، إلى تلك البوارق التي لاحت له فاقتنصته في الطريق، ويتجه منه الحنين الذي كان متصاعداً من أعماق الروح إلى العالم العلوي الذي أهبط منه، إلى الصور والأشكال التي تبرق أمامه كما يبرق السراب على البعد.

ويظل يعيش صاحب هذا القلب، في ذلك التيه المنقطع، ما شاء الله أن يعيش، متعاملاً مع حبه الذي يظن أنه متجه من قلبه إلى تلك الصور والأشكال، راكناً إلى حنينه الذي يظن أنه إنما يتعالى إلى تلك المتع والزينة التي تراها عيناه ولا تطولها يدها...

وتلك هي حقيقة التقلبات التي يتقلبها الناس الشاردون عن الله في تيه هذه الشهوات وبين قوائص هذه الصور والمذات، ممن تراهم عينك هنا وهناك وأسأل الله أن لا يجعلك ولا يجعلني منهم.

وإن أحدهم ليعاني في تقلباته هذه من ازدواج محير دون أن يشعر به..

يهتف باسم الحب.. ويقف أمام صور الجمال، يشكو إليها حرقة فؤاده بها وشدة خفقانه وراءها.. يصغي من ذلك إلى أنين قلبه، ويتلمس وهج جوانحه، فلا يشك أن ذلك كله إنما هو من فرط تعلقه بها..

والحقيقة أن حين قلبه المتوهج بلوعة الحب، إنما هي للعالم العلوي.. لمولاه وخالقه عز وجل، خالق الجمال في الزهر، ومبدع الرائحة في العطر، وباعث النشوة في الخمر؛ غير أن غرائزه النفسية التي تصيدها قوائص الشهوات التي عددها بيان الله عز وجل وألبسها مظاهر الزينة وكسوة الجمال في النفوس وأمام الأبصار، هي التي صادرت مشاعر هذا الحب والحنين لحسابها!..

إن القلب في كل الحالات لا يهفو إلا للجمال الحقيقي، ولا ينبض إلا بحب واحد لا ثاني له، هو الله الذي فطر القلوب، وأودع فيها ما أودع من مشاعر اللوعة والحب، لمن هو أهل لهما.. غير أن جماح الشهوات الغريزية التي ابتلى الله بها الإنسان تتصيده وتغلق عليه فم الطريق، وترجم مشاعر الروح والقلب لحسابها.. فيتيه الإنسان عندئذ عن صوت قلبه، ولا يتنبه إلا لضجيج شهواته التي تبرق وتتراقص عن

يمينه وشماله.. وانظر إلى هذا الازدواج كم يتجلى في هذين البيتين لأحدهم:

ومن عجب أني أحن إليهم واسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

فإذا أكرم الله العبد بالواردات التي عرفتها، تجلت منها على قلبه أنوار علوية (وقد سبق أن فصلت القول مطولاً عن النور ومعناه وأنواعه في الجزء الأول من هذا الكتاب) توقظ القلب إلى فطرته التي جبل عليها وتهديه إلى محبوه الحقيقي في غمار ذلك الضجيج الذي التبست عليه بسببه الحقائق بأشباهاها، وتداخل فيه صوت القلب مع صوت الشهوات والأهواء الغريزية..

ومعنى يقظة القلب هذه، بفضل النور الرباني الساري في داخله والذي هو المعنى بقول رسول الله ﷺ «عبد نور الله قلبه»، أن هذا النور ينتشله من سجنه الذي أقحم فيه بفعل الشهوات والأهواء الغريزية التي تصيدته وهيمنت عليه.. ومن ثم فهو يواصل رحلته إلى الله عز وجل، مشدوداً بعواطفه كلها، الدافعة والرادعة والمجددة، إلى محبوه الحقيقي الذي لم ينبض إلا بحبه، ولم يتجه بالتعظيم إلا إليه ولا بالمخافة إلا منه.. ولقد التبست عليه الأمور واختلطت في داخله المشاعر رداً من الزمن، أيام كان سجيناً في بيداء الغرائز النفسية التي أطبقت عليه وأحاطت به، ولكنه اليوم أفلت من سجنها وتحرر من سلطانها، وتميز في سمعه وداخل مشاعره لغو الأهواء والغرائز عن حنين الفؤاد وأشواقه، وتبينت الغاية التي تصبو إليها الغرائز والأهواء،

عن المقصد الأسنى الذي تطمح إليه لوعة الفؤاد وأشواقه.. إنه اليوم يسرع السير في رحلته القلبية إلى الله تعالى قائلاً: «وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ رَبُّ لَتَرْضَى».. إنه اليوم يطلق زفرات الشوق منشداً:

لي لذة في ذلتي وخضوعي وأحب بين يديك سفك دموعي
بعد أن كانت الأهواء والمشاعر متداخلة في بعضها، ملتبسة عليه،
فكان ينشد قائلاً:

لي لذة في ذلتي وخضوعي وأحب بين يديك سفك دموعي
ولما كانت الأنوار الربانية هي التي حررت القلب من سجنه،
ومكنته من مواصلة السير إلى ربه، بالمعنى الذي أوضحته لك، شبهها
ابن عطاء الله بالمطية التي يبلغ بها أحدنا غايته ومبتغاه.

ولعل مراده بالأسرار في هذه الحكمة، العهد القديم الذي أخذه الله
على أرواح الأبدان البشرية كلها، والذي نبه إليه بيان الله بقوله:
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا
عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧].

إنه سر موصول النسب بالله قابع في كيان كل إنسان، ولكن
انغماس الإنسان في حمأة الشهوات والملذات الدنيوية التي تتفاعل مع
الغريزة، أسدل ركاماً من الغشاوات على هذا العهد وصلة ما بينه وبين
الإنسان.. صحيح أن الروح أصغت فوعت لذيذ هذا الخطاب،
وأجابت، والتزمت بالعهد، ولكنها اليوم وقد أهبطت حبيسةً في هذا

الجسم، وأحاطت بها مشاعر الغرائز واحتاجت رغائبها مرّةً بداخلها، لم تعد تذكر - ربما - ذلك العهد، ولم تعد تنتشى بلذيد ذلك الخطاب.

فلما أقبل الوارد الإلهي إلى القلب، يحمل إليه قبساً من أنوار التجليات الربانية، وتحرر القلب بذلك من أسر الغرائز المحيطة به والمطبقة عليه، ظهر له نشيد العهد القديم، يعزف على أوتاره، ويبعث نشوة الذكرى في مشاعره.. فكانت هذه الأنوار الإلهية أشبه بمطية انتشلت هذا السر الذي كان كامناً في طوايا كل قلب، والذي استأمنته الروح عليه، من غوائل النفس وحديث أحلامها وأهوائها.

وأنا كنت ولا أزال أحيّل طرب القلب للمجهول الذي يطوف في أرجائه، إلى هبوب رائحةٍ من ذكرى لذيد تلك المناجاة وسريانها في داخله.. وربما كان مبعث هذا الطرب في الظاهر أصواتاً شجية وأنغاماً متناسقة. ولكن فلتعلم أن السر لا يكمن في الأصوات ولا في الأنغام، وإنما هو كامن فيما تبعته هذه الأصوات وأنغامها في الروح والقلب من ذكريات.. ولا والله ما هي ذكريات أيام خالية من حياتك الدنيوية وتقلباتك الغريزية، ولكنها ذكرى العهد القديم، يوم أقبل إليك مولاك العظيم جل جلاله بخطابه الحلو قائلاً: أأست بربكم؟.. فانسكب الخطاب في روحك كانسكاب الحياة في البدن، وسرى فيها سريان الماء في العفن..

ولاتقل: ولكنني إذ أشعر بما تصفه من الطرب والنشوة في القلب، لا أذكر حديثاً سمعته أو خطاباً واجهني ذات يوم.. لاتقل هذا، فإنك إذ

تبحث فلا تجد أثراً لهذا الخطاب، إنما تستنهض إلى ذلك أذنك وسمعك. فلاتنجدك أذنك بأي تذكّر لشيء من ذلك.. والخطأ منك إذ تسترجع تاريخ هذا الخطاب عن طريق أذنك، فهل كانت لك أذن وطبلة صماخية آنذاك؟ بل هل كانت روحك وهي تتلقى خطاب الله تعالى قابعة منك في هذا الجسد الذي هي فيه اليوم؟

إن مولاك الجليل إنما خاطب فيك آنذاك هذه الروح مباشرة، دون وساطة أذن ولا أي من الوسائل المادية التي ركبت فيك فيما بعد. لقد أسمع الله روحك حديثه وخطابه بما شاء وكيفما شاء فلاتتوقع، إن اهتاجت بك الذكرى اليوم، واستخفك الطرب الروحاني من حيث لاتعلم، أن تعيد لك أذنك أو خزانة خيالك تسجيلاً لجميل تلك المناجاة.. إنما هي الروح، ذكراها كامنة في داخلها، ثم هي سارية منك في أنحاء القلب. تشعر بذلك تماماً عندما ترتدّ عنك أصوات غرائذك، وإنما يردّها عنك الوارد الإلهي إذ يكرمك الله به، فينبعث من ذلك نورٌ يُقذف في القلب، يضيئ جوانبه ويطرد منه ظلمات الأهواء والشهوات.

فهذه هي الأسرار التي عناها ابن عطاء الله، والله أعلم، وتلك هي مطاياها. والله المستعان أن يوقظ في أفئدتنا كوامن هذه الأسرار، وأن يجعل إليها قيادة سلوكنا وسيرنا إلى الله وأن يكرر فينا المزية التي متع بها حارث بن مالك، إذ قال له رسول الله ((عبد نور الله قلبه)).

* * *

الحكمة الرابعة والخمسون

((النور جند القلب، كما أن الظلمة جند النفس.
فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار،
وقطع عنه مدد الظلم والأغيار))

ما يزال ابن عطاء الله يحدثنا في حكمه المتوالية هذه عن النور وأثره على القلب عند وجوده، وأثره عليه عند غيابه.

وقد عرفت أن النور الذي يتحدث عنه هنا، لا يعني به ذلك الذي ترصده الأعين ويضجّ شعاعه على الأشياء المرئية من عالم المادة. وإنما المعنيّ به ذلك الذي يتسرب آتياً من عند الله إلى القلوب، دون وساطة أضواء ولا أبصار. إنه ذلك النور الذي يشعر به الكفيف سروراً وانشراحاً ينتشران في جوانب قلبه، تعويضاً عما فاتته من النور الذي كان يصفح عينيه.

وبوسعك أن تعلم أن هذه الحكمة ليست إلا تأكيداً لما تضمنته الحكمة التي قبلها. فالنور هناك مطية تمضي بالقلب في رحلته إلى الله عز وجل. وهو هنا جند يحرس القلب من أن تتسرب إليه فتهيمن عليه غواشي الأهواء والشهوات الصارفة عن الله - والنتيجة في التعبيرين واحدة.

إلا أن المعنى الجديد الذي يلفت ابن عطاء الله أفكارنا إليه هنا، هو أن القلب يظلّ مركزاً لجاذبين اثنين: أحدهما جاذب الفطرة وما تتضمنه من رغبة التوجه إلى الله والانتعاش بالقرب منه، ثانيهما جاذب الغرائز الحيوانية المتنوعة، فكلاهما ينبغي أن يتخذ لنفسه في القلب وطناً له، يحلّ في جنباته، ويوظف لمصلحته سائر وجداناته.

ومصير التنافس من هذين الجاذبين، على القلب، منوط بلطف الله وعنايته وتوفيقه. فإذا أراد الله بعبده خيراً أمداً قلبه بجند من الأنوار التي عرفت المعنى المراد بها، فتغلب فيها جاذب الفطرة الإيمانية ونوازع الحب لله والحنين إليه، على ظلمات الأهواء الغريزية الصادّة عن سبيل الله.

ولكن، فمن هو العبد الذي يريد الله به الخير، فيكرمه بهذا الجند؟..

وهل هي إرادة عشوائية ناظرة إلى حظ الإنسان من مولاه فقط، كما يظن بعض الجهال والسطحيين من ذوي الدراسات الإسلامية؟

معاذ الله أن يكون الأمر منوطاً بأي معنى من معاني العشوائية، بل هو عائد إلى حال العبد وما يختار أن يعرض نفسه له، فمن تعرّض للدنيا وآفاتها وزينتها وزخارفها التي حذر الله من الاغترار بها، سلط الله عليه جنداً من هذه الآفات فتحكمت بمجامع قلبه وقادته إلى حيث تريد ويريد.. ومن تعرض لألطف الله وطرق أبواب رحمته وعنايته، أكرمه بجند من الأنوار، فقطعت سبيل الظلمات إلى قلبه، وازدهرت جوانبه بمشاعر الخير، والأنس بالله، والاندفاع إلى تنفيذ أحكامه

وشرائعه.. ودونك فاقراً وتأمل في هذا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩/٢٩] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣/٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥/٩].

ككيف يكون التعرض لألطف الله عز وجل؟

إن المنطلق الذي لا بد منه، أساساً للتعرض لألطف الله عز وجل، هو أداء الفرائض والابتعاد عن المحرمات.. فإذا تحققت بهذا الأساس واستقمت عليه، فإن سبيل التعرض لنفحات الله وألطفه، يتمثل في الإكثار من ذكر الله، والمراد بذكر الله، كما قد حدثتكَ من قبل، أن تذكره بقلبك وأن تعود إلى ذكره كلما غفلت عنه، وللوصول إلى هذا التذكر القلبي سبل وأسباب شتى، كلها يدخل في معنى الذكر، وإن كانت في حقيقتها وسائل للوصول إلى تذكر القلب للذات العلية في سائر التقلبات والأحوال.

أذكر لك منها الأنواع التالية:

أولاً: المواظبة على ورد دائم من تلاوة القرآن، ولا أعلم خلافاً في أن تلاوته أفضل أنواع ذكر الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرِجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ، لِيُؤَفِّقَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩/٣٥-٣٠]. ومهما استزاد من تلاوته فهو له خير، على أن يتوقى الخطأ في تلاوته ويكون دقيقاً في إعطاء مخارج حروفه حقها،

ولا يكون ذلك إلا بالتلقي، وعلى أن يقرأه بتأمل وتدبر، ويستحضر في ذهنه خطاب الله له بما يتلوه، دون أي تخيل أو تكيف.

ثانياً: المواظبة على ورد دائم من الاستغفار، فالتسبيح، فالتهليل، فالصلاة على رسول الله ﷺ، في كل صباح على أقل تقدير. فإن أتيح له ذلك صباحاً ومساءً، فهو له خير.

وبيان ذلك أن يستغفر الله مئة مرة وقت السحر، ولعل خير صيغة أن يقول: «أستغفر الله العظيم وأسأله التوبة» ولعل «وأسأله التوبة» أليق بمشاعر الافتقار إلى الله من «وأتوب إليه» والمأمول أن يدخل المواظب على هذا الورد في هذا الوقت فيمن قال الله عنهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:

١٧/٥١-١٨].

فإذا دخل الفجر سبح الله تعالى مئة تسبيحة قبل ركعتي الفجر أو بعدها، ولعل الصيغة المفضلة والجامعة هي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنها من الباقيات الصالحات^(١).

فإذا انتهى من صلاة الصبح وأذكارها الواردة، اتخذ مجلس ذكره مع الله إلى طلوع الشمس، يبدأه بلا إله إلا الله مئة مرة، ثم يصلي على

(١) من ذلك ما رواه أحمد والحاكم وابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «استكثروا من الباقيات الصالحات: التسبيح والتحميد والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله». وروى عطاء ابن أبي رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ أنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وروى الطبراني بنحوه من حديث سعد بن جنادة مرفوعاً.

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مئة مرة، ولتخير من صيغها ما يشاء. ولعل أحصرها وأيسرها ((اللهم صلى على محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليماً)) ثم ليختم ذلك بورده الدائم من القرآن.

واعلم أنك لن تستطيع أن تشدّ صلّتك برسول الله، بعد الإيمان وأداء الفرائض، بأوثق من الصلاة عليه. وحسبك من الأدلة الكثيرة على ذلك ما رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، من حديث أبي بن كعب قال: ((قلت يارسول الله إنني أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ماشئت. قال قلت: الربع؟ قال: ماشئت، وإن زدت فهو خير لك. قال قلت: النصف؟ قال: ماشئت، وإن زدت فهو خير لك. قال فقلت: فثلثين؟ قال: ماشئت وإن زدت فهو خير لك. قال: اجعل لك صلاتي كلها. قال: إذن يكفني همك ويغفر لك ذنبك)). وقد صح عن رسول الله ﷺ بطرق كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي أن من صلى على رسول الله مرة، صلى الله عليه بها عشرة. وقد علمت أن صلاة الله على العبد تفسر بالرحمة والمغفرة له.

ولعلك تستشكل على نحو ما يستشكله بعضهم اليوم إذ يقول أحدهم: إننا لو صلينا أو لم نصلّ على رسول الله، فإن الله سيجزيه الجزاء الأوفى في يوم القيامة، كيف لا، وقد قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥/٩٣] فما الفائدة، ومن ثم ما الحكمة من هذه الدعوة إلى الإكثار من الصلاة عليه؟

والجواب أن فائدة الصلاة على رسول الله تعود إلى المصلي أكثر مما تعود إليه ﷺ، كما تدلّ على ذلك الأحاديث المتواترة التي ذكّرتك بها. ومردّ هذه الفائدة إلى الوفاء مع رسول الله بل مع الله عز وجل. أرايت إلى إيمانك بالله ومعرفتك له وارتباطك بأوامره وأحكامه، إن الفضل في ذلك كله، بعد الله، لرسوله محمد ﷺ، فبه تمت هدايتنا، وبه عرفنا ربنا وسعدنا بهذا الدين الذي هو ضماننا سعادتنا الخالدة يوم القيامة.. إذن فمن الوفاء لرسول الله أن نتجه إلى الله، فنسأل له مزيداً من الإكرام والعطاء. ونسأل له مزيداً من الرفعة في الدرجات العلا يوم القيامة.. وقد كتب ربنا على نفسه الرحمة لنا والإحسان إلينا أن يجزينا الجزاء الأوفى على هذا الوفاء الذي تترجمه صلاتنا على رسول الله.

نظير هذا قول الله تعالى للأبناء، يعلمهم الوفاء للآباء: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤/١٧] أرايت لو لم تدع الله لأبويك بهذا الدعاء أفيعني ذلك أن يضع الله جهدهما في تربيتك ورعايتك، ولايرحمهما، لأنك لم تسأل الله لهما ذلك؟.. من الواضح بدهة أن الله سيكرمهما وسيثيبهما على ذلك، دعوت لهما أم لم تدع. ولكنه الوفاء، يذكرك به المولى عز وجل، ليثيبك أنت على ذلك، فتشترك معهما بعظيم المثوبة والأجر.. يثيبك على وفائك وخلقك، ويثيبهما على حسن رعايتك وتربيتك.

* * *

فإذا استقمت على هذا النهج من ذكر الله عز وجل، فقد تعرضت بذلك لعنايته بك ورحمته لك، وما تعرض إنسان لرحمة الله وفضله، وثبت على ذلك إلا وأمدّه الله بنفحات باهرة من تجلياته تشرق في أعماق فؤاده. وتلك هي الأنوار التي يعينها ابن عطاء الله بقوله: ((فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار)).

وإذا أشرقت في فؤاد الإنسان هذه التجليات الربانية، طردت منهما ظلمات الزغل وركام الأهواء ومشاعر الأنانية والانتصار للعصبية والذات..

ولانطيب ولا تحلو العبادة للمسلم إلا في ظل هذه الحال.. ولا يرقى إلى الشوق إليها، والحنين المعبر عنه بقوله عليه الصلاة والسلام ((أرحنا بها يا بلال)) إلا عندما يتألق الفؤاد بهذه الأنوار..

ولا تثمر أعمال الدعوة إلى الله نتائجها، ولا تلهب كلماتها بجمرة التأثير، ولا تذيب بلذعها كبرياء المعاندين، إلا بتأييد ودعم من جنود هذه الأنوار!..

وليت أن الدعوة إلى الله ممن يسمون اليوم بالإسلاميين، يدركون هذه الحقيقة التي ما ينبغي أن يجهلها أي من المسلمين، فضلاً عن الإسلاميين الذين يشتغلون بما يسمى أعمال الدعوة إلى الله، وليت أنهم يضعونها من حياتهم موضع التنفيذ. إذن لقيض الله لهم من جند هذه الأنوار، على حد تعبير ابن عطاء الله، ناصراً لهم حيثما حلوا وأينما توجهوا.

ولكنني أنظر إلى جلّ هؤلاء الإخوة الإسلاميين، فأجدهم أزهد الناس بهذه الأوراد التي بها يتعرض الإنسان لنفحات الرحمة الربانية وتحليات التوفيق في سائر الأعمال!..

إسلاميون، وليس لهم حظ من الزراعة والبكاء في الأسحار!..
وليس لألسنتهم، فضلاً عن قلوبهم، حظ من التسبيح والاستغفار وبقية الأذكار!..

إسلاميون، ولا يلتفتون إلى القرآن إلا عند الحاجة إلى الاستشهاد بآية، ليدبج بها أحدهم محاضرة في ندوة، أو ليناقدش بها خصوماً على طريق الدعوة!..

إسلاميون، وإنما غدا الإسلام، في واقع تعاملهم معه، أفكاراً تخاصم أفكاراً أخرى.. ألا تسمعهم يعبرون عنه بـ«الفكر الإسلامي» و«الأفكار الإسلامية» و«تجديد الفكر الإسلامي»؟!.. وتبحث عن مكنم العبودية لله ومقوماتها ومنمياتها، في حلبة هذه الصراعات «الفكرية» فلا تجد من ذلك شيئاً ذا بال!..

يا عجباً!.. أفكان رسول الله ﷺ أحوج منا اليوم إلى أن يأخذ نفسه بالكثير والكثير من صيغ الاستغفار، وبالكثير من التسبيح والحمد والتهليل والتكبير في البكور والآصال، وبالكثير من التهجد في ظلمات الليالي والأسحار؟ أم إنه طور جديد للإسلام طورناه في مجال العمل على تجديده، فتحول الإسلام بتجديدنا له إلى صراعات أفكار، بعد أن كان ترسيخاً لحقائق العبودية ومعانيها لله، في العقل ثم الوجدان!..

وليت أن الأمر وقف عند حدّ هذا التهاون، بل لقد تجاوزه بالنسبة إلى كثير منهم إلى درجة الاستهانة والاستخفاف!.. فما يتلاقى جل العاملين في الحقل الإسلامي، بمناسبة مؤتمر أو ندوة، إلا لطرح مشكلاتهم الفكرية والحديث عن العوائق الاجتماعية والسياسية، وتبادل الرأي في استحداث فقه جديد يناسب الظروف والطوارئ الجديدة لاسيما في المجتمعات الغربية. فإن ذكرهم مذكر بهذا الذي أقول أجاوبه ببرود، ورأوا في ذلك هامشاً أكثر من ثانوي، لا يحمل أي علاج لمشكلاتهم، ولا يحلّ أي معضلة على طريق «التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية» التي يواجهونها.

إن الذي يحصل في غياب «جند الأنوار» هذه، من جراء عدم الالتزام بالمنهج الذي ذكرته لك، أن تهجم على أفئدة هؤلاء العاملين في حقل الإسلام والدعوة إليه، آفات الشهوات والأهواء، فتهمين عليها، وتقودها لما تطمح إليه نفوسهم من المصالح الشخصية والمغانم المالية، وأهداف الحظوة والزعامة والعصبية للجماعة أو الذات.. فتغدو الأنشطة الإسلامية، والحال هذه، مطايا مذللة لهذه الرغبات والأهداف.

فما الذي بوسعك أن تتوقعه من أنشطة إسلامية مسخرة لهذه الغايات؟

إنها لن تحقق شيئاً أكثر من الغايات التي ترمي إليها.. لن تقرب بعيداً في أذهان التائهين، ولن تليّن شيئاً من قلوبهم القاسية، ولن تقضي على ريبة في عقولهم، ولن تزيل شيئاً من غبش الأهواء من نفوسهم، والواقع المشاهد خير دليل على ذلك.

والمصيبة الأدهى أنني كلما ذكّرت بهذا الواقع المرير وعلاجه، رأيت من ينعتني بالنزوع إلى التصوف والتفوق في دائرته وأوهامه!.. وهذا يعني، بوضوح، أن رسول الله ينبغي أن يكون أول المتهمين بالتفوق في أوهام هذه الدائرة، إذ إننا لانستهدي في هذا الذي نقوله إلا برسول الله.

ولقد كنت ولا أزال، أبتعد عن التعامل مع كلمة «التصوف» ما وسعني ذلك. ولعل القارئ يذكر أنني التزمت بذلك في مقدمة هذا الكتاب.. إنما هو ميزان واحد نتعامل معه: كتاب ربنا، وسنة نبيا، وإن أصغينا في الطريق إلى فهمهما والعمل بهما إلى من اجتمعت الأمة على فضلهم واستقامتهم وبعدهم عن البدع والشطط، من السلف الصالح ومن سار على نهجهم، فلكي نزداد بالتعلم منهم والإصغاء إليهم، دراية بهما وحباً لهما وتمسكاً بهما.. ولولا احتياجنا إلى الاستفادة منهم والاهتداء إلى الحق بهم، لما كان لأمر الله إياهم بالدعوة إلى الحق من فائدة وجدوى. بل لكان ذلك عبثاً، ولكان في كتاب الله وسنة رسوله غنى عن كل دعوة إلى الله من بعدهما.

وليس إصغائنا إلى حكم ابن عطاء الله، وتوجهنا إليها بحب الاستفادة منها والتأثر بها، إلا سيراً على هذا الطريق الذي ينتهي إلى غاية واحدة لاثاني لها، هي العمل (خالصاً) بكتاب الله وسنة رسول الله.

وجل الإله الحكيم الرحيم، في كل ما خلق وشرع.. فقد اقتضت حكمته ورحمته أن يهدي عباده بعضهم ببعض، وأن يجعل من بعضهم مادة مثوبة لبعض.

وصدق رسول الله القائل: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»^(١).

وإنما يكون التجديد بالدعوة، ولا تنهض الدعوة الناجحة إلا على جند من الأنوار الربانية إذ تشرق في أفئدة الدعاة، فتطرد منها آفات الرغائب والشهوات النفسية وتطهرها من حظوظ الذات.

* * *

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة..

الحكمة الخامسة والخمسون

((النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم،
والقلب له الإقبال والإدبار))

متع الله الإنسان بثلاث نعم كبرى، أولاهما: النور، الثانية: البصيرة،
الثالثة: القلب.

والمراد بالنور ذلك السر الرباني الذي يشرق على الدماغ، فينبثق
عنه الإدراك والوعي. والمراد بالبصيرة هنا القدرة الذاتية، التي يمتلكها
الإنسان، على اتخاذ القرار، وهي ما نسميه بالحرية التي يتمتع بها
الإنسان في طريقه إلى اختيار ما يشاء ثم العزم عليه وهو ما يعبر عنه
القرآن بالكسب^(١) أما المراد بالقلب فهو كما سبق أن قلت: مركز
العواطف في كيان الإنسان، العاطفة الدافعة، والرادعة، والممجة.

ويوضح لنا ابن عطاء الله في هذه الحكمة وظيفة كل من هذه النعم
الثلاث، فيقول: أما النور فله الكشف.

والمراد بالكشف، الإيضاح وإزالة الغموض، ونقل الإنسان من التيه
والضلال إلى الجلاء والبيان. وتلتقى هذه المعاني كلها في كلمة «العلم»

(١) انظر تفصيل معنى الكسب في كتابي (الإنسان مسير أم مخير) ص ٥٨ وما بعدها.

فالنور إذن هو السر الذي ينتقل الإنسان بفضلِهِ. من وادي الجهالة إلى صعيد المعرفة والعلم، ومن تيه الضلالة إلى أوج الهداية.

إلا أننا ننسب هذا الانتقال عادة، في حياة الإنسان، إلى ما نسميه بالعقل فنقول: إن العقل هو أداة التخلص من الجهالة والوصول إلى ساحة المعارف والعلم. فما الحق في هذا الأمر؟ وما الفرق بين العقل والنور؟

دعنا نسأل أولاً: ما العقل؟

أما الطبيعيون فيقولون إنه وظيفة الدماغ الذي هو مادة عالية التنظيم في كيان الإنسان، وإنما يتم الوعي بواسطته عن طريق حجيرات بالغة الدقة فيه..

وأما العلماء المؤمنون بالله، فيقولون: إنه سرٌّ يتجه إلى الدماغ ويشرق عليه، فتتم بذلك عملية الإدراك. إذن فالإدراك الذي هو وظيفة العقل، لا ينبثق من داخل الدماغ أو من حجيراته، وإنما ينعكس ويظهر عليه بفعل هذا السرِّ الرباني الذي يشرق عليه.. وهذا الذي يعبر عنه العلماء المسلمون بالسرِّ، هو الذي يعبر عنه ابن عطاء الله، اقتداء بالقرآن، بالنور. وقد أفضت القول عن النور ومعناه وأنواعه في الجزء الأول من هذا الكتاب. وذلك عند شرح الحكمة الرابعة عشرة والتي يقول في أولها «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه...».

غير أنهم يعبرون عنه أحياناً بالسر، لأنه معنى خفي لا يخضع لحواس الإنسان ومداركه القريبة، وقد درج الناس على تسمية كل ما قد خفي شأنه ولم تتجلى لهم حقيقته بالسر.

إذن فالعقل في حقيقته ليس إلانوراً ربانياً، يشرق على الدماغ فيتحقق من ذلك الإدراك الذي هو وظيفة العقل. وبوسعنا أن نقول في تحقيق هذا ما يقوله جلّ الفلاسفة الإسلاميون، من أن الروح الإنسانية التي تنزلت إلى كيان الإنسان من علياء الربوبية، والتي نسبها الله تعالى إلى ذاته العلية، نسبة تشريف، وإلماً إلى أنها سرّ مكنون لامطعم للناس في معرفة كنهه؛ تتغلغل في الجسم وتسري في خلاياه فيتحقق من ذلك الحياة والإحساس، وتشرق على حجيرات الدماغ، فيتحقق من جراء ذلك الوعي والإدراك؛ وتشرق على عضلة القلب فيتكون من ذلك الوجدان، أي العواطف الثلاث: الدافعة والرادعة والممجدة.. فهي إذن ثلاث وظائف نوعية مختلفة، تتم في كيان الإنسان، ينهض بها كلها سرّ كلي واحد، هو الروح، مادامت سارية في ذرات الجسد كسريان الماء في العود. فإذا انفكت الروح عنه في الميقات المحدد في علم الله، اختفت هذه الفاعليات والوظائف الثلاث عن الجسد الذي ظل لمدة معينة مظهراً لها، وعاد بعد ذلك مجموعة عظام متناسقة داخل جلد متغضن!..

إذن فما نسميه بالعقل هو هذا النور الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله، ويقول إن مهمته الكشف، أي البيان والإرشاد، أو هو ثمرة هذا النور وفائدته في حياة الإنسان.

ولسنا الآن بصدد تسفيه ما يقوله الطبيعيون من أن العقل هو وظيفة الدماغ، على أن مناقشة هذا الوهم الذي يلفظه العلم قبل الدين، قد تمت في شرح الحكمة الرابعة عشرة، في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثم يقول ابن عطاء الله: والبصيرة لها الحكم.. وقد قلت: إن المراد بالبصيرة هنا القدرة الذاتية التي يمتلكها الإنسان لاتخاذ القرار والعزم على ما يريد.

ولعلك تقول: ولكننا نعني عادة بالبصيرة العقل ذاته. نقول: فلان ذو بصيرة ثاقبة، أي ذو عقل حاد. والعقل، كما قد ذكرنا، كاشف وليس حاكما.

والجواب أن البصيرة ليست العقل ذاته، بل هي الثمرة التي يجنيها الإنسان من عقله، كالعقيدة، والعبرة، والحجة التي يعتمدها في قراراته وأحكامه^(١). ومن هنا كانت البصيرة حاكمة أو مستند الحكم والقرار في كيان الإنسان.

والترتيب بين النور الرباني الكاشف، والبصيرة الحاكمة، يقوم على نهج منطقي، فنور العقل يكشف لصاحبه الحقائق متميزة عما قد يلتبس بها من الباطل والزيف. فإذا تجلّت له وظهرت أمامه بعيدة عن الالتباس وأسبابه، جاء دور البصيرة ليعتمد عليها صاحبها في اتخاذ القرار. وقد علمت مما أسلفت أن الله عز وجل قد متّع الإنسان بسرّ ذي أهمية قصوى، به يملك اختياره في الإقبال على ما يشاء، وهو ما نعبر عنه بالقدرة على اتخاذ القرار والتوجه بالعزم الذاتي على ما يريد. وهي واحدة من المزايا التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى. فالحيوانات العجماوات إنما يقودها الغريزة، ومهما وُصِفَتْ طائفة من الحيوانات بالذكاء، فهو يظل ذكاءً غريزياً، ومن ثم تظل

(١) انظر القاموس المحيط مادة: بصر.

محكومة به، ولا تستطيع أن تكون حاكمة بواسطته.. أما الحيوان الناطق (الإنسان) فقد حرره الله عز وجل من أسر الغريزة، إلا بالنسبة للضروري من مقومات حياته، ومتعه بدلاً عنها، بنور الإدراك والمعرفة، على نطاق واسع، ومن خلال استعداد متميز، ثم جهزه بالقدرة الذاتية على اختيار ما يشاء مما هداه إليه إدراكه العقلي، من الخير والشر. وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧/٩١-٨] وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢/٧٦-٣] ولا مجال في هذا الصدد للخوض في هذه المسألة بأكثر من هذا البيان الموجز. ولكن إن أردت تفصيلاً لهذا الموجز، وجواباً عن مشكلات قد تخطر في البال، فارجع إلى كتابي (الإنسان مسير أم منحير).

* * *

ويأتي بعد هذا دور القلب، فيقول ابن عطاء الله ((والقلب له الإقبال والإدبار)) أي هو بين مدّ وجزر، إذ هو بين سلطانين يتنافسان عليه، سلطان الأنوار العلوية التي أشار إليها الإلهي إليها بقوله عز وجل ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥/٢٤] وبقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢/٣٩] وسلطان الأهواء والشهوات الغريزية التي أشار إليها الإلهي بقوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرَثِ﴾ [آل عمران: ١٤/٣].

فإن أكرمه الله بمجاهدة النفس عن طريق مراقبة الله والإكثار من ذكره، على نحو ما بينت لك في الحكمة السابقة، ثم الاستقامة على ذلك، كانت الغلبة لسلطان الأنوار، ومن ثم لقرار البصيرة وحكمها.. وإن لم يأخذ نفسه بهذا الجهاد، وأسدل بينه وبين مراقبة الله وذكره حجب الشواغل الدنيوية، أو اكتفى من الاصطباغ الديني ومنهاج السلوك إلى الله بالرسوم والمظاهر الشكلية، فلا بد أن تكون الغلبة لسلطان الغرائز وذيولها من الأهواء والشهوات والمصالح والعصبيات الشخصية.

ومن عاش بين عراك هذين السلطانيين المتجهين إلى قلبه: يأخذ نفسه آنأ بما يشدّ عزيمته إلى التسامي فوق جماع الغرائز وجنودها، فيرقى بذلك صعوداً وينتعش منه بذلك القلب، ويتجه بسلوكه إلى النهج الذي يرضي الله.. ويتغلب عليه آنأ آخر جماع شهواته وأهوائه، فيستسلم لها، ويتسرب سلطان غرائزه المهتاجه إلى قلبه فتجند ما فيه من عواطف ووجدان لحسابها.. ثم ما يلبث أن تتداركه أنوار من تجليات الله عليه، فينهض من كبوته، ويعود فيصلح أمر نفسه، ويتمسك بجبال الإشرقة الربانية السارية إلى قلبه ملتجأً إلى لطف الله ورحمته، محصناً كيانه ضد جند الأهواء بالإكثار من مراقبة الله وذكره.. وهكذا دواليك، تجده كما قال ابن عطاء الله بين إقبال وإدبار، وكر وفرّ.

وأغلب الظن أن من عالج نفسه بهذا العراك، يقاوم من خلاله جموحات غرائزه الحيوانية فتغلبه آنأ ويغلبها آنأ آخر.. دون أن يكمل من استمرار المقاومة والجهاد، فلسوف تنتشله الألفاظ الإلهية عاجلاً

أو آجلاً من كيد نفسه وأو حال غرائزه، ولسوف يصدق عليه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩] والهداية هنا ليست هداية دلالة مجردة، بل هي دلالة جذب وتوفيق.

* * *

ودعني أختتم الآن شرح هذه الحكمة بما يزيدك يقيناً أن سبيلك إلى التعرض لنفحات الأنوار الربانية ووصولها إلى قلبك، سبيل واحد لا ثاني له، ألا وهو الإكثار من ذكر الله عز وجل، كما قد بينت وشرحت لك من قبل.. فإني أخشى أن تكون ممن يستخفون بهذا الأمر ويستهيئون بسلوك سبيله، وإنه لخطأ قتال لو ركنت إلى هذه الحال وظللت معرضاً عن سلوك هذا السبيل.

تأمل في الشطر الثاني من الآية التي استشهدت بها قبل قليل، من كتاب الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢/٣٩] ألا ترى كيف تقرر الآية في شطرها الثاني، أن تنزل الأنوار الإلهية إلى الصدر بالانشراح والهداية، مردّه إلى الإكثار من ذكر الله، وأن غيابها الذي تتسبب عنه قسوة القلب واحتجاب الهداية عنه، مردّه إلى الإعراض عن ذكر الله؟ ثم ألا ترى إلى عاقبة الويل إذ ينذر به أصحاب هذه الأفئدة التي أقفرت عن ذكر الله والأنس به فمנית بالقسوة والانصراف عن نداء الله.

وتأمل لتتأكد مما قد قلته لك في هذه الآية الأخرى من خطابه عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

فُرطاً ﴿الكهف: ٢٨/١٨﴾، ألا ترى كيف جعل البيان الإلهي إتباع الهوى والخضوع لسلطانه، أثراً من آثار غفلة القلب وإعراضه عن ذكر الله؟

بل ألا ترى كيف أن الله (فيما تقرره هذه الآية) إذا أراد أن يعجل العقاب لعبد من عباده في الدنيا، من جراء سوء ارتكبه فغضبه عليه بسببه، أسدل على قلبه حجاباً يقصيه عن ذكر الله ويغفله عن مراقبته، ويجعله في سجن قصي^١ عن لذة شهوده ورؤية باهر حكمته وعظيم أطفاه؟

وتأمل في الضيق الذي يعبر عنه البيان الإلهي بكلمة «الضنك» إذ يعترى القلب الغافل عن الله والناسي لذكره، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤/٢٠-١٢٦].

ألا فاعلم أن الوصول إلى مرضاة الله لا يتم إلا بيقظة القلب واستنارته بأنوار التجليات الإلهية، وقد ذكرت بالآيات الناطقة بذلك..

ويقظة القلب واستنارته بهذه التجليات لا يتم كل منهما إلا بالإكثار من ذكر الله بالمعنى الذي أوضحته لك والسبل التي بينتها، وهي مقررة في كتاب الله ومشروحة في سيرة رسول الله وهدية.

ثم اعلم أن الطعام إن كان هو الغذاء الذي لا بدّ منه لحياة الجسد، فذكر الله هو الغذاء الذي لا بدّ منه لحياة القلب.

ولن يستقيم للمسلمين أمر، ولن تحلّ لهم معضلة، ولن يصلح لهم حال، إن لم يأخذوا أنفسهم بهذا العلاج، ولم يشدوا آصرتهم إلى الله بالإكثار من مراقبته والدوام على ذكره، بالآداب التي ذكرت وبالضوابط التي أوضحت.

فإياك أن تستخف بهذا الذي عظم الله شأنه، أو أن تعرض عن هذا الذي شدّد في توجيه عبادته إليه وأمرهم، فتقع من ذلك في مغبة سخطة، بالإضافة إلى ما قد يجرّه إليك من قسوة القلب وضيق الصدر وفساد النتائج.

ولا يخذعك حال طائفة ممن يعملون - في الظاهر - فيما يسمى الحقل الإسلامي، إذ تجدهم، كما قلت، منصرفين عن أخذ أنفسهم بهذا العلاج، مستبدلين به الأعمال الحركية والأنشطة الفكرية، مكتفين من الإسلام برسومه الشكلية وعناوينه الإسمية ومظاهره الاجتماعية.

ولسوف يردك عن الانخداع بذلك، انصرافك عن الانبهار بالصور والمظاهر، إلى تتبع الآثار والنتائج، إذ ستسمع عندئذ جعجة ولن ترى طحنا..

* * *

الحكمة السادسة والخمسون

«لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾»

فرح المسلم بالطاعة التي يوفق لأدائها، على نوعين اثنين: نوع يستند إلى وجود موجب له، فهو فرح مبرور ومأجور من الله عز وجل. ونوع آخر لامستند له إلا التخيل والوهم، ولا يتسبب عنه إلا المقت وحبط الطاعة التي كانت مبعث الفرح.

أما النوع الأول، فيتمثل في فرح العبد بأن وفقه الله لأدائها. ومعنى التوفيق أن الله شرح صدره لها، وأطلق في كيانه أنواع القدرات والقوى للنهوض بها، وصدّ عن سبيله إليها العوائق والموانع، ثم إنه جل جلاله قبلها منه، على الرغم من النقائص والعيوب التي فيها، وعلى الرغم من أنها ليست كفاء عظيم حق الله عليه.

وأما النوع الثاني، فيتمثل في فرحه بما يخيل إليه من القدرة التي يتمتع بها، وقوة الإرادة التي أكسبته المضيّ فيها والثبات عليها، والتفوق بها على الأصحاب والأقران الذين لا ينهضون، أو

لا يستطيعون النهوض بمثل عمله، لاسيما عندما تكون الطاعة من الأعمال التي تتوقف على همّة عالية أو على دراية علمية متميزة أو على جرأة وإقدام وقدر كبير من المغامرة ضدّ المخاوف والأخطار.

من الواضح أن الفرح الأول، يزيد الطائع شعوراً بعبوديته لله، ويزيده يقيناً بعجزه الكلي أمام عظيم تدبير الله وسلطانه، ومن ثم يزيد شكراً لله وشعوراً بعظيم منته عليه.. ومن ثم يكون فرحه هذا مناط أجر إضافي يدّخره الله له بالإضافة إلى أجر الطاعة التي أداها له.

كما أن من الواضح أن الفرح الثاني لا يأتي إلا ثمرة لونه من ألوان الشرك بالله عز وجل، هيمن على كيان هذا الطائع وفكره. إذ إن هذا الفرح لا يطوف بنفسه إلا لغيبه عن معنى الكلمة القدسية التي علمنا إيها رسول الله ﷺ، والتي أمرنا أن نتشبع بمعناها وأن نكررها في كل مناسبة: «(لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)».

وليس الشرك محصوراً في معناه السطحي المتمثل في عبادة الأصنام وما سوى الله، أو المتمثل في أن يتجه أحدنا بالدعاء إلى غير الله، بل إن له معنى خفياً يتسرب بسبب خفائه إلى أفئدة ونفوس كثير من المسلمين دون معرفة له ولا شعور به، وذلك هو مصدر خطورته، إذ لا يصادف عملاً صالحاً، أو عبادة من العبادات، أو نوعاً من أنواع الجهاد، إلاّ أحبّطه وأفقدته قيمته وحوله من طاعة مبرورة إلى معصية وشرك. وصدق الله القائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦/١٢].

هذا الشرك الخفي، هو أن يرى الإنسان من ذاته شيئاً، هو مبعث القوة إن سار وتحرك، أو مبعث الدراية والفهم إن علّم أو تعلّم، أو مبعث الملك والغنى إن شبع وتنعم، أو مبعث الغلبة والقهر إن قدر وتحكم.

هذه كلها أوهام تناقض الحقيقة التي ركب منها الإنسان، ومن ثم فهي تناقض التوحيد، وتناقض حال من يزعم أنه موحد، من حملة هذه الأوهام، مهما كرر وأعاد كلمة «لا إله إلا الله».

إن كلمة قدسية واحدة تطير هذه الأوهام كلها، ألا وهي «لا حول ولا قوة إلا بالله».



وانظر الآن إلى الأثر الذي يتركه في نفسك كل من هاتين الفرحتين، وإلى فرق ما بينهما.

عندما يستبد الفرح بنفسك للدافع الثاني - ولا أطيل في تكرير بيانه - لا بد أن يتكون من فرحك هذا نسيج يجذبك عن الله عز وجل، وينسبك قيوميته على ذاتك، ويقصيك عن الشعور بتفضله ومنتته عليك. وعندئذ لا بد أن يتحول فرحك هذا إلى اعتداد وزهو بالنفس، ثم إلى عجب وتسام على الأصحاب والأقران، ثم إلى يقين بأنك قد ضمنت لنفسك الأجر الذي تستحقه، وإلى أمنٍ من مكر الله بك ومواجهته لك. مما لا تتوقع من وقائع انحرافاتك وتقصيرك في حقه!...

وعليك أن تعلم كيف أن سلسلة هذه النتائج المترابطة، تقف من حقيقة عبوديتك لله موقف النقيض من النقيض.. وليت شعري أسترحل غداً إلى الله معرضاً عن عبوديتك هذه اللاصقة بك، حاملاً معك إليه سلسلة هذه النتائج والأوهام؟ إذن فأغلب الظن أنك تتوقع أن تكون أنت المحاسب له، ولن يخطر منك على بال أن يكون هو، جل جلاله، المحاسب لك!!.

أما عندما يطوف بنفسك الفرحة للدافع الأول، فلسوف يكون أثراً لشعورك بعظيم فضل الله ومنته عليك، ولسوف يملك هذا الفرحة على أن تضاعف من طاعتك له وبرك به، شكراً له على أن جعلك موضع عنايته وتوفيقه، وأن وجه عقلك إلى معرفته، وشرح صدرك للإيمان به والدينوية لحكمه، وأقدرك ونشط أعضاءك للسعي إلى تنفيذ أوامره والنهوض بطاعته، وشرّفك بالمثل بين يديه والتوجه بالخطاب إليه، وأعطاك.. ثم أثابك على الإنفاق.. فإذا لهج لسانك بالشكر له وأنطقت جوارحك وأعضاءك، كلاً منها، بمثل ذلك الشكر، رجعت بأثقال أخرى من منن الله وعظيم فضله عليك. إذ تعلم أنه هو الذي أشعرك بوجوب شكره وأوحى إليك أن جزاء الإحسان ليس إلا الإحسان، وهذبك بمشاعر هذا الذوق الإنساني الجميل، ثم أقدرك على سلوك مسالك الشكر له بأنواعه المختلفة، فرأيت على أعقاب ذلك أن شكرك لله عز وجل يحتاج إلى شكر آخر له أن يسر لك السبيل إلى شكره وهذبك بالذوق الذي أدركت به أن الإحسان الذي يفد من الله إلى العبد، يجب أن يقابل بإحسان يصعد إلى الله من العبد. ولكن هيهات أن يعلو من العبد إلى الله إحسان إلا بفضل وتوفيق من

الله وحده. إذن فالمحسن في كل الأحوال هو الله، والمتفضل في كل التقلبات هو الله.. والعبد لا يملك أكثر من الاعتراف بهذا الفضل، فإن زاد على ذلك، فهو الافتقار إلى صفح الله وعفوه عن تقصيره.

ومعنى توحيد العبد لربه، لا يتجلى (بعد التحلي بأركان الإسلام والإيمان) بأجلى من هذه المشاعر والتحلي بإدراك هذه الحقائق.

كما أن معنى عبودية الإنسان لله لا يتحقق بأدق من هذه المعاني إذ تهيمن على عقله ثم وجدانه.

ثم إن صاحب هذه الحال الثانية، لا يفضل نفسه على أحد من عباد الله المؤمنين به قط.. إذ هو يعلم أن مناط التفضيل عناية الله وستره وجميل صفحه، لا مظاهر جهود العبد وعبادته وسعيه.. وهو لا يعلم من هم الذين شاء الله تعالى أن يكونوا تحت جناح لطفه، وأن يذيقهم برد إحسانه وإكرامه.. مادام مقياس السعي الذاتي غائباً في هذا عن الاعتبار^(١). ولاتنس حديث رسول الله الذي ذكرتك به، والذي يقول فيه: «(لن يدخل أحداً عمله الجنة..)» إلى آخر الحديث^(٢).

وما وقفت على ترجمة أي من العلماء الربانيين المشهود لهم بالاستقامة على الشرع، والاصطباغ بحقائق العبودية لله عز وجل، إلا ويلغى طاعاته وقرباته مهما عظمت وكثرت وتنوعت عن الاعتبار،

(١) هذا المقياس ليس غائباً في مجال المطالبة بالالتزام والنهوض بالواجبات الشرعية التي كلف الله بها عباده، ولكنه غائب في مجال التأمل بفضل الله وانتظار ثوبته، ومصدر استحقاق العبد لذلك. فافهم فرق ما بين الأمرين.

(٢) انظر شرح الحكمة الحادية والخمسين.

ويرى أنه مثقل بالمنن التي لم يؤد إلى الله حقوقها، وبالتبعات الكثيرة التي ينتظر بها مغفرة الله وصفحه.. ثم إنه ينظر إلى الناس من حوله، فلا يشك أنه أسوأهم وأنهم جميعاً خير منه. إذ هو يعلم طوايا نفسه ويطلع على ما انطوت عليه من سوء، في حين أن الناس لا يرون منه إلا الظاهر، ولا يرى هو الآخر منهم إلا الظاهر.

انظر، وتأمل في هذه الكلمات التي يقولها الإمام الرباني الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله روحه: «أي سادة: أنا لست بشيخ، لست بمقدم على هذا الجمع، لست بواعظ، لست بمعلم.. حُشِرْتُ مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فأكون كأحد المسلمين.. كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خير مني. أنا أحيمد اللاش، أنا لاش اللاش»..

ثم يقول: «أي أخي: أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها. الأولياء يستترون من الكرامة، كاستتار المرأة من دم الحيض»^(١).

ورأيت في ترجمة سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، قدس الله روحه أنه رؤي ملتصقاً بالملتزم من الكعبة المشرفة، وهو يناجي الله قائلاً: أي رب إن قضيت عليّ بأن لاتغفر لي زلاتي الكثيرة يوم القيامة، فاحشرنني ذلك اليوم أعمى، حتى لا أبصر أحداً من عبادك المغترين بي اليوم!..

فمن أي الفريقين تحب أن تكون؟ وبأي الفرحتين تودّ أن ترحل إلى الله عز وجل وأن تقف بين يديه؟

(١) البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي، ص ٣٤-٣٥، بتحقيق عبد العزيز السيروان.

أعلى استعداد أنت أن تحمل إليه عز وجل دفاتر حساباتك، فتعرض له ركعاتك التي ركعتها، وقراءاتك التي قرأتها، وصدقاتك التي أديتها، وقرباتك التي قمت بها، لتطلب منه لقاءها الأجر الذي تستحقه والجنة التي وعدك بها؟!.. ماذا ستجيبه إن قال لك: من أقدرك على ذلك كله؟ ومن الذي شرح صدرك له وألهمك ما ألهمك من ذكره ودعائه وسائر طاعاته وقرباته؟!.. من الذي حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان؟!.. من الذي أقدرك على التحافي عن المضجع، وجذبك إلى الوقوف بين يديه، ثم الركوع فالسجود على أعتابه؟ ألا تستحي من ذل عبوديتك وتمام مملوكيتك له، إن أنت طالبتة عز وجل بحقوق جهده هو مانحه لك، وأعمال هو خالقها فيه، وصدقات هو معطيها لك؟!!

إنك لتعلم يا أخي أنك أهون من أن تستعدّ لشيء من هذا غداً يوم القيامة.

إذن، فحدد منهاج رحلتك إلى الله من الآن.. كن عبداً لله في رحلتك إليه كما خلقت عبداً في واقعك الاضطراري، كن عبداً له في الاستجابة لكل ما أمر وطلب.. ثم كن عبداً له في تبرئك من كل حول وقوة إلى حوله وقوته.. توجه إلى الله، بكل شراشرك، للنهوض بكل ما يطالبك به، فإذا قمت بما وفقك إليه من ذلك، فسجّل ذلك نعمة جديدة أنعم الله بها عليك، وحمل نفسك مسؤولية شكرها، وطالب كيانتك بواجب النهوض بحقها..

وإذا ختمت حياتك على هذا المنوال، فلسوف تعلم أنك تخرج من الدنيا فارغ اليدين إلا من الأمل برحمته والتعلق بجوده ومغفرته.. ثم إذا قمت غداً مع الناس لرب العالمين، وأوقفت بين يديه، فلن تشعر إلا بثقل المنن الإلهية قد تراكت عليك، ولسوف تجد نفسك أفقر من أن تقدم إليه بضاعة تملكها، أو قرابة أنت صاحبها.. فإذا سألك: بم جئت إلي؟ سابقتك عبوديتك التي لازمتها ولازمتك طوال رحلتك في فجاج الحياة الدنيا، فأجبت على لسانك مدافعة عنك: أنا عبد ذليل ومملوك فقير، أنى لي أن أمتلك شيئاً، فأتيك به، إنما جئت إليك اليوم، كما كنت في الدنيا بالأمس، بمسألتي لك وفقري إليك، انتظر ما عودتني عليه من العطاء، وأتأمل ما قد وعدتني به من جميل الصفح والمغفرة، جئتكم كما كنت في الدنيا: فقيراً سائلاً، لا أملك إلا الرجاء بإحسانك وجودك.

* * *

لعلك تقول الآن مستشكلاً: إذن، فالإنسان مسير في سائر قرباته وأعماله.. إذ كما يصدق أن يقال: إن الفضل لله الذي وفق العبد لطاعته وشرح صدره لاتباع أوامره، وأقدره على تنفيذها وأدائها على الوجه المطلوب، ينبغي أن يصدق القول بأن المسؤول عن الذنب هو الله الذي وجه عبده الآخر إليه، وشرح صدره له، وأخضع قدرته لممارسته وارتكابه.. وإذن، يغيب موجب الثواب والعقاب تحت سلطان هذا القسر الذي لا يملك العبد أمامه من أمر نفسه شيئاً.

والجواب أن مناط الثواب والعقاب في الطاعات والمعاصي التي تصدر من الإنسان، لا يتمثل في أعماله المادية التي تصدر منه، وإنما في قصده إلى الفعل وتوجهه القلبي إليه.

إذ الأعمال المادية، بل المقومات المادية والمعنوية لفعل ما، سواء منها الموجودة في كيان الإنسان أو المبتوثة من حوله، كل ذلك بخلق الله عز وجل، وذلك بنص صريح واضح من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦/١٣] والأعمال التي تصدر منا داخلية في عموم الأشياء.

غير أن من الواضح أن تكامل المقومات المادية لفعل الإنسان، لا يعني ولادة الفعل ووجوده على صعيد الواقع. ذلك لأن ولادته تتوقف على انبعاث القصد إلى استخدام هذه المقومات لإيجاد الفعل وتنفيذه، وبوسعك أن تسمي هذا الانبعاث عزمًا أو توجهًا أو اختيارًا أو صرفًا للقدرة إلى الفعل المطلوب.

فإذا اتجه قصد الإنسان إلى صرف قدرته للقيام بفعل ما، وعزم على ذلك، أخضع الله له مقومات الفعل الذي عزم عليه، وأجرى ذلك الفعل على يديه. إذن فالله هو الذي خلق فعل الإنسان، استجابةً لقصده وما توجه إليه عزمه.

ولذا ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الثواب والعقاب لا يكونان على الفعل المادي الصادر من الإنسان، لأنه بخلق الله وبقدرته التي أمدّ

وأكرم بها عبده، وإنما يكونان على عزمه الذي توجه بالقصد إلى الطاعة أو إلى المعصية.

لعلك تقول: إن الله يقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢/٢٥] والشيء في أصح ما عرفه به العلماء، هو الموجود، والقصد الذي يتمتع به الإنسان في تصرفاته الاختيارية موجود يقيناً، إذن فهو الآخر لا يتم إلا بخلق الله.

والجواب: أن قصد الإنسان إذ يتوجه منه إلى عمل ما، جزئية تطبيقية يمارسها الإنسان، استناداً إلى حقيقة كلية، تتمثل في ملكة وهبها الله للإنسان ومتعه بها، نسميها: القدرة على اتخاذ القرار، أو التمتع بحرية الاختيار.. فهذه الملكة أو الطاقة الكلية، إنما أورثك الله إياها ومتعك بها، فهي بلا شك من خلق الله وإيجاده. إنما الجديد الذي ينسب إليك هو ممارستك لهذه الملكة إذ تتوجه بها إلى العزم على فعل ما.

إذن فملكة الاختيار بمعناها الكلي (أي من حيث هي مجرد قابلية كامنة لديك) مخلوقة من الله عز وجل، وتعلقها التطبيقي بجزئيات الأفعال والتصرفات، من ممارساتك المنسوبة إليك، وهي حالة اعتبارية، لا يصح أن يقال إن الله خلقها خلقاً مستقلاً عن الملكة الكلية التي تفضل عليك ومتعك بها.

إذن فخلق الله الأفعال الصادرة منك لاتعني أنه قد جعلك بذلك مكرها على صدورها منك، شئت أم أبيت، إذ إنه جعل خلقه لها، تابعاً لما قد توجه إليه قصدك وعزمك، من الأفعال والتصرفات التي

يقع اختيارك عليها. وإنما الثواب والعقاب على هذا العزم الصادر منك، وهو ما يعبر عنه القرآن بالكسب، في مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الذثر: ٣٨/٧٤].

لعلك تقول: فلماذا لا أفرح إذن لبروز الطاعات مني، ما دام الثواب على القصد، وما دام القصد صادراً مني وعائداً إلي؟

والجواب أن توجهك بالقصد الذي متعك الله بملكته، إلى جزئيات التصرفات والأفعال، صادر منك حقاً، كما قد أوضحت قبل قليل، ولكن فلتعلم أن قصودك المتجهة إلى الطاعات والأعمال الصالحة، تأتي استجابة للفطرة الإيمانية التي فطر الله عباده عليها، والتي حدثنا عنها بيان الله تعالى بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠/٣٠].

إذن، فالله هو المتفضل على عباده إذ وجههم إلى شرف الإيمان به والخضوع له، بالفطرة والتكوين، قبل أن يأمرهم بذلك بالخطاب والتشريع.

صحيح أن أحدنا يستجيب، فيما ينهض به من شؤون وأعمال، لعزائمه القلبية، وقراراته الاختيارية، ولكن عزائمننا وقراراتنا هذه تأتي في الغالب استجابة للفطرة الإيمانية التي فطرنا مولانا وخالقنا عليها.

وإنما قلت: غالباً، احترازاً عن الذين أيقظوا بين جوانحهم طبيعة الأنانية والاستكبار، ثم ركنوا إلى هذه الطبيعة وتعاملوا معها.. فهؤلاء حجبوا أنفسهم عن نداء الفطرة بالركون إلى العتوّ والاستكبار.

وقد علمت مما قد ذكرته لك من قبل أن المعاصي مهما كثرت لا تحجب صاحبها، بحدّ ذاتها، عن التعرض لكرم الله وصفحه، بل ربما دفعته إلى الالتجاء إليه والانكسار بين يديه والاستغفار مما قد بدر منه.. ولكن الاستكبار هو الذي يحجب صاحبه عن التعرض لعفو الله ومغفرته، ومن ثم فإن من شأنه أن يسدل حجباً كثيفة بينه وبين نوازع الفطرة الإيمانية المغروسة في كيانه، منذ أولى مراحل الخلق، وأذكرك في هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠/٧].

إذن، فالفضل كله في هداية العبد وتوفيقه والتوجه بالانقياد إلى مولاه إنما هو لمولاه عز وجل.. فطره على هذا التوجه، ثم أمره به وأعان عليه.

ومسؤولية الشرود عن الهداية والانصراف عن أوامر الله عز وجل، تعود إلى العبد الذي شرد وانصرف عن سبيل الهداية، بما أصرّ على الركون إليه من الاستكبار على الله وتجاهل واقع عبوديته لله.

وقد كان بوسعها أن لا ينحرف إلى الاستكبار الذي لن يكون الإنسان يوماً ما أهلاً له، لو أنه التجأ إلى فطرة عبوديته لله واستثناسه بخطاب الله والحنين إلى التذلل لسلطانه والرغبة في الانقياد لحكمه، أو لو حكّم في التعامل مع هذا الداء عقله.

وحصيلة هذا كله، أنك مدعوٌّ إلى أن تستجيب لنوازع فطرتك التي غرسها الله في كيانتك، مستعيناً بالقدرة التي متعك الله بها، فتنقاد

لأحكامه وتستجيب لتعاليمه، ثم تعلق آمالك كلها برحمة الله وبفضله. إذ هو بفضله ورحمته فطرك على حين الإقبال عليه والتعرف إليه، وبفضله ورحمته أقدرك على خطوات سيرك إليه، وبفضله ورحمته يجعلك يوم القيامة من المقبولين لديه..

إذن فاجعل ذلك وحده مصدر سرورك وفرحتك، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

* * *

الحكمة السابعة والخمسون

((قطع السائرين له والواصلين إليه، عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم. أما السائرون، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها، وأما الواصلون، فلأنه غيَّبهم بشهوده عنها))

لعلك تستشكل هذا التقسيم، فتقول: وهل ينتهي المسير إلى الله في هذه الحياة الدنيا إلا بالموت إذ يحين ميقاته؟ وهل في السائرين إلى الله من هم أفضل من الرسل والأنبياء؟ وهل فيهم من هو أقرب إلى الله وأفضل من خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟.. ومع ذلك فقد قال له الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ١٥/٢٩٩]، ولم يختلف المفسرون من السلف الصالح ومن سار على نهجهم، في أن المراد باليقين الموت.. فمن هم إذن الذين وصلوا إلى الله، قبل أن ينطوي التكليف عنهم بحلول الموت؟

والجواب أن المراد بالواصلين من ساروا أشواطاً طويلة في طريق تزكية النفس، حتى غابت عنها كثافتها الترايبية، وانقشع عنها دخان الشهوات والأهواء، فأصبحت بصائرهم التي كانت محجوبة، قبل،

بهذا الدخان عن الله، لا ترى في مظاهر الكون إلا المكون، ولا ترى في النتائج والآثار إلا المسبب والمؤثر..

فهؤلاء يعبر عنهم، مجازاً، بالواصلين، لأنهم كانوا محجوزين عن شهود الله في سجن نفوسهم التي تكاثفت عليها حجب الرعونات والأهواء، فلما انحابت تلك الحجب وأطلقوا من أسر نفوسهم، تعبدت الطرق بينهم وبين الله، وارتفعت الحواجز التي كانت تصدهم عن شهوده، فسُموا لذلك بالواصلين. ولا ريب أن هؤلاء أكثر شعوراً بمسؤولية التكليف، بل أكثر شعوراً بالتقصير من غيرهم، كما سألين وأفصل القول في ذلك إن شاء الله.

ولعلك عرفت الآن، من خلال ما نبه إليه المفهوم المخالف، أن المراد بالسائرين، الذين آمنوا بالله وأخلصوا دينهم لله، واتجهوا إلى تنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه، مع بذل ما يملكون من جهد لتزكية نفوسهم من الشوائب والرعونات المهيمنة عليها، بل المتغلغلة فيها.

فالشأن في كلا الفريقين: السائرين، والواصلين، أن يغيبهم الله تعالى عن رؤية طاعتهم وأعمالهم المبرورة التي يتقربون بها إلى الله، فلا يقيمون لها، بعد فراغهم منها، وزناً، ولا يعتمدون عليها في أجر يطمعون به، أو جنة ينالونها، أو في عقاب يتقونه، بل يرون أنها أقل وأتفه من أن تكون محط آمالهم أو مناط أطماعهم.

أما الفريق الأول، وهم السائرون (وقد عرفت المعنى المراد به) فلأنهم، وهم في مرحلة السير وتزكية النفس لتخليصها من الآفات العالقة بها، لا يشكون أن أعمالهم وقرباتهم لا تتخلص من رشاش هذه

الآفات، فهي معيبة، ناقصة، لا يليق الدخول بها على الله، أو تقديمها ثمناً لشيء من الآمال المتعلقة بإحسانه وكرمه.

ولو تأمل أحدنا في طاعاته وقرباته التي يؤديها، ويتجه بها إلى الله عز وجل، لرآها مغموسة بالعيوب مثقلة بالآفات مذيبة بالشوائب والنقائص.

تأمل في صلاتك التي تصلبها، وصومك الذي تؤديه، وصدقاتك التي تتصدق بها، ومناسك حجك، ونشاطاتك الدعوية، ومؤلفاتك ومحاضراتك الإسلامية، تجدها جميعاً ملوثة برشاش العيوب والآفات، من غفلات وشروء أثناء القيام بها، أو من إعجاب بما قد وفقت إليه منها، أو من توظيفها لمصالحك الدنيوية وحظوظك النفسية.. إلخ.

فإن قلت: ولكنني أعلم من مراقبتي لحالي، أن قرباتي وطاعاتي، لاتعاني من شيء من هذه الآفات، وإني لأنظر وأتأمل فأجدتها مبرأة من كل هذه الآفات التي ذكرتها، فاعلم أن ثققت هذه بنزاهة طاعاتك من العيوب والشوائب هي ذاتها الآفة الخطيرة التي تسمى العجب.. وهو أسرع الآفات إزهاقاً للطاعة ومحواً لجدواها.

ولقد قلت لك من قبل: إن العبد كلما تدرج صعوداً في مدارج السالكين، ازداد شعوراً بتقصيره وغياباً عن جدوى طاعته وعبادته، إذ هو في تدرجه هذا يزداد كل يوم تبصراً بعظيم سلطان الله عليه، إدراكاً لجلال نعمه ومننه التي لا حصر لها، وشعوراً بتقصيره وعجزه عن الوفاء بحقوق ربوبيته عز وجل.. في حين أنه لما كان في أول عهد اصطلاحه مع الله وإقباله إليه، كان يرى في ركعات الفرائض التي

يركعها ما يملأ صحائفه كلها عند الله حسنات، دون تأمل لكيفيتها ومدى حضوره وخشيته فيها..

فإن جاء من يقول: إنني أنهض بأوامر الله كاملة كما طلب، ليس فيها آفة نقص ولا شائبة عيب، فاعلم أنه بدائيّ التوجه إلى الله، جاهل لمعاني ربوبية الله، غير شاعر بأعباء الحقوق الإلهية الملقاة على كاهله، سطحي المعرفة له.

إذ لو لم يكن كذلك، لكان خوفه من أن يردّ الله عليه طاعاته التي أداها كما يُردّ الثوب الخلق على صاحبه، أكثر من طمعه في أن ينال المثوبة عليها.

ويرحم الله جنيداً البغدادي إذ قال: «لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون الأفعال كلها عنده رياءً، وأحواله كلها عنده دعاوي».

وهل خلق الله الإنسان ضعيفاً في كل شيء كما قال: ﴿وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨/٤] إلا ليلجم ضعفه أفواه من يتراءى لهم أنهم قد أدوا حقوق الله - من خلال طاعتهم له - كاملة غير منقوصة؟

وقد حدثتك حديثاً مفصلاً عن الحكمة في خلق الله الإنسان ضعيفاً، كما قال، وذلك عند شرح الحكمة التي مرت بك، والتي يقول فيها ابن عطاء الله «لاعمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويُحتقر عندك وجوده».

* * *

أما الفريق الثاني، وهو من عبر عنهم ابن عطاء الله بـ«الواصلين» فلأنه جلّ جلاله غيَّبهم بشهوده عنها، على حدّ تعبيره.

وقبل أن أشرح هذا الكلام، ينبغي أن أوضح لك أنه ليس في الصالحين من عباد الله عز وجل من يعلم أنه من فريق الواصلين إليه، أو يصنف نفسه في هذا الفريق. إذ الشأن في الإنسان أن يزداد اتهاماً لنفسه واكتشافاً لمزيد من مظاهر تقصيره، كلما ازداد قرباً من الله ومعرفة به.. فكيف ومتى يدرك أنه من الواصلين إليه، حتى يصنف نفسه في عدادهم.

ولكن هذا لا يستلزم جهل المسلم بحال الربانيين من عباد الله الذين حازوا فعلاً مرتبة القرب منه والوصول إليه، بالمعنى الذي ذكرته قبل قليل للوصول، في هذا الصدد.. بل إننا نعلم أن الدنيا لا تخلو في أي عصر من العصور من هؤلاء الواصلين، وإن كانوا لا يثبتون، هم، لأنفسهم هذا الوصف.

فإن سألت قائلاً: كيف نعرفهم، وبأي الدلائل ندرك أنهم من هذا الفريق؟

فالجواب أننا نتبينهم ونعرفهم من هذه العلامة الفارقة التي يقولها عنهم ابن عطاء الله: أنهم غائبون بشهودهم الدائم لله تعالى عن شهود أعمالهم من حيث هي، فضلاً عن أن يشهدوا مزاياها أو شيئاً من مظاهر كمالها.

العلامة الفارقة لهؤلاء، أنهم ألزموا أنفسهم بضوابط الشريعة وأحكامها، ووجهوا جهودهم لتزكية نفوسهم وتنقيتها من أمراضها

الخفية التي حذر الله منها وسمّاها ((باطن الإثم)) من الحسد والكبر والضعينة وحب الدنيا ونحو ذلك، وشغلوا أوقاتهم كلها بذكر الله ومراقبته، فأصبحت ألسنتهم لاتفتقر عن ذكره، وقلوبهم لاتفتقر عن تذكره ومراقبته.. وأعينهم لاتبصر من صفحة الدنيا إلا معاني وحدانيته وصفات ربوبيته، وآذانهم لاتسمع منها إلا أصوات تسبيحه والثناء عليه، ومهما تقلبوا في أحوال المعاش الدنيوية، لم يجدوا فيها إلا باهر حكمة الله وتدييره، ومن ثم استوت عندهم لذائذها وآلامها، وإقبالها وإدبارها.

أجل.. بوسعك أن تعرفهم من خلال هذه الصفات.. أما هم، فغائبون عن هذا كله، لأنهم غير عابئين بهذه المقاييس وغير ملتفتين إليها أو متنبهين لها، حتى يعودوا إلى أنفسهم فيقيسوا أحوالهم بها.. لقد أنساهم التوحيد الخالص أنفسهم فلم يروا لها كينونة مع الله.

فكيف يتأتى لهؤلاء الناس أن يلتفتوا عن الله ليتأملوا فيما قدموا إليه من طاعات وقربات؟.. كيف تتصور أن يتأتى لهم ذلك، وهم تائهون عن أنفسهم بشهود الله عز وجل؟

إن الذي يحصي على الله ما قد قدّمه له من طاعات، يمارس لوناً من أسوأ ألوان الشرك الخفي المنفع بتوحيد الله، وصاحب هذا الشهود أبعد ما يكون عن هذا الشرك الخفي.

وأحسب أن في الناس من قد يستشكل فيقول: فإذا كان الشهود من شأنه أن يصرف صاحبه عن التنبه إلى طاعاته وعباداته التي يؤديها، فكيف يتسنى له أن يتأكد من صحتها ومن أدائه لها بالضوابط

والأركان والشروط المرعية فيها؟ لعله إذن يسهو عنها أو عن بعضها!..

والجواب أن استغراق العبد في مشاعر عبوديته لله تعالى، يحمله على المبالغة في الدقة بأدائها والانضباط بكامل آدابها وأركانها، فإذا انتهى منها وفرغ من أدائها، طويت عن ذاكرته وغابت عن حاله وشعوره، ولم يجعل منها شيئاً ذا بال يضعه سبيلاً بينه وبين الله عز وجل. إذ يرى نفسه بكل ما تلبست به من شؤون وقربات من ثمرات فضل الله وإحسانه.

وقد ورد في بعض وصايا الربانيين من السلف الصالح: إذا سمعت نداء الله وأمره لك، فبادر إلى الامتثال موقناً بوجودك ومقومات عملك. فإذا أنجزت ما قد أمرك به الله، فاعلم بأنك لاشيء، وأن الله هو المتفضل عليك وهو الخالق لفعلك. فطالب نفسك بواجب الشكر له على ذلك، ولا تطلب منه الأجر على طاعة هو المتفضل بها عليك.

* * *

كان هذا عن انقطاع السائرين إلى الله، والواصلين إليه، عن شهود أعمالهم، بقي أن نفهم المراد بغيابهم عن شهود أحوالهم.

المراد بالأحوال هنا، ما يمر به السالك إلى الله، من أوضاع وتقلبات يستدل بها على حسن حال السالك وصفاء سريرته، كخشية تنتابه، وخشوع يهيمن عليه أثناء صلاة أو دعاء أو مناجاة، وكتجليات ربانية تقصيه عن الاهتمام بالدنيا وأحوالها وتقلباته فيها، وكتنامي مشاعر

الثقة بالله والتوكل عليه والرضا عنه بين جوانحه، وكظهور بعض الخوارق والكرامات على يديه.

فهذه وأمثالها أحوال انفعالية، يمرّ بها السالك، قد يطول أمد بقائها لديه وقد يقصر، وهي في جملتها دليل على حسن حال السالك مع ربه عز وجل وعلى الأشواط التي قطعتها نفسه في طريق التزكية والتخلص من آفاتنا ورعوناتها.

ولكن الوقوف عندها بالاهتمام والاعتباط بها واتخاذها دليلاً يستبشر به السالك أو الواصل على حسن حاله مع الله وقربه منه، مزلة قدم، وجاذب سوء يعود به أشواطاً كثيرة إلى الوراء.

ولذا فإن من أعظم مظاهر عناية الله بعبده السالك إليه، أن يقصيه عن رؤية أحواله هذه والوقوف عندها، كي لا يفتتن بها. بل إنك لتنظر، فترى أنه بمقدار ما تتتابه هذه الأحوال التي هي دليل على صفاء سيرته ودوام مراقبته لله، يذهل عنها ويتجاوزها إلى الاهتمام بواجباته والتفكير في مآله، وما هو مقبل عليه، والحزن من جراء ما يرى من مظاهر تقصيره وسوء حاله.

فإذا عرفت وتبينت هذا الذي يقوله لنا ابن عطاء الله، وهو يعرفنا بالسالكين والواصلين، ويلفت نظرنا إلى أهم صفاتهم ومزاياهم، فإياك أن تغترّ بمن لا يقتنع أن يصنف نفسه لك في السالكين إلى الله، بل يصرّ على أن يؤكد لك أنه من الواصلين والنخبة المتميزة من العلماء الربانيين ثم يبرهن لك على ذلك بما يلفت نظرك إليه من الأحوال والكرامات والمقامات التي ميزه الله بها.. فهو يجعل من الحديث عنها

مادّة دروسه، وامتكأ نصائحه وعظاته.. إنه يرى رسول الله يقظة لا مناماً، وإنه ينبأ بحال مرديه وما يجول في نفوسهم، وإنه يتمتع بكرامات جاهزة يستطيع أن يبرزها لمن يشاء عند الطلب.

ألا فلتعلم أن هؤلاء تجار... يبحثون عن أيسر سبيل لترويج بضاعتهم وتحسين دنياهم.

ولكن التجار المعروفين يسخرون الدنيا للدنيا، ويستخدمون رأس مال من المال ابتغاء الوصول إلى أرباح من المال... أما هؤلاء، فقد طاب لهم أن يجعلوا من الدين وأحاديثه وصناعته وسيما الصلاح وفنون الخوارق والكرامات، رأس مالهم المفضل للأرباح المالية والدينية ذاتها.

وإذا خشيت على نفسك من أن تضيع في المتاهات، وأن يلتبس عليك العالم الرباني الرببي المخلص، بالتاجر الدنيوي الذي يسخر لتجارته رأس مال من بضاعة الدين، فاذا ذكر حكمة ابن عطاء هذه واتخذ منها فيصلاً بين الهويتين والشخصيتين ولا تنس ما نقلته لك من كلام سيدنا السيد الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله روحه: «أي أخي.. أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها، الأولياء يستترون من الكرامة، كاستتار المرأة من دم الحيض».

وبعد، فأحسب أن هذا القدر من شرح هذه الحكمة، كاف، إذ هي ذيل متمم للحكمة التي قبلها، والتي قال فيها «لاتفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك».

وأخشى إن استرسلنا في الحديث أن نقع فيما أحب التجنب منه،
وهو التكرار. فاجمع ما قلته لك هنا مع ما قلته في شرح الحكمة التي
قبلها، ونسق بينهما، تجد أنك لا تحتاج إلى مزيد.

* * *

الحكمة الثامنة والخمسون

((ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع))

دعنا ندخل إلى شرح هذه الحكمة الصغيرة في مبنائها والكبيرة في معناها، من خلال مقدمة لا بدّ منها:

الإسلام هو السبيل الوحيد الذي لا بديل عنه، إلى التحلي بالعزة الحقيقية التامة. والاعتزاز من المشاعر التي فطر الله الإنسان عليها. وهذا دليل آخر على أن الإسلام هو الدين الذي يتفق مع كل ما قد فطر عليه الإنسان من المشاعر والحاجات الإنسانية المختلفة.

ولكن ما الدليل على أن الإنسان لن يجد عزته التامة إلا في رحاب الإسلام؟

وأجيبك بالقدر الذي لا بدّ منه من التبسيط والبيان، تاركاً ما وراء ذلك من التفصيل لدراساتك التوسعية في هذا الأمر.. إنك تعلم أن مبنى الإسلام ومداره على عقيدة التوحيد، أي على اليقين التام بأن لهذا الكون إلهاً واحداً لا ثاني له، هو الله عز وجل.. واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. فهو وحده النافع، وهو وحده الضار. وهو وحده المعطي، وهو وحده المانع، وهو وحده المحي وهو وحده

المميت، وهو وحده القوي، وكل ما سواه ضعيف، وهو وحده الغني وكل ما سواه فقير.

ومن المعلوم أن سائر الطاعات والعبادات السلوكية، إنما شرعت دعماً لهذا الاعتقاد وحماية له من تسرب أي من عوامل الشكوك إليه.

فإذا أيقن الإنسان بهذه الحقيقة، وتشبع عقله بها، فلسوف يتجه بحاجاته كلها، على اختلافها وتنوعها، إلى إلهه هذا الذي أيقن أن بيده هو كل شيء، وأنه الملاذ لكل شيء.. ولا ريب أنه بمقدار ما يتجه إليه، عارضاً عليه حاجاته يسأله قضاءها، ينصرف عن غيره أياً كانوا، فلا يتعلق منه الطمع بأي منهم، ولا يذلّ أو يهون لأحد منهم، ولا يداخله خوف من عدو متوعد، ولا رجاء من كريم متفضل.

غير أن ثمن الوصول إلى هذا الاعتزاز، الدينونة بالذل والانكسار، لإلهه الحقيقي الواحد الذي أيقن أن إليه كل شيء وأن بيده كل شيء. فهما إذن كفتان متقابلتان من ميزان واحد: إن رجحت كفة التذلل لله والافتقار إليه، طاشت كفة التذلل للأغيار، فانعتق صاحبها من التذلل لهم وتحرر من الافتقار إليهم. وإن طاشت كفة التذلل لله بأن غاب عن يقين صاحبها أن له مولى واحداً بيده كل شيء وهو الله، لا بدّ أن ترجح عندئذ كفة التذلل للآخرين، فيلهث صاحبها وراءهم، يوزع فيما بينهم رجاءه وخوفه وأطماعه، ويقدم بين يدي ذلك لهم كل ما قد يملكه من معاني ومظاهر الذل والمهانة والانكسار، على قدر طمعه فيهم ومخافته منهم.

و بمقدار ما يكون المرء جاداً في إيمانه بالله ووحدانيته، ذا يقين فعّال في كيانه، تكون هذه الحقيقة جلية واضحة في حياته.

فإن رأيت اليوم كثيراً ممن ينتمون إلى الإسلام، لا يتمتعون بهذا الاعتزاز، ولم تتحرر نفوسهم من التذلل للأغيار، فأعلم أن مردّ ذلك إلى أن إسلامهم تقليدي، وأن انتماءهم إليه انتماء إلى شعار وإعلان عن هوية.. وهذا الفريق من الناس ليس لأفئدتهم ولا لعقولهم من الإسلام نصيب ذو بال..

أما الذين هيمنت حقائق الإسلام على عقولهم وأفئدتهم، فلا بدّ أن تجد أثره هذا بارزاً في حياتهم وفي علاقة ما بينهم وبين الآخرين.

قرأت في سيرة حياة بديع الزمان، سعيد النورسي، رحمه الله^(١) أنه اشترك مع الأتراك في الحرب العالمية الأولى، ووقع أسيراً في يد القياصرة الروس، وذات يوم دخل ضابط روسي إلى معسكر الأسرى، وكان فيهم بديع الزمان، فكان كلما مرّ بفئة منهم قاموا احتراماً له. ولما وصل إلى بديع الزمان لم يعبأ به ولم يتحرك من مكانه، فلفت ذلك نظره، فأقيل إليه قائلاً: لعلك لاتعرفني!.. قال له: بلى، إنك الذي تُدعى نقولا!.. قال: فأنت إذن تستهين بعظمة روسيا!.. قال لا ولكن إلهي الذي أنا عبده يمنعي من أن أذلّ لغيره.. فاستشاط الضباط غضباً، وأحاله للتو إلى المحكمة الميدانية. وكان طبيعياً أن تحكم عليه

(١) عالم رباني من أجل علماء هذا العصر ودعاته ولد في قرية تابعة لولاية بتليس عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٣م وتوفي عام ١٣٧٩هـ. وانظر هذه القصة وتفصيل حياته في كتابي (من الفكر والقلب) صفحة ٢٥٩ فما بعد.

المحكمة بالإعدام.. ولما جيء به لينفذ فيه الحكم، أقبل إليه الضابط، بعد أن أطال التأمل فيه، قائلاً: إنني معجب بدينك هذا الذي أعزك إلى هذا الحد، ثم ربت على كتفه وعفى عنه.

وصدق رسول الله القائل: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها»^(١) وصدق من قال: لا تحف ممن قلبه بيد من تحب!..

* * *

نعود، بعد هذه المقدمة إلى حكمة ابن عطاء الله التي يقول فيها: «ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع». وإنه لكلام بليغ وجامع.. إذا كان الذل في حياة الإنسان شجرة قابلة للانتشار والنمو، فليست النواة التي تفجرت هذه الشجرة منها إلا الطمع.

لولا الطمع، لما ذل إنسان لإنسان مثله.. الطمع في مزيد من المال يجمعه، أو رتبة يتبوؤها، أو في شهوة من شهوات النفس ينالها..

ولاريب أن ذل الإنسان للإنسان مهانة تناقض الكرامة التي ميز الله الإنسان بها، وتسيء إلى الخُلعة التي خلعها عليه إذ قال له: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. فكيف السبيل إلى أن يتحرر من هذه المهانة، وإلى أن ينسجم مع التكريم الذي اختصه به؟

أمّا اجتثاث الطمع من نفسه، فلا سبيل إليه، لاسيما الطمع في المال، وفي التمتع بما جبل عليه من الشهوات.. ذلك لأن الله فطر الإنسان على احتياجات أطعمه فيها. أحوجه إلى المال الذي به قوام عيشه،

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم من حديث أنس.

ومن ثم أطمعه فيه وحببه إليه، ألم يقل جل جلاله عن الإنسان والمال ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨/١٠٠] وقال في سورة أخرى ﴿وَتَجِبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠/٨٩]. وأثبتها قاعدة في حياة الإنسان إذ قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤/٣].

إذن، فلا سبيل إلى اجتثاث الطمع من الإنسان، في هذا الذي أطمعه الله عز وجل فيه.

فما السبيل إذن إلى أن يتحرر الإنسان (مع بقاء طمعه في المال وذيوله) من الذل لمن هو إنسان مثله، لا يعلو عليه من معاني الإنسانية الجامعة بشيء؟

سبيل ذلك أن تهيمن حقيقة وحدانية الله عز وجل على عقله، فلا تبقى فيه ريبة من أن هذا الكون إنما يدار بإدارة واحد لا ثاني له، وأن لاحول ولا قوة فيه إلا حوله وقوته، وأن الأسباب الكونية على اختلافها ليست إلا جنداً من جنوده، على أن يسري اليقين بهذه الحقيقة من العقل إلى الوجدان، عن طريق الإكثار من مراقبة الله وذكره مع أداء العبادات المطلوبة كلها على الوجه السليم.

فإذا تحقق الإنسان بهذا التوحيد، يقيناً في العقل، ووجداناً في القلب، توجه بأطماعه كلها إلى من بيده إشباعها، بل إلى من هو الذي غرسها في النفوس، ووجهها إلى ما قد فطر الإنسان عليه من

الاحتياجات المتنوعة، ألا وهو الله الواحد الذي فطر هذا الكون بقدرته، وأقامه على النظام الذي شاء له بإرادته وباهر حكمته.

فهو يظل طامعاً بالمال، ولكنه يصرف طمعه إلى من يعلم أنه هو وحده القادر على أن يمتعه به. ويظل طامعاً بشهواته ورغائبه الغريزية، ولكنه يتوجه بطمعه هذا إلى من قد فطره على تلك الغرائز، وإلى من علم أنه وحده الذي بيده تحقيقها له وتمتيعه بها. وإنه يظل يبحث عن مزيد من الأمن والطمأنينة وعن ملاذ من الأخطار والمخاوف، ولكنه لا يرى أمامه حصناً لأمنه ولا ملاذاً من مخاوفه إلا باللجوء إلى من قد أيقن أنه هو مسبب الأسباب كلها وأنه هو مصدر كل خوف ورجاء.

فإن أدركته الغفلة عن هذه الحقيقة التي هو موقن بها متفاعل معها، بسبب بعض الملهيات والمنسيات، أيقظه إليها وذكره بها، كلام الله الذي يفترض أنه لا ينفك عن تلاوته والرجوع إليه كل يوم. إذ يراه يقول: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧/٢٩]، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٨/٥١]، ويقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢/٢٤]، ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧/١٦]، ويقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢/٦]، ويقول خطاباً لموسى وهارون ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦/٢٠].

فدور الإيمان الحقيقي بوحداية الله تعالى، أنه يصرف وجهة الطمع في الإنسان من التعلق بإنسان مثله، إلى التعلق بمولاه ومالكة الذي بيده

هو تحقيق رغباته وإشباع أطماعه.. وكلما ازداد الإنسان طمعاً بمولاه ازداد تحققاً بمعنى العبودية له، وازداد تذلاً بين يديه وانكساراً على بابه، فهو طمع محمود وقربة مبرورة.. غير أنه كلما ازداد طمعاً بأقرانه وأمثاله من الناس ازداد صغاراً ومهانة في أعينهم، دون أي حاجة تدعو إلى ذلك. فهو طمع مذموم بل هو داء مهلك.

وإن من أشد ما يعجب له العاقل، أن تجد في الناس من يعرض مستغنياً عن الله الذي بيده وحده كل شيء، ويترامى ذليلاً مهيناً على أعتاب من لا يملك من أمر نفسه، فضلاً عن غيره، أي شيء!!..
وانظر إلى حكمة الله وتدبيره، ورعونة الإنسان وحمقه، في هذا الذي أقوله لك:

فطر الله الإنسان على احتياجاتٍ، كما قد ذكرت لك، وجعله ضعيفاً في حق نفسه عاجزاً عن بلوغ حاجاته إلا بسند معين، كي تسوقه حاجاته مع رؤيته لضعفه، إلى رحاب مولاه الأحد الذي لامولى له سواه، فيسأله ويدعوه ويجأ إليه بالتذلل والشكوى، يعرض عليه كل حاجاته، ويسأله كل متطلباته، فيكون ذلك ترجمان عبوديته لله ولسان إقرار منه بالخضوع لمولاه.. وقد وعده الله، وأكد له الوعد، أنه سيستجيب دعاءه ويحقق في هذا الحال رجاءه. ألم يقل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠]؟ أليس هو القائل: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٤].

فكان عاقبة ذلك، أن نظر الإنسان إلى ذاته واحتياجاته وما قد فطر عليه من الضعف، فأعرض عن مولاه الذي ابتلاه بالضعف ليلجأ منه

إليه، والذي أقامه على احتياجاته ليتوجه إليه فيطلبها منه، ثم اتجه بضعفه واحتياجاته إلى مخلوق مثله يعاني مثله من الضعف ذاته، ويرزح تحت وطأة الاحتياجات ذاتها، اتجه إليه بالدعاء الذي كان ينبغي أن يتجه به إلى مولاه، وبالشكوى التي كان ينبغي أن ينصرف بها إلى من بيده رفعها ثم لم يعد من ذلك إلا بأوقار من المهانة والذل!!..

وأنا أحدثك في هذا عن الإنسان، من حيث هو إنسان، ولست أحدثك عن الإنسان بمعنى العموم والاستغراق. أحدثك عما هو الشأن في طبيعة الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الزحرف: ١٥/٤٣]، وكقوله: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧/٨٠].. فلا جرم أن الإنسان الذي غرست حقائق التوحيد في عقله، وغذيت بها عواطفه ووجدانه، لاتسوقه حاجاته ولا يهديه ضعفه إلا إلى الله، وإنه ليعيش فخوراً عزيزاً بانتسابه في الولاء إلى الله، وبدخوله فيمن قال الله عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [محمد: ١١/٤٧]، وبترفعه عنمن قال عنهم: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

هذا الفريق من الناس يظل مكرماً منعماً في حصن حصين من العزة التي لا يشوبها ذل.. وقد علمت من المقدمة التي سقتها بين يدي هذه الحكمة، أن التذلل بين يدي الله هو الثمن الكامل للعزة أمام عباد الله. فمن أعطى ذلك الثمن وافياً، كان لا بد أن ينال هذه البضاعة العزيزة كاملة.

وكما ينطبق هذا على الفرد ينطبق على المجتمع، سواء بسواء.

ألا ترى إلى التاريخ.. تاريخ الرعيل الأول من هذه الأمة؟ كانت مضرب المثل في الذل والمهانة عندما كانت تائهة عن مولاها وخالقها. فلما أشرقت حقائق الإيمان بالله ودلائل وحدانية الله، في عقول ذلك الرعيل، وسرت وجداناً إلى أفئدتهم، وعثروا على هوياتهم الضائعة عبادةً لله وحده، لا ينفعهم ولا يضرهم أحد سواه.. اتجهوا بآمالهم كلها إليه، وعرضوا سائر احتياجاتهم مع مظاهر ضعفهم عليه، ووثقوا بعهده الذي قطعه على نفسه لهم، وامتثلوا يقيناً بقوله لهم: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠/٣].

فلم يخافوا بطشة أحد بعد خوفهم من الله، ولم يطمعوا بمعونة أحد ونصره لهم بعد طمعهم بما قد وعدهم به الله. ولم تملأ زخارف الدنيا أعينهم ولم تأخذ بمجامع نفوسهم، بعد الذي مناهم به الله.

ولسنا هنا بصدد عرض المشاهد الكثيرة لهذه الحقيقة الكونية التي جاءت فصدقتها الحقيقة التاريخية. ولكنني أضعك منها أمام نموذج واحد، ولك أن تتبع بعد ذلك وقائع التاريخ لتجد مصداق ما أقول: في غزوة القادسية، ظن رستم قائد الحملة الفارسية فيها، أن العرب كعهده بهم يذللون وراء المطامع، وينبهرون بمظاهر البذخ والغنى التي لا تطول أيديهم إلى شيء منها، فأغرق سرادقه بأصناف مبهرة أخاذاً من ذلك كله، ثم أرسل إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش القادسية، يطلب إليه أن يرسل إليه من يكلمه باسم المسلمين، في الأمر الذي جاؤوا من أجله.. فأرسل له، ربعي بن عامر، جندي من عامة

المسلمين، وانطلق إليه في ثياب بذلة على فرس عارٍ من السرج.. فلما وصل ربعي إلى السرادق ورأى الزخارف ومظاهر البذخ التي حشي بها، أدرك أنه إنما دعي إلى مقابلة مع هذه الزخارف لا إلى لقاء مع قائد الفرس..

فنزّل عن فرسه في وقار وهدوء، ثم أمسك بزمامه ودنا فربطه بأقرب سارية من سوارى ذلك السرادق، وبالغ في لف الزمام عليها حتى تمزق ما كان عليها من حرير ناعم. ثم أخذ يتكئ على رمحه وقد جعل زجّه إلى الأرض، حتى مزق وأفسد جميع ما مرّ عليه من النمارق وفرش الحرير المنسوجة بخيوط الذهب!..

ولما وصل إلى عرش رستم، عمد فجلس معه على السرير ذاته.. وهبّ إليه الأعوان ليجذبوه فاستوى قائماً وقال:

لم آتكم بنفسي، ولكنكم دعوتوني فأتيت، ولا بدّ من جلوسني في المكان الذي أريد.

فأشار رستم إلى أعوانه أن يتركوه.. وعاد ربعي فجلس مع رستم على عرشه!..

ولست الآن بصدد نقل الحوار الذي جرى بين ربعي بن عامر وقائد الجيش الفارسي رستم في هذا المجلس أو اللقاء، وإنه لحوار هامّ وطريف^(١). ولكنني ألفت نظري ونظر القارئ إلى أن هذه العزة التي غالبت في نفس ربعي أبهة الإمبراطورية الفارسية في أبهى مظاهرها،

(١) كتبت قصة هذا اللقاء والحوار الذي جرى بين ربعي ورستم بأسلوب أدبي تحليلي في كتابي (من الفكر والقلب) تحت عنوان: مفاتيح النصر.

فغلبتها، إنما جاءت من تذلل لسلطان الله ومن يقينه بوحدانية الله، ومن ثقته التامة بأن الله وليه، ومن ثم فهو نصيره، وأن الكافرين لا مولى لهم، فلا ناصر إذن لهم!.. يخيل إلي أنه عندما كان يتعامل مع تلك الزخارف بذلك الإزدراء، كان يردد في أعماق نفسي كلام رسول الله: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١)

ولكن تعال فانظر اليوم إلى الخلف الذي جاء بعد ذلك الرعيل .. تأمل في الغناء الذي يبلغ كُمهُ العددي ملياراً وربع المليار من سكان هذه الأرض!..

مسلمون، وهم معرضون عن نداءات الله لهم، والتي قرأتها قبل قليل!..

مسلمون، وآمالهم كلها متعلقة بما يمكن أن تعود به عليهم دول الطغيان والبعي في الأرض من المنح والأعطيات!..

مسلمون، ومخاوفهم كلها آتية مما يمكن أن توجهه إليهم تلك الأمم أو الدول ذاتها، من أسباب الهلاك والدمار!..

مسلمون، وقد استقر في عقولهم ووقر في نفوسهم، أن معارج رقيهم إلى التقدم الحضاري بكل مظاهره وأسبابه، تتمثل في اتباع تلك الدول ذاتها خطوة بخطوة ونعلاً بنعل!..

(١) رواه الترمذي بهذا اللفظ، وقال: حديث حسن صحيح.

فقل لي: أي معنى من معاني وحدانية الله، تحتضنها إذن عقول هؤلاء المسلمين؟

إن أمة هذا شأنها ليس لها من إسلامها إلا نصيب الانتماء السلالي والتراثي، أجل: التراثي، كما يقولون. ومن ثم صدق عليهم القانون الرباني الذي فرغنا من شرحه الآن، نسوا الله فأنساهم أنفسهم.. ولما أنساهم أنفسهم تاهوا وضلوا عن هوياتهم عبيداً مملوكين لله عز وجل، وشردوا عن مظلة الولاية الإلهية لهم.. فكان عاقبة ذلك أن تراموا بين أذيال من قد خيل إليهم أنهم هم الأقوياء الذين يسعفونهم، والأغنياء الذين يعينونهم، والأعزة الذين يتسامون بهم واتجهوا إليهم من دون الله بكل هذه الأطماع!..

ثم كان عاقبة هذه العاقبة، أن ركبهم الذلّ، واصطبغت حياتهم بالمهانة، وصغروا في أعين أولئك الذين طمعوا فيهم، وعلقوا آمالهم بهم.. وتلك هي قصتهم، لاتزال معروضة على مسرح التاريخ الحديث، يراها كل ناظر.

وصدق رسول الله القائل: يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قال قائل: أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير. ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله الرهبة منكم من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قال قائل: ما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكرهية الموت».

* * *

الحكمة التاسعة والخمسون

((ما قالك شيء مثل الوهم))

هذه الحكمة تتمه للتي قبلها.. فبعد أن عرفنا أن الطمع إذ يهيمن على حياة الإنسان، يكون سبباً لتحمل المهانة والذل، على النحو الذي تم بيانه، لابد أن يسأل أحدنا: فما الذي يحمل الإنسان على الطمع، وقد عرفنا أن المسلم يجب أن يعلم - إن كان مؤمناً بالله وبوحدانيته حقاً - أن ليس من دون الله أحد ينفعه أو يضره، وأن خالق الأسباب والمسببات والقوى والقُدَر هو الله وحده؟

ويأتي الجواب عن هذا السؤال من خلال هذه الحكمة: إنه الوهم!.. فالوهم لاغيره هو الذي يحمل صاحبه على تناسي هذا اليقين الإيماني أو نسيانه فعلاً، فيخيل إليه أن في الناس الذين من حوله من قد يفيدوه أو يضره، وأن جهوده الذاتية قد تأتيه بشيء مما يتبعه، وأن الأسباب الظاهرة التي يراها من حوله ذات قيمة وفاعلية حقيقية.. وفي غمار هذه الأوهام التي تطوف به ينسى أو يذهل عن الحقيقة الكونية الجاثمة وراء سحب هذه الأوهام، والتي تعبر عنها أصدق تعبير عقيدة الإيمان بالله، وإليك أمثلة على هذه الأوهام وما تفعله في حياة صاحبها.

✽ زيد من الناس أقبل إلى دراسة الشريعة الإسلامية ودلائل الإيمان بالله، والكشف عن الشبهات الباطلة التي تنسج للتشويش على مبادئ العقيدة الإسلامية، قاصداً بذلك التمكن من معرفة الدين والعمل على تعريف الناس به والدعوة إليه.. يأتي من يوهمه بأنه إن انصرف إلى شأنه هذا، فلسوف تسدّ أمامه نوافذ الرزق، ولسوف يصبح كلاً على الناس، وتفوته فرص السعي إلى توفير الحياة الرغيدة، فيسرى عليه هذا الوهم ويحفل به على أنه حق وجدّ. فيقلع عما هو بصدده، ويتجه بأطماعه إلى الآمال التي وضعت أمامه، ويسوقه الطمع إلى ألوان من الذل، ناسياً أن الله لن يتخلى عن اتجه صادقاً مخلصاً لخدمة دينه ولدعوة الناس إليه وتعريفهم به.

✽ زيد آخر من الناس يعيش في أوروبا أو أمريكا، يتجه للبحث عن عمل ما لجمع المال... كلما عثر على عمل فاتجه إليه قيل له: إنه عمل محرم!.. عمل في السوبرماركت قيل له إنهم يبيعون فيه بضاعة محرمة كالخمر والخنزير، فالعمل فيه غير جائز... عمل في مطعم، فقيل له إن فيه خموراً وإن المعصية ترتكب فيه علناً. فالعمل فيه محرم.. تعامل مع البنك وأودع فيه أمواله أو استدان منه، فقيل له إنك تعاملت بالربا وهو من أشدّ المحرمات.. وأخيراً جاء من يوهمه باسم الدين أن كل تلك الأعمال جائزة لآحرج فيها، وأن الفتوى الدينية اليوم تقول بجلّها، لأن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان، ولأن الدين يسر وليس عسراً، ولأن الأمر إذا ضاق على المسلم الملتزم بسبب الظروف، جاء التوسيع له من الله بالجواز والسماح.. فينظلي عليه هذا الوهم، وتحتاج

من ذلك أطماعه في التوسع وتوفير الحياة الرغيدة والأكثر رفاهية،
ويزجه الطمع في ألوان من المغامرات والذل سعيًا وراء أطماعه.

❖ فتاة أتجه منها القصد إلى الاحتشام والتزيي بزّي الإسلام الذي فرضه الله على المرأة، والذي يتمثل في كل ما يخفي زينة المرأة ومغرياتها الجسدية عن أنظار الرجال الأجانب عنها.. فجاء من يوهمها أنها إن فعلت ذلك حرمت فرصة إقبال الخاطبين إليها، إذ لن يجد أحد فيها ما يدعوه إلى خطبتها والزواج منها، وأن السبيل الوحيد إلى أن تنال حظها من الزواج ممن تريد، أن تعرض من مزاياها ومغرياتها الجسدية ما يجيبها إلى الرجال، ويلفت إليها نظر الخاطبين... فسرى إليها هذا الوهم، وهيمن على قرارها الفكري وعلى شعورها العاطفي، ونسيت أن الأمر في ذلك بيد الله، فخالفت أمر الشارع تحت تأثير هذا الوهم الذي قادها إلى الطمع بما يتغيه من غير بابه.. والشأن فيه أن تتعرض تحت تأثير هذا الطمع لألوان من المهانة والذل، وربما لعبت الرجال بها أيضاً، لقضاء أوطارهم منها تحت اسم الزواج وعن طريق تطميعها به.

❖ فلان من الناس يملك ثروة كبيرة، ونظر فوجد أن حق الزكاة في ماله يبلغ الملايين في كل عام، فأوحى إليه الوهم إن ترك هذه المقادير الكبيرة من ماله للناس سيعيده القهقري في أحلامه التوسعية من خلال مشاريعه التجارية، وسيعوقه عن منافسة الآخرين والنهوض بخططه الإنمائية التوسعية.. فاستجاب لوهمه هذا، واستبقى حقوق الله من ماله عنده، دون أن يعود بها إلى من أمره الله أن يصرفها إليهم، طامعاً

في أن يكون ذلك عوناً على تحقيق أحلامه التي تراوده في توسيع تجارته أو تطوير صناعته، ومنافسة الأقران والأنداد.. وينسيه هذا الوهم قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥/٢] وقول رسول الله ﷺ: «مانقتصت صدقة من مال»^(١).

إذن فالوهم هو الذي يقود إلى الطمع الذي يتوجه بالعبد من الناس إلى عبد مثله، ومن ثم يزرجه الطمع في المهانة والذل. ولو تحرر هذا الإنسان من وهمه، لما اتجه بطمعه إلى من ليس أهلاً لأن يتوجه به إليه، ولا توجه به صعوداً إلى الله عز وجل الذي هو خالق كل شيء ومصدر كل نفع وضرر.

وإني لأضع القارئ أمام واقع مررت به في حياتي، يجسد هذه الحقيقة، ويجليها أمام البصائر بل والأبصار أيضاً، أثبتها هنا، كما أثبتها من قبل في كتابي (هذا والدي) لأخذ العبرة فقط.

وجهنني والدي منذ نعومة أظفاري إلى دراسة الدين والشريعة والتفرغ لذلك. وقال لي، وهو يمضي بي إلى أول مدرسة شرعية في دمشق: اعلم يا بني أنني لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق، لجعلت منك زبالاً، ولكنني نظرت، فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، لذا فقد قررت أن أسلك بك هذا الطريق. ثم إنه أخذ عليّ العهد أن لا أجعل قصدي من دراسة هذا العلم أي شهادة أو وظيفة.. وأن أقتنع بأي رزق يسوقه الله إليّ، وبأي عمل كريم يقيمني الله فيه.

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي من حديث أبي هريرة.

كان لي رفقة في مثل سني... اتجهوا جميعاً إلى المدارس الحكومية، حيث السبيل إلى الشهادات والوظائف.. فكان البعض منهم ينصحني ويحذرنني من أن سلوكي هذا لن ينتهي بي إلا إلى فقر يجعلني عائلة على الناس.. وكان فيهم من يقول لي: إنه ليس أمامك إلا مستقبل واحد، هو أن تصبح مغسلاً للموتى أو مؤذناً أمام الجنائز!..

وكان المفروض - لولا لطف الله بي - أن أستسلم لهذه الأوهام التي كان الرفاق يغزون بها عقلي ونفسي. ولكنها كانت - بحمد الله - تطرق سمعي ثم لا تترك أي أثر في نفسي، وإني لأتساءل اليوم عن الوقاية التي كانت تحميني من تلك التشويشات، ولم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة بعد، فلا أتبين إلا وقاية واحدة كان الله عز وجل يحميني في داخلها:

كنت أنفذ نصيحة نصحني بها والدي، أن أواظب على أوراد من الأذكار والتلاوات كل صباح ومساء، وكنت شديد الحرص عليها. فكيف كانت عاقبة أمري من بعد؟

ينبغي أن أعلن هنا أن الله لم يضيعني.. ولم يتركني عائلة على الناس كما قد خوفني الرفاق. بل أغدق عليّ من النعم ما لا يحصيه العدّ، وما لم يكن لي فيه مطمع ولا أمل، ولم يتحقق شيء من ذلك بتدبير مني ولا من أبي. ولم يكن شيء من ذلك كله متوقعاً ولا داخلًا في الحساب، ولكنه المصدق الدقيق لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢/٦٥-٦٣]. وإن في أولئك الرفاق الذين كانوا يلاحقونني بتحذيراتهم من قد وقعوا في شرٍّ مما حذروني منه.

أولئك انقادوا إلى الوهم، فأسلمهم الوهم إلى سوء المصير، وأنا حررتني الله من الوهم بفضل القراءات والأذكار والأوراد التي سلكتني والدي فيها منذ نعومة أظفاري؛ ووجهت فقري وآمالي وأطماعي إلى مولاي وخالقي، إلى المحسن الكبير الأوحى، فلم يخينني ولم يضيعني، وأعطاني أكثر مما أطلب وأتمنى، لو سألتني الله أو سألت ما عما أطمع به وأريد!..

بقي أن ألفت نظر القارئ إلى أن التحرر من الوهم لا يعني التحرر من التعامل مع عالم الأسباب التي أقامها الله في الكون، ضمن المنهج المشروع والضوابط التي رسمها كتاب الله وسنة رسوله.

فالذي يتعامل مع الأسباب المشروعة، إنما يتعامل مع موجدتها، ومع من نظم الكون على أساسها، على أن يعلم الحقيقة التي فرغت من بيانها في شرح هذه الحكمة والتي قبلها.

وإن في الأمثلة الواقعية التي ضربتها لك، ما يفرق بين الانقياد للوهم والاسترسال مع نتائجه ومستلزماته، وبين التعامل مع الأسباب المشروعة على النحو المشروع، مع اليقين التام بأن مسبب الأسباب هو الله، فهي ليست إلا جنوداً من جنوده.

* * *

الحكمة الستون

((أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع))

الآيس واليائس بمعنى واحد، وهو القانط، فأيس مقلوب يئس كما يقول جلّ اللغويين.

وهذه الحكمة، مع اللتين قبلها، تدور، كما ترى، على محور واحد. هو التحذير من الطمع في المخلوق ونسيان الخالق.

قالوا إن رجلاً كانت له مشكلة استعصت على الحلّ، قيل له: إن فلاناً من الناس ذو صولة ووجاهة وقدرة نافذة، فامض إليه وحدثه عن مشكتك في رجاء واستعطاف، تصل إلى ما تبتغيه. ففعل ما قيل له، وأخذ يتردد عليه ويستعطفه في قضاء حاجته، ويتودد له، دون أن يستفيد منه شيئاً.

فلما يئس منه، واستغلقت السبل أمامه، قطع سبيله إليه، واتجه إلى الله عز وجل يطرق بابه بالمسألة والدعاء، وما هي إلاّ أيام مضت حتى جاء من يخبره بأن مشكلته العويصة قد حلت، وأنه قد وصل من مبتغاه إلى ما يريد. فازداد بهذا الخبر تعلقاً بالله وتذلاً على بابه، وتحرراً من أسر ذلك الذي قاده الوهم إلى التعلق به والتذلل له واستعطافه لحلّ معضلته.

على الرغم من أنهم يروون ذلك حادثة شخصية جرت، إلا أنها في الواقع قاعدة دائمة تُستلُّ منها هذه الحكمة.

إن يأسك من الشيء يعني تحركك من سلطانه، وخروجك من أسر التذلل له وحاجة توددك إليه واستعطافك له.. في حين أن آمالك في إمكان الاستفادة منه يطمعك فيه، وطمعك فيه يوقعك في براثن العبودية له.

تلك هي القاعدة التي تنطق بها هذه الحكمة.. وإنها لقاعدة صحيحة مطردة.

والنتيجة التي ينبغي أن نعود بها، من فهم هذه الحكمة، وإدراك أنها قانون دائم، أن على الإنسان الكريم على نفسه المعتر بذاته أن لا يطمع إلا بمن لا يغير الطمع من علاقته به شيئاً.. ولا يصدق ذلك إلا على الله عز وجل. فالإنسان عبد مملوك لله على كل حال، طمع به أم لم يطمع، سأله أم لم يسأله. إذن فطمعه به وتذلله له وانكساره بالدعاء بين يديه لا يغير من واقع حاله تجاهه شيئاً، بل إن موقفه هذا ليس إلا وضعا للأمر في نصابه، وتنسيقاً للسلوك مع الحقيقة والواقع.

ولن يتحول عن هذا النصح إلى نقيضه إلا من كان مهيناً في نفسه، استوت لديه، وفي حق ذاته، الضعة والكرامة - فهو الذي يعلق آماله بأمثاله، ثم يبنى عليها الأطماع بهم، ثم يسلك السبيل بأطماعه إليهم على أرض من التذلل والتعجب والمداهنة والصغار.

* * *

وانظر.. تجد أن ابن عطاء الله يجنّد حِكْمَه الثلاث هذه لهدف واحد، هو ترسيخ حقيقة الحرية بين جوانحك. وقد علمت مما أوضحت لك من معاني الحكمتين السابقتين، أنه إنما صاغ لك هذه الحكم الثلاث واستخرج معانيها، من كتاب الله عز وجل ومن بيان رسول الله ﷺ.

بوسعك إذن أن تعلم، إن لم تكن قد علمت بعد، أن الدين الحق الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء، وختمهم ببعثة آخرهم محمد ﷺ، إنما جعله الله حصناً لحرية الإنسان، بل هو الحصن الوحيد الذي لا بديل عنه لحمايتها من الآفات التي تتهددها.

وما الحرية، في معناها الواضح البسيط الذي يفهمه كل عاقل؟ هي أن يطمئن الإنسان إلى أن لا سلطان لغير من هو عبد ومملوك له، عليه.

وهذا يعني أن المدخل الذي لا بديل عنه إلى حصن الحرية الحقيقية، أن يبدأ الإنسان فيتعرف على هويته، ولسوف يعلم - إن هو بحث بجدّ وصدق - أنه مملوك للإله الذي خلقه فصوره في ظلمات الرحم كيف يشاء، ثم يسّر سبيله للخروج إلى فضاء هذا العالم، ثم قضى بأن يميته عند حلول الأجل المحدود، ثم ينشره ويعيده إلى حياة أخرى خالدة باقية في الميقات المحدد والمعلوم له. وإذا علم أنه مملوك له حقاً، علم أنه إذن عبده بالواقع والاضطرار، مهما حاول وتصرف، ومهما استغنى أو افتقر، ومهما عزّ أو تذلل، ومهما ضعف أو اقتدر.

يقين الإنسان بعبوديته ومملوكيته لهذا الواحد، يدفعه إلى أن يدين بالولاء والخضوع له وحده، دون سائر الكائنات الأخرى على اختلافها وتفاوتها في الأهمية.

فهما لاحت له مظاهر القوة أو مقومات السلطة أو بوارق الضرر والنفع، في شأن أناس من أمثاله من البشر، لا يقيم لشيء من ذلك وزناً ولا يوليه أي أهمية أو اهتمام.. ومن ثم فإن ذلك كله مجتمعاً لن يقوى على انتقاص شيء من آفاق حرية. إذ قد انحصرت الفاعليات كلها، في يقينه العقلي، في ذات واحدة هو الله عز وجل. وكل ما عداه ومن عداه مملوك له مسير تحت سلطانه داخل قبضته.

فإن قلت: فإن هذا من شأنه أن يتمرد صاحب هذه الحرية، على الأنظمة والقوانين، لأنها من نتاج سلطان أمثاله من الناس على المجتمع الذي يعيش فيه.

فالجواب: أن من حقه - إن علم أن هذه الأنظمة والقوانين إنما سبقت إليه ليتقيد بها، بابتداع من الناس الذين هم مثله عبيد لله عز وجل - أن يتبرم بها ويتمرد عليها ما لم تكن له شركة حقيقية في وضعها والافتناع بها.

ومن هنا كان العلاج الذي لا بدّ منه لتوفير رضا الناس الذين عشروا على حرياتهم الحقيقية من خلال المدخل الذي ذكرته لك، أن تكون الأنظمة والقوانين الحاكمة فيهم، هابطة إليهم من عند الله، لامقترحة ومن ثم مفروضة عليهم من قبل أمثالهم من الناس.

وتلك هي الحكمة من أمر الله عباده بأن يعودوا فيما يحتاجون إليه من الأنظمة التي ترعى شؤونهم وعلاقات ما بينهم، إلى شرعة الله وحكمه، ومن تحذيره لهم من أن يستبدلوا بها ما تفرضه الفئة المتغلبة أو القوى الحاكمة.. إذ سيكون ذلك مبعثاً إلى أحد أمرين اثنين أحلاهما مرّ:

إما أن تتهارج الفئة المتحكمة والحاكمة، مع الفئات الأخرى، فيستفحل الخصام ولن يسود الوثام، وإما أن تكون الفئات الأخرى من الضعف بحيث لا تستطيع أن تجابه أو تتحرك.. فيكون ذلك عندئذ انتقاصاً لحريتها وهدرًا لكرامتها وتقوعاً غير مقبول منها في مناخ المهانة والذل. وانظر إلى هذا المعنى كم يتألق واضحاً في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤/٣].

وهذا المعنى الشمولي لأثر الحرية الإنسانية عندما تسود، وأثر غيابها لأسباب مما قد ذكرت، هو المعنى بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨/٢].

ثم إن التحرر من سلطان الغرائز المهتاجة والأهواء الجانحة، ليس أقل أهمية من ضرورة التحرر من سلطان الآخرين وقيودهم.. ألا تسمعهم جميعاً يقدرّون وييجلون ما يسمونه ((قوة الإرادة)) وينشدونها مطلباً

سامياً في أنفسهم وفي أصدقائهم وأقرانهم؟ فما المعنى المراد بهذه الكلمة القدسية في رؤاهم وقناعاتهم؟

إن المعنى الذي يريدونه منها أن يتمتع الإنسان بقدرة كافية على كبح جماح أهوائه وغرائزه عندما تشتت إلى حيث الخوف والخطر.. والإنسان الذي يتمتع فعلاً بهذه القوة، فلا يريد إلا ما تدعوه قناعته العقلية إلى إرادته وفعله، مكان إعجاب وغبطة من الآخرين.

إن الذي يعاني من ضعف هذه الإرادة، فتجتاح به غرائزه وأهواؤه حدود مصالحه ومنافعه الشخصية، إلى اقتحام ما لاشك في خطره أو ضرره على النفس، مستعبد بيقينه واعترافه لأسوأ قوى تتربص به السوء وتستدرجه إلى الهلاك أو الشقاء، وآية ذلك صراعه الدائب بين وحي عقله وجماح غرائزه.

وإن بوسعك أن تبين مزيداً من الدليل البين على ما أقول، عندما تتأمل في حال من استيقظت عقولهم إلى الحق من هؤلاء الإخوة الشاردين، تجد أن كثيراً منهم يقع عندئذ في خصام بين ما يدعو إليه عقله، وما تعودت عليه أهواؤه وغريزته، ولربما كان فيهم من لا يريد أن يكشف لك عن خفي هذه الحالة التي تنتابه، كي لاتتهمه، فتنتقصه، بضعف الإرادة، وتسلط أهوائه الجانحة عليه، وعجزه عن التحرر منها.. وهذا هو الدليل الذي لا مفرّ منه على أنه قد شخص في نفسه هذه النقيصة وأهمه أمرها، ومن ثم فهو يحاول أن لايعرفها ولا يكتشفها فيه أحد.

إن هذا الوضع المأساوي المزدوج يجتاح اليوم المجتمعات الغربية بشطريها الأوروبي والأمريكي.. إن شعار الحرية يتألق اليوم في تلك المجتمعات، كما تتألق أضواء النيون في ظلمات الليالي الحالكة، ومع ذلك فإن حياة الإنسان الغربي أحوج ما تكون إلى التمتع بهذا الشعار!.. إن ألسنة الناس هناك تظل تنشد نشيد الحرية، ولكن أوضاعهم السلوكية تمضي بهم إلى مزيد من قيود الاستعباد!..

أين هي الحرية في حياة أولئك الذين استعبدتهم المخدرات، فأفقدتهم نضرة السرور، وأبدلتهم بها وجوهاً صفراء شاحبة، تراهم هناك.. في أنفاق المترو أو محطات القطار، يبحثون عن اللاشيء، وينتظرون اللاشيء، ويقودون حياتهم جسراً إلى ما لا يعلمون!..

أين هي الحرية في مستقبل حياة مالا يقل عن ٣٠٪ من تلامذة المدارس الابتدائية في أمريكا، يعالجون علاجاً مستمراً بجرعات محددة من المخدرات، بإشراف أطباء مختصين، حفاظاً على القدر الذي لا بدّ منه من التوازن النفسي والفكري لرعاية أوضاعهم المدرسية والاجتماعية^(١).

أين هي الحرية في حياة من يقودهم «الروتين»؟!.. ينمهم ويوظفهم ويجرّكهم إلى المعامل والمصانع والوظائف الروتين، ويدفعهم إلى الأسمار والسهرات والحفلات الروتين، ثم يقودهم إلى النهاية مصير الروتين؟

(١) ذكرت ذلك إذاعة لندن القسم العربي في إحدى نشراتها الإخبارية.

ولا يجربك عن هذا الواقع المأساوي الذي يحتاج المجتمع الغربي، واقع حفنة من القادة يمسكون بأزمة الحكم اعتماداً على عتاد من القوة، وكنز من الثروة، وساسة يقودون دفة الحكم. فإن سيطرة هذه الحفنة لاتعني غياب هذا الواقع المأساوي أو عدم وجوده، ولاتعني أن الحرية الإنسانية الصحيحة هي التي تقود حركة الناس هناك.. ألا فلتعلم أن رجال البيت الأبيض وأعضاء الكونغرس في أمريكا شيء، والشعب الأمريكي الضائع بين تلافيف جهله ومعاناته النفسية وغيابه عن التعامل مع الجذور والذات شيء آخر^(١).. ولتعلم أن رجال الحكم هناك لاتعنيهم في شيء رواسب المشكلات في القاعدة الشعبية، ما دامت قبضتهم على الحكم قوية وسلطانهم على الآخرين ممتداً وراسخاً.

تلك هي فلسفة التناقض بين كل من ظاهر أنظمة الحكم الراسخة، وواقع البنية التحتية، في المجتمعات الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً.

غير أن التعايش الراهن بين هذين النقيضين لن يدوم طويلاً، ولن يكتب له من العمر أكثر من وسطيّ العمر الذي يتمتع به عادة الجيل الواحد.

وحلّ التناقض لا بدّ أن يتمثل في إحدى نتيجتين: الأولى، الانتهاء إلى مضيق نفسي واجتماعي يعقبه الانهيار الذي لا بدّ منه على سائر الأصعدة الحضارية المتنوعة؛ والثانية أن يتضاعف التجاء الناس هناك،

(١) لكي يكون هذا الوصف دقيقاً نقول: إن هذا هو واقع غالبية الشعب الأمريكي.

في البنية التحتية، إلى الإسلام، فتتوالد من ذلك وتتكاثر عوامل الإقبال عليه والاستئناس به، إذ يعثر الناس من خلاله على ذاتيتهم وهوياتهم ويجدون عن طريق الاصطباغ به السبيل الحقيقية إلى حرياتهم.. ولا بد أن يكون ذلك إيذاناً بتحويل المجتمعات الغربية، قبل أن تحسر شيئاً من منجزاتها الحضارية، إلى الإسلام. ولسوف تكون المجتمعات الإسلامية التقليدية اليوم سعيدة حينئذ بأن يظل الغرب، الغرب الذي يتبوأ حينئذ عرش الإسلام ويتحلّى بصبغته، هو الممسك بزمام القيادة، وهو المخطط لنظام العولمة.

ولا يقولن قائل: والمسيحية؟.. أفيخلع الغرب عندئذ رداءها ويرتدّ عن إيمانه بها؟... لأنا نقول: وهل يرتدي الغرب اليوم رداء المسيحية، أم هل يخضع لشيء من سلطانها؟ إن الغرب لا شأن له بالمسيحية من حيث هي دين يلتزم بضوابطه وأحكامه، قط. والمجتمع الغربي أبعد ما يكون اليوم عن الاهتمام بالمعتقدات المسيحية أو الالتفات إليها، فضلاً عن التمسك بشيء من أحكامها وأدياتها.

إن المجتمع الغربي يعيش اليوم في فراغ، بل في ظمأ، من حيث العثور على أجوبة عن الأسئلة الدينية الكبرى التي تلح على فكر الإنسان الغربي... وإنه أمام الحيرة التي يعاني منها لا يرى أمامه سوى سبيل الفرار منها إلى بؤرة الانغماس بين أمواج النسيان.

ولو كانت المسيحية ذات سلطان فعال على فكره وسلوكه، لما تزايد الإقبال الذاتي على الإسلام هناك يوماً بعد يوم، ولما وجدوا فيه

الملاذ الأوحى من همومهم التي لم يخلصهم منها ألق الحضارة ولا كنوز المال ولا عجائب العلوم والاكتشافات.

قبل سنوات تعرفت على رجل بلجيكي رأيت في المركز الإسلامي في بروكسل.. عرفت من خبره أنه كان طياراً لامعاً ذا مركز مرموق، على الخطوط البلجيكية، إلا أن عدوى الانجذاب إلى المخدرات سرت إليه، فتحكمت به وهيمت عليه مع الأيام والشهور، ولم تنجح سبل المكافحات لهذا الداء على اختلافها في إنقاذه من البلاء الذي تحكم به، فكانت العاقبة التي لا بدّ منها أن فقد وظيفته، وقعد متفرغاً يجترّ بلاءه الذي تمكن منه وأحاط به.. وشاء الله أن يسمع عن الإسلام ماشدّه إلى دراسته والتعرف عليه، فما هو إلا أن سرى الإسلام إلى عقله يقينا وإلى نفسه محبة وأنساً، فاعتنقه وألزم نفسه بمبادئه وأحكامه. يقول: فما هو إلا أن أيقظني الإسلام إلى إرادة قوية لم أكن قد شعرت بها يوماً ما في كياني، وما هو إلا أن قادتنى هذه الإرادة إلى التحرر من سائر الموبقات التي كانت قد استعبدتنى، وفي مقدمتها الوقوع في براثن المخدرات، ولقد عدت من بعد إلى عملي، طياراً على الخطوط البلجيكية.

ولقد علمت من بعد، أنه كان قد جاء على موعد، لمقابلة مدير المركز الإسلامي في بروكسل آنذاك، الأخ الفاضل الشيخ محمد العلوي، ليخبره عن تبرعه بأرض يملكها في إحدى ضواحي بروكسل، وعن رغبته في أن تبني مسجداً ومعهداً للعلوم الشرعية.

أليس هذا هو التحرر الحقيقي الذي لا يرتاب فيه إلا مكابر؟

أليس التحرر الداخلي من غوائل النفس، هو البوابة التي لا بدّ منها إلى التحرر الخارجي؟

ثم هل بوسعك أن تعثر على سبيل يوصلك إلى هذا التحرر إلا سبيل الإسلام، الإسلام المهيمن الفعال لا الإسلام التقليدي المحنط؟
 إذن فتعال نردد معاً حكمة ابن عطاء الله التي تصيدها من كتاب الله عز وجل، كما قد علمت: «أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع».

* * *

الحكمة الحادية والستون

((من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان،
سابق إليه بسلاسل الامتحان))

مما لاشك فيه أن الله حكيم، والحكيم اسم من أسمائه الحسنی. والحكيم من أوتي من دقائق العلوم ما مكّنه من أن يضع الأمور كلها في نصابها، أي حيث يجب أن توضع، والحكمة التي يتمتع بها من يتمتع بها من الناس، منحة من الله عز وجل. وصدق الله القائل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ [البقرة: ٢/٢٦٩].

فمن مظاهر حكمة الله عز وجل أن يتجنب إلى عباده، في أول تعامله معهم، بالنعم يتمتع بها ويزيدهم منها، ويمدّهم بأجلّ مظاهر التكریم والإحسان، ويسخر لمصالحهم حركة الأفلاك، والكثير من النباتات، ويذلّل لرغائبهم وحاجاتهم كثيراً من الحيوانات.

وهذه المعاملة التي يقبل الله بها على عباده، ليست خاصة بالمؤمنين أو الصالحين منهم، بل هي عطية عامة شاملة لهم جميعاً على اختلاف مللهم وسلوكاتهم. وأساس ذلك قانون الله القائل: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/٢٠].

وأنا أتحدث عن الجامع المشترك بين الناس جميعاً من النعم.. ولاشأن لنا في هذا المقام، بالتفاوت الذي تراه بينهم في أمرها، وهو التفاوت الذي قرره بيان الله في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥/٦].

أليس كلهم مغمورين بنعمة الأرض التي جعلها الله ذلولاً تحت أقدامهم؟ أليسوا جميعاً مغمورين بنعمة الماء النмир الذي عليه مدار حياتهم؟ أليسوا جميعاً يتمتعون بالسكن الذي يؤون إليه وبالطعام الذي يقيم صلبهم، وبالرقاد الذي يتسرب إليهم عند الحاجة، واليقظة التي تعود إليهم عند زوالها؟

وليس لأحدهم أن يقول: ولكن داري التي أسكنها لا تبلغ أن تكون صالوناً من دور أناس آخرين، أو إن طعامي بُلغة عيش، وطعام الآخرين فنون وألوان.. إلخ إذ إن الجامع المشترك في ذلك بينه وبينهم هو النعمة، وتفاوت الدرجات فيها لا يلغي قيمة الأقل أو الأدنى منها. هذا هو الأصل في معاملة الله لعباده أياً كانوا، ومن هذا المنطلق يقبل عليهم ويتعامل معهم.

والمفروض أن تجذبهم هذه المعاملة إلى الشكر، وأن يدعوهم الإحسان الوافد إليهم من الله إلى إحسان مقابل يصعد إلى الله منهم، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠/٥٥].

والإنسان الذي عرف ربه، دون أن يعاني من شذوذ في حالته النفسية، أو كبرياء أعمته عن رؤية الحقيقة، لا بدّ أن تقوده النعم إلى شكر المنعم، تلك هي الطبيعة التي فطر عليها الإنسان. وصدق من قال: «جبلت النفوس على حب من أحسن إليها».

فمن انسجم مع فطرته هذه، إدراكاً وسلوكاً، فشكر الله على نعمه الوافدة إليه، بالحب، يتنامى في فؤاده، طبقاً لقول رسول الله: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه» وبالانقياد لأوامره وتنفيذ وصاياه جهد استطاعته، أمده الله بمزيد من النعم ومتعه بمزيد من مظاهر الإكرام، تنفيذاً لوعده الذي ألزم به ذاته العلية، في قوله ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٧].

أما من شذ عن هذا النهج، فتلقى النعم وأعرض عن المنعم، وانحطّ، غير مبال، في طريق الشرود والعصيان، لاتصلحه غلطة ولا تنبهه تذكرة، فهو لا يخلو أن يكون مندفعاً إلى حاله تلك بأحد عاملين: أحدهما عامل الطغيان والاستكبار، ثانيهما عامل الاستخذاء أمام سلطان الشهوات والأهواء، لاسيما عندما تفتح السبل إليها ويتيسر أسبابها بسبب كثرة النعم، وتوافر العافية، وزيادة المال، ونحو ذلك.

فأما من انحط في طريق الغواية والعصيان، بسائق من التكبر والطغيان، وكان مظهراً في ذلك لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ [العلق: ٦/٧-٧] دون أن يكفكف من جراح كبريائه التنبية والتحذير... فالشأن الغالب في حال هذا الإنسان أن يمده الله بمزيد من النعم، وأن يسكره بمزيد من أسباب المتع واللذائذ، استدراجاً

له إلى مزيد من التيه والضلال، وهو قانون يأخذ الله به الطغاة الذين يعنون في العتو والاستكبار، ليزدادوا بذلك تعرضاً لوقت الله وعقابه يوم القيامة.. وإنا لنقرأ هذا القانون ونستبين أسبابه ومبرراته في مثل قول الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤/٦٨-٤٥] وقوله عز وجل: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣/١٥] وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمِهَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦/٣-١٩٧] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤/٦].

وواضح أن هذا الاستدراج تكثيف لعوامل نسيان الله عز وجل، وإسدال لمزيد من الحجب الصادة عن معرفة الله والتأثر بأوامره وتهديداته، ذلك لأن الله قضى بإقصاء المستكبرين من عباده عن مجال الهداية والرجوع بالتوبة إليه، ألم يقل في محكم بيانه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦/٧] وهذا الذي قضاه الله في حقهم يستلزم أن يتركوا لمزيد من عوامل البغي والسكر بالمتع والنعم، ليستحقوا على ذلك مزيداً من النكال والعقاب.

وأما من انزلق في طرق التيه والانحراف بعامل الاستخذاء أمام هياج الغريزة، عندما كثرت النعم بين يديه وفتحت له منها السبل إلى ما

يشاء من الموبقات، فلم يستطيع أن يكبح جماح نفسه ليصدّها عن اختراق الحدود ولتتقيد بأوامر الله، فالشأن فيه وفي أمثاله، أن يسوقه الله إليه وأن يربيّه بسلاسل الابتلاءات، كما قال ابن عطاء الله.

فكأن نداء من قبل الله يتجه إليه قائلاً: إن لطائف إحساني لم تُقبَل بك إليّ، لقد زادتك بعداً عني، وانصرفاً عن أوامري، وشروداً عن صراطي، إذن فمن الخير لك أن أحجب عنك بعض هذه النعم، وأن أوقظك عن غفلتك بها ببعض المصائب والآلام، فإن الذي لا تعرّفه على الله لطائف إحسانه، ستقوده إليه سلاسل ابتلاّاته وامتحانه.

وواضح أن سلاسل هذه الابتلاءات، من أجلّ النعم الباطنة، وإن كانت فيما يبدو من النقم والمصائب، ونعم الله التي يكرم بها عباده قسماً: ظاهرة وباطنة، كما قال. فالظاهرة هي التي عبّر عنها ابن عطاء الله بـ«لطائف الإحسان» والباطنة، المصائب والابتلاءات التي تتسرب إلى الإنسان في جسده أو ماله أو في تسليط بعض الظلمة عليه. فتكون سبباً في الرجوع إلى الله بعد الشروود عنه، وفي الالتجاء إليه والاستغفار بين يديه والاصطلاح معه، بعد الإعراض عن أوامره والانغماس في مظاهر اللهو والانحراف.

والتحقيق الذي يجب بيانه، هو أن هذين القسمين من النعم، كلاهما ابتلاء وامتحان من الله عز وجل. فالنعم الظاهرة، كالعافية والمال والأهل والأولاد، محل الابتلاء فيها، أن يرى الله أثر هذه النعم في حياة من أنعم بها عليه، أهو الشكر وصرف النعم فيما قد خلق الإنسان من أجله، أم هو الإعراض والكفران... والنعم الباطنة،

كالمرض والفقر والمصائب المشابهة، محل الابتلاء فيها أن يرى الله أثر تسربها، أهو الالتجاء إلى الله والتوبة إليه، والصبر عليها والرضا بها، أم هو التمرد والسخط على الله بسببها؟

ويجتمع هذان الابتلاآن في قرار الله القائل: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْبَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥/٢١].

* * *

ثم إن المفروض في حال من عرف الله وآمن به، أن يقبل إلى الله بدوافع الحب التي من شأنها أن تتنامى في قلبه من جرّاء لطائف الإحسان إذ تنغمر بها حياته. ولكن الغالب أن لطائف الإحسان وتكاثر النعم، تلهب فيه الغرائز وتهيج الرغبات، بدلاً من أن تذكي في قلبه مشاعر الحب لله عز وجل.. فتسلمه تلك الألفاظ إلى الاستجابة لنداءات غرائزه بدلاً من أن ترحل به إلى شكر الإله الواحد الذي تفضل بها عليه!..

فإذا تقلصت عنه تلك النعم، وغاضت من حوله تلك المتع، وتسربت في مكانها إليه طائف من الأسقام والآلام، صحا عندئذ من غفلاته، وتذكر مولاه عز وجل، فالتفت مقبلاً إليه، تحت وقع تلك المصائب والشدائد، يتحجب إليه بالعبادة والتضرع والدعاء.

فياللعجب.. أليس الأولى بهذا الإنسان أن يتخذ من الغذاء الممتع اللذيذ سبباً لاستمرار عافيته، بدلاً من أن يعرض عنه، وهو موجود، حتى إذا حلّ المرض في كيانه، أقبل يعالج نفسه بالدواء المرّ ولسعات الكي؟

إنه لأمر عجيب.. ولكنه على الرغم من ذلك موجود وكثير!..
 قبل سنوات مضت، كنت في زيارة عالم جليل عرف بالصلاح
 والتقوى، من علماء دمشق، بمناسبة عيد... وبينما أنا عنده إذ دخل
 عليه رجل، يمشي معتمداً على اثنين عن يمينه وشماله، ويجرّ نفسه جرّاً
 بينهما!.. ولما وصل إلى الشيخ انخط عليه برأسه يقبل يديه وركبتيه!..
 قلت لمن كان إلى جانبي: من يكون هذا الرجل؟!.. قال إنه فلان،
 كان ضابطاً كبيراً ذا رتبة متميزة ومكانة عالية، تطوف النعم في
 خدمته وتجوب المتع بين يديه، وكان في ذهول تام عن الدين وعن
 الديان وحقوقه وحكمه.. فأدركه من الله شلل جزئي في جسده، فهو
 منذ ذلك اليوم يحاول أن يصلح ما فسد من غابر أيامه وأن يمدّ جسور
 الإصطلاح مع الله عز وجل، بالطاعات والعبادات وتلمس مجالس
 الصالحين والتحبب إليهم.

وإليك هذه العبرة الأخرى التي لا أنساها: رجل ذو مركز مرموق
 وثقافة عالية ووظيفة متميزة، يتمتع بصحة تامة، تعرف في وجهه
 المتألق نضرة النعيم، نشر في إحدى الصحف مقالاً ضافياً عنوانه: متى
 عرفت الأمة العربية أنها هي المالكة لقدرها المتصرفه بشأن نفسها،
 تخلصت من أسر تخلفها.. وكان حديثه في ذلك المقال يفيض تخبطاً
 وخلطاً... ولعله كان من أثر النعمة التي أسكرته فأنست عبوديته
 وضعفه.

أيقظه الله عز وجل من سكرة نعيمه بعضاً تأديب أدركته بينما هو
 يؤدي عمله الوظيفي في عافية ونشاط وقوة.. غاضت قواه وغاب
 تماسكه فجأة، ووقع من جراء ذلك على الأرض لا يعقل ولا يعي!..

غاب عن عمله وعن مسرح نشاطه، في تلافيف مرض مفاجئ أقعده شهوراً طويلة.. ثم إني رأيته بعد ذلك في مناسبة اجتماعية ذاوي الشكل ضامر الوجه، يمشي الهويناء، سلّمت عليه وهنأته بالعافية وسألته عن حاله، فقال لي، وقد استيقظت مشاعر عبوديته لله واضحة على وجهه. الحمد لله، لقد فضل المولى عليّ وزادني من فضله وكرمه، إذ وفقني لأداء مناسك العمرة، وأقدرني على زيارة بيته وزيارة نبيه.

ألا تلاحظ أن هذه الحالة التي انتابته، كانت له نعمة وأي نعمة، وإن كانت في ظاهرها بلاء ومصيبة؟. ولو لم يكن من معاني النعمة فيها إلا أنها نبهته من غفلته وأعادته من شروده وألبسته رداء العبودية لله، لكفى ذلك موجباً لأن تصنف في صدر قائمة النعم التي يكرم الله بها عباده.

* * *

والآن ما هي حصيلة هذه التربية التي يأخذ الله بها عباده؟
لقد رأيت أنه، جل جلاله، في كلا الحالتين اللتين يتعرض لهما الإنسان، إنما يريد بعده خيراً، إذ المآل أن يقبل على الله عز وجل وينقاد لسלטانه وينضبط بأحكامه، فإما إن يكون ذلك يجاذب من لطائف الإحسان، أو بقوارع من عصيّ الابتلاء والامتحان.. إن آثر في نفسه العافية جذبه الله إليه بنعمة الملاطفة والغذاء، وإن آثر الشرود عنها أعاده الله إليه بالتطبيب وأخذِه بمرّ الدواء.

فإن رأيت المجتمعات الإنسانية تعجّ دائماً بمزيج من المنح والمحن، فلأن هذه المجتمعات تعجّ دائماً بهاتين الفئتين من الناس: فئة تقبل إلى الله بلطائف الإحسان، وفئة أخرى لاتنقاد إليه إلا بسلاسل الامتحان.

إلا أن ثمة فئة ثالثة، هي بمعزل دائماً عن نظام هذه التربية الربانية، هي فئة المستكبرين على الله والمعاندين للحق بعد معرفتهم له ويقينهم به.

فهؤلاء، قضى الله تعالى أن يمدّهم بمزيد من النعم، وأن يسكرهم بمزيد من المتع، وأن يستدرجهم إلى مزيد من العتوّ والطغيان، ليكون العقاب المدّخر لهم أشد إيلاماً. أولئك هم الذين عناهم البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢/١٤] وأولئك هم الذين أكد الله أنه لم يهملهم نسياناً، ولكنه أمهلهم إلى أجل، وأن هذا الأجل آت لا ريب فيه، وذلك في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٧/١٤-٤٨].

* * *

الحكمة الثانية والستون

«من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها،
ومن شكرها فقد قيدها بعقالها»

دأب كثير من الناس على أن يعرفوا شكر الله تعالى، بالكلمة المعروفة التي يرددها أحدنا على لسانه في المناسبات: نشكر الله.. نحمد الله..

فمن اعتاد على أن يكون جوابه عند السؤال عن حاله: الحمد لله، أو الشكر لله، أو نشكر الله، فهو عند كثير من الناس يعدّ شاكراً لله. وهذا يعني أن جُلَّ الناس، إن لم أقلّ كلهم، شاكرون لله حامدون له.

غير أن هذا يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣/٣٤].

إذن فالشكر الذي يعنيه بيان الله ويأمر به، له معنى آخر، لا ينطبق على هذه الكلمة التقليدية التي ترددها ألسنة الناس حتى الفاسقين منهم، ربما بدون إدراك لمعناها.

فما هو معنى الشكر الذي يعنيه بيان الله تعالى ويأمر به؟

هو أن يصرف العبد جميع ما قد أنعم الله به عليه، لما قد خسر من أجله، فالشكر إذن، سلوك وتصرف. وكلمة نشكر الله أو الشكر لله، تنويه بهذا السلوك وعهد مع الله بتنفيذ مقتضاه. فإما أن يطابق سلوكه القول فذاك، أو يخالفه، فهو إذن كاذب.

ولكن ما معنى أن يصرف الإنسان جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق من أجله؟

معنى ذلك أن يعلم المهمة التي خلقه الله وكلفه بأدائها، ثم يوظف سائر النعم التي متعه الله بها في تنفيذ تلك المهمة على أحسن وجه. فيصرف نعمة العقل إلى معرفة الله ومعرفة وحدانيته والواجبات التي يجب أن يأخذ نفسه بها، مستعيناً بالأدلة الكونية الكثيرة من حوله، ويصرف نعمة البصر إلى النظر فيما يزيد معرفته بحقائق الأمور التي تزيده يقيناً بالله وصفاته وعبوديته ومملوكيته له، كذلك نعمة السمع، ونعمة العافية، ونعمة المال، ينبغي أن يوظف هذه النعم كلها ويجندها لتحقيق المهمة التي خلقه الله لأدائها، وهي أن يمارس العبودية لله بالسلوك والاختيار، كما قد خلق عبداً له بالواقع والاضطرار.. ولا حرج على الإنسان - بعد أن يجند النعم التي أكرمه الله بها للمهمة التي خلق من أجلها - أن يتابع، فيستعملها أيضاً في المباحات التي شرعها الله له، وفي المتع التي أكرمه بها.

إذن، فلو أن إنساناً سخر المال الذي أكرمه الله به، أو العافية التي متعه بها أو سخر غيرهما من النعم الكثيرة التي متعه الله بها، في

المحرمات التي حذره الله منها، فهو كافر بنعم الله غير شاكر له عليها، مهما كرر بلسانه كلمة الحمد لله، أو كلمة الشكر لله.

وليس المراد بالكفر الذي يقابل الشكر، في قوله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧/١٤] الكفر الذي يناقض الإيمان، وإنما المراد به الكفر الجزئي المتمثل في كفر النعمة، أي عدم الاعتراف بفضل الله عليه بها، ودليل عدم اعترافه، أنه لم يشكر المنعم المتفضل عليها، إذ سخرها لنقيض ما أمر الله به وهو المحرمات والمحظورات التي نهاه عنها.

وإذ عرفت معنى الشكر والكفران، فاعلم أن من لم يشكر الله على نعمه، فقد عرض نفسه للحرمان منها، أي فيوشك أن تحجب عنه، وأن يتبلى بنقائضها.

وإذا ابتلى الإنسان بالإعراض عن شكر المنعم على نعمه، ودام على ذلك، ثم بقي مع ذلك ممتعاً بها، فليس ذلك إلا لأن الله مقته، فمدّه بالمزيد منها استدراجاً، كما حدثتكَ في شرح الحكمة السابقة، ليذخر له على كفرانه النكال الكبير والعقاب الويل.

ونظراً لهذا الاحتمال، جاء تعبير ابن عطاء الله دقيقاً عندما قال: «فقد تعرض لزوالها» إذ ربما لاتزول للسبب الذي ذكرته لك، ومن المعلوم أن التعرض للشيء لا يستلزم الوقوع فيه بالضرورة.

وعلى هذا فإن غياب النعمة من حياة من أعرض عن شكر الله عليها، دليل على لطف الله به، إذ أبعد عنه ما كان سبباً لغفلة عن الله

وشاغلاً له عن شكره وعن أداء حقوقه، وهي، كما قد عرفت من قبل، نعمة من نعم الله الباطنة.

وللإعراض عن شكر الله صور ودرجات شتى، فأدنى درجاته الغفلة بالدنيا عن ذكر الله ومراقبته، والانزلاق في بعض السيئات والتهاون في بعض الأوامر، مما لا يكاد المسلم يجد سبيلاً للتنزه عنه، ومن سنة رب العالمين في عباده، إن أراد بهم خيراً، أن يكفر عنهم هذه السيئات ويظهرهم من أوزارها في دار الدنيا، كي يرحلوا إلى الله خفافاً مجردين عن أثقالها وعقابيلها، وسبيل ذلك أن يبعث في النعم التي يتمتعون بها نقصاً أو هزة، بالقدر الذي تقتضيه حكمة الله عز وجل، من مرض أو نصب أو همٌّ أو خسارة في المال، أو جزع في النفس أو تسليط عدوٍّ.. إلخ.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يغفر الله لك يا أبا بكر، ألسنت تمرض، ألسنت تنصب، ألسنت تحزن، ألسنت تصيبك الأواء؟ قال: بلى، قال: فهو ما تجزون به». ورواه الحاكم أيضاً من طريق سفيان الثوري.

وإذا عرف المسلم هذه السنة الإلهية التي يأخذ الله بها عباده، أدرك أن كل شيء يلقيه الإنسان في حياته بحساب، بالإضافة إلى النعم التي يغدقها على عباده تفضلاً منه وإكراماً دون أي مقابل عليها.

فالمصائب التي يتعرضون لها بعد ذلك، إما أن تكون تكفيراً لسيئات ارتكبوها، كي تكون طهوراً لهم منها، أو أن تكون رفعاً لدرجاتهم عند الله عز وجل، إذ تسوقهم تلك المصائب إلى المزيد من مراقبة الله والالتجاء إليه وبسط يد الافتقار على يابه.

وهكذا فإن كل ما قد يعتري نعم الإنسان من نقص فيها، أو هزة تعثرها أو خطر يطوف بها، يكمن وراءه سبب مما قد ذكرت، ومن ثم فإنه يعدّ، بلاريب، نعمة من أجلّ نعم الله الباطنة.

* * *

أما من قابل نعم الله بالشكر عليها (وقد عرفت قبل قليل المعنى الحقيقي للشكر) فقد أودع هذه النعم في الحصن الذي جعل الله منه ضماناً لبقائها بل لتناميها وزيادتها أيضاً. ألم يقل ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؟

وهذا هو معنى قول ابن عطاء الله في الشطر الثاني من حكمته هذه: «ومن شكرها فقد قيدها بعقالها» والعقال الحبل. شبه أثر شكر النعم في تقييدها والإبقاء عليها، بأثر تقييد البعير بالعقال في ضمانه بقاءه حيث هو وعدم شروده.

وانظر كيف غاير رحمه الله بين الفقرتين، إذ جعل من عدم الشكر سبباً للتعرض لزوال النعمة، دون أن يجعل منه سبباً لزوالها يقيناً. ولكنه جعل من وجود الشكر والانضباط الدائم به سبباً لبقاء النعمة بيقين، للفرق الذي أوضحته لك بين الحالتين.

وبوسعك أن ترى مصداق ما قد ألزم الله به ذاته العلية، مما قد ذكرنا به ابن عطاء الله في هذا الشطر الثاني من حكمته، في حال من تراهم من الشاكرين لنعم الله عز وجل، إنك لن ترى مسلماً يؤدي حقوق نعم الله الوافدة إليه، مخلصاً بذلك لإلهه المتفضل المنعم، إلا وتجد نعمه رقيقةً دربه كاملةً غير منقوصة إلى الممات.. تجد أن ماله في ازدياد، وأن عافيته في إقبال، وأن أمنه وطمأنينته في استقرار ورسوخ.

فإن رأيت ثغرات تتفتح في بعض تلك النعم، ونقصاً يتسرب إليها، مما قد ذكر رسول الله لأبي بكر نماذج وأصنافاً منه، فاعلم أن ذلك ليس إلا لآفات من المعاصي والتقصير في أداء الواجبات، والانزلاق إلى بعض السيئات، مما لا يتسنى لأي من المسلمين العصمة عنه، حاشا الرسل والأنبياء، قد تعرض لها صاحب تلك الثغرات أو النقائص التي تسربت إلى نعمه التي كان يتمتع بها.

ولذا فإن الإنسان أياً كان في صلاحه وقربه من الله، لا بد أن يتعرض لعوارض من المصائب والآلام، لأن الإنسان، أياً كان، لن يكون معصوماً من السيئات والآثام.

على أن الله ألزم ذاته العلية، بأن يعفو عن كثير مما قد يتعرض له المسلم من الانحرافات والآثام، دون كفارة لها من المصائب في الدنيا، ولا عقاب عليها في الآخرة.. تقرأ هذا جلياً واضحاً في قوله عز وجل:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾

[الشورى: ٤٢/٣٠].

* * *

أخيراً.. في الناس من قد يقول: شكر الناس بعضهم لبعض، مصدر فائدة يجنيها المشكور، فما الفائدة التي يجنيها الله لنفسه من شكر الشاكرين.

أقول في الجواب: أولاً لقد علمت أن كلمة: الشكر لله، أو الحمد لله، ليست هي المرادة بوجوب الشكر، وليس الشاكر الشخص الذي تعود لسانه على النطق بها في المناسبات، وإنما الشكر الذي أمر الله به ونعت المؤدين له بأنهم قلة، صرف الإنسان النعم التي متعه الله بها إلى الوظيفة التي أمره بها وخلقها من أجلها.

إذا تذكرت هذا الذي بينته لك من قبل، فتأمل في الأعمال والتصرفات التي يوظف الإنسان من خلالها نعم الله تعالى ويجنّدها للمهام والوظائف التي كلفه الله بها، ثم سائل نفسك: أهى عائدة بالنعمة إلى الله، أم إليه وإلى إخوانه من عباد الله؟.. وستجد أنها جميعاً عائدة بالفائدة إما إلى نفسه أو إلى المجتمع الإنساني من حوله.

إن الشكر على نعمة المال يتمثل في أداء حقه الذي رتبته الله عليه، وفي صرفه فيما أحلّ وشرع، وأنت تعلم أن مردّ ذلك إلى مصلحة المجتمع متمثلة في مدّ يد العون للفقراء والمعوّزين، وفي تطهيره من أوبئة البذخ والترّف وتضييع المال في غير طائل.

وإن الشكر على نعمة القوة والعافية، يتمثل في أن لا يطغى صاحب هذه النعمة بقوته وعافيته، وأن لا تسكره هذه المزية فتدعوه إلى النيل من الآخرين وهضم حقوقهم. بل شكرها يتمثل في أن يجند قوته في خدمة الناس ورعايتهم وأن يسخر نشاطه وعافيته في تقديم يد العون

إلى من حرموا من هذه النعمة، هذا بعد أداء حقوق الله المتمثلة في الطاعات والعبادات، ومن المعلوم أن العافية والقوة شرطان أساسيان لإمكان النهوض بها على أحسن حال.. وإنك لتعلم أن مردّ هذا الشكر إلى المجتمع متمثلاً في أفرادِهِ.

وإن الشكر على نعمة الرتبة التي قد يبوئها الله زيداً من الناس، يتمثل في أن يسخرها لإحقاق الحق ورعاية أهله، ومقاومة الظلم والضرب على يد الظالمين، وكلنا يعلم أن عاقبة هذا الشكر حماية المجتمع من السوء وأهله، ومدّ رواق الأمن على حياة المستضعفين الذين لا يتأتى منهم الدفاع عن أنفسهم وحقوقهم.

وإن الشكر على نعمة العلم إذ يكرم الله به عباده، يتمثل في نشره وبثّه في الناس، بالسبل الممكنة. ولاريب في أن ثمرة هذا الشكر إنما هي الخير الكبير العائد إلى من تؤدّي فيهم هذه الضريبة.

وهكذا سائر النعم الأخرى، شكر الله عليها ليس إلا أداءً لضريبته المتمثلة في تحقيق مصالح ومنافع لعباد الله، ولكن بشرط واحد: أن يتوافر الإخلاص له عز وجل إذ يؤدي صاحب النعمة هذه الضريبة، فلو قصد بها شيئاً آخر، كمصلحة شخصية تعود إلى ذاته وكمركز اجتماعي يناله من وراء شكره، وكحظوة ينالها، أو رواج تجارة يحلم به، فهو لا يدخل في معنى الشكر الذي عرفت معناه، ومن ثم فهو لا يعود إلى المجتمع بأي مصلحة أو خير، بل هو في الحقيقة استغلال دنيء له.

إذن فشكرك لله عز وجل، واجب تؤديه في الحقيقة لربك، ولكن ثمرته خير يعود إلى شخصك وإلى مجتمعك.. وما أروع وألطف أن

يدعوك الله إلى عمل أو تصرف يخيّل إليك أنه هو المستفيد منه، ثم يكشف لك عن الحقيقة التي تريك بأنك أنت وإخوانك أصحاب الاستفادة من هذا العمل الذي أمرك به.

إنه مثل قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥/٢] إن دعوة الله لك إلى أن تقرضه، تبث في روعك افتراض أن الله بحاجة إلى أن يقترض منك، وأنت باستجابتك لعرضه وسؤاله هذا، تقضي له حاجته وترفع عنه عوزه.. ولكن المفروض أن تذوب خجلاً من الله إن تأملت ودققت في معنى الكلام بهذا العرض اللطيف الأخاذ.

المال مال الله، دسه في جيبك وأكثر منه في صندوقك، ثم ذكرك بحق هذا المال في عنقك، بهذا الأسلوب المحبب العجيب، وضع ذاته العلية منك موضع المقرض، ووضعك (وأنت المملوك بكل ما معك له) موضع المقرض، وأغراك إذ طلب منك هذا القرض بأن يعيده إليك أضعافاً.. كل ذلك في سبيل أن يذهب هذا القرض إلى أخيك المحتاج!!..

وهكذا فإن الشكر في مظهره الذي تستحق به الثواب لله، وثمراته التي من أجلها أمرك الله بالشكر عائدة إلى عباد الله.

وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢/٣١]، والقائل على لسان سيدنا سليمان ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠/٢٧].

الحكمة الثالثة والستون

((خف من وجود إحسانه إليك، ودوام
إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً
لك، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون))

لما نبه ابن عطاء الله في الحكمة السابقة إلى السنة التي يأخذ بها عباده، والتي تتلخص في أن الحصن الذي يحفظ النعمة ويبقيها في كنف صاحبها، هو شكر الله عليها، وأن الإعراض عن شكره عز وجل هو السبب الأول لزوالها، استدرك في هذه الحكمة الثانية منبهاً إلى سنة أخرى يعامل الله بها طائفة من عباده، ألا وهي الاستدراج، وقد عرفت معنى الاستدراج في شرح الحكمة السابقة.

فهذه الحكمة التي يتم بها ابن عطاء الله المعنى الذي ساقه في كلامه السابق، تقع موقع الجواب عن سؤال من يقول: فما أنا معرض عن الشكر الذي تتحدث عنه وتأمّر به، والنعم التي أتمتع بها موفورة وكثيرة، وهاهي ذي في رسوخ وتزايد.

إن الجواب هو: أن هذا الواقع الذي تصفه من استمرار إحسان الله إليك مع استمرار إساءتك إليه، ليس إلا مظهرًا لسنة أخرى من سنن

الله في عباده، ألا وهي سنة الاستدراج، التي رسّخها بيان الله تعالى في مثل قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤/٦٨-٤٥].

وقد علمت مما ذكرته لك في شرح الحكمة السابقة، أن الاستدراج مظهر لسخط الله، وأنه يحيق بالمستهترين بحقوق الله ونعمه استكباراً، وقلما يحيق بالمقصرين في حقوق النعم لضعف أو لجموح سلطان الغرائز والأهواء.

إذن فهذه الحكمة ليست إلا ذليلاً وتمة للحكمة التي قبلها.

إذا علمت هذا، فلنتساءل: ما هو الأدب الذي يجب أن يتحلى به المسلم تجاه إكرام الله له بمزيد من النعم، مع استمرارها في سائر التقلبات والأحوال؟

إن الأدب الذي يجب أن يتحلى به هو الخوف من أن يكون هذا الإكرام الوافد إليه من الله تعالى، من نوع الاستدراج. ولسوف يدفعه إلى هذا الخوف رجوعه إلى نفسه وشعوره بتقصيره في جنب الله، ويقينه بأن حجم النعم الإلهية التي تفد إليه أكبر بكثير من حجم شكره لله عز وجل.

ومن النتائج الإيجابية لهذا الخوف أنه يدفع صاحبه إلى تدارك نقصه، وإلى مضاعفة شكره لله، تخلصاً من عقابيل خوفه.

فإن قلت: ولكنني إذ أعود إلى نفسي لمراقبة حالي، أجدني مؤدياً لحقوق الله، شاكراً لنعمه، فمن أين ينبعث الخوف لديّ، في هذه

الحال؟ أقول: إن من أخطر مظاهر التقصير في أداء حقوق الله وشكره على نعمه، أن ترى نفسك مؤدياً كامل حقوقه، غير مقصر في شيء من واجباته وأحكامه.

وقد علمت مما ذكرته لك في أكثر من مناسبة، أن العبد كلما ازداد معرفة بربه، ازداد علماً بتقصيره وبالبعد عن أداء حقوقه. إذن فمن رأى أنه غير مقصر في حق الله وأن نعمه التي يتلقاها منه إنما تأتيه بجدارة، فهو من أكثر الناس تقصيراً وبعداً عن الله عز وجل. وعليه، إن رأى أنّ نعم الله تتكاثر من حوله ولا تنفك عنه، أن يتوجّس خيفة من أن الله يزيده منها استدراجاً، لا إكراماً.

وحصيلة هذا الكلام أن المؤمن من شأنه أن يكون في كل الأحوال على حذر من أن النعم التي تفد إليه من الله تعالى إنما هي نذير عقاب ودلائل استدراج.

من منا بلغ الرتبة التي بلغها عمر رضي الله عنه، قرباً من الله وأداء لحقوقه؟ ومع ذلك، فقد كان إذا جاءته الغنائم على أعقاب الفتوحات، أطبق عليه الكرب واستبدّ به الخوف من أن يكون هذا الذي اختصه الله به ابتلاء واستدراجاً.

روى ابن كثير في البداية والنهاية وابن سعد في الطبقات أنه لما سيقّت إلى عمر غنائم الفرس بعد فتح القادسية، جعل يبكي قائلاً: «كلا والذي نفسي بيده، ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر، إرادة الشرّ لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له».

وإذا كان المسلم في مستوى هؤلاء الربانيين من أمثال عمر رضي الله عنه، فهو يعيش دائماً من التعامل مع نعم الله على حذر، إذ هو لا يرى من حاله إلا ما يدلُّه على تقصيره وسوء حاله، ومن ثم فهو لا يجد من مبررات توارد النعم إليه إلا الابتلاء والاستدراج.

ولكن العامة الذين هم من أمثالنا، بوسعهم أن يتخذوا لأنفسهم مقياساً يميز لهم النعم التي تفد إليهم من باب الإكرام الإلهي، عن النعم التي تقبل إليهم من باب الابتلاء والاستدراج.

هذا المقياس يتمثل في عقيدة وسلوك.. فمن كان يتلقى النعم عند إقبالها إليه، على أنها وافدة إليه من الله، لأخطر في باله الوسائط والأسباب ولا يقيم لها وزناً ولا يرى لها أهمية، وكان تعامله معها خاضعاً لشرعة الله وأحكامه، يجندها لأسباب القرب منه، ويعدّها عن مجال سخطه، فإن بوسعه أن يعلم أن النعم التي تأتيه من الله تعالى إنما هي برید إحسان ودليل إكرام.

أما الذي يتلقى النعم عند إقبالها إليه، على أنها ثمرة لجهوده ونتائج للوسائط والأسباب الماثلة أمامه، ناسياً خالق الأسباب والمسببات، ثم يتعامل معها طبقاً لما توحى إليه أهواؤه ورغائبه، ذاهلاً عن المحسن الذي تفضل بهذه النعم عليه، ناسياً أوامره ووصاياه، مقتحماً الحدود التي حذره من اجتيازها، فإن بوسعه أن يعلم أن استمرار تلك النعم في حياته، مع بقائه على تلك الحال، ليس إلا استدراجاً من الله له، ليوغل في الطريق الذي انحطّ فيه، فيستحق بذلك مزيداً من النكال والعقاب.

واعلم أن هذا المقياس كما ينطبق على حال الأفراد، ينطبق على حال الدول والمجتمعات. وبوسعك أن تعلم إذن أن ما تتمتع به دول البغي والاستكبار اليوم من النعم الكثيرة المتنوعة المقبلة، إنما هو مظهر استدراج وتطبيق لقرار الله القائل: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام: ٤٤/٦]، والقائل: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣/١٥]، والقائل: ﴿لَا يَغْرَنَّكَ الْقَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦/٣].

كما ينبغي أن تعلم أن الاستدراج الذي يتلى به الله الدول والمجتمعات التي تستمرى العتو والطغيان، ليس مرحلة مستمرة من الأمن والطمأنينة في ظلال النعم والمتع المتزايدة، بل هو نذير إهلاك وزوال. ولكن نذير الإهلاك للدول يختلف عن نذير الإهلاك للأشخاص، من حيث وسطي الأعمار الذي تتمتع به الدول والذي يتمتع به الأشخاص في العادة.

فلا تنتظرن هلاك دولة ما، إن رأيت نذير مرض مهلك استشرى في حياتها، خلال سنة أو بضع سنوات، كما تنتظر ذلك بالنسبة لشخص يعاني من مرض مهلك تسرب إلى جسده، فإن أعمار الدول تقاس بالعقود، في حين أن أعمار الأشخاص تقاس بالأيام أو بالسنوات.

هذا شيء.. وشيء آخر، من المهم أن نلاحظه، وهو أن سنة الله عز وجل جرت على إهلاك دول البغي والطغيان، عندما تصل إلى أوج قوتها وغناها. ألا ترى إلى قارون.. لما ركن إلى الاستكبار والطغيان

بالأموال والقدرات التي متعه الله بها، استدرجه الله إلى المزيد من ذلك، ومدّله من الزمن ما مكّنه من بلوغ أعلى اهتماماته وطموحاته، حتى ظن الجاهلون أنه التمكين والاستقرار بفعل السلطان الذي أوتيته، والقدرات التي يتمتع بها، فتمنوا لو أنهم أوتوا مثل ما أوتي، وقال قائلهم: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٢٨/٢٩] ولكن ما إن وصل من بغيه وقدراته وغناه إلى الأوج، حتى أهلكه الله، وأباد معه حصيلة علمه وغناه وقواه في لحظة واحدة، وصدق الله القائل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٢٨/٨١].

ألا ترى إلى فرعون... لما ركب رأسه في البغي والطغيان، وأصرّ إصراره على عدم الالتفات إلى نصيح الناصحين، وعلى الاستخفاف بالندى التي سيقى إليه، تركه الله لشأنه، وأمكنه من الوصول إلى المزيد من مظاهر العتوّ والتمكين، حتى إذا لم يشك أن الدنيا في قبضته وأن القضاء ليس إلا قضاءه، أغرقه في اليم، ودمّر ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧/٧].

بل انظر إلى الإمبراطورية الرومانية، تركها الله تعالى تزداد تسليقاً إلى الأوج، أوج القوة والغنى والعلم والدراية، على الرغم من الفساد الذي انتشر فيها أشكالاً وألواناً، ثم إن الله لم يقض عليها إلا وهي تتربع فوق أعلى قمم الحضارة.

والحكمة من هذه السنة الإلهية أن هلاك الضعيف لا يلفت نظراً ولا يثير اهتماماً، ولا يبعث على أخذ أي عبرة، ولكن الذي يلفت النظر ويثير الاهتمام ويبعث على اليقظة وأخذ العبرة، هلاك القوي عندما يكون في أوج قوته.

وبوسعك أن تستبين هذه الحكمة من قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤/٦]. انظر كيف جعل توقيت هلاكهم وصولهم إلى أوج قوتهم الحضارية، المعبر عنه بقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾.

ولعل المثل الشعبي القائل: «لا يسقط أحد من فوق الحصير» قد صيغ من وحي هذه السنة الربانية التي يعنو لها جبين التاريخ. أجل.. لا يسقط أحد من فوق الحصير، وإنما يسقط من فوق العرش أو السرير!..

* * *

غير أن السؤال الذي يتطارحه كثير من الناس اليوم، يدور بحثاً عن الحكمة في تسلط دول البغي والعتو على المسلمين وتحكمهم بهم وتمكنهم منهم!.. ولعل أحدهم يقول: فإن كانت سنة الله تقضي بأن تستدرج هذه الدول إلى مزيد من التمتع بالنعمة والمبتغيات، ريثما يحين ميعاد هلاكهم، أيستلزم ذلك أن يعلو سلطانهم على المسلمين، وأن يتحكموا بهم ويستمرئوا خيراتهم ويستلبوا حقوقهم؟

والجواب: أن المسلمين اليوم ليسوا هم المسلمين الذين وعدهم الله في كتابه بالنصر والذين قال عنهم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥٠/٥١]، ليسوا هم المسلمين الذين خاطبهم الله قائلاً: ﴿لَنُهْلِكَ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ

مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤] ليسوا هم الذين أكد لهم وعدهم هذا بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥/٢٤].

إن المسلمين اليوم نموذج آخر عجيب!..

إنهم يصبغون أنفسهم من الإسلام ببعض ألفاظه وشعاراته، ضمن شروط معينة يملونها!.. يتبرمون بكل قيمه ونظمه وحدوده، لمجرد أنه قديم لم يولد البارحة في جملة هذا الذي استولدتته حضارة الغرب، ويتعشقون بدلاً عنه جميع ما يجدّ عند هؤلاء الأعداء الذين يتساءلون عن سبب تفوقهم، لمجرد أنه داخل تحت اسم «الحداثة» التي لمستها يد الغرب وبركته!.. قد شاعت فيما بينهم صنوف كثيرة من المنكرات حتى غدت هي المعروف المحبب إليهم، واختفى من بينهم ما يقابلها من المعروف، حتى أصبح هو المنكر المستهجن عندهم!..

فأي حق لهؤلاء على الله أن يطالبوه بالنصر، وأن يمنوا عليه بإسلام لم يمسكوا منه إلا بالقشور والعناوين والانتماء التاريخي المعبر عن التباهي بدلاً عن الالتزام؟!.. هذا بالإضافة إلى الأنشطة الكبيرة التي يتجه بها كثير منهم إلى الكيد لمبادئه وعقائده وأحكامه؟!..

ثم اعلم أن سنة الله اقتضت أن تظلّ هذه الدنيا تسير بأهلها في تطورها العمراني والمعاشي، حتى يأتي وعد الله وتحين الساعة المحددة لزوالها وانحاقها، وإنما شأن المؤمنين بالله القائمين على حدوده والمؤمنين على مبادئه وأحكامه، مع الأمم الجاحدة بالله المستكبرة على مبادئه وأحكامه، بالنسبة لقيادة الدنيا ومهمة تعمير الكون وإدارته، مثل كفتي ميزان، إن رجحت إحداهما لا بدّ أن تطيش الأخرى.

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به، أوفياء معه في تنفيذ منهاجه وشرعه، جعل الله قيادة الحياة وعمارته آيلة إليهم، وأخرج لهم أسباب العزة والمنعة والنصر من حيث لا يحتسبون، وجعل رتبة الآخرين من ورائهم وتحت سلطانهم.

وإذا انقلب المؤمنون فضيعوا شرائع الله وأحكامه، واستهانوا بأنظمتهم وحدوده، ولم تخلص أفئدتهم لدعوى ألسنتهم، وفاض فيهم المنكر حتى لم يبق فيهم من يقف في وجهه، وغاب من بينهم المعروف حتى غدا غريباً يُتقزز منه أو يستخف به، جعل الله قيادة الحياة وعمارته إلى الأمم الأخرى وإن كانت جاحدة كافرة، وسلطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال!..

وهكذا، فإن الدنيا لا يمكن أن تقف عن حركتها وتطورها، من أجل عيون الذين أبوا إلا أن ينكصوا على أعقابهم ويتخلوا عن شرف مسؤولياتهم... بل لا بد أن تظل مستمرة في نموها وحركتها العمرانية كما اقتضت سنة الله، ولكن قيادتها تتحول من أيدي أولئك الذين ضيعوا الأمانة وخانوا العهد، إلى أيدي الآخرين أياً كانوا..

تأمل هذا القرار الإلهي، كيف يبدو جلياً في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩/٦] وفي قوله عز وجل وهو يخاطب بني إسرائيل، ويذكرهم بواقع هذا القرار التاريخي في حقهم: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥/١٧]، وقد علمنا أن العباد الذين سلطهم الله عليهم، أي على

بني إسرائيل، هم يختصر وقومه، وقد كانوا شراً من بني إسرائيل، ولم يمنع ذلك من أن يسلبهم الله بالإذلال والتعذيب عليهم، لأنهم ضيعوا الأمانة وخانوا العهد، وبدلوا نعمة الله التي أغدقها عليهم نسياناً وكفراً.

ثم تأمله ثانية، كم يبدو جليلاً في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١). والذل - كما تعلم - لا يكون إلا بتسليط من يمارس فيهم القهر والإذلال.

ورحم الله الرعيل الأول من هذه الأمة، فقد درسوا سنن الله في عباده، وأدركوها، ثم تعاملو معها على النحو الذي يرضي الله تعالى ويحميهم من مغباتها. انظر إلى وصية عمر لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، عندما ودعه متجهاً إلى حرب القادسية، وهو يلفت نظره إلى هذه السنة الإلهية، ويهيب به أن يبعد جيشه عن الانحرافات والمنزلقات التي تجعله عرضة للوقوع تحت قبضة الظالمين، بمقتضى هذه السنة الربانية، قال له فيما قال: «ياسعد بن أم سعد، لا يغرّنك أن يقال عنك خال رسول الله، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن.. أمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً منكم، من عدوكم. فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر

(١) رواه أبو داود من حديث عبد الله بن عمر، ورواه الإمام أحمد من حديث عبد الله ابن عمر أيضاً بألفاظ قريبة.

المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم. لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لأنصّر عليهم بفضلنا، لن نغلبهم بقوتنا.. ولاتقولوا إن عدونا شر منا، فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل بختنصر، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً..».

ولقد عاش مؤسس الدولة العثمانية الغازي عثمان بن أرطغرل في خضم تجارب هذه الحقيقة، ورأى بعينه كيف تتحكم هذه السنة الربانية بمجرى التاريخ وصراع الأمم فيما بينها، حتى إذا حانت وفاته، أقبل إلى أكبر أبنائه يعتمر له من تجاربه مع هذه الحقيقة وصية رائعة نادرة، جاء فيها قوله:

«خذ مني هذه العبرة، لقد حضرت إلى هذه البلاد وأنا كمنلة في الضعف، فأعطاني الله هذه النعم الجليلة!.. فالزم مسلكي واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي وتوقير أهله فذلك هو واجب الملوك في الأرض»^(١).

على أن علينا أن نعلم أن هذا الواقع الذي كان، ولا يزال، نتيجة لسنة إلهية ماضية في عبادته، لا يسمى انتصاراً أو تفوقاً للكافرين على المسلمين، وإنما هو في الحقيقة تسليط أو «تولية» على حد تعبير البيان القرآني، وفرق كبير بين الانتصار والتسليط.

(١) انظر تمة هذه الوصية في كتاب: أبي الفتح السلطاني محمد الثاني، تأليف علي همّت تعريب محمد إحسان عبد العزيز.

ولست أقول هذا الكلام تسليية أو أنشودة تسليية لإرضاء المسلمين بواقعهم، عن طريق التهوين من شأن أعدائهم، بل هو على العكس من ذلك: تحليل للواقع الحقيقي الذي يعيش فيه المسلمون، وعرض دقيق للمشكلة وحلولها التي لا بديل عنها. وسواء أفهمنا أن سيطرة العالم الغربي عليهم سمو وانتصار، أو تسليط واستدراج، فإن مما لاشك فيه أنهم متسلطون على المسلمين بالقهر والإذلال، وأن المسلمين يتقبلون أذلاء تحت سلطانهم أو داخل نفوذهم أو ضمن حكم التبعية المطلقة لشتى مناهجهم وسلوكاتهم.. ومما لاشك فيه أن ذلك ليس قضاء نازلاً بهم بدون تسبب منهم ولا اختيار، بل هو من ثمرات كسبهم وما جنته أيديهم، فقد بدلوا نعم الله التي أسداها إليهم كفرأ إذ أعرضوا عن شكرها ومعرفة حق المنعم عليهم بها، لاسيما نعمة الإسلام الذي ارتضاه الله لهم وجعل لهم منه عرشاً لم يرتق إلى شأوه من الناس الآخرين أحد.. فتبرموا به مبدأً ونظاماً وحكماً، ثم استخفوا به وأعرضوا عنه رفعةً وعرشاً!..

وسبيل الانفلات من هذا الذل والتسليط، واضح معلوم لمن أراد، حقاً، الانفلات منه، والتوجه إلى طريق العزة والنصر..

ألا، وإن أي انصراف إلى اصطناع سبل أخرى للتحرر من هذا النير، ليس إلاّ تعلقاً بأمنيات خادعة، لاتكاد تشبع أخيلة الصغار من الأطفال.

ولعل عزاءنا أننا لم نبلغ، بحمد الله، من السوء مرحلة الاستدراج ببقاء النعم والإكثار منها، مقدمة بين يدي الإهلاك، بل يبدو أننا

لانزال نراوح في مرحلة الأمل واليقظة والاصطلاح مع الله والعود
بصدق إلى رحابه، ودليل ذلك أن نعمنا الكبرى التي كنا نتمتع بها قد
غابت وحجبت عنا، وأن أجراس الخطر تدق على مسامعنا.

فاللهم اجعل ذلك نعمة باطنة تعيدنا إليك، وتسوقنا إلى توبة صادقة
بين يديك، ثم إلى عود راشد لينايع هديك وجميل تعاليمك.

* * *

الحكمة الرابعة والستون

((من جهل المرید أن یسیء الأدب، فتؤخر العقوبة عنه،
فیقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد،
وأوجب الإبعاد، فقد یقطع المدد عنه من حیث لا یشعر،
ولو لم یکن إلا منع المزید، وقد یقام مقام البعد وهو
لا یدری ولو لم یکن إلا أن یخلیک وما ترید))

المرید، فیما اصطلح علیه علماء السلوك، ذاك الذي یتلمس سبباً
إلى تزكية نفسه وتطهيرها من الشوائب والآفات، مسترشداً في ذلك
بتوجيه عالم رباني صفت نفسه وصلحت حاله، وشهد له الصالحون
بالاستقامة والتقوى.

غير أن كلمة ((المرید)) في هذه الحكمة ینبغي أن تُفهم بمعنى أكثر
اتساعاً وشمولاً، إذ هي تشمل، فیما یقصد إليه ابن عطاء الله كل من
أراد التقرب إلى الله بإصلاح حاله والاستقامة على صراطه.

فما المعنى الذي یقصد إليه ابن عطاء الله بهذا الكلام؟

إنه یقول: قد یدر من السالك عمل مخلّ بالدين مناف لأحكام
الشرع، أو مخالف لأدابه، فتمر أسایع وشهور، دون أن یعرض له من

السوء أو المنغصات ما قد يكون عقاباً وتأديباً له على ما قد بدر منه. فيخيل إليه أن ما قد ظنه معصية أو زلةً بدرت منه، ليس كذلك، إذ لو كانت كما قد توهم، لظهرت نتائجها تأديباً عاجلاً من الله عز وجل، ولتبدى ذلك في انقطاع بعض روافد النعم عنه، أو في حجاب من القسوة يجلل قلبه مما يدل على بعده عن الله.

والحقيقة التي يذهل عنها هذا المرید، هي أن هذا الوهم الذي يطوف به، ليس إلا أثراً من آثار القسوة التي ابتلي بها قلبه دون أن يشعر.

لولا سحب القسوة التي امتدت فغشت على قلبه، لما وجد هذا الوهم إليه من سبيل، ولتسربت إليه مشاعر الاضطراب والوجل من المعصية أو الزلة التي وقع فيها، ولرأى نفسه كمن ضُبط بجرم، فهو ينتظر صدور العقاب الصارم في حقه. ومهما تأخر صدوره فلن ينفك عن القلق والاضطراب، حتى يتلقى بشارة بالعفو، ممن بيده العفو والعقاب.

إن شأن المرید الذي أحلّ الأدب مع الله، أن ينبعث في قلبه من الخوف والخجل من الله، بمقدار مافيه من الخشية والرقّة والحضور، أي رقابة الله عز وجل. فإن لم يشعر بشيء من الخوف والخجل من الله تعالى بسبب السوء الذي بدر منه، فذلك لأن قلبه لم يعد فيه من الخشوع والرقّة والحضور ما يبعث فيه شيئاً من الخوف والقلق، ومن ثم يسري إليه هذا الوهم، ويطمئن إلى أنه لم يرتكب من السوء ما يستدعي الخوف والاضطراب.

وهذا يعني أن الاستخفاف بالمعاصي مهما دقت أو صغرت، ليس إلا أثراً من آثار قسوة القلب، وحسبك من العقاب العاجل الذي قد يرسله الله إلى العاصي أن يتليه بغفلة القلب بعد حضوره وبقسوته بعد سريان الخشية فيه.. وهو عقاب خفي يتيه عنه كثير من الناس، على الرغم من أهميته وخطورته، لأنه ليس عقاباً مادياً ينزل بالجسد أو الأيمن أو المال..

إن الذي يجاهد في تزكية نفسه وتطهيرها من الشوائب والأوضار، ينبغي أن يتوقع ضربات التأديب من الله في حقه، كلما شعر بإساءة أو بتقصير في حقه عز وجل بدر منه. وعليه أن يعلم أن ضربات التأديب هذه ليست بالضرورة مادية دائماً، ولا سريعة طبق ما قد يتوقع، ربما تمثلت بافتقاده حلاوة الطاعة والعبادة، وإنها لمصيبة كبرى، وربما تمثلت في انقطاعه عن متابعة سلوكه إلى الله.. وربما تمثلت في تسليط محبة الدنيا على قلبه... وربما ادّخرها الله له عقاباً يناله يوم القيامة.

فالذاكر والمراقب لله عز وجل، يستحضر هذه الاحتمالات كلها في قلبه، وعندئذ يظل من معاقبة الله له في الدنيا أو في الآخرة، على وجل. ولعل هذا واحد من المعاني التي يتضمنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢/٨].

لعلك تقول: فهب أن الذاكر طائع مستقيم على أوامر الله، فيم يوجه ذكر الله، إذن، في الوجل؟

والجواب: أنه ليس في الناس بعد الرسل والأنبياء، معصوم عن ارتكاب السيئات، كل بني آدم خطّاء، كما قال رسول الله ﷺ.

والمخطئ، فضلاً عن الخطأ، إذا ذكر الله عز وجل، بالمعنى الحقيقي للذكر، لا بد أن يزجه ذكر الله في الوجل، إذ يذكره ذكر الله تعالى بالمعاصي التي ارتكبتها والواجبات التي أهملها أو لم يؤدها على وجهها.

وتلك هي الحكمة من الله تعالى قضى بأن يكون الإنسان، مهما سمت مرتبته بين الصالحين من عباد الله، معرضاً لأنواع المعاصي والآثام.. الحكمة أن يظل المسلم على وجل، وأن يعلم أنه معرض لعقاب الله عز وجل، إن على سبيل التأديب في الدنيا أو على سبيل الجزاء في الآخرة، وبذلك تتحقق عبودية الممارسة والسلوك لله عز وجل، في حياة الإنسان.

فأما الذي يستدل من استمرار النعم في إقبالها عليه، على أنه مطيع لله مستقيم على أوامره، مترفع عن سائر المعاصي والمنكرات، فذلك هو الذي إذا غاب عنه بعض النعم، وابتلي في مكانها ببعض النقم، اهتمت لديه مشاعر الاستنكار واستبدت به الضجر، ونال منه اليأس. لأنه وقد سبق أن شهد لنفسه بالاستقامة على أوامر الله والابتعاد عن معاصيه، لا بد أن يستنكر هذا الذي أصابه، وأن يرى نفسه فوق هذه الابتلاءات التي أرسلها الله إليه.. وعن هذا الفريق من الناس يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣/١٧] أي هو في حالة الرخاء والنعمة مزهو بنفسه مطمئن إلى حسن حاله، فأنى له الوجل والخوف، وهو في حالة الشدة ونزول المصيبة معترض على الله في حكمه، ويأس من نيله لما

يستحقه من رفاهية ونعيم وخير. وهذا المعنى ذاته يتجلى في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١/٤١].

وانظر كيف يؤكد الله هذه الحقيقة التي تتجلى في حال كثير من الناس، في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ، وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيََقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩/١١-١٠].

والمخرج من هذه الحال التي يصف الله بها هذه الطائفة من عباده، أن تسوقنا النعم إلى الشكر، وتسوقنا المصائب إلى اليقظة والصبر.

ومن ألزم نفسه بشكر الله على نعمه، فهيهات أن يتخذ منها دليلاً على أن معاصيه مغفورة وأن سلوكه سليم، ومن ألزم نفسه بالتوبة إلى الله عند المصائب ثم الصبر عليها، فهيهات أن تبعثه على أي لون من ألوان التمرد أو الاعتراض على الله أو الخروج عن دائرة الرضا بحكمه.

* * *

ومرة أخرى أقول لك: إن هذا الذي ينطبق على حال الأفراد، هو ذاته ينطبق دائماً على حال المجتمعات، فقد ينعم مجتمع ما بالرخاء والأمن والنعيم، وهو شارد عن أوامر الله متهاون في أحكامه وحدوده، فيغريه الرخاء بالمزيد من الشرود، مطمئناً إلى الوهم الذي حذر منه ابن عطاء الله وهو أنه لو لم يكن مجتمعاً مرضياً عند الله تعالى، لما اتسعت أمامه ساحة النعم ولما امتدّت فوقه مظلة الأمن والرخاء.. ومثل هذا

المجتمع إن ابتلي بالمصائب والشدائد لا بدّ أن يحمله وقّعها على التآفف والاعتراض على قضاء الله وحكمه، بدلاً من أن تسوقه إلى الرشد والصلاح.

ومآل مجتمع هذه حاله (إن كان في أصله مجتمعاً إسلامياً) أن يرميه الله بالذل بعد المنعة والعز، وإن يسلط عليه أمماً كانت من قبل تخافه وتهابه وكانت هي الذليلة تحت حكمه وسلطانه.

وإنه لَداءٌ لا دواء له، أن يؤول حال مجتمع، ما يزال ينتمي إلى الإسلام، إلى فساد لا يصلحه الإكرام والنعيم، ولا تقطع دابره المصائب والنقم، النعم تبطره، والمصائب تبعثه على الاعتراض والاحتجاج!..

وهذا الوصف ينطبق على أكثر مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، ولعله ينطبق على كلها!.. وهو السبب فيما قد حاق بها من الذل والهوان، والتفرق والتدابير:

نذكرها بضرورة الصدق مع الله في دعوى الإسلام والانتماء إليه، وذلك بالعمل على تنشئة الجيل في ظلال القيم والأخلاق الإسلامية، فنتهم بالجمود والتفوق في حجيرات القرون الماضية.. ثم يزداد الإصرار على الاستهانة بأصول التربية الإسلامية ومقومات الفضيلة والأخلاق الإنسانية النبيلة!..

نذكرها بضرورة التوجّه، ولو تدريجياً، إلى تطبيق أحكام الله عز وجل فيما قد ألزم به عباده، كي يتبين صدق انتمائنا إلى الإسلام، فنتهم بالتطرف والوقوف في وجه الحداثة، واستشارة أسباب الفتن والشقاق!..

وتشيع الفواحش الفكرية والسلوكية، خارجة عن حدود حرية الفكر والسلوك، إلى البذاءات الكلامية والاستهتارات السلوكية بالأنظمة والقيم، فنذكر بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحاول أن نهض بهذا الذي أمر الله به وحذر من إهماله، فتلجّم أفواه المذكورين بهذا الواجب الرباني، بحجة أن الحرية الفكرية والسلوكية ما ينبغي أن يمسّ حماتها بأي سوء، ولو من قبل شرع الله وحكمه.

فإن جاء من يقول: ولكن الفحش الكلامي لا علاقة له بحرية الفكر، لأن الفكر الذي يجب التعامل معه بحرية، هو ما ينزل من العقل إلى اللسان، لا الذي يتعالى من الأسافل إلى اللسان، وُجّهت إليه تهمة الانتماء إلى «الظلاميين» وأصرت السفالة إصرارها على أن الانتصار لشرع الله وأمره والغيرة على قرآنه ووحيه، جمود في أقبية الظلام، وعلى أن تناول القرآن بأحط كلمات الفحش والسباب، تألق فكري حضاري، وتسام إلى صعيد العقلانية المضئية^(١).

فهل يبقى من عجب بعد ذلك، إن سلط الله على هذه المجتمعات، من يسومها الذل والهوان؟..

قيل لي إن موجة من الهياج والغضب تسري في العالم العربي، لأن اليهود كتبوا على بعض الجدران المحيطة بالمسجد الأقصى كلمة فحش قدرة في حق رسول الله ﷺ، بخط كبير يلفت الأنظار.

(١) نعت حيدر حيدر في رواية له القرآن بأنه ((براز)) وعبر بالكلمة السوقية التي يأنف من استعمالها الرعاع، فانتصر له وزير الثقافة في دولة عربية كبيرة أيما انتصار وكافأه على جرأته (الأدبية) هذه بأن طبع منه آلاف النسخ وأمر بتوزيعها على أوسع نطاق.

قلت لهم: يا عجباً لمن لا يسمع الصوت المدوي الذي يصك أذنيه، ثم يستيقظ على الصدى!.. أن ذلك الفحش الذي خطته يد ذلك اليهودي هناك، صدى للفحش الذي تنبثق قذارته من أفواه المستخفين بالإسلام والمتبرمين به هنا.. ومن كان صادقاً في غضبه من رجوع الصدى، فليرنا غضبه من مصدره المجلجل بين ظهرانينا!..

وقلت: لأن صدقوا في دعوى أن البذاءات الكلامية مشمولة بجرية الفكر، فما ينبغي أن يمسّ جانبها بسوء، فإن البذاءة التي خطتها يد ذلك اليهودي مشمولة بالحرية ذاتها، ولئن احتاج الشارع العربي المسلم غضباً لذلك، فلاشك أن ذلك اليهودي وأمثاله سيجدون في (النورانيين) ودعاة الحداثة أفضل محامٍ يبرر عمله ويدافع عنه أمام غضبة جماهير المسلمين.

* * *

قلت إن ما يسري من معاني هذه الحكمة على الأفراد، يسري على المجتمعات والأنظمة أيضاً.. وأقول إذن، إن ظلت مجتمعاتنا العربية عاكفة على سوء الأدب في حق الإسلام ومبادئه وأحكامه، مكتفية منه بدعوى الانتماء إليه، فلسوف ينتهي أمد تأخير العقوبة، وسوف ينتهي مرحلة قرع أجراس الخطر، ليقبل من وراء ذلك الخطر ذاته، مقتحماً هذه المجتمعات بكل ضراوة وعنف.. ولست في هذا متنبئاً، ولكنني أعلم وأخطر، وأسأل الله بنا اللطف في كل التقلبات والأحوال.

* * *

الحكمة الخامسة والستون

«إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الإمداد، فلاتستحقرن ما منحه مولاك، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين. فلولا ورد ما كان وارد»

الورد هو الحصة المحددة التي يواظب عليها المسلم من الطاعات والعبادات غير المفروضة، ويلزم نفسه بها، كقدر معين من القرآن يقرؤه كل يوم، وكعدد من التسبيح أو الاستغفار أو الصلاة على رسول الله أو غير ذلك من الأذكار، يلزم به نفسه في ميقات معين من كل يوم..

فالفرائض لاتدخل في المعنى المراد بكلمة «الأوراد» كذلك المندوبات التي لا يواظب المسلم عليها.

والمعنى الذي ينبه إليه ابن عطاء الله رحمه الله، من خلال كلامه هذا، أثر الورد إذ يواظب عليه المسلم في طيّ الطريق الذي يوصله إلى الله وتذويب بعده، وتوارد المنح الإلهية إليه.

ولعلك تسأل: ما المستند الذي يُعتمد عليه من كتاب الله أو سنة رسوله، لهذا الورد الذي يلزم به المسلم نفسه؟ وما هو مصدر هذه الكلمة: ((الورد)) في الشرع؟

والجواب: أن في الخطاب الإلهي الموجه إلى رسول الله في القرآن دليلاً على ذلك، وفي عمل رسول الله وقوله تأكيد لما دلّ عليه القرآن من ذلك، ألم يقل الله لرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [الزمل: ١٧٣-٤] وقد علمنا أن الأمر الموجه إلى رسول الله موجه إلى سائر المسلمين أيضاً، إلا أنه موجه إلى رسول الله في هذه العبادة على سبيل الوجوب، وإلى المسلمين على سبيل الندب.

ألم يقل الله لرسوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩٠-٥٠] وهو أمر صريح، كما ترى بالمواطبة على أذكار مخصوصة في أوقات مخصوصة، وهو موجه إلى أمة المصطفى كما هو موجه إليه، على سبيل الندب والاستحباب المؤكد.

ألم يقل الله تعالى في وصف النخبة الصالحة من عباده: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فأتنى عليهم بما كانوا يواظبون عليه من ورد التهجد والاستغفار بالأسحار.

ألم يقل رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم: ((أيعجز أحدكم أن يكسب في اليوم ألف حسنة؟)) قال قائل: ((كيف يكسب في اليوم ألف حسنة؟)) فقال: ((يسبح الله في اليوم مئة تسبيحة)).

ومن ثم فقد كان جل الصحابة مواظبين على أورد من تلاوة القرآن، والأذكار المتنوعة، في أوقات محددة، وقد كان من عادة عمر رضي الله عنه إن شُغِل عن ورده الذي ألزم به نفسه، لأمر ما من شؤون الخلافة ونحوها، قضاها في وقت ما، من بعد.

أما التسمية ومصدرها، فالخطب في ذلك يسير، إذ الأمر عائد إلى التعبير الذي يُصطلح عليه، ولامشاحة في الاصطلاح، ومن لم يعجبه مصطلح «الورد» فليتجاوزهُ وليستعض عنه بالتعبير الذي يروق له. والبدعة لاشأن لها بالمصطلحات والتعابير التي لم يتبعدها الله بها في نص قرآن أو سنة.. بوسع من يستخفّ بكلمة الورد والأورد، أن يستعيض عنها ما قد يروق له من التعابير الأخرى، ككلمة: حصّة، أو حزب، أو وظيفة، أو عمل اليوم والليلة.. إلخ.

فإن رأى أنه يستخف بها كلها، فليعلم أنه يستخف بالمضمون الذي أمر به الله عز وجل وأكده رسول الله فيما قد أخبرتك به، لا بمجرد الألفاظ والتعابير. وأنا أعلم أن في الناس الذين يصنّفون أنفسهم دعاة إلى الله ومعرّفين بدينه، من لا يقيم لهذه الأورد وزناً، ولا يأخذون أنفسهم بشيء منها، بل يرون فيها ما يشغلهم عن الأنشطة الحركية الأخرى. والله المستعان أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

* * *

وإذ قد عرفت معنى الورد وأدركت أهميته، فلا تستخفن بحال من قد وفقه الله للمواظبة عليه أياً كان نوعه ومهما كان قدره، محتجاً

بأنك لاتبصر في مظهره شيئاً من سيما الصلاح، ولاتعثر في شؤونه وأوضاعه على أي من الأحوال التي يعرف بها الربانيون.

فإن هذه المظاهر لاتشكل المقياس الذي لا بدّ منه، لقرب العبد من الله وارتفاعه إلى مستوى العارفين والصدّيقين. فرب إنسان اصطفاه الله وميزه بالقرب منه، دون أن يبدو عليه شيء من السیما التي يتوخاها الناس، ودون أن تعثر في نهجه وتقلباته على أي من تلك الأحوال.

واعلم أن الدلالة الحقيقية على صلاح الإنسان وقربه من الله، إنما تكمن في مواظبته على الأوراد دون انقطاع.. وربما كانت مواظبته عليها مقيدة بأوقات خاصة، يخلو فيها إلى نفسه بعيداً عن الناس.

ومكان الدلالة في ذلك، أنه لولا واردٌ ورد إليه من النفحات الربانية، ومن فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، لما اتجه إلى ما اتجه إليه من الأذكار أو أنواع الطاعات المندوبة الأخرى، يجعل منها وظيفة دائمة يحمل نفسه على أدائها دون انقطاع ولا فتور.

كثيرون هم الذين ينشطون في التوجه إلى بعض هذه الطاعات لمناسبات أو لأسباب، ثم ما هو إلا أن يتراجع نشاطهم وتفتر رغباتهم، مع غياب تلك المناسبات، فتكون دوافعهم إليها نفسية تابعة لظروف وأحوال عابرة. ومن ثم لاتكون توجهاتهم العارضة والعبارة هذه دليلاً على شيء من الواردات الإلهية التي نتحدث عنها.

أما الذي يواظب ويلزم عليها، ويتخذ منها ورداً أو قل: وظيفة يجعل منها رفيق حياته، فلا يعقل أن يكون دافعه إلى ذلك ظرفاً عابراً،

أو نشاطاً عارضاً، وإنما يكون دافعه إلى هذا الاستمرار والثبات، الوارد الإلهي الذي يورثه الظماً إلى ذلك الورد، ومن ثم يورثه الإقبال إليه اللذة التي يراها الظمان في تناول الماء البارد العذب.

فما قيمة المظاهر التي غابت عنك في شكلها وسيماها، مما يعدّه الناس علامة صلاح أو ولاية، أمام هذا الوارد الذي سرى إلى قلبه من تجليات الله عز وجل؟

وأكثر الناس - لاسيما في هذا العصر - مأخوذون، فيما يتلمسونه من دلائل الصلاح والتقوى في أوضاع الناس، بالمظاهر والأشكال، والطقوس والتصرفات.. وليس عسيراً على من شاء أن يتجمل بها رياء ومصانعة. فيكون بذلك متشبعاً أمام الناس بما ليس فيه. وقد قال رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور»^(١).

ولكن المواظبة الدائمة على ورد من الأذكار والطاعات الأخرى، لاسيما في الخلوات والأوقات الخاصة، لايتأتى السبيل إليه عن طريق المصانعة، والتشبع في الظاهر بما ليس موجوداً في الباطن.

* * *

ثم اعلم أن مراد ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، ليس فتح السبيل إلى إساءة الظن. بمن تسربلوا بسيما العارفين وبهجة المحبين - على حدّ تعبيره - أمام أبصار الناس، وإنما مراده إغلاق السبيل أمام إساءة الظن. بمن لاتراه متسربلاً بتلك السیما ولايتبين لك فيه شيء من نفحات

(١) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود من حديث أسماء بنت أبي بكر.

المقربين وبهجة المحبين، لاسيما إن علمت أنه مواظب على أورد من القربات لا ينساها ولا يفتر عنها.

ودعوته لك إلى حسن ظنك به، لاتعني دعوته لك إلى إساءة الظن بالآخرين.

إنَّ حسن الظن بعباد الله جميعاً هو الأساس والمنطلق، فإن تيسر السبيل إلى ذلك، بأن لم تجد ما يصدِّك عن حسن الظن بهم، وجب الوقوف عند هذا الأساس والتعامل معهم على هذا النهج، وإن لم يتيسر السبيل إلى ذلك بأن وجدت من كان جليّ حالهم أو صريح قالهم من ينطق بتكبرهم عن جادة الحق، فافرض أنه الجهل زجهم إلى الشرود والانحراف، واتجه إليهم بالنهي عن المنكر والدعوة إلى الاستقامة على الحق. فإن هم استجابوا، أو كان فيهم من استجاب، كان ذلك برهاناً يعزز ما قد فرضته في حقهم. وإن لم تتحقق الاستجابة بعد البيان والمعرفة، كان ذلك دليلاً على سوء الطوية والقصد.

هكذا تكون سبيل الدعوة إلى الله.. وهكذا يكون منهج التعامل معهم واتخاذ الموقف منهم. وقديماً قال بعض الصالحين «كل من رأيت فالخضر اعتقد» أي عليك أن تجنح إلى حسن الظن بهم ما لم تجد منهم ما يملك شرعاً على سوء الظن بهم، ولن يكون ذلك إلا بعد اتباع الخطوات التي ذكرتها لك في دعوتهم والتعامل معهم.

وأكثر الناس اليوم مستعدون لظنونهم تابعون لأوهامهم، ومن ثم فهم بعيدون عن تفهم هذا الذي يقوله ابن عطاء الله.

وإذا انساق الإنسان وراء أوهامه فظنونه، فإن الذي ينسج له أوهامه
رغباته وجموحاته النفسية المتمثلة في العصبية للذات أو الجماعة، وفي
الضغائن والأحقاد، وفي مشاعر الحسد والبغضاء. وإنما يتكون سوء
الظن بالآخرين من هذا النسيج الوهمي الذي يشكل تياراً حاكماً على
صاحبه يسيّره في المنعرجات القائمة ويجبسه عند الظنون السيئة.

وليت الأمر يتوقف عند أوهام نفسية وظنون خفية، بل الغالب أن
سوء الظن يحمل صاحبه على أن يجنّد لسانه لأوهامه التي ساقته إلى
سوء الظن، فيخوض في الغيبة مخاضة تزجّه في لون من أشنع ألوان
الكبائر.

وقليلون هم الذين حماهم الله من هذه المهلكة.. فلم تستعبدهم
الأهواء التي من شأنها أن تزجهم في تيه قاتم من إساءة الظن، التي
تزجهم بدورها في بلاء من الغيبة المحرمة..

فإن تبين لك الحق من خلال هذا الذي أوضحته لك، وساقك
الخوف من الله إلى تلمس السبيل للتحرر من الأوهام التي تقود إلى
سوء الظن، ثم إلى الخوض في غمار الغيبة، فإن بوسعك أن تبين
السبيل إلى التحرر من سلسلة هذه الأخطار، في هذا الذي يقوله لك
ابن عطاء الله.

يقول: إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد.. إلخ.

وأقول: إن احتمال اطلاعك على انضباطه بالأوراد ومواظبته عليها،
نادر جداً. والغالب أنك لن تطلع على خفايا أمره وشؤونه الخاصة
به.. وفي هذه الحالة، ما الذي يدريك أنه غير مهتم بالأوراد وغير

مواظب عليها؟ إن القاعدة المنطقية تقول: عدم الوجدان للشيء لا يستلزم عدم وجوده في الواقع.

فإذا كنت لاتعلم شيئاً عن خفايا أكثر الناس، فافرض أن في هذا الذي خفي عنك من شؤونهم وأحوالهم، ما يجعلهم من أفضل الناس عند الله التزاماً وسلوكاً، واعلم أن أكثر ما يحدّد قيمة الإنسان عند ربه أوضاعه الخفية التي لا يطلع عليها إلا الله عز وجل. إذ هي تكون صافية عن شوائب التصنع للآخرين والكذب عليهم.

فلماذا تجعل ميزان تقويمهم محصوراً في أحوالهم الظاهرة لك، دون أن تقيم وزناً لهذا الجانب الخفي الذي هو الأهم والأساس؟

على أن هذا الجانب الخفي الذي هو الأساس والأهم في الاعتبار، لا يعفيك من وجوب إنكار المنكر كلما لاح لك، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً مشروعة إلى ذلك، ولكن المنكر الذي تراه والذي يستوجب منك الإنكار، لا يستدعي الوقوع في إساءة الظن في حق من تلبس به.

إن الصديق مع الله في أداء هذا الواجب، يستدعي أن تنصح صاحب المنكر وتحذره من مغبة العكوف عليه، وأن تفرض في الوقت ذاته أن سريرته التي لا يعلمها إلا الله ربما كانت خيراً من علانيته التي تطلع عليها أنت وأمثالك..

هكذا يكون شأن الربانيين من عباد الله تعالى، في نظرتهم إلى الآخرين وتعاملهم معهم.. ولا ريب أن من حاد عن هذا النهج، مستجيب لأهوائه متفاعل مع عصبياته ورعوناته وأحقاده، غير أنه

يكسو ذلك كله كسوة الوظائف الدينية والمصالح الإسلامية، ليخفي بذلك ما استكن في أغوار نفسه من الحظوظ الذاتية والأغراض الشخصية.

فاللهم طهر قلوبنا من كل وصف يباعدنا عن شهودك ومحبتك وأدم علينا عين عنايتك، وأكرمنا بمواظبة دائمة على ورد من الطاعات يضمن لنا وارداً يفد إلينا من فيض رحمتك وإكرامك.

* * *

الحكمة السادسة والستون

((قوم أقامهم الله لخدمته، وقوم اختصهم
بمحبته، كلاً نمداً هؤلاء وهؤلاء من عطاء
ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً))

المسلمون الصالحون من عباد الله، فريقان. فريق وظفهم الله بخدمته، أي بخدمة دينه. إذ إن الله لا يحتاج إلى من يخدمه، تعالى الله وتنزهه عن ذلك، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧]، من الواضح أن المراد بنصرة الله نصرته دينه.. فشان هذا الفريق معرفة دين الله ودراسة شريعته والتبصر بأوامره ونواهيه، ثم النهوض بتطبيقها وتعريف الناس بها، ودعوتهم إلى الالتزام بها، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهد الاستطاعة وفي حدود الضوابط الشرعية.. وأكثر عباد الله الصالحين من هذا الفريق.

أما الفريق الثاني، فقوم اختصهم الله بمحبته.. أي شغلتهم حرارة أفئدتهم المتقدة بمحبة الله عز وجل عن الالتفات إلى الناس، وعاقبتهم عن التفرغ لمحاورتهم وتعليمهم ودعوتهم إلى الله، فهم غائبون بسكر هذا الحب عما يلوح لأبصارهم من أحوال المجتمع الذي يعيشون فيه،

فأنى لهم أن يتبينوا المنكر حتى ينكروه، أو أن يتبهوا إلى غياب المعروف حتى يذكروا ويأمرؤا به؟!..

وهذا الفريق الثاني ينقسم إلى طائفتين:

أما الأولى منهما فمنضبطون بأحكام الشرع متقيدون بأوامره وآدابه، ولكنهم منصرفون عن المجتمع والناس إلى ما هم فيه من الأحوال القلبية التي حدثت عندها، فلا يشغلون أنفسهم بشيء من مشكلات الناس وقضاياهم، لأنهم لا يجدون سبيلاً إلى ذلك.

وأما الطائفة الثانية، فيغلب عليهم الجذب كلياً أو جزئياً، أي دائماً، أو في حال دون أخرى، والمقصود بالجذب حالة من عدم الصحو الفكري تعريضهم، فيتيهون بسببها عن ضوابط الشرع وأحكامه.

ومردّ هذا الوضع الذي يتميز به الفريق الثاني، بكلا قسميه، إلى تجلّ من الله عز وجل على أفئدتهم، يجعلها تتوهج بالحب لذاته العلية.

ومشاعر الحب لله عز وجل، جامع مشترك ينبغي أن يلتقي عليه جميع المؤمنين بالله، بعد أن ينالوا قسطاً من معرفته والتشبع بصفاته، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥/٢] وقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «(لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)» وفي الحديث الذي رواه أحمد، أن رسول الله سئل عن الإيمان فقال: «(أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما)».

ولكن هذا الجامع المشترك لا يعوق صاحبه عن النهوض بالخدمات الدينية التي عناها ابن عطاء الله، في حكمته هذه، بل هو حريٌّ بأن ينشط للقيام بها ويعين على النهوض بها على أحسن وجه.

إلا أن في الصالحين من عباد الله، من قد اختصهم الله بأمرٍ لم يتمتع به الآخريين، إذ تجلّى على أفئدتهم بشيء من معاني تفضله وإكرامه، بل من رحيق حبه، فالتهمت بوقود المحبة له، ونالهم من ذلك ما لم ينل الآخريين.

وإذا تجلّى الله على فؤاد عبده تجلّي حب ورحمة، تعرض صاحب ذلك الفؤاد لأحوال متفاوتة من الجذب والشوق والحنين إلى الله والحب الشديد له، فإذا فاض القلب بهذه المشاعر، وضاق لضعفه عن الاتساع لها، أورثته حالة من السكر والغيوبة عن الآخريين، وربما الغيوبة عن الذات أيضاً.

وقد نبه ربنا جل جلاله إلى هذه الحالة التي قد تعترى الإنسان، عندما يتعرض قلبه لشيء من هذه النفحات أو التجليات الربانية، من خلال حديثه عن سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، عندما سأله موسى - وقد أخذ يسمع كلام ربه له - أن يريه ذاته العلية، فأنبأه أنه (أي سيدنا موسى) لا يقوى على رؤيته، وأكد له ذلك عندما قال له: ﴿وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ثم أخبر قائلاً: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا...﴾ [الأعراف: ١٤٣/٧] فلقد عجز فؤاده الضعيف عن استيعاب ما انعكس إليه عن الجبل من آثار تجلّي الله عليه، فخر مغشياً عليه.

فإذا أرسل الله إلى فؤاد عبده نفحة ما من نفحات حبه له. فما ظنك بالحال التي سينتهي إليها هذا العبد؟ تتفاوت الأحوال عندئذ، وأقلها تأثيراً على صاحبها أن يعيش من بعدها في عالم من وحدة الشهود، التي سبق أن شرحتها لك، ثم هي قد تتجاوز ذلك إلى حالة

من الجذب والغياب عن الآخرين، وقد يتيه صاحب هذه الحال عندئذ عن بعض آداب الشرع أو عن أداء الواجبات الشرعية على وجهها.. ولا ريب أنه يغدو في هذه الحال غير مكلف بما لا يتأتى منه، وإذا أخذ الله من عبده ما وهب فقد اسقط عنه ما أوجب.

* * *

لعلك تقول: فما بال الحب أقعدهم عن الوظائف الدينية التي هي السبيل الأوحى لتقرب العبد إلى الله؟

والجواب: أن الحب أقعدهم عن الوظائف الدينية العامة التي خاطب الله بها الفريق الأول من عامة عباده المؤمنين، ولم يقعدهم عن القيام بوظائف معينة خاصة بهم. فهؤلاء الذين اختصهم الله بمحبته، على نحو ما بينت لك، لهم في المجتمعات التي أقامهم الله فيها مهام ووظائف خفية، لا تبصر مظاهرها، ولكن ما أيسر أن تتجلى أمامك آثارها.

وقد مرّت بك في الجزء الأول من هذا الكتاب، أحاديث الأبدال، الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: «... بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون» وقال عنهم في حديث آخر: «... يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب»^(١).
وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: «رب أشعت أغبر، ذي طمرين، تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره»^(٢).

(١) انظر الصفحة ٢٦١ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) رواه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرک، وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة، ورواه بلفظ قريب منه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

ولعلك تقول أيضاً، فما بال أمثالنا ممن يدخلون في الفريق الأول، لا يتعرضون لهذه النفحات أو التحليلات الخاصة، ولا ينهلون من معين هذا الحب المتميز الذي جاد به الله تعالى على هذه الفئة الثانية؟

وقد جاء الجواب عن هذا السؤال موجزاً في قول ابن عطاء الله هذا: « قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته. ».

أما التفصيل فأذكر لك منه ما يفتح الله به عليّ:

إن المسألة مردّها إلى تنوع الوظائف المقربة إلى الله من جانب، والتي يحتاج إليها المجتمع الإنساني من جانب آخر. فلو خلا المجتمع من اختصهم الله بمحبته، وانهمهم من خلال ذلك بوظائف خفية لا يعلمها إلا الله عز وجل، إذن لأجذب المجتمع كما تجذب الأرض، ولقصرت جهود العاملين في حقل الخدمات الإسلامية، عن بلوغ النتائج والأهداف.. ولو فاض المجتمع كله بهؤلاء الذين تتقلب أفئدتهم في لظى محبتهم لله وأصبح المسلمون الصالحون كلهم من هذا القبيل، إذن لخلا المجتمع ممن يدعو إلى الله ويحاور الناس على طريق تبصيرهم بدين الله، ولغابت منه شعائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولجمدت أنشطة الناس سعياً إلى مصالحها المختلفة.

فكان من مظاهر لطف الله وحكمته، أن أقام فئة من الناس (وهي الكثرة الغالبة) على خدمة دينه، فمتعها من مشاعر الصحو وحالة الاندماج في ظروف المجتمع وأوضاعه ومشكلاته، بما يؤهلها للقيام بتلك الوظيفة. فكان نصيبها من محبة الله عز وجل بالقدر الذي يتوازن مع حاجتها إلى هذا الصحو وإلى هذا الاندماج في أحوال المجتمع..

وأقام فئة أخرى منهم (وهي القلة دائماً) على وظيفة أخرى تربطهم به وتوجههم من دون الناس كلهم إلى ذاته العلية، ولكنه أفاض من حالهم تلك على المجتمع خيراً كبيراً وآثاراً من الرحمة والعناية الربانية عظيمة، كما دلت على ذلك الأحاديث التي ذكرتها لك.

فلو تداخلت الفتتان: الأولى منهما بالثانية، أو الثانية في الأولى، إذن لغاب بعض مصالح المجتمع في تلافيف المصالح الأخرى، وانظر، تجد مصداق ما أقول في القصة التالية:

زار والدي رحمه الله واحد ممن أحسب أنهم من هذه الفئة الثانية، الذين اختصهم الله بمحبته، ونال منهم الجذب، استقبله بحفاوة، ثم جلس إليه جلسة المريد أمام شيخه المرشد، صامتاً يصغي، وأفاض الرجل بألوان من الأحاديث المتنوعة إن دلت على شيء، فإنما تدلّ على حاله الخاصة به، وعلى غيابه عن الناس وأحوالهم وشؤونهم، وانصرافه عنهم إلى شهوده الذي أحبه الله له وميزه به.

ولما قام ليمضي، تبعته مودعاً وقلت له: ادع الله لي أن يكرمني بما قد أكرمك به. فنظر إليّ قائلاً: ما الذي أحوجك إلى ما تقول؟.. إذن ستقطع صلتك بالناس، ولن يفهموا منك شيئاً.

فهذا الجواب الذي واجهني به هذا الشخص المجذوب، هو الجواب الدقيق عن سؤالك وربما كان المجذوب أعلم بهذه الدقائق.

على أن هذا التصنيف الذي يذكره ابن عطاء الله، لا يحمل في داخله أي دلالة على أن الفئة الثانية أعلى شأنًا عند الله من الفئة الأولى. إنما

يحمل الدلالة على التنوع الذي اقتضته حكمة الله عز وجل، والذي تقتضيه مصلحة هذه الحياة الدنيا.

لقد كان الرسل والأنبياء جميعاً، من الفئة الأولى، كما تعلم. ومن الثابت أنهم نُقَايَةُ الناس وأفضلهم عند الله عز وجل.

ولكن حتى في عصر محمد ﷺ، كانت الحاجة داعية إلى وجود أمثال أويس القرني رضي الله عنه.

* * *

ولكن ما الذي ينبغي أن نجنيه من ثمرات هذه الحكمة؟

أهم ما ينبغي أن نجنيه منها، ما قد فهمناه، من الحكمة التي قبلها، من ضرورة الأدب مع المسلمين جميعاً مع حسن الظن بهم..

إنك لتلاحظ أن أكثر هؤلاء الذين اختصهم الله بمحبته، لا تبدو عليهم دلائل ذلك، بل ربما ظهر في أوضاعهم وسيماهم وسلوكهم ما قد يدل على خلاف ذلك، كما أنبأ رسول الله في الحديث الذي سبق ذكره.

فما الحكمة؟ أحبابك يا مولاي، لماذا أخفيتهم عنا بما قد يشير إلى النقيض من حالهم؟

ويأتي الجواب قائلاً: لو أن الله كشف لنا عن أشخاص أحبابه وعرفك عليهم، وأزال اللبس مما بينهم وبين أمثالهم، لأبرزت لك عملية الجمع والطرح هوية الضالين والمنبوذين عن رحمة الله عز وجل،

وكشفت لك عن سوء حالهم. ذلك لأنك قد عرفت القائمين بخدمة دين الله ، بما تدل عليه من ذلك وظائفهم وأعمالهم، وعرفت حال الذين اختصهم الله بمحبته بما قد كشف لك عن مزاياهم وصفاتهم.. فمن هم البقية التي لم تجد لها نسبة إلى الفئة الأولى ولا إلى الثانية؟ هم الضالون والمنبوذون كما قد قلت لك.

وهذا يتنافى مع صفة الستر التي هي من أحص صفات الله عز وجل.. ألم تعلم أنه ستر يجب الستر، ليس من دأبه أن يكشف لك عن حال عباده التائبين في دار الدنيا، وربما يوم القيامة أيضاً بالنسبة لكثير منهم.

فكان من حكمته ولطفه أن مزج هؤلاء بأولئك، ووضعك من هذا المزج أمام احتمالات لا تستطيع أن تستبين حقيقتها، وقال لك ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٢]. ولا بد أن يقودك ذلك المزج الباعث على الجهل وفرض الاحتمالات، مع هذا الأمر الرباني بحسن الظن، إلى أن تحتاط في تصنيف الناس والحكم عليهم أو لهم، فتحسن الظن بهم جميعاً، ما وسعك السبيل إلى ذلك، حتى وإن بدر منهم بعض الانحرافات أو الآثام.

ولا يستثنى من عموم هذا الحكم التربوي إلا الذين أبوا ستر الله الذي امتد رواقه عليهم، فمزقوا الستر، ورفعوا الرأس افتخاراً بانحرافاتهم وضلالاتهم وأخذوا يجلجلون بسوء سلوكهم وشنيع أعمالهم، أمام كل غاد ورائح.

فهؤلاء هم الذين أبوا ستر الله تعالى، فتركهم الله لما حكموا على أنفسهم به.

وأقول لمن يخلو له أن يتتبع عورات الناس، أو فئاتٍ منهم: إن بوسعك أن تفعل ذلك في حق من شئت إن أنت دفعت الثمن لذلك. وثمان ذلك أن تسمو بنفسك إلى مستوى العصمة من سائر الآثام والذنوب. حتى يتحقق الفرق الذي يجب أن يتجلى بينك وبين من تتبع نقائصه وعوراته، فتكون منه المرشدَ الكامل المعصوم، ويكون منك التلميذ الذي يجب أن يُلقنَ أخطائه. وأنت تعلم أن الله عز وجل (وهو اللطيف الحكيم) سلب العصمة عن عباده وجعلهم معرضين للوقوع في سائر أنواع المحرمات، حاشا الرسل والأنبياء. فليس لك من سبيل إلى أن تزعم لنفسك العصمة منها.. بل إنك إن عدت إلى نفسك تفحص أحوالها التي سترها الله لك وأبقاها سراً بينك وبينه، ووقفت موقف العبودية لله دون استكبار ولا تشبّع بما ليس فيك، فلسوف تعود متيقناً أن كل الذين تتبع عوراتهم وتمتع بغيباتهم والحديث عن نقائصهم، خير وأحسن حالاً منك.. ولاريب أن أولئك الذين يلذّ لك الخوض في انتقاصهم، يجب، إن عادوا إلى أنفسهم وتبعوا أخطائها التي أبقاها الله سراً مكنوناً بينهم وبينه، أن يتأكدوا هم أيضاً بأن كل الناس المسلمين، بما فيهم أنت، خير وأحسن حالاً منه.

تلك هي التربية الربانية المثلى التي يأخذ الله بها عباده.
فما ظنك بمجتمعٍ ربّيّ أفراده على هذا النهج تمثلاً من حيث الإدراك والتزاماً من حيث السلوك؟

* * *

إذن، فهما فريقان، لكل منهما مزيته ومكانته عند الله، فريق أقامه الله لخدمته، وفريق ثانٍ اختصه الله بمحبته.

فإن تميز الثاني بالحب الذي اختصه الله به، فقد تميز الأول بالخدمة التي أقامه الله بها.. ولعلّ المزيّتين تتساويان في ميزان الله عز وجل.. وتأكيذاً لهذا المعنى استدل ابن عطاء الله بقوله عز وجل: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠/١٧].

وأنا أسأل الله لي ولك أن يكرمنا بكل من المزيّتين، فيقيمنا في خدمته ويكرمنا بذخر محبته. أما الفئة الثالثة، وهي الشاردة عن صراط الله، فأسأل الله لها ولنا الهداية إلى الرشده.

* * *

الحكمة السابعة والستون

((قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة،
لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد))

علمت مما سبق ذكره أن مرادهم بالوارد التذكرة الإلهية الوافدة إلى قلب العبد مباشرة، أي دون وساطة تأمل وتفكير.

والإنسان، أياً كان، بمقتضى الفطرة الإيمانية التي يتمتع بها، معرض لهذه الواردات الإلهية. ولكن ما هو السبيل لنيلها، أهو جهد معين من الطاعات والقربات ينبغي أن ينهض به الإنسان، أم هو استعداد خاص يتمتع به صنف من الناس دون غيره.

والجواب: أن السبيل إلى هذه الواردات يتمثل في فضل من الله، لافي جهد أو سلوك من العباد.

وهذا هو السبب في أنها تأتي في الغالب بغتة، ولا تسري إلى القلب تدريجاً ولو سلكت سبيلها إليه تدريجاً لكان في ذلك ما يوهم، بأنها آثار تتجمع في الفؤاد من تزايد الطاعات وكثرة الأذكار التي يأخذ السالك بها نفسه.. في حين أن ما يسري في فؤاد الإنسان من الإشراق الذي يتزايد فيه على أعقاب ابتعاده عن المحرمات وانصرافه إلى

الأذكار والقربات ومراقبة الله شيء، والواردات التي يتحدث عنها ابن عطاء الله هنا شيء آخر.

إشراق القلب ثمرة للاستقامة على الطاعات والقربات وذكر الله عز وجل.

أما الواردات فمنحة من الله يرسلها إلى قلب من يشاء من عباده، فيصحو بعد غفلة، ويرقّ بعد قسوة، ويقبل إلى الله بعد إدبار.

ولكي يتبين صاحب هذا القلب، أنها عطية من الله جاءته، دون تسبب منه، ودون جهد أو توقع، يكرمه بها فجأة ودون ارتباط بمقدمات من الطاعات أو القربات.

وينطبق هذا على حال كثير من العصاة والفساق، يؤبون إلى الله فجأة، وعلى غير توقع، ودون تخطيط أو تدبير أو تفكير سابق.. وإنها لقصة التائبين المتكررة والمتزايدة كل يوم.

في درسي الأسبوعي الذي يغشاه الآلاف، لا يمرّ أسبوع أو أسبوعان، دون أن يظهر فيه تائبون جُذبوا إلى صراط الهداية دون مقدمات ولا توقع!.. لم يجذبهم الدرس إلى الهداية، بل جذبتهم الهداية التي وردت إليهم بغتة إلى الدرس!..

وفي أودية التيه، حيث تعجّ بالشاردين والفاستقين والمسرّفين على أنفسهم.. ما من أيام تمرّ إلا ويفاجأ المجتمع بأعداد من أسوأ هؤلاء الشاردين، قد تحولوا طفرة إلى سبيل الهداية والرشد، بل إنهم ليفاجؤون بأنفسهم وقد خلّقوا خلقاً جديداً وغاضت عن حياتهم

أفكار ومشاعر كانت إليها زمام تسيارهم وقيادتهم، لتحلّ محلّها أفكار نورانية جديدة لاعهد لهم بها، تقودهم دون توقف إلى مرضاة الله. وفي تاريخنا الغابر نماذج كثيرة، لمن جذبتهم الواردات الربانية فجأة، من أقصى أودية الفسوق والعصيان إلى صعيد الهداية والعرفان. ولاريب أن العدّ لا يحصيهم.. لعلك تذكر منهم الفضيل بن عياض الذي تنزل على قلبه الوارد الرباني، وقد تسور جدار دارٍ في جنح ليل مظلم، على موعد لقاء، مع خلية له، ولعلك تذكر منهم عبد الله بن المبارك الذي فاجأه الوارد الرباني من خلال هاتف صك سمعه ثم سرى إلى قلبه، وقد تذكر منهم بشر بن حارث الحافي الذي انتشله الوارد الإلهي من بين أمواج لهوه وصخبه ومجونه، على حين غرة، وأخرجه حافياً من قصره، يعانق حياة جديدة من العبادة والعبودية وصدق التبتل لله.

بل انظر إلى حال هؤلاء الذين تسمع أنباء تحولهم من الكفر إلى الإسلام، إن في بقاع أوروبا وأمريكا أو غيرها.. إن كثيراً منهم لم يفكروا من قبل باعتناق الإسلام، ولم يضعوا نصب أعينهم مشروعاً لهداية أو لقراءة في الدين، ولكن إشراقة الإيمان هجمت على أفئدتهم على حين غرة.. وما كان ذلك إلا لأن واردة من نفحات الغيب الإلهي أوفده الله إلى قلوبهم، فشعرت بما لم تكن تشعر به من قبل، وعرفت ما لم تكن تعرفه من قبل، وأحبت حقيقة لم تكن معنية بها من قبل!.. وانظر.. تجد مصداق ما أقول، في الارتباك أو الحرج الذي يقع فيه بعض هؤلاء، عندما يواجههم صحفيون أو فضوليون بسؤالهم التقليدي لأحدهم: ما الذي حملك على الدخول في الإسلام؟

وينتظر السائل أن يحدثه المسؤول عن المشروع الذي كان قد رسمه لدراسة الإسلام ومعرفته ثم للمقارنة بينه وبين العقائد الأخرى، والصراعات الفكرية التي تناقضت في ذهنه، ثم كيف كانت الغلبة لحقائق الإسلام ومبادئه.. ولكن جواب الرجل، وربما المرأة في كثير من الأحيان، يأتي أبسط من هذا الذي ينتظره السائل، إنه لا يعرف لدى إجابته عن هذا السؤال أكثر من الاستئناس الذي حلّ جوانب قلبه، بالإسلام، والانشراح الذي فاض به صدره لاعتناقه. والاندفاع الشعوري إلى تقبله.. وهذا الجواب البسيط الذي يجيب به أكثر الذين هدوا إلى اعتناق الإسلام، ليس إلا ترجمة عفوية دقيقة لقول الله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧/٩].

ولو أن أحدهم وقف على مصطلح كلمة «الوارد» هذه، لاختصر جوابه قائلاً: إنه وارد رباني أنجدني الله به على حين غرة.

ولا يذهبن بك الوهم، مما أقول، إلى أن حقائق الإسلام لا تمرّ، إذن، من قناة الدلائل العلمية والمنطقية، وإنما تصافح العواطف والوجدان، شأنها كشأن تلك الأديان التي لاعلاقة لها بالعلم ولا تتفق مع شيء من قواعده ومقولاته.

فالإسلام لا ينهض وجوده إلا على دعائم العلم، ولا تتألف سداه ولحمته إلا من حقائقه، غير أن الإدراك العلمي وحده لا يكفي لحمل العالم على اعتناقه.

إن كثيراً من المثقفين الغربيين المهتمين بحقائق العلم، يدركون الصلة الوثقى بين قواعد العلم وحقائق الإسلام، وهو حال جلّ المستشرقين المتخصصين بالدراسات والعلوم الإسلامية، ومع ذلك فإن عائقاً أقوى من سلطان العلم، حال دون قبولهم الإسلام واعتناقهم له، ألا وهو عائق العصبية والاستكبار، والخضوع لسلطان الذرائعية التي ترعى مصالح الذات وتضحى في سبيلها بكل القيم والمبادئ.

فما الذي ينتشل هؤلاء الذين قيدهم عن اتباع الحق سلطاناً عصبياتهم وكبرياتهم والتذرع لحماية مصالحهم الاجتماعية والسياسية؟.

شيء واحد ينتشلهم ويحررهم من ذلك كله - بعد الدراية العلمية التي لم تستطع وحدها أن تسعفهم - هو الوارد الإلهي الذي نتحدث عنه.

ولعلك تسأل قائلاً: فما ذنب الذين لم يكرمهم الله بنفحات هذا الوارد؟

والجواب أن الناس كلهم معرضون في الأصل لهذه النفحات أو الواردات، وذلك بحكم الفطرة الإيمانية التي فطرهم الله عليها.

ولكنهم يختلفون بعد ذلك، فيما يختارونه من المبادئ والأفكار وسبل العيش وأنواع السلوك. ولاشك أن كلاً من أنواع الثقافة التي يتأثر بها المناخ، والمناهج التربوية المختلفة التي يتلقونها، يلعب دوراً بارزاً في هذا الاختلاف، وإن كانت حرية الاختيار تظل هي الرائدة في كل الأحوال.

إن هذا التنوع في الثقافة والتربية، إلى جانب العوامل الاجتماعية والنفسية المختلفة، مصحوبة بحرية الاختيار، تترك تأثيراً كبيراً على الفطرة الإيمانية الكامنة في طوايا النفس. ومن شأن هذه العوامل مجتمعة أن تفرز طائفة من الناس حجبا أنفسهم، بل عقولهم، عن معرفة الحق والتعامل معه بجواز من العصبية أو الكبرياء، أو الركون إلى وحي الغرائز والأهواء والشهوات المهتاجة بين جوانحهم، فانفصلوا بذلك عن سلطان فطرتهم، وربما أصابها من ذلك ما يشبه الشلل أو الاختناق.

فهؤلاء هم الذين قد لا يتعرضون لهذه الواردات الإلهية التي نتحدث عنها.. ومرد ذلك إلى ما قد حكموا على أنفسهم به من الانقياد لوحي العصبية والرعونات النفسية والاستكبار على الله، والابتعاد عن معين الفطرة الإيمانية التي منحها الله (إحساناً وتفضلاً منه) كل مولود من البشر يفتح عينيه على هذه الحياة، ويتزعزع في جنبتها.

وبعبارة جامعة موجزة أقول: إن المعاصي، على اختلافها، لا تشكل وحدها حاجزاً يحول دون تعرض الإنسان للواردات العلوية التي تنسكب في الفؤاد فتنقل صاحبها بغتة من حال إلى حال..

ولكن الذي يحجب الإنسان عنها، ويحرمه من فرصة التعرض لها، استكباره على الله واستخفافه بما قد يتلقاه من أوامره وأحكامه وشرائعه.. ذلك قرار ألزم الله به ذاته العلية، في مثل قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعُغْيِ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ [الأعراف:
١٤٦/٧].

ولقد شرحت لك هذه السنة الإلهية التي ألزم الله بها ذاته العلية في حق عباده، في أكثر من مناسبة مرت في الجزء الأول من هذا الكتاب، فلاداعي إلى أكثر من التذكير بها الآن، بهذا الإيجاز.

* * *

الحكمة الثامنة والستون

((من رأيته مجيباً عن كل ما سئل، ومعبراً عن كل ما شهد، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله))

ثلاث علامات إن اجتمعن في إنسان، كان ذلك دليلاً قاطعاً، فيما يقرر ابن عطاء الله، على وجود جهله.

ولعلّ كل خصلة منها، كافية في الدلالة على جهل صاحبها، ولكن يبدو أن الحيلة في الحكم حملت ابن عطاء الله على أن يعدّ الجهل ثمرة لاجتماع هذه الخصال كلها في شخص واحد.

أما الخصلة الأولى منها، فهي أن ترى الشخص لا يتردد في الإجابة عن كل ما يُسأل عنه.. ووجه دلالتها على جهل صاحبها، أن مناط الأسئلة ومتعلقاتها، يتسع لكل ما هو موجود مما هو مرئي ومسموع ومشوم ومفهوم. إذ السؤال لا يكلف صاحبه علماً ولا فهماً، ولكنه يكلفه الاستفهام فقط، وهو مما يتأتى لكل أحد، والشأن في الاستفهام أن يتعلق بكل ما هو مجهول.

إذن فالاستفهام يتعلق بقسم المجهولات، أما الجواب فلا يتناول إلا قسم المعلومات، ومما لا ريب فيه أن مساحة المجهولات أوسع بكثير

من مساحة المعلومات، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥/١٧].

إن الإنسان إنما يعيش في رقعة صغيرة جداً من هذا الكون الذي لا يعلم مدى اتساعه إلا الله، وهو محصور منه في مساحة ضيقة وداخل دائرة الزمن الحاضر، فمهما امتدت أشعة معارفه، فإنها لن تتجاوز المساحة الضيقة التي يتحرك فيها. ولن يدرك شيئاً وراء الزمن الحاضر الذي يتقلب فيه. وكم من معارف مغلوطة تهجم عليه داخل هذه الحدود الضيقة من المكان والزمان، فيظن الوهم علماً والباطل حقيقة، والحقيقة باطلاً.. هذا على حين أن مجال السؤال والاستفهام لا يحده زمان ولا مكان، إذ هو ليس أكثر من تعبير عن التطلع إلى المجهول.

فمن رأيته يجيب، أي جواب العارف، عن كل ما يُسأل عنه، فاعلم أنه يغطّي جهله بدعاوي المعرفة والعلم.. إذ قد علمت أنه لا يمكن أن تتساوى مساحة المعلومات مع مساحة القضايا المسؤول عنها، حتى تغطّي هذه بتلك.

ولكن ما الذي يدعو كثيراً من الناس إلى هذا؟

إن الذي يدعو إلى ذلك، الاستكبار!.. يربأ أحدهم بنفسه أن يُنعت بالجهل، ولا حيلة له في أن يضع حقائق المكونات وأسرارها، دون استثناء، تحت سلطان معلوماته ومدركاته، فيستعويض بدعواه اللسانية العريضة عن الاستيعاب المعرفي الذي لا سبيل له إليه.

فلو لم يكن من آفات هذا التعامل إلا الاستكبار، لكفى ذلك إجراماً في حق العلم ومصدره، فكيف وإن من آفاته الكذب وخيانة الحقائق، والاستخفاف بقوانين الكون وكلمات المكون؟

على أن الجهل المتعالم يهون خطبه، عندما تستعمل له بضاعة الدنيا، وعندما يكون الخلط والخبط، في مسائل يتقارب فيها كل من وجهي الصحة والبطلان، والخطأ والصواب...

ولكنه داء لا دواء له، وخطب لا عزاء معه، عندما تكون مادة هذا الجهل المتعالم حقائق دين الله الذي بعث به سائر الرسل والأنبياء، متمثلة في مبادئه الاعتقادية آناً، وأحكامه الشرعية آناً آخر.

بل إنك لتنظر فتجد أن أسواراً من الرقابة تحيط بمجالات العلوم والثقافات الدنيوية على اختلافها، تمنع الجهال المتعلمين من أن يخطبوا فيها خبط عشواء، وتغلق عليهم سبيل العبث والقول فيها على غير هدى.. فالعلوم الكونية المختلفة، بل حتى الأدبية أيضاً، تتمتع من المجتمعات والقادة المسؤولين بحراسة دقيقة دائبة، ومن ثم لا يتأتى لأي محتال عن طريق التعالم، أن يتسلل إلى حماها، فضلاً عن أن يخترق مجالاتها.

فإذا ما تجاوزت مجالات هذه العلوم الدنيوية المختلفة، وأقبلت إلى علوم الإسلام وشرائعه، رأيت نفسك منها أمام ما يشبه كلاً مباحاً أو سفحاً مفتوحاً يجوب فيه الرائح والغادي، دون أي رسم لحدود أو اعتماد لضوابط!..

فما تجد هاوياً لشهرة صُدَّت السبل كلها في وجهه إليها، إلا ويرى في هذا السفح بغيته، وما تجد باحثاً عن مجال أوسع للرزق، دون أن يجد لبحثه الطويل من ثمرة، إلا ويعثر في مجال آرائه وأفكاره الإسلامية التي يبتدعها، على رزقه الضائع، هذا فضلاً عن أولئك الذين سدَّت

أمامهم الطرق إلى الكيد للإسلام والتريص به، بشكل مباشر، فلما نظروا، فوجدوه كلاً مباحاً للغادي والرائح دون أي شروط أو ضوابط، لم يترددوا في الدخول إلى مجاله باسم الغيرة على الإسلام، والإقبال إليه بالتحديد والتطوير والتحديث..

والجامع المشترك بين أنشطة هؤلاء كلهم، الحديث عنه مع الجهل به، والدخول إلى تفسير نصوصه، مع القصد المستكنّ إلى تحطيم بنيانه؛ وتسويق الفتاوى باسمه لتلبية الطلبات والتطلعات المتبرمة بأحكامه.

ومقتضى هذا الواقع أن لا تجد بين هؤلاء، من يمسك عن اقتحام هذه المخاضة، معتذراً بالجهل. إذا الجهل لا وجود له (أي لا إقرار به) أمام هذه الأهداف.. فالأجوبة جاهزة لسائر الأسئلة الدينية، والحلول مرسومة لسائر المشكلات الفكرية أو الاجتماعية، والفتاوى مصنوعة ومهيأة حسب الطلب!.. ورحم الله العهد الذي كان حاجز الجهل، يحول دون اقتحام هذه الميادين كلها.

كان ذلك عهداً أجم فيه المسلمون ألسنتهم عن الخوض فيما لا يعرفون، بل فيما لا يتأكدون من معرفتهم له، خوفاً من أن يصدق عليهم قول رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»^(١). فكان كل منهم يردد أمام جهالته أو شكوكه قول أبي بكر رضي الله عنه: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إن أنا قلت في القرآن بما لا أعلم»^(٢).

(١) رواه الترمذي وأبو داود

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري ٢٥/١، الطبعة الميمنية.

روى عبد الرحمن بن مهدي أن رجلاً أرسل إلى مالك رحمه الله، من مسيرة ستة أشهر، من المغرب، ليستفتيه في أمور، فأجاب عن بعض يسير منها، وقال له عن سائرهما: لا أعلم. فقال له الرجل: فماذا أقول لأولئك الذين أرسلوني إليك بشأن هذه المسائل إن رجعت إليهم؟ فقال له: أخبر الذين أرسلوك أن لا أعلم لي بها!.. فقال: ومن يعلمها؟ قال له: الذي علّمه الله.

أما جهال هذا العصر، فيُعمِلون أهواءهم في تفسير القرآن لعباً وتمزيقاً. لا يصدّهم عن ذلك جهل، ولا يردهم عنه وجل ولا خوف، ويُعملون أهواءهم في تصدير الفتاوى الحديثة التي تحمل أحكاماً لا عهد للمسلمين من قبل بها.. وإن أحدهم ليندفع إلى الفتوى متضمنة ما يراه من الجواب عن الأحكام التي يُسأل عنها، دون أي تحفظ، كما يندفع أحدنا إلى شرب ماء عذب بارد على ظمأ.

فإن جاء من قال: ولكن المنصوص في مصادر الشريعة الإسلامية، خلاف الذي تقول: أجب قائلاً: «تبدّل الأحكام بتبدل الأزمان» وأردف ناقلاً عن رسول الله قوله: «يسروا ولا تعسروا».

ولقد تكونت من هذه الجرأة العجيبة في الفتاوى على غير بينة ودون التزام بالضوابط، ما يسمى اليوم بـ«فقه الأقليات» كأن الله أنزل في قرآنه فقهين اثنين: أحدهما لأكثرية المسلمين في بلادهم، والآخر للأقليات خارج بلاد الإسلام!.. فأصبح الربا المحرم عندهم سائغاً، والنكاح الباطل كمنكاح الكافر المسلمة صحيحاً، والذبيحة المختنقة طاهرة، والتعامل بالخمور في محالها أمراً مقبولاً!..

ولست أدري فيم هاجر المسلمون في صدر الإسلام من دار الكفر إلى دار الإسلام ما دامت لهم في «فقه الأقليات» هذه السعة التي ترفع عنهم الحرج وتردّ عنهم الضيق؟!..

* * *

وأما الخصلة الثانية، فهي أن ترى الرجل يروي للناس كل ماشهده، إذ لو لم يكن جاهلاً، لعلم أن الأمانة تقتضي أن يمسك عن الحديث عن أكثر ما قد يراه. إذ كثيراً ما يكون الشيء الذي رآه ثم رواه، عائداً إلى خصوصيات بعض الناس، سواء كان خيراً يحمّدون عليه أو شراً يلامون عليه.. إن نشر أخبارهم، على كلا الحالين، لا يجلّ إلا بعد التأكد من رضاهم بذلك، على أن احتمال عدم الرضا في الحالة الثانية أكثر منه في الحالة الأولى.

إن ما قد تراه عينك من خصوصيات الناس، لصدفة أو لمناسبة ما، سرّ من الأسرار التي استودعها الله عندك ابتلاءً.. وإن ما قد يصادف أن تراه من مشكلات أو خصومات، بين اثنين قد يكون دعوة من الله لك أن تكون الطرف الثالث الوحيد معهما، لتسعى سعيك في حلّ مشكلتهما أو إنهاء خصومتها، دون ضجيج ولا حديث عنها.. وإن ما قد تقع عليه عينك من معصية ابتلي بها أخ لك، أمانة كلّفك الشرع بصونها عن أسمع الناس بعد أن صانها الله عن أبصارهم، وإنما الواجب الذي يأمرك الله به، أن تمدّ رواق الستر على أخيك هذا، وتنفرد معه في نصيحة خالصة محبّة، لا يراكما ولا يسمعكما في مجالها أحد.

هكذا يقول الشرع، وبهذا جاء الإسلام.

فقارن بين هذا النهج الذي أمرنا به، وبين حال من يتصيد الوقوع على الأخبار والأحداث، لينقلب فيرويهها لكل غاد ورائح، وليتخذ منها موادّ وموضوعات لتسليته وعوامل لجذب الناس إلى الغريب والمستطرف من أحاديثه. إنه هو الآخر دليل ثان على جهله.. أي على جهله بآداب الشرع وأحكامه.

ولكن، أفهو الجهل وحده الذي يدفع كثيراً من الناس إلى سلوك هذا النهج؟..

الذي اعتقده وأراه أن ثمة عاملاً آخر يقود إلى هذه الرعونات، مع وجود العلم بجرمتها بل بخطورتها!. وإذا استحكمت الرعونة، شلت قيمة العلم في صاحبها وأفقده أهميته.

كثيرون هم الذين يعلمون أن الله ستر يحب الستر ويأمر به، وأنه لا يجوز للمسلم أن يجلجل بأخطاء أخيه المسلم، مادامت ولدت في السرّ وبقيت في الخفاء والسرّ، وأن الإخلاص لله والغيرة على حرّامات الله يدعوانه إلى أن يكون عوناً له على الستر الذي أضفاه الله عليه، وأن يهمس إليه في نصيحة حارة تشهد على ما يكره له في قلبه من غيرة وحب.. كثيرون هم الذين يعلمون هذا كله، ومع ذلك فإنهم يتجاهلون ما يعلمون، في سبيل الاستجابة لما تنطوي عليه نفوسهم في حسد أو حقد وبغضاء.

وقد ذكرت أثناء شرحي لحكمة مضت مشكلة هذا الداء، وأشارت إلى الدواء الواقى منه، فأحيلك الآن إلى ما قد ذكرت، وأضيف إلى

العلاج الذي ذكرته لك آنذاك، العلاج الكلي الذي لا ينفك عن الحاجة إليه أحد من الناس، ألا وهو ضرورة ترقية النفس وتطهير القلب من الأمراض الخفية التي سماها الله، باطن الإثم.

ومن مصائب المسلمين في هذا العصر، أنهم - أو أكثرهم - معرضون عن هذا العلاج ويستخفون به إن ذكرهم به أحد!..

ومن ثم فإن قيادة خفية تستقل بتوجيه أنشطتهم ورسم أهدافهم، ألا وهي تلك التي حذر الله منها وبالغ في التحذير، وسماها كما قلت لك: باطن الإثم.

أما سبل ترقية النفس، فالحديث عنها طويل الذيل، ولعل اتباع نصائح ابن عطاء الله في هذه الحكم، واحدة من أهم هذه السبل.

* * *

الخصلة الثالثة من الخصال التي تدلّ على جهل صاحبها، أن يتحدث للناس عن كل ما علم من شأن نفسه، أو من الشؤون الأخرى.

أما عما يعلمه الإنسان من شأن نفسه، فهو إما أن يكون من الشؤون الصالحة التي وفقه الله إليها، أو من الأخطاء التي تاه فوق فيها.

فإن كان من الصالحات التي وُفق لفعالها، فينبغي أن تمرّ فكرة التحدث بها، برجوع دقيق إلى تلمس العامل الذي يدفع إلى ذلك، فإن أيقن أن العامل هو الإعلان عن شكر الله عز وجل على توفيقه،

والتحدث إلى الناس عن عظيم فضل الله عليه، حتى يكونوا شهداء على مننه التي تتوارد إليه، دون أن يكون أهلاً لها، فالعلم إذن يقتضي الحديث عنها، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩٣/١١].

وإن ارتاب في هذا الدافع، وغلب على ظنه أنه مدفوع إلى التحدث للناس بها، تنويهاً لهم بشأن نفسه، وإعلاماً لهم عن حسن حاله، ليعظم في نفوسهم، أو لتعود إليه منهم المنح، أو ليرفعوا من شأنه في المناسبات وبصدد الأنشطة الاجتماعية، فالعلم إذن يقتضي أن يتكتم على ذلك، وأن يسدل على أعماله الصالحة تلك ستراً فوق ستر، لتبقى سراً مكنوناً بينه وبين ربه. إذ إن ذلك هو الضمانة - في هذه الحال - لقبول الله لها، ورصد المثوبة عليها.. فإن هو خالف هذا المبدأ، فأشاع وأذاع بين الناس خبر أعماله الصالحة وأنشطته المبرورة، فقد صنف نفسه، بذلك، في الجهال. إذ لو كان ذا دراية بما ينبغي أن يكون عليه حاله، لما أقدم على ما أقدم عليه.

وأما إن كان من الأخطاء أو السيئات التي تورط فيها، فينبغي أن يعود في هذه الحالة أيضاً إلى مساءلة نفسه، عن العامل الذي يدفعه إلى كشف حاله هذه للناس. فإن علم أنه مدفوع إلى ذلك، بقصد المباهاة بخطئه الذي ارتكبه، كما هو شأن بعض الناس، فليعلم أن حديثه لهم بهذا القصد، شرٌّ من أصل الخطيئة التي ارتكبتها، بل ربما سرت المباهاة بالمعصية، بصاحبها، إلى الكفر في بعض الأحيان.

وإن علم أنه مدفوع إلى ذلك بدافع الشكوى والألم مما قد صدر منه، فذلك من الجهالة بمكان!.. إن عليه أن يعلم أن الذي ينبغي أن يتجه إليه بالألم والشكوى واحد لاثاني له، هو الله عز وجل. إذ هو الذي يملك أن يزيل ألمه وأن يستجيب لشكواه، فيغفر له ذنبه ويصلح له حاله. أما الناس، فما بين شامت يفرح بشروده وخطيئته، وعاجز يصغي السمع إليه ولكنه لا يملك من أمره شيئاً. فلم يبق أمامه من باب يتجه إليه ويلوذ به إلا باب الله، وصدق سبحانه إذ قال: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٠].

ثم إن المسلم كما يأمره الله أن يستر ما قد علمه من سوء صدر من أخيه، فإنه جل جلاله يأمره أيضاً أن يستر عن الناس السوء الذي صدر من شخصه هو. إذ المبدأ المطلوب واحد، لا يختلف حكمه باختلاف الأشخاص.

وبهذه المناسبة، ألفت نظر الإخوة الذين يتوبون إلى الله بعد انغماس في حمأة المعاصي والأوزار، إلى أن التوبة الصادقة تمحو كل الخطايا والآثام، مهما كانت كبيرة، ولو كان ارتكابها يستوجب الحد.. ومن ثم فإن المطلوب من هؤلاء التائبين أن يستدبروا ماضي آثامهم وانحرافاتهم، وأن يستقبلوا من حياتهم عهداً جديداً يفيض بفضل الله وإحسانه وعفوه، وليعلموا أنهم قد ولدوا باصطلاحهم مع الله ولادة جديدة، فإن استطاعوا أن ينسوا ماضيهم قبل هذه الولادة فليفعلوا.. والمعاصي التي تستوجب الحد، إنما تستوجه عند ارتفاع الأمر إلى الحاكم وثبوت المعصية أمامه بشهادة شرعية مقبولة، أو بإقرار من

صاحب المعصية.. والمطلوب شرعاً منه أن يلوذ بكنف من ستر الله، وأن لا يحدث القاضي ولا يخبره بمعصيته.

نعم، يستثنى من عموم هذه المعاصي التي تمحوها التوبة الصادقة، المعاصي التي فيها انتهاكات لحقوق الناس، فلا بد لمغفرتها من إعادة الحقوق إلى أصحابها أو مسامحتهم وتجاوزهم لها.

وأما ما يعلمه الإنسان من المعارف والشؤون الأخرى، فقد علمت أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يفضح الناس في أسرارهم، وقد أوضحت لك ذلك عند الحديث عن الخصلة الثانية من هذه الخصال الثلاث.

بقيت المعارف العامة الأخرى التي قد يتميز بها بعض الناس.

إن العلم بمبادئ الإسلام وآدابه، وآداب الدعوة إلى الله، يقتضي أن يفرق المسلم بين المعلومات التي يُصلحُ الناس ويفيدهم الحديث عنها، والمعلومات التي تشوش أفكارهم وتزجهم في وساوس أو ضياع.

ليس كل مسلم مهياً لإدراك كل معلومة تتعلق بالإسلام أو غيره. ثم إن المعارف الإسلامية ليست، كلها، منسقة في درجة واحدة من الأهمية، بل هي متفاوتة الترتيب في الإدراك، كما أنها متفاوتة في الأهمية ومدى الحاجة. ومن ثم فهي تخضع عند الإقبال إلى معرفتها لما يسمى بقانون سلّم الأولويات.

وبياناً لهذا كله يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»^(١).

ثم إن لكل مقام مقالاً.. فالحديث الذي يواجهه به الملحد مثلاً، غير الحديث الذي ينبغي أن يخاطب به المسلم العاصي، والمستشكل المثقف الذي يحمل في ذهنه أوقاراً من الشبهات، يحتاج إلى حجج وبيانات لا يحتاج إليها الجاهل العامي الذي يسأل عما يحرره من جهالته.

وعلى سبيل المثال، فإنّ علم الكلام الذي يتضمن الحجج المنطقية والفلسفية على الحقائق الاعتقادية، دواء لا يصلح إلا لمن تسربت إلى عقولهم أمراض الشبهات الفلسفية، فإن عولج به المعافون من هذا الداء، تحول إلى جرثومة داء قد يستقر في عقولهم.

ومن أمثلة ذلك أيضاً، بعض الموضوعات التي يعالجها فريق من خطباء الجمعة في خطبهم. يصادف أن يكون الخطيب قد اطلع على بعض المعلومات التاريخية أو الاجتماعية أو نحوها، مما لاشأن لسواد الناس الذين يفيض بهم المسجد بشيء منها، ولكن رغبته في أن يلفت نظر الناس إلى ما يتمتع به من معارف قد لا يعرفها الآخرون، تحجبه عن توجيه الناس إلى ما يفيدهم، وعن دعوتهم إلى إصلاح أمورهم وتدارك أخطائهم، ومن المعلوم أن خطبة الجمعة يجب أن تدور على محور الإنشاء المتمثل في الأمر والنهي من خلال النصح، لا على محور الإخبار والإعلام القصصي أو التاريخي أو التنويه بحال بعض الناس ثناء

(١) رواه البخاري من حديث علي رضي الله عنه موقوفاً - وهو في مسند الفردوس عنه رضي الله عنه مرفوعاً.

أو تجريحاً.. فإن عرض الخطيب لذكر خبر يتعلق بحادثة، فينبغي أن يكون ذلك محصوراً بالقدر الذي يجعل منه مقدمة أو عبرة بين يدي نصيحة مفيدة للحاضرين تتمثل في أمر أو نهى.

وكم هو عمل شاق وخطير، القيام بمهام خطبة الجمعة!..!

يدرك ذلك كل من يعلم أن خطيب الجمعة إنما يمثل شخص رسول الله، إذ كان بين أصحابه يخطب فيهم كل جمعة على منبره. أفترى أن أداء الخطيب اليوم، للدور الذي كان رسول الله يؤديه بالأمس، شكلاً ومضموناً، أمرٌ هين ويسير؟!..!

* * *

وبعد، فتلك هي الخصال الثلاث التي تدل على جهل صاحبها، كما قال ابن عطاء الله.

فإن لم يكن صاحب هذه الخصال جاهلاً، وبقي متشبثاً بها، فمرد ذلك إلى جهالة من نوع أشد وأخطر.

ذلك لأنه يتبع في هذه الحالة رعونة نفسه، ووحى شهواته وأهوائه. ولا يصدر هذا الاتباع إلا من أشد أنواع الجهالة خطراً على صاحبها.

إنه لو علم مغبة انقياده لوحى أهوائه وأغراضه، معرضاً في سبيلها عن تعاليم مولاه وخالقه، لما آثر الإعراض عما فيه ضمانته سعادته ورضا مولاه عنه، في سبيل أهوائه التي لا ريب في أنها ستورده المهالك، وترجه في نيران من الندم.

* * *

الحكمة التاسعة والستون

((إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجلّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها))

المراد بالجزاء هنا، ما قد وعد الله به عباده الصالحين من النعيم المقيم في جنان خلده، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد أوجز البيان الإلهي ذلك بقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥/٥٠].

فهذا الجزاء الذي وصف الله بعضاً يسيراً منه في محكم تبيانه، شاء سبحانه وتعالى أن يؤجل ميقاته إلى يوم القيامة، وأعلن عن مشيئته هذه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣].

وإنك لتلاحظ أن البيان الإلهي عبّر عن هذه المكربة التي أعدها الله لعباده الصالحين وادّخرها لهم إلى يوم القيامة بـ«الأجر». ولعل الأجر أخص من الجزاء، إذ الجزاء يشمل سائر الأعطيات التي قد يتفضل الله

بها على عباده مقابل استجابتهم لأوامره وانقيادهم لأحكامه، أما الأجر فهو يطلق في الأصل على ما قد يتم الاتفاق عليه بين العامل ورب العمل، من مقابل يدفعه الثاني للأول، مقابل عمله.. وهذا الإطلاق، وإن كان لا يسري على ما ادخره الله لعباده الصالحين يوم القيامة، لأنه التزام من طرف واحد، وهو الله عز وجل، إلا أن البيان الإلهي سماه، مع ذلك، أجراً على سبيل المشاكلة.

وإذا ظهر لك هذا الفرق، تبين لك الفارق الثاني أيضاً، وهو أن الله عز وجل ادخر لعباده الصالحين أجور أعمالهم التي ألزم ذاته العلية بها، إلى يوم القيامة، وهو القرار الذي أعلنه عز وجل في محكم بيانه، ويوضح ابن عطاء الله الحكمة منه هنا.

أما الجزء الذي هو أعم من الأجر كما قد علمنا، فإنه يشمل هذا الأجر المؤجل، ويشمل ما وراءه من الأعطيات والمنن التي يكرم بها الصالحين من عباده في دار الدنيا.. وهو ما سيشير إليه ابن عطاء الله في حكمة آتية، إذ يقول: «جلّ ربنا أن يعامله العبد نقداً، فيجازيه نسيئة».

وإذ قد استعمل رحمه الله مادة الجزاء في هذه الحكمة الآتية، فقد كان من المناسب، لما قد ذكرت لك، أن يستعمل هنا كلمة الأجر، فيقول: «..محملاً لأجر عباده المؤمنين» حتى لا يتوهم متوهم أن بين الحكمتين تعارضاً.

* * *

إذن، فقد قضى الله عز وجل أن يؤخر الأجر الذي أعدّه لعباده الصالحين والذي تحدث عنه أو عن طرف يسير منه في كتابه المبين، إلى ما بعد الموت... إلى اليوم الموعود الذي ينتهي فيه التكليف، ويحلّ محله الأجر الذي وعدهم به.

فلماذا؟.. وما الحكمة؟.. ألم يقل رسول الله ﷺ: أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه^(١).

يذكر ابن عطاء الله لذلك حكمتين اثنتين:

أما الحكمة الأولى، فهي أن الدار الدنيا تتعارض، من حيث ذاتها، مع نوع الأجر الذي أعدّه الله لعباده، إذ إن من أخص خصائص الدنيا فناؤها وعدم بقائها، في حين أن من أخص خصائص الأجر الذي قضى به الله لعباده، بقاءه وعدم فناؤه، فكيف يكون الفاني وعاء، أو محلاً للباقي؟

ثم إن هذه الدار الدنيا تتعارض مع الأجر الذي بشر الله به عباده الصالحين، من حيث إن نظام الحياة الدنيا يتناسق مع شأن التكليف، ونظام الحياة الآخرة يتناسق مع طبيعة الجزاء.

فإن كانت الدنيا دار تكليف ومناخاً لظهور عبودية الإنسان لله عز وجل بسلوكه الاختياري، كما هو عبد له بواقعه الاضطراري، إذن فالشأن فيها أن تكون مليئة بالابتلاءات والمنغصات التي تبرز قيمة الصبر عليها والرضا عن الله بها، وحتى النعم والخيرات الكثيرة التي

(١) رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر، وأبو يعلى في مسنده من حديث أبي هريرة.

فيها، لاتأتي صافية عن الشوائب، وإن كان فيها ما هو صافٍ منها، فهو لا يخلو من معنى الابتلاء، ولا يتجرد عن جوهر التكليف، إذ المطلوب من الإنسان حيالها القيام بواجب الشكر، وذلك بأن يوظف تلك النعم التي أسديت إليه فيما قد خلق من أجله، ولا يصرفها إلى ما قد حذر منه.

إذن فهذه الدنيا، بكل ما فيها من شدة ورخاء، وخير وشر، لاتصلح أن تكون محلاً للأجر العظيم الذي وصفه الله تعالى في كتابه والذي أعده لعباده الصالحين.

وأما الحكمة الثانية، فهي أنه عز وجل، لو شاء أن يخلي الدنيا من سائر الشوائب والمنغصات، والمصائب، بالنسبة لعباده الصالحين، وأن يملأها بعد ذلك بالمبهجات والمكرمات التي وعدهم بها، ليشتمعوا بها في عاجل حياتهم، بدلاً من أن ينتظروها إلى الحياة الآخرة، إذن لكانت مفارقتهم لها، بالموت الذي قضى به عليهم، مصدراً لآلام كاوية تنسيهم لذائد تلك المكرمات مهما عظمت.

إن روح المتعة، أياً كانت، إنما تكمن في بقائها. فإن هي زالت أعقبتها غصص خانقة في النفس، لاتغيب إلا مع غياب ذكرياتها.

وقد قضى الله عز وجل أن تكون الدنيا ممراً إلى مقر. وأن تكون مستودعاً يتم الانتقال منه إلى المقر، إذن فهي بهذا الوضع الذي قضى به الله عز وجل، لاتصلح أن تكون محلاً للجزاء.

ولعلك أدركت من هذا البيان الموجز الحكمة من وجود المنغصات في هذه الحياة الدنيا، ومن امتزاج المنح بالمحن، والمغانم بالمغارم،

والآلام باللذائذ. فبالإضافة إلى ما قد أوضحته لك، من توقف النهوض بالتكاليف الإلهية، على عنصرى الصبر والشكر، وأنت تعلم أن الأول منهما لا وجود له إلا مع الشدة، والثاني منهما لا معنى له إلا مع الرخاء.. ومادمت قد علمت مما ذكرته سابقاً الحكمة من التكاليف التي خاطب الله بها، بل التي شرف الله بها الإنسان، فإن ما قد علمته من حكمة هذه التكاليف، يستلزم علمك، بل قناعتك بما تستلزمه التكاليف الإلهية من عنصرى الصبر والشكر...

أقول: بالإضافة إلى هذا الذي أوضحته لك: ينبغي أن لاتنسى أن الحكمة تقتضي أن يكون المر الذي ليس من شأن الإنسان أن يقيم فيه، خالياً عما يغريه بالبقاء فيه. فإن وجد شيء من ذلك، رعاية لما تتطلبه الرفاهية، فينبغي أن يعلم بأن ماهو مقبل عليه، بعد تجاوز هذا المر، يفيض بأضعاف أسباب الراحة والرفاهية التي يتمتع بها أثناء اجتيازها لهذا المر أو المستودع، حسب التعبير القرآني.

إن القاعدة النفسية والعلمية تقول: يجب أن يكون محل إقامتك الدائمة، أكثر راحة ورفاهية، من الطريق الذي تسلكه إليه.

تأمل في بيان الله عز وجل، إذ يخاطبك معرفاً للدنيا التي تعيش فيها، كيف يحذرك من التعلق والاعتزاز بها، وكيف يهون من شأنها، ويصور لك تفاهتها، وانظر كيف يؤكد لك هوانها بأساليب شتى.

إنه يقول لك: ﴿لَا يُغْنِيكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

ويقول لك بأسلوب آخر: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧/٤].

ويقول، مجسداً حقيقتها بهذا التشبيه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧].

ثم يقول مؤكداً في آخر الآية ذاتها: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧].

تصور لو أنه، وهو يكرهك بها، ويحذرك من التعلق بها، جعلها مليئة بالمتع والمبهجات الصافية عن الشوائب والكدورات، إذن لناقض الواقع الأمر، ولكانت قدرة الإنسان وطبيعته عاجزتين عن الاستجابة لتلك التوصيات والتحذيرات.

ولكنه عز وجل، أقدرك، إذ أمرك، على تنفيذ أمره، وأعانك على ازدياد الدنيا والتهوين من شأنها، في كلا حالتي الإقبال والإدبار، عندما قضى بأن لا يصفو خيرها من شر، وبأن لا تخلو عافيتها من سقم، وأن لا يتجرد أمنها من قلق واضطراب.

ألا ترى إلى لطف الله عز وجل بك، كم يتجلى في هذا النسق الذي قضى بأن يقيم الدنيا عليه، كي يأتي ذلك مصداقاً للوصف الذي وصفها به، ولكي لا تجد عنقاً في أن تضع الدنيا من حياتك في المستوى الذي أقامها الله فيه؟!..!

ثم انظر إلى حياة الإنسان، كيف يكون الشطر الأول منها في حالة إقبال، إلى نعيم الدنيا ومتعتها ولذائذها، إذ يكون كل من العافية والشباب والرغبات الغريزية في إقبال وتصاعد، فإذا أقبل الشطر الثاني منها تحوّل ذلك كله عائداً إلى الذبول والتراجع، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٢٦/٦٨] فيحلّ الضعف محل القوة والعافية، ويغيب الشباب في تجاعيد المشيب، وتحمد نيران الغرائز.. ويتكون من ذلك كله عامل يدفع إلى الإعراض عما كان مقبلاً عليه، وإلى السامة مما كان شديد التعلق به..

ومظهر اللطف الرباني في هذا، أنه يكون سبيلاً إلى تهية النفس للرحيل، وتمهيداً بين يدي الفطام الذي لا بدّ منه، من متع الدنيا ونعيمها. إذ يزداد مللاً وسامة من أهوائها وشهواتها، كلما ازداد قرباً من الموت، وازداد توغلاً في طبيعة هذا الشطر الثاني من الحياة.

فإذا أقبل إليه الموت ودعاه الداعي إلى الرحيل، تكون حياته الدنيا التي تقلب في نعيمها وبؤسها ما شاء له الله أن يتقلب، أمام ناظره آنذاك، كطعام تقادم عليه العهد، وتبرّم منه من كثرة ما أكل منه، وفاحت منه رائحة الفساد، فلا يكون عندئذ في نفسه، بل أمام ناظره، ما يشغله عن المصير الذي هو مقبل إليه.

ألا تلاحظ أن هذا هو اللطف بذاته؟.. بل ألا تلاحظ أن هذا من أجلّ النعم الباطنة التي نبه إليها الله تعالى في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠/٣١].

بل كم كانت المصيبة كبيرة لو أن نذير الموت جاء إلى الإنسان، وهو أكثر ما يكون إقبالاً إلى الدنيا وتعلقاً بها، وكانت هي أكثر ما تكون زينة وبهاء ومتعة في نفسه وأمام ناظره!.. إذن لكان انقطاعه عن الدنيا أشبه ما يكون بمجموعة من خيوط الحرير نشبت بين أغصان كثيفة من الشوك، فجاءت يدٌ قوية فاجتذبتها بشدة، فتقطع منها ما تقطع، وبقي منها ما بقي بين الشوك.

* * *

ثم اعلم أن هذا الذي قلته لك، إنما يصدق على من قد آمن بالله ورسله وكتبه، ومن ثم عرف قصة وجوده في هذه الحياة الدنيا، والمقطع الثاني من رحلته بعدها، ثم المقطع الثالث والأخير، حيث المعاد والمستقر، والأجر الذي وعد الله به عباده الصالحين، وأدّخره لهم إلى ذلك الميقات المحدد في علم الله عز وجل.

فمن آمن بالله هذا الإيمان، وعرف برنامج رحلته هذه، كما حددها له الله عز وجل، سيسخر نعيم الدنيا للنهوض بالواجبات التي كلف بها، وسيكون بؤسها وابتلاؤها، سبباً في تحرره من أسرها وترفعه على مغريات وأسباب الاغترار بها.. وسواء وافاه الأجل في الشطر الثاني حيث الضعف بعد القوة والمشيب بعد الشباب، وخمود الغريزة بعد هياجها، أم وافاه في الشطر الأول حيث مرحلة الإقبال على المشتبهات والأهواء، وجموح الغريزة بحثاً عن رغائبها، فإن نذير الموت لا يقبل إليه، إلا وهو معرض عن الدنيا، مشتمز مما كان مقبلاً عليه منها.

وذلك، أن الله تعالى - لطفاً منه وإحساناً بهذا الفريق من عباده - يطلعه قبيل موته على ما ينتظره من النعيم الذي يأخذ بالألباب، وتنساب من وراءه النفوس، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فتأخذه من ذلك غمرة تنسيه لذائد الدنيا كلها، ويغدو وإن همه الأوحاد أن يرحل إلى ذلك النعيم الذي أخذت تشرئب إليه روحه ونفسه.

وهذا هو المراد بالبشرى التي وعد الله أن يكرم بها عباده الصالحين في الحياة الدنيا، قبل الآخرة. وذلك في قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢/١٠-٦٤].

أما التائبون عن هوياتهم، الجاهلون بربهم، والحائرون في معنى وجودهم وفي حقيقة هذه الحياة الدنيا، فلن يكون الموت بالنسبة إليهم إلا شقاء فوق شقاء، ولن يقتحموه إلا على أنه ظلمات يقعون منها في تلافيف عدم موحش.. سواء أقبل الموت إلى أحدهم وهو في ريعان الشباب وقمة العافية والنشاط، أو تلبث عنه فلم يدركه إلا وهو في غمرة الضعف والعجز والمشيب.

ذلك لأنه إن تخطفه الموت وهو يتقلب من الدنيا في نعيم ورغد من العيش معافى من الأوجاع والآفات، كان فراقه لها إلى ذلك الوادي المظلم الموحش أشق عليه من سكرات الموت؛ وإن أدركه الموت وهو يتلقى من الدنيا بؤسها ومصائبها، ويعاني من أوجاع وأمراض

لتبارحه، خرج من الدنيا وهو يندب حظه الموحش الأسود، ويكي فرصة الوحيدة التي جرّعته ألوان الشقاء.

وهيهات أن يجد في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٥]، أي عزاء أو سلوى، لأنه غير مؤمن بالله الذي يقال له إنه صاحب هذا الكلام أو هو مؤمن به هذا الإيمان الشكلي الأجوف الذي يتجمل به كثير من الغربيين، دون أن يكون له أي سلطان على تفكيرهم، ومن ثم دون أن يكون له أي تأثير على سير حياتهم... إن النتيجة بالنسبة لهذين الفريقين سواء.

* * *

هذا كله، عن الأجر الذي ألزم الله به ذاته العلية، وادخره لعباده الصالحين، مما قد وصف جانباً يسيراً منه في محكم تبيان.

أما الأعطيات التي يتكرم الله بها على عباده، علاوة على تلك الأجور التي ادخرها لهم، مما يدخل في عموم معنى الجزاء، كما قد أسلفنا من قبل، فهي نعم ومكرمات عاجلة، وسيحين الحديث عنها عندما نشرح الحكمة الآتية قريباً، والتي يقول فيها ابن عطاء الله: «جَلَّ ربنا أن يعامله العبد نقداً، فيجازيه نسيئة».

* * *

الحكمة السبعون

«من وجد ثمرة عمله عاجلاً،
فهو دليل على وجود القبول آجلاً»

ثمرة العمل تتنوع حسب تنوع العمل الذي يتقرب به المسلم إلى الله.

فثمرة العبادة، من صلاة وذكر ونسك وحج وصيام ونحو ذلك، تتمثل في حضور القلب وسريان الخشية إلى النفس، والشعور بلذة الإقبال إلى الله وامتعة الدخول في مناجاته، وما يتبع ذلك من صفاء السريرة والتسامي كلياً أو جزئياً على حظوظ النفس وما تستلزمه من الوقوع في المنكرات.

وثمرة الأعمال الاجتماعية المبرورة تتمثل في الوصول إلى نتائجها، والمراد بالأعمال الاجتماعية كل ما عدا العبادات المعروفة والمحددة، من آداب الأسرة وحقوق أفرادها وواجبات كل منهم، وأخلاق التعامل مع الآخرين، ورعاية الأحكام الشرعية والعمل جهد الاستطاعة على حسن تنفيذها ودعوة الناس إلى الله وتعريفهم بدينه وتجييبه إلى قلوبهم، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضمن حدود الاستطاعة.

فثمرة هذه الأعمال تتمثل كما قلت لك في الوصول إلى نتائجها. وقد نبه البيان الإلهي إلى كثير من هذه النتائج، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧/١٦١] وقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [التور: ٥٥/٢٤].

والمراد بالحياة الطيبة في الآية الأولى، شعور الإنسان بالرضا عن الله، والقناعة التامة بما أقامه الله فيه وبما قد متعه به، وغياب الشعور بالمكدرات والمزعجات عن النفس.. والمراد بالاستخلاف في الآية الثانية، تمكين المسلمين في الأرض وردّ غائلة العدوان عنهم، ومدّ رواق الأمن والطمأنينة على حياتهم، وتقطيع أطماع العتاة والظالمين عنهم. وقد أوجز البيان الإلهي هذا المعنى في قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣/١٤-١٤] وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصر: ٥٠/٢٨].

وتأمل في دقة التعبير لدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: عبّر عن النتائج الطيبة للأعمال الصالحة التي يتقرب بها المسلم إلى الله، بالثمرات، كي لا تلبس عليك بالأجر الذي قرر في الحكمة السابقة أنه مدّخر ومؤجل إلى يوم القيامة.

إذن، فابن عطاء الله ينبهك إلى الفرق بين الأجر الذي وعد الله به عباده على أعمالهم الصالحة، والثمرات التي من شأنها أن تظهر في حياتهم ثمرة ونتيجة لتلك الأعمال. إن هذه الثمرات ليست إلا مظهراً لصلاح تلك الأعمال. ولولا هذا الصلاح الذي فيها، والذي يتبدى بنتائجها وآثارها، لما أمر الله عباده بها.

مثال ذلك ما يأمر به الوالد ابنه من الدراسة والجدّ فيها، وما يعده على ذلك من جائزة مالية ادخرها له.. فإذا انقادت الولد لأمر أبيه، وعكف على الدراسة كما طلب، فلسوف يرى ثمرة دراسته نجاحاً في مدرسته، وحصولاً على الشهادة التي كان يسعى إليها.. ثم إنه يتلقى إلى جانب هذه الثمرة التي جناها الأجر الذي وعده به والده أيضاً. ولن تلتبس عليك الثمرة الطبيعية لدراسته والتي كانت السبب في تكليف والده له بالجد في الدراسة، بالأجر الذي وعده به أو المكافأة التي ادخرها له.

فمسألة الأعمال الصالحة التي كلف الله بها عباده، ووعدهم بأجر جزيل عليها، كمسألة الدراسة التي يكلف الوالد ابنه بها، ثم يعده بمكافئة مالية مجزئة عليها.. إن ثمرات هذه الأعمال الصالحة ليست إلا كثمرة الدراسة التي يجتد الطالب في الإقبال عليها، لالعلاقة لها بالأجر، وإنما هي سبب للتكليف بالأعمال والجهود المثمرة لها، وسبب للأجر الذي أناطه المكلف بها.

وإذا تبين لك هذا المعنى، أدركت مدى كرم الله ولطفه بعباده إذ يأمرهم بما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم في حياتهم الفردية

والاجتماعية، ثم إنه (علاوة على ذلك) يلزم ذاته العلية بأجر وفير وعظيم لهم على سعيهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم!!... ونحن نعلم أن الأجر يُعطى عادة لمن يتعب نفسه ليقدم خيراً وفائدة للمستأجر، لا للأجير.

ولكن ها أنت ترى أن المستفيد من تنفيذ التكاليف والتعليمات، هو الإنسان، أي الأجير إن صح التعبير، أما الله فهو الغني دائماً عن عباده وصدق الله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥].

فما للإنسان يتلقى كل هذا الدلال من ربه؟

يهديه الله إلى ما يضمن له أمنه وسعادته ورغد عيشه في حياته الدنيا، ثم يعده على اتباع هذه الضمانات الأجر الوفير والجزاء العظيم، والمكرمات التي لاحد لها؟!..

والجواب: أنها رحمة من نوع الرحمة التي بثها الله في فؤاد الأب تجاه ابنه، إذ يأمره بما فيه صلاحه وسعادته، ثم إنه يعده، إن هو سار في ذلك الطريق وحقق لنفسه السعادة التي يرجوها له، بالمكافآت المالية والهدايا الثمينة، تشجيعاً له وحمية له عن الشرود والوقوع في أسباب التيه.

ولاريب أن رحمة الوالد بابنه إذ تدفعه إلى معاملته على هذا النهج، إنما هي فرع عن رحمة الله عز وجل بالوالد وما ولد، بل بهذه الأسرة الإنسانية كلها، بل بهذه الخليقة جمعاء.

كان هذا الذي قلته لك، بياناً للفرق بين ثمرة العمل، والأجر المدخر عليه، كي لا يلتبس عليك واحد منهما بالآخر.

أما المعنى الذي تدور عليه هذه الحكمة، فهو أن العمل الصالح الذي يتقرب به العبد إلى الله عز وجل قد يكون مقبولاً عنده وقد لا يكون مقبولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال عز وجل عن أقوام عملوا الصالحات بحسب الظاهر: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢٣] ولذا فقد كان من شأن الصالحين من عباد الله، إذا وُفقوا لطاعة تقربوا بها إليه، أن يتقلبوا في هم واصلب، من احتمال أن تكون طاعتهم مردودة عليهم، وأن يتطلعوا إلى القرائن التي تطمئنهم إلى قبول الله لها.

فابن عطاء الله يلفت النظر في ذلك إلى قرينة إن وجدت، دلت على قبول الله لها، وهي أن يجد العبد ثمرة طاعته عاجلاً أي في حياة الدنيا، بل ربما أثناء تلبسه بتلك الطاعة.

فمن علائم قبول الله للصلاة أن يشعر المصلي فيها بلذة الإقبال على الله، وأن ينصرف بكليته إليه أثناء خطابه ومناجاته له، وأن يشعر بعظمة من يقف واجفاً بين يديه.. ومن علائم قبول الله لها أن تصدّه عن الوقوع في المحرمات، وأن تبعث في نفسه الرغبة في الرجوع إليها، أي إلى الصلاة مرة أخرى.

ومن علائم قبول الله لذكر الذاكرين، أن تبعث اليقظة إلى مراقبة الله في قلوبهم، وأن لا يكون حظهم من ذكره عز وجل محصوراً في

ألستهم، وأن يبعث الخشية من الله في نفوسهم، فيجعلهم مما هم مقبلون عليه من أمر آخرتهم على وجل... وأن يورثهم الطمأنينة على شؤون دنياهم وأسباب معيشتهم..

ومن علائم قبول الله لمناسك الحج إلى بيته الحرام، أن تقطعه عن مشاغل الدنيا وهمومها وعوائقها، فلا يلتفت أثناء أداء مناسكه، لا بلسانه ولا بقلبه، إلى شيء من هموم معاشه، بل ينساها أو يتناساها، ولا يخوض مع الخائضين في شيء من أمور الدنيا وأحوال الناس، وأن يكون له من إقباله الكلي على الله في طوافه وسعيه ووقوفه بعرفة، ما يملأ قلبه خشية من الله وتعظيماً له واستسلاماً لحكمه وثقة بحكمته.

ومن علائم قبول الله لتلاوته القرآن، أن يشعر أنه مائل بين يدي الله، وأنه عز وجل يناجيه هو بهذا الكلام، فتأمل كيف يتفاعل هذا الذي يشعر بذلك مع آيات الخوف والرجاء، ومع بيانات الله عن لطفه ورحمته بعباده، وعن عظيم سلطانه وباهر سطوته وحكمه..

ومن علائم قبول الله لانقياد المسلمين للأحكام الاقتصادية والاجتماعية وانضباط علاقاتهم بالمعايير الأخلاقية، أن يتحقق لهم من ذلك عامل ينهضهم من كبوتهم ويحررهم من تخلفهم ويصرف أيدي المعتدين وأطماعهم عنهم، وأن تضحلّ عوامل الشقاق والتدابير مما بينهم.

وأعود فألفت نظرك إلى أن هذه العلام كلها، إن هي إلا ثمرات ونتائج لتلك الطاعات والسلوكات التي أمر الله بها، وهي الحكمة (أو

جزء من الحكمة) من أمر الله عباده بها.. إذن فهي ليست جزءاً أو أجراً على العمل، كما قد سبق أن بينت لك الفرق بين ثمرات العمل والأجر المقرر عليه.

ولعلك تسأل: وهل يتعرض العمل الصالح لعدم قبول الله له، إن جاء وافياً لسائر الشروط والأركان، وجاء تنفيذه حسب المطلوب، حتى يحتاج العاملون إلى تلمس علامات القبول له؟

والجواب: أن توافر الشروط والأركان وحدها، لا يكفي سبباً لقبول الله للعمل الصالح أياً كان نوعه. إن توافر الشروط والأركان في عمل ما من الأعمال الصالحة، أشبه ما يكون بتوافر البنية الجسمية كاملة في كيان الإنسان، هل يكفي تكاملها شرطاً لوجود الحياة؟.. من المعلوم أنه لا بدّ بعد هذا التكامل من سريان الروح في سائر أجزائها.

وروح العمل الصالح، أياً كان نوعه، الإخلاص لوجه الله عز وجل، وغياب سائر الأغيار عن قصد العامل وسعيه.

فإذا تلبس العامل بالعبادة، من صلاة أو نسيك أو ذكر أو نحوها، وكانت في نفسه حوافز دنيوية أخرى للنهوض بها، فإن الشأن في ذلك العمل أن لا يكون مقبولاً من الله عز وجل، ومن ثم لا تظهر آثاره وثمراته التي أشرت إلى بعض منها.

وإذا كانت الأنظمة الاجتماعية في حياة الناس أو بعضهم، متفقة مع شرائع الله وأحكامه، وكانت العلاقات فيما بينهم منضبطة بالأخلاق التي أمر بها الله عز وجل، ولكن كان الحافظ إلى ذلك الاتفاق والانضباط، مصلحة من المصالح الدنيوية، أو مصانعة وتحملاً لبعض

الناس، ابتغاء مغنم، أو فراراً من مغرم، فإن تلك الأنظمة والمعاملات الأخلاقية، مهما سمت في رتبة الاتفاق مع أوامر الله تعالى، لن يكون لها أي قيمة في ميزان القبول الإلهي لها، إذ تضيع جدواها ويذبل وجودها، تحت شعاع قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠/١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥/٩٨].

إن السرّ الذي يجعل الأعمال الصالحة مصدراً للحياة الطيبة التي وعد الله بها، والذي يجعل الانضباط بشرائعه وأحكامه سبباً لتمكين المنضبطين بها في الأرض، ولتحويل الله قيادة الدنيا إليهم، لا يتمثل في الطبيعة المادية لتلك الأعمال الصالحة، ولا في طبيعة تلك الشرائع بحدّ ذاتها، وإنما يتمثل في معنى الانقياد لأمر الله من خلال الانضباط بها. فالقوة والظفر والتمكن في الأرض والتغلب على المعتدين، لا يأتي شيء من ذلك نتيجة لانضباط آليّ بسلوك، وإنما يأتي نتيجة لتلبية الله فيما أمر، والقصد إلى بلوغ مرضاته في تنفيذ ما قد شرع وحكم، وانظر كيف يلفت البيان الإلهي نظر العاقل المتدبر إلى هذه الحقيقة، في قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [ابراهيم: ١٤/١٣-١٤].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ هذا هو مناط النصر والتأييد وهذا هو سرّ العلوّ والتمكين في الأرض.

أي فلو أن المسلمين تقيّدوا بأوامر الله وأحكامه، اقتناعاً منهم بها، أو تقليداً لأمم أخرى، لا انقياداً لأمر الله تعالى أو خضوعاً لما تقتضيه عبوديتهم ومملوكيتهم له سبحانه وتعالى، فإن تقيدهم بها لن يحقق في حياتهم هذه الثمرات والنتائج.

ضمّني منذ سنوات طويلة مجلس، كانت فيه ثلّة من اليساريين المعتزّين بانتمائهم إلى المعسكر الشرقي، وذلك أيام كان في البسطاء من الناس من لا يزالون مخدوعين به، معتزّين بانتمائهم إليه، كنت أتحدّث عن الإسلام وحقيقته وأهميته وضرورة العودة إليه والتمسك به، فقال لي أحدهما مستخفاً:

كم هي المدة التي يضمن لنا الإسلام (إن تمسكنا بتعاليمه خلالهما)، أن يحقق لنا آمالنا في التقدم والرخاء والنصر؟

قلت له: إن كنت تشترط على الله، فاعلم أن الله غني عن التزامك بتعاليمه، ومن ثم فليس لك عنده ما يمكن أن تطالبه به.. ولسوف تجتّر تخلفك وهوانك أنت وأمثالك، ما امتدت بكم الحياة.

ولكن إن جاءك يوم عرفت فيه أنك عبد مملوك لله، وأنه وليك من دون المخلوقات كلها، فخضعت لأوامره وأحكامه لالشيء إلا لأنك عبده ولأنه سيدك ومولاك، فقد قضى الله رحمة منه وإحساناً أن يكرمك بالنصر والتأييد وإنقاذك من سائر دركات التخلف.

ثم قلت له: أنا أعلم أنك شيوعي المذهب والعقيدة، فهل سألت قادة مذهبك هذا عن المدة التي ينبغي أن تقطعها أنت وأمثالك في

خدمته والنهوض بتعاليمه، حتى يتحقق لكم على أعقاب ذلك الرخاء المنشود ويظهر الفردوس المفقود؟!.. أنا أعلم أن هذا السؤال لا يخطر منكم على بال، لأن شيوعتكم دين، والدين لا يواجهه بمثل هذا السؤال^(١).

* * *

وبعد، فهل لك أن تعجب معي من هذه الظاهرة التي ما عرفت لها سراً إلى اليوم، أو أن تكشف لي عن سرها:

يمضي أحدهم الشطر الأول من حياته، متعاملاً مع سائر الأوهام إلا مع الحقيقة، يتخذ لنفسه آلهة كثيرة متنوعة من دون الله، فإذا ذُكر به أعرض عنه واستخف به، واعتذر بأنه ليس رجل غيبات وإنما هو رجل علم، ثم إنه يغرق من الأوهام الباطلة التي تصاغ بصياغة العلم، في شبر من ضحضاحها.

فإذا جنحت شمس حياته إلى المغيب، وغزا الشيب رأسه، وسرى الضعف في كيانه، أقبل إلى ما كان معرضاً عنه، وتنبه إلى الحقيقة التي كان ذاهلاً عنها، وخلع عن نفسه ربة أوهامه، وأقبل مصطلحاً مع الله وقد بايعه عبداً ذليلاً على الضراء والسراء!!..

ألم يكن الشطر الأول من حياته أولى بمعانقة هذه الحقيقة والترفع عن تلك الأوهام؟ أليس الشطر الأول من حياته هو المرحلة التي يتألق

(١) ثم أصبح هذا الذي كان متعجرفاً على الله بالأمس، عبداً من عباده الصالحين اليوم، ولله دائماً في خلقه شؤون وشؤون..

فيها الفكر وينضج فيها العقل، ويصل الإدراك فيه إلى القمة، كما يصل فيه النشاط الجسمي إلى الأوج؟

فقيم لا يظهر الإيمان ولا التدين في حياة هؤلاء الناس إلا مع مرحلة التقاعد؟ ترى أهي تسلية يجنح إليها هؤلاء المتقاعدون المسنون عند الفراغ، أم هو التفكك بالدين، بعد الشبع من مائدة الأباطيل، والأوهام، وأمنيات النفس ورغائب الأهواء؟..

وما هو موقف الرب الرؤوف الكريم، المحسن الرحيم، من هؤلاء العائدين إليه، مع ثمالة العمر، وبقايا الأيام؟
كل ما أعلم أن لله في خلقه شؤوناً، وأي شؤون!..

* * *

الحكمة الجادية والسبعون

((إذا أردت أن تعرف قدرك عنده، فانظر في ماذا يقيمك))

ورد قريب من هذا المعنى في الحديث الذي رواه الدارقطني والحاكم، من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أراد أن يعلم ماله عند الله، فلينظر ما لله عنده» ورواه أيضاً أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة وسمرة مرفوعاً.

وربما ضعف الحديث بعضهم، ولكنه يقوى بطرقه وشواهده المتعددة. وعلى كل فمعنى الحديث ثابت وصحيح، وهو ما يؤكد ابن عطاء الله في هذه الحكمة.

وقبل أن أبدأ بشرح الحكمة وما يرمي إليه ابن عطاء الله منها، ينبغي أن نتنبه إلى أن الفائدة التي ينبغي أن يتوخاها أحدنا، عندما يحاول أن يستبين مكانته عند الله تعالى، هي الاستغراق في شكر الله عز وجل، ومعرفة المزيد من نعمه وآلائه التي امتن الله بها عليه، دون استحقاق منه، وإنما بتفضل وإحسان منه عز وجل.

فما هو الميزان الذي يبين مقامك أو قدرك - على حدّ تعبير ابن عطاء الله - عند الله عز وجل؟

الميزان الذي يبين ذلك، هو الحال التي تسري في مشاعرك وتهيمن على قلبك، ثم الواقع الذي تنقاد إليه بسلوكك.

أما الحال، فهي تحدثك عن مقامك عند الله تعالى، من خلال ما تعرفه من مكانة الله في قلبك، حباً ومهابة وتعظيماً.

فإن راجعت حالتك القلبية، وكشفت لك هذه الحال عن مدى حبك ومهابتك وتعظيمك لله، فاعلم أن ذلك ليس إلا أثراً من آثار محبة الله لك، بالقدر الذي يهيمن من حبك له على مشاعرك وفؤادك.

ولكن، فما هو الدليل على هذا؟.. ولماذا لا يكون الأمر بالعكس؟ أي لماذا لا يكون حب الله لك فرعاً ونتيجة لحبك له، أو نوعاً من الأجر والجزاء على توجه قلبك إليه بالتعظيم والحب؟

إن الدليل على ما نقول - وهو ما يقرره ابن عطاء الله - قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤/٥] فقد قرر البيان الإلهي محبته لهم، قبل محبتهم له، أي فهم إنما يحبونه بحبه السابق لهم.

ودليل آخر من كتاب الله أيضاً، يتلخص في التكريم الذي أضفاه الله على الإنسان متمثلاً في روحه التي نسبها إلى ذاته العلية، وفي أمره الملائكة بالسجود له، في مظهر آدم عليه السلام، وفي إعلانه البياني عن هذا التكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠/١٧]، والتكريم لا يكون إلا أثراً من آثار الحب. إذن فقد كان حب الله للإنسان سابقاً على حبه له.

ثم إن مآل هذا التكريم، (بقاء، وتفاوتاً في الدرجة، وزوالاً)، إلى ما يقرره الإنسان ويصنعه بحق نفسه، فمن الناس من ازدادت مكانتهم عند الله علواً وتكريماً، ومنهم من تدنت بشكل جزئي، ومنهم من تحولت بهم إلى النقيض فردهم الله - كما قال - أسفل سافلين.

المهم أن الإنسان في أصل نشأته الفطرية مكرم عند الله، وذلك دليل على حبه السابق له.

وهذا دليل على أن في الناس من قد أحبهم الله، فكرمهم ونعمهم، ولكنهم لم يستأهلوا حبه وإكرامه، بما فعلوه في حق أنفسهم من الطغيان بنعمه، وامتطاء سهوة الاستكبار بمظاهر فضله، فسلبهم الله تلك المكرمة.. مكرمة المحبة التي شرفهم بها.

ولعل الذين تحدث البيان الإلهي عنهم في صدر الآية السابقة، نماذج منهم، وهي قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾ الآية.

وأما الواقع الذي تنقاد إليه بسلوكك، فهو الجزء الثاني من الميزان.

إن مشاعر الحب لله عز وجل، لاتستبين حقيقتها إلا بآثارها التي لا بد منها. وهي إنما تتمثل في السلوك المتفق مع تلك المشاعر.. فإذا رأيت أن واقعك السلوكي الذي تنقاد إليه أعضائك وجوارحك، متفق مع مقتضى مشاعر حبك لله عز وجل، من الإقبال على الطاعات والقربات، والدعوة إلى الله، والتعريف بدينه وشرعته، وتحبيب ذلك كله إلى الناس، مع الابتعاد عما حرمه الله وحذر منه، فاعلم أن لك من المنزلة عند الله بمقدار ما له عندك من المنزلة التي دل عليها ميزان مشاعرك وسلوكك.

واعلم أن كل مسلم صادق في إسلامه لا بدّ أن يكون له نصيب، قل أو أكثر، من منزلة القرب والحب عند الله عز وجل. فأقلّ ذلك منا يدلّ عليه إسلامه وإيمانه بالله تعالى، إذ لو لم يكن له عند الله من المنزلة ما استدعي انجذابه إلى الإسلام وتوجه قلبه إلى الإيمان، لما تمتع مظهره بتعاليمه، ولما سرت عقائده إلى قلبه، وصدق الله العلي العظيم إذ قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضَلًّا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/٧-٨].

ثم إن المسلم تزداد منزلته عند الله علواً، كلما ازداد صدقاً مع الله في إسلامه، وكلما ازداد فؤاده حباً وتعظيماً له.

وإذا علمت أن ما لله عندك من منزلة حب وتعظيم له في قلبك، ومن خضوع لتعليماته بسلوكك، ليس إلا ثمرة لمنزلتك عنده ولرحمته بك وفضله عليك، فإن علمك هذا لا يمكن أن يدخل شيئاً من التباهي أو العجب في نفسك. وإنما يشعرك بمزيد من المنة والفضل له عليك. إذ لولا العناية السابقة من الله بك، لما تمتعت بشيء من التوفيق اللاحق في سلوكك وحياتك.. والشأن في هذا الشعور أن يزيدك حباً لله وتعظيماً له وتعلقاً به. وإنما تنساق إلى ذلك بدافع من مبادلته، جل جلاله، حباً بحب... لقد أحبك فجذبك إليه، وعرفك على ذاته وحبب إليك الانقياد لأمره، أفلا تنبعث في نفسك النشوة من هذا الشعور، ومن ثم أفلا تلهب هذه النشوة فؤادك بمزيد من الحب له.

هذه النشوة، هي التي دفعت تلك المرأة التي حدثتك من خبرها في الجزء الأول من هذا الكتاب، إلى أن تقوم في جنح الليل تصلي وتناجي الله قائلة: «اللهم إني أسألك بحبك لي أن ترحمني وتكرمني..» إلى آخر ما كانت تدعو به الله عز وجل.. لم تتحدث عن حبها له، لأنه في نظرها شيء تافه وقليل أمام حب الله لها، ذلك الحب الذي عنه تفرع حبها له، وبه انجذبت إلى الوقوف بين يديه والتمتع بلذة مناجاته له.

فإذا عدت إلى نفسك وشعرت بأن شعاعاً من محبة الله يسري إلى قلبك، ونظرت فوجدت أن الله قد أقامك من شؤون الحياة ووظائفها فيما يرضيه وصرفك عما لا يرضيه، فلترقص الفرحة بين جوانحك، إذ كنت، وأنت التافه الحقيقير، مكاناً لعناية الله بك والتفاته إليك وإقامتك منه في مقام الوداد والقرب، وردد مع ابن الفارض رحمه الله قوله:

أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه قولُ المبشر بعد اليأس بالفرج
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذُكِرْتَ تَمَّ، على ما فيك من عوج

* * *

وأما إن عدت إلى نفسك، فرأيتها محجوبة عن شمس الهداية، غارقة في ظلمات الأوهام، تفرّ من الحديث عن الديان، وتستثقل التذكرة بالمآل، وتنتعش بالتقلب فيما هي راحلة عنه؛ ثم عدت إلى واقعك السلوكي، فرأيتك سجيناً في أودية المعاصي والآثام، لاترتاح إلا في ظلماتها، شارداً عن ساحة العبادات والطاعات، لاتألفها ولاتركن

إليها.. فاعلم إذن أن هذا هو عنوان منزلتك عند الله. واعلم أنه إن طال بك الوضع على هذا المنوال فإنما هو نذير شقاء دائم لا مردّ له ولا رجوع عنه، ولاتفيدك الندامة إلا أن تزجك في مزيد من الآلام.

فإن كانت ذاتك عزيزة عليك، ولم تكن قد هانت لديك إلى درجة اللامبالاة بمصيرها، فتدارك شأنك اليوم، وانتهاز الفرصة التي لاتزال ماثلة أمامك..

وسبيل هذا التدارك أن تبدأ فتدخل على الله من باب الفاقة والذل، وأن تشكو إليه حالك، وأن تعتذر إليه بعجزك، وأن تحدّثه (وهو العليم بكل شيء) عن رغبتك في الهداية مع عجزك عن الوصول إليها، وعن كراهيتك لعصيانه مع انجذابك إليه ووقوعك في أسرته، وعن ضعفك المتناهي الذي أفقدك القدرة على حماية ذاتك من أي سوء.. قل له: لئن طردتني عن منازل تكريمك وعن مدارج توفيقك، فحاشاك أن تطردني عن أبواب رحمتك المفتحة أمام سائر عبادك.. وهأنا قد جئت إليك من بابك هذا، ارتيمت بنفسي في ساحته، وكلّي ضعف وعجز، وذللّ وهوان، فاجعل من ضعفي المتهالك وذلّي المنكسر شفيعاً لي بين يديك.

ألا، ولتعلم أنك إن تداركت أمرك فدخلت على الله من هذا الباب، فلسوف يستجيب دعائك ويقبل رجاءك، ويذيقك برد اللطافة الخفية ومغفرته الواسعة، وصدق من قال: الصلح بلمحه.

أما إن حال بينك وبين ذلك، الاستكبار، وقامت بين جوانحك من هذه الدعوة التي أذكرك بها وأدعوك إليها، عاصفة من التمرد

والعصبية للذات، ونكران واقع عبوديتك لله، إذن فاهناً بالكرب الذي يتدانى إليك من شتى الجهات رويداً رويداً، حتى يأخذ منك أخيراً بالخناق، حيث يزجك من ملكوت الله، في سجن من العذاب الواصب الدائم، ولعلك لن تذكر آنذاك من آمال الرحمة الإلهية إلا قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠/٧-٤١].

أسأل الله تعالى أن يقيني وإياك من جنون الاستكبار عليه، وأن لا ينسينا مملوكيتنا وعبوديتنا له، وأن يجعلنا دائماً على ذكرٍ من حالنا، ساعة الرحيل عن هذه الدنيا: كتلة من الضعف والعجز والآلام، مستسلمة لمن بيديه مصيرها وإليه مآلها، ناسيةً ماضي ادعائها وسكر كبريائها، ماثلة بكل ذل وطواعية (يوم لاتغني الطواعية شيئاً) أمام قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ١٩-٩٥].

* * *

الحكمة الثانية والسبعون

((متى رزقك الطاعة والغنى به عنها،
فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة))

تتلخص الطاعة التي يعينها ابن عطاء الله، في اتباع الشريعة الإسلامية والتقيد بأحكام الحلال والحرام والواجبات.

وهي المنهج الوحيد للسير في الحياة الدنيا إلى الله، بعد بناء العقيدة الصحيحة في الكيان، وتكامل حقائق الإيمان بالله في الجنان.

إذن فلا وصول إلى مرضاة الله إلا على جسر من الانضباط بأوامر الله وأحكامه، بعد تكامل الإيمان بالله ورسله وكتبه.

فإذا وفق العبد لأداء هذه الطاعة، طبق ما تقضي به شريعة الله المأخوذة من قرآنه ومن سنة نبيه، فالمطلوب منه عندئذ أن لا يعلق آماله إلا بمغفرة الله وعفوه.

ولنبين أولاً دليل هذا من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ. ثم نجيب عن الإشكال الذي قد ينبثق من تفهم هذا المطلوب.

فأما الدليل على ذلك من كلام الله عز وجل فأيات كثيرة: منها قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

رَاجِعُونَ ﴿ [المؤمنون: ٢٣/٦٠] أي إنهم يؤدون ما افترضه الله عليهم من الطاعات، دون أن يشعروا أنهم قد ضمنوا لأنفسهم بها النجاة من سخطه والوصول إلى مرضاته، إنهم يرحلون إلى الله، دون أن يقيموا لطاعاتهم وزناً أو أن يعلقوا بها لأنفسهم آمالاً.

ومنها قوله عز وجل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ١٦/٥٠] إنهم يفعلون ما يؤمرون به من الطاعات، فقيم خوفهم إذن من الله، لو كانت آمالهم متعلقة بها؟.. إن البيان الإلهي يوضح أن هذه النخبة الصالحة من عباده، تؤدي كل ما قد طلبه الله منها من القربات والطاعات، ثم ترى أنها لم تؤد شيئاً من حقوق الربوبية عليها، ولم تفعل شيئاً مما يقتضيه شكر النعم الجليلة التي غمرها الله بها، فيهيمن عليها الشعور بالتقصير ويسري في كيانها الخوف من أن يحاسبها الله على ذلك، ولا يبقى لديها إلا الأمل بإحسانه ورحمته.

ومنها قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢/٢٠]. تأمل في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ ثم تأمل فيمن بعدهم بهذه المغفرة. إنهم أولئك الذين تابوا، وآمنوا، وعملوا الصالحات، فإذا كان المطلوب من العبد أن يعتمد على عمله الصالح الذي قام به بعد الإيمان بالله على النحو المطلوب، فما الحاجة إذن إلى رجاء المغفرة، وإنما هي ملاذ التائبين والعاصين والمسرفين على أنفسهم؟..

ولكن هأنت ترى كيف أن البيان الإلهي، ينبه حتى الطائعين المستقيمين على أوامر الله، إلى أن عليهم أن لاتتعلق منهم الآمال إلا بمغفرته.. وإنما يعلق أحدنا أمله بمغفرة الله، عندما يرى أنه مفلس من الطاعات، مقصر في أداء الواجبات، إذ المغفرة هي الصفح عن الآثام والتجاوز عن موجبات النكال والعقاب.

ومنها قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧].

ودلالة هذه الآية على المعنى الذي يذكره ابن عطاء الله، كدلالة الآية التي قبلها. إذ الرحمة والمغفرة إنما تكونان لمن استحق عقاباً لتقصير أو تفريط بدر منه، فيتداركه الله برحمته فيغفر له. أي فمن كان مؤدياً للحقوق التي عليه، منجزاً لسائر التبعات التي تلاحقه، لاجابة به إلى الرحمة ولا إلى المغفرة.. إذ هو يملك أجره بمقتضى الحق الذي له.

وهذه الآيات كلها تدور على معنى واحد، هو أن المسلم لايتحرر من ربة التقصير في حق مولاه، مهما أطاع الله فيما أمر، ومهما ابتعد عما نهى وحذر. بل إنه في قرباته التي يؤديها، يزداد وقوعاً تحت أعباء المنن الإلهية، إذ وفقه الله إليها وأقدره على أدائها، وشرح صدره للثبات عليها.

إذن فالمطلوب منه أن ينهض بأداء الطاعات، ثم أن يوجه آماله إلى رحمة الله ومغفرته وصفحته، دون أن يقيم لطاعاته وزناً.

أما ما يدلّ على هذا المطلوب ذاته من حديث رسول الله ﷺ، فإن من أوضح ما يدلّ عليه قوله ﷺ في الحديث الذي مرّ ذكره في أكثر من مناسبة «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

ومما يدل عليه أيضاً ما صح في أحاديث كثيرة من كثرة استغفاره في البكور والآصال. ومن ذلك قوله: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»^(٢)، وقوله: «إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٣).

وقد علمت أن رسول الله ﷺ معصوم من الذنوب التي تستوجب الاستغفار، وقد كان يحمل نفسه من عزائم الطاعات والقربات ما لا يستطيع أن يتحملة الآخرون، ويقول لهم _ كي لا يحملوا أنفسهم جهد اتباعه في خصوصياته تلك - «إنني لست كأحدكم...» فقيم يستغفر الله إذن، لو كان يعتمد في آماله برحمة الله وفضله على طاعاته الشاقة التي كان يجهد نفسه بأدائها؟..

(١) تقدم تخرجه في الصفحة ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٢) رواه مسلم وأحمد من حديث الأعز المزني.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

إن سبب كثرة استغفاره أنه لم يكن يرى لطاعاته الكثيرة شأناً أمام عظيم حقوق الله عليه، وأمام مننه ونعمه الكثيرة التي لا تحصى، فكان لا يبارحه، من جراء ذلك، خيال التقصير في جنب الله عز وجل.

* * *

ثم إنه قد يقفز إلى ذهن القارئ أحد الإشكاليين التاليين:

الإشكال الأول أن الله تعالى قد جعل الجنة وما يتبعها من المكرمات جزاء للعمل الصالح أو لمن يؤدي العمل الصالح من المؤمنين، فأناط الأول بالثاني، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧/١٨] وقوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢/١٦] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢] وهذا الربط المتكرر من البيان الإلهي بين العمل الصالح والأجر الذي هو النعيم المقيم يوم القيامة، من شأنه أن يؤمل المسلم الذي يتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، بأن تكون أعماله هذه سبباً لمرضاة الله عنه ودخوله جنته، فكيف يتناساها بعد أن يؤديها مخلصاً بها لله وحده؟

والجواب: يتلخص فيما سبق أن ذكرته لك في مناسبة سبقت، من أن هذا الربط الذي تعبر عنه الآيات التي ذكرتها وآيات كثيرة أخرى، إنما هو من طرف واحد، وليس نتيجة عقد من طرفين، كما هو شأن الإنسان مع الإنسان. فقد ألزم الله ذاته العلية أن يخرج من شاء من

عباده من الظلمات إلى النور، وأن يجري الخير على أيديهم، وأن يوفقهم للقيام بالأعمال الصالحة التي ترضيه، وأن يكرمهم ويجزيهم على هذا الذي تفضل به عليهم فيسره لهم ووقفهم إليه، بما قد وعدهم به من المنن والمكرمات التي أعدها لهم يوم القيامة.

فتوفيقه لهم إلى الطاعة تفضل منه وإحسان، والثواب الذي أعده لهم، تفضل أيضاً منه وإحسان، ولكنه جعل - لطفاً منه ورحمة - مكرمته الثانية جزاء لمكرمته الأولى، ولسوف نقف قريباً، إن شاء الله، على الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله: «كيف تطلب العوض على عملٍ هو متصدق به عليك، أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك».

فإذا عرفت أن عملك وجزاء عملك، كلاهما من فضل الله عليك، فكيف يطاوعك ذوقك الإنساني، فضلاً عن واقع عبوديتك لله، أن تجعل من تفضل الله عليك ثمناً لحق تطلبه لنفسك في مقابله؟!..

إذا تبين لك أن العمل الصالح الذي تقوم به والثواب الذي أعده الله لك، كلاهما من عظيم فضل الله عليك، فلم يبق لك إلا الافتقار المطلق إلى مغفرته وجوده، ولا سبيل لك للتوجه إليه وللدخول في رحابه، إلا من هذا الباب.

الإشكال الثاني: أن تعارضاً قد يخيل إليك وجوده، بين التوجه إلى أداء الطاعات انقياداً لأوامر الله، ثم تجاهلها وتناسيها بعد أدائها والفراغ منها.. ذلك لأن الاستجابة لأمر الله هي المدخل إلى مرضاته

والسبيل إلى ثوابه. وتذكر الاستجابة أمر لا بد منه في هذه الحال، وذلك يعني ارتباط الاستجابة بالثواب.

فالجواب: أن الإشكال كان وارداً، لو أن استجابة العبد لأوامر الله كانت بجهد منه وباستقلالية تامة عن معونة الله وتوفيقه. ولكنك قد علمت أن خالق الفعل هو الله، وأن التوفيق بيد الله، والمتفضل بتقديم العون هو الله، إن استجابة العبد لأمر الله، في هذه الحال، ليست إلا من قبيل المثال الذي سبق أن ذكرته لك: يضع الوالد في جيب ابنه الصغير بعض النقود، ثم إنه يجب إليه العطف على الفقراء ويوصيه بإكرامهم والتصدق عليهم، ويعدده على ذلك بمكرمة وجائزة مالية سخية.. ألا ترى أن استجابة الولد لأبيه بإكرامه الفقراء، عن طريق المال الذي كان قد دسه في جيبه، تفضل من الوالد عليه؟ وإذا غاب هذا الإدراك عن الطفل لصغره، ولأنه لا يعلم من الذي ملأ جيبه بالنقود، أفيغيب عنك هذا الإدراك، بعد أن علمت بأن العبد ليس له أمام الله إلا صفة الفقر المطلق، وأنه ما من نعمة يتمتع بها، أياً كانت، إلا وهي آتية من الله؟ وصدق الله القائل: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/٥٣].

فقل لي إذن، كيف يصح أن يجعل العبد من النعمة التي يشكر الله على أن تفضل عليه بها، ثمناً في الوقت ذاته يطمع أن يعطيه الله الأجر عليها؟

* * *

إذن فالمطلوب من العبد أن يحقق عبوديته لله على درجتين:
الدرجة الأولى، الاستجابة لأوامره وتنفيذ أحكامه على الوجه الذي طلب.
الدرجة الثانية، التوجه إلى الله خالي الوفاض صفر اليدين، إلا من
الأمّل بعفوه ومغفرته.

وإذا لم يتحقق العبد بهاتين الدرجتين من معنى عبوديته لله، لم تخل
طاعاته وعباداته من شوائب الشرك مع الله عز وجل.

وقد كان في العلماء الربانيين من يقول: إذا سمعت نداء الله يأمرك
أو ينهاك، فاعلم بأنك موجود ومكلف، وبادر إلى تنفيذ ما قد أمرك
به ونهاك عنه. فإذا نفذت وأطعت، فاعلم بأنك لاشيء، وأن الله هو
المتفضل بذلك عليك، وهو الخالق لفعلك.

فإذا تحققت بعبوديتك لله، على هاتين الدرجتين، فاهناً بأن الله قد
أسبغ عليك نعمة كلها، ظاهرةً وباطنةً.

أما أنه أسبغ عليك نعمة الظاهرة، فلأنه وفقك لطاعته، والانضباط
بشرائعه وأحكامه.. وأما أنه أسبغ عليك نعمة الباطنة أيضاً، فلأنه
أغناك به عنها، أي أغناك بالاعتماد على صفحه عن تقصيرك، ومغفرته
لأخطائك، وبأملك في واسع رحمته، عن الاعتماد على ما قد تفضل به
عليك من التوفيق لطاعته.

فهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله: متى رزقك الطاعة والغنى به،
فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرةً وباطنةً.

* * *

الحكمة الثالثة والسبعون

((خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك))

سبق أن علمت في مناسبات كثيرة مرت، أن كل ما قد يطلبه الله من عباده، من خلال الشرائع والأحكام التي يخاطبهم بها، مردّه إلى تحقيق مافيه خيرهم وسعادتهم، في عاجل أمرهم وآجله.

فما يكلف الله عباده، أمراً أو ناهياً، بشيء، إلا وفي ذلك التكليف خير لهم، فإما أن يكون مردّ ذلك الخير إلى الأفراد ومصالحهم الشخصية، وإما أن يكون مردّه إلى الهيئة الاجتماعية، وما ينبغي أن تكون عليه علاقات الناس بعضهم مع بعض.

وما أجمل ما يقرره العز بن عبد السلام رحمه الله، في صدر كتابه: (قواعد الأحكام في مصالح الأنام)، قائلاً:

((الشرية كلها مصالح، إما أن تدرأ مفسد، أو تجلب مصالح. فإذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجرد إلا خيراً يثبتك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر))^(١).

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ص ٩، ط مصطفى محمد.

وحسبك دليلاً على هذا قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤/٨].

وأساس ذلك أن الإنسان لما لم يكن يتسع علمه وإدراكه للغيب الذي هو مقبل عليه، فقد كان عاجزاً عن رسم منهاج سلوكي يحمي مصالحه من الآفات والتوقعات المحتملة، إنه كثيراً ما يعتمد على توقعاته الفكرية وهو اجسه النفسية، فيجتهد في رسم ما يصلح شأنه، ولكنه معرض دائماً للإصابة والخطأ.

ثم إنه بقطع النظر عما يأتي به المستقبل مما يجمله الإنسان، لا يكاد أحد من الناس يدرك فرق ما بين المصالح التي تسعد الأسرة الإنسانية والمفاسد التي تشقيها، عندما يعتمد في ذلك على تجاربه ومدركاته الشخصية. والدليل على ذلك أن علماء الفلسفة والاجتماع والأخلاق، بذلوا جهوداً شاقة، منذ أقدم العصور إلى اليوم، بحثاً عن ميزان يكتشفونه ويجمعون عليه، لاعتماده في التفريق بين المصالح والمفاسد، فلم يصلوا من جهودهم تلك إلى أي قرار، إنما الشيء الذي اجتمعوا وافقوا عليه، بدءاً من أقدمهم اهتماماً بهذا الأمر، وهو الفيلسوف اليوناني أبيقور (٢٣٠ ق.م) إلى أحدث العلماء المعاصرين المهتمين بالأمر ذاته، من أمثال بنتام وهوبز وستوارت ميل، هو أن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يلتقي في عصر ما على تحديد المصالح الإنسانية والتمييز الدقيق بينها وبين المفاسد التي ينبغي أن يتجنبها^(١).

(١) انظر ما قاله في بيان ذلك، بنتام في كتابه أصول الشرائع، ترجمة أحمد فتحي زغلول،

ذلك لأنه لن يكون بصيراً بما سيأتي به المستقبل، وبما قد يفاجأ به الإنسان في تلافيف الغيب المجهول، هذا إلى جانب الأعراف والعادات المختلفة، التي كانت ولا تزال تتحكم بحياة المجتمعات الإنسانية وسيرها.

أقول: وثمة سبب آخر، هو من الأهمية بمكان، ألا وهو أن الإنسان عندما يستقل بالنظر في مصالحه، اعتماداً على تجاربه ومعلوماته الذاتية، فإن المعيار الزمني الذي يقيس به المصالح والمفاسد له أو لبني جنسه، إنما هو معيار ضيق محدود بعمر الدنيا وحدها، إذ إنه - وقد انطلق إلى هذه الدراسة من معلوماته الشخصية وتجاربه ومدركاته الذاتية - لا يصر من وراء حدود الدنيا امتداداً لمزيد من الحياة أو انتقالاً إلى حياة أخرى، بحيث يرى لنفسه أو لبني جنسه هناك آمالاً يتخذ مما بينه وبينها وسائل لتحقيقها^(١).

ولكن الله الذي فطر الإنسان على ما فطره عليه من احتياجات تصلح شأنه، وأقامه في دنيا مليئة بالآفات التي تفسد شأنه وتعكر صفو سعادته، وأقامه من الزمن الذي خلقه فيه على منهاج رحلة ذات ثلاثة مقاطع، مقطع هذه الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت، ومقطع الحياة البرزخية التي تنتهي بقيام الساعة، ومقطع اليوم الآخر الذي يسلم الإنسان إلى مستقره الأخير - أقول: لاشك بأن هذا الإله الفاطر لكيان الإنسان، الواضع والمحدد لمنهاج رحلته، هو البصير بالمصالح التي تسعده فرداً ومجتمعاً، وبالمفاسد التي تشقيه أو تسيء إليه فرداً ومجتمعاً أيضاً، هو البصير بهما على مستوى رحلته الطويلة كلها، بدءاً

(١) انظر ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للمؤلف ص ٣٤.

من وجوده في هذا المستودع الدنيوي إلى وصوله لذلك المستقر الأخرى.

وقد علمت أن الله غني عن عباده، وأنهم هم الفقراء إليه، فليس في شيء مما يطلبه منهم ما قد يعود بنفع ما إليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما مردّ ما فيه من نفع إليهم. بل إنه عز وجل لم يطلب منهم فعل شيء أو الانتهاء عن شيء إلا لما في ذلك من خير لهم من حيث الفرد أو المجتمع. وربما خفي ذلك على الناس لقصور أفهامهم - كما قلنا - عن معرفة المستقبل، ولكن تلك هي الحقيقة. وصدق الله القائل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦/٢].

فإذا تبينت هذه الحقيقة، وتكامل يقينك بها، فإن أجمع دعاء يتضمن طلب كل ما يتوقف عليه صلاح أمرك في دنياك وآخرتك، أن تسأل الله تعالى التوفيق للنهوض بكل ما قد طلبه منك.

فإنه إن استجاب دعائك، وفقك للنهوض بكل ما قد طلبه منك، وإذا قمت بما قد طلبه منك حق القيام، ازدهرت ثمراته في حياتك أمناً وطمأنينة وعافية ورزقاً وافراً، وانشراحاً في الصدر وسكينة في القلب.

* * *

يضاف إلى هذا الذي يدلّ عليه كلام ابن عطاء الله، جانب آخر، يمكن أن يشمل ويدلّ عليه أيضاً، وهو أن المسلم الذي يوجه كل اهتمامه للنهوض بالتكاليف التي خاطبه الله بها، فينشغل بها عن النظر

في شؤونه الشخصية وحاجاته الدنيوية، سيجد من لطف الله به ورعايته له ما لا يدخل في الحسبان، إنه وقد شغل نفسه عن النظر في شؤون دنياه وأهله، بالانصراف إلى تنفيذ أوامر الله وأحكامه، والعمل على بلوغ مرضاته، سيجد أن الله عز وجل قد أقام من ذاته العلية، وكياً عنه في رعاية مصالحه وتحقيق متطلباته.

إننا كثيراً ما نردد هذه الكلمة القدسية «حسبنا الله ونعم الوكيل» ولكن مصداقها لا يتجلى في أي من الأحوال، كما يتجلى في حال من ذهل عن دنياه بدينه، وأهمل متطلباته، في جنب متطلبات مولاه وربّه. إذ إن الله أكرم من أن يهمل العبد في سبيل بلوغ مرضاته، شيئاً من أمور دنياه، ثم لا يكون الله أشد غيرة عليها منه.

وفي الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(١).

ولكلمة الذكر معنى شامل يتسع لسائر الطاعات والقربات التي يتغنى بها وجه الله عز وجل. إذ هي جميعاً نوافذ وفرص لذكر الله تعالى.

* * *

ثم إياك أن تتصور من هذا الذي يذكره ابن عطاء الله، وشرحت طرفاً منه بهذه الأسطر، أنها دعوة إلى ترك الدعاء، مع أن الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] أو أنها دعوة إلى

(١) رواه البخاري في التاريخ، والبخاري في المسند، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب.

إهمال شؤون الدنيا، والإعراض عما للإنسان من مصالح فيها، فإن ما يرمي إليه ابن عطاء الله بمعزل عن كل من هذين التصورين.

أما أنه ليس دعوة إلى ترك الدعاء، فلأن ابن عطاء الله يذكر بالدعاء وأهميته، ولا يحذرك منه أو يغريك بتركه، وإنما يوجهك إلى أفضل ما ينبغي أن تطلبه من الله وما ينبغي أن تدعو به.

إنه يلفت نظرك إلى الدعاء الجامع لسائر الخيرات وجميع المصالح العاجلة والآجلة، ويرى أن من الخير لك إذا سألت الله أن تسأله بأقصر عبارة ما يشمل ذلك كله.

وأما أنه ليس دعوة إلى إهمال شؤون الدنيا والإعراض عن مصالح الإنسان فيها، فلأنه إنما يصرفك عن التوجه إلى الله بطلب تيسيرها وتحقيقها أي الشؤون الدنيوية ليدعوك بدلاً عن ذلك إلى التوجه إليه بأداء تعاليمه وتنفيذ أحكامه، والعكوف على ذكره، وهو إذ يدعوك إلى ذلك لا يصرفك عن الاشتغال بمصالحك الدنيوية من كدح في سبيل الرزق أو انصراف إلى صناعة أو زراعة أو تجارة أو دراسة، للتفرغ للعبادة ومجالس الذكر.

أي إنه يخاطب من بذل كل ما يملك من جهد في سبيل مصلحة من مصالحه الدنيوية، ولم يقصر في ذلك قط، ثم أقبل إلى الله يدعوه أن يحقق له ثمرة سعيه، يخاطبه قائلاً: إنك قد بذلت كل ما لديك من طاقة لتحقيق مصلحتك الدنيوية هذه، فاترك الأمر إذن لتدبير الله، وتوجه إليه بأداء أوامره وتنفيذ أحكامه، وسله أن يوفقك للنهوض بها على النحو الذي يرضيه. ولسوف يتولّى عنك تدبير ما قصرت جهودك عن تدبيره.

وهذا ما يدل عليه الحديث القدسي الذي ذكرته وذكّرتك به آنفاً وإليك ما يقوله في التنبيه إلى هذا المعنى الدقيق، سيدي الشيخ أحمد الرفاعي في كتابه البرهان المؤيد:

«علامة جهلك اشتغالك بنفسك وأهلك، لا أقول لك: دعهم على حافة الإهمال، وخذ لك صومعة في الجبال، بل أقول لك: تقرب إلى الله بخدمة عيالك، وروح نفسك وطب بربك عن الكل» ثم يقول: «استقم بالخدمة على قدم الشريعة، واحفظ نيتك من دنس الوسائس، وأمسك القلب عن الميل إلى الناس، وكل خبزاً يابساً وماء مالحاً من باب الله، ولا تأكل لحمًا طرياً وعسلاً من باب غير الله، وتمسك بسبب لمعيشتك بطريق الشرع، من كسب حلال، واترك الحيلة بالسبب..»^(١).

تأمل في قوله أولاً: تمسك بسبب لمعيشتك بطريق الشرع، ثم في قوله ثانياً: واترك الحيلة بالسبب. ولاحظ الفرق بينهما: التمسك بسبب مشروع للمعيشة، وترك التحايل على الله التسبب للمعيشة. فابن عطاء الله إنما ينهاك عن هذا التحايل المغلف بالتسبب للمعيشة ولا ينهاك عن التسبب الشرعي المطلوب لها.

* * *

(١) البرهان المؤيد لسيدي الشيخ أحمد الرفاعي ص ١٠١-١٠٢ و ١٠٤.

الحكمة الرابعة والسبعون

«الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها، من علامات الاغترار»

عرف سيدي الشيخ أحمد زروق رحمه الله الحزن، في شرحه لهذه الحكمة، بأنه انقباض القلب لفوات محبوب، أو خوفاً من حصول مكروه. أي فهو إما أن يكون انقباضاً لأمر قد وقع أو توقعاً لمكروه قد يقع.

أقول: لعل أكثر ما يراد بالحزن انقباض القلب وتأثره لمكروه قد وقع فعلاً. أما الاضطراب الذي يساور النفس من توقع مكروه قد يحصل، فيغلب أن يعبر عنه بالغم، أما الهم فيشمل الحالين معاً، أي يكون على الماضي ويكون على المستقبل أيضاً.. وقد قال عمر بن الخطاب في خطبته التي ألقاها يوم قضى بالحجر على الأسيفع: «ثم إياكم والدين، فإن أوله هم، وآخره حزن»^(١).

والمقصود أن قيمة الحزن إذ يساور الشعور به الإنسان، إنما تتمثل في أن ينهضه إلى تدارك ما فات، بفعل متروك، أو بإصلاح فساد، أو

(١) الموطأ مع شرح المنتقى ج ٦ ص ١٩٦.

تكميل نقص، أو تقويم اعوجاج. فذلك هو الدواء الذي يتم القضاء به على مرض الحزن.. ومن ثم فإن الشأن فيمن ساوره الحزن، حقاً، على تقصيره في أداء الطاعات التي أمره الله بها، أن ينهض فيتداركها، بالتوبة من ماضي تقصيره، والمبادرة إلى قضاء ما فاتته مما يشرع قضاؤه، وملازمة القيام بها على النحو المطلوب، فيما بقي من عمره. فبذلك يتخلص من حزنه وكربه.

ولكن في الناس من يجعل مما يبدو من مشاعر حزنه، وظيفة مقصودة لذاتها، ومن ثم فهو يتخذ منها تعويضاً عن استدراك ما فاتته، وبديلاً عن إصلاح حاله والنهوض بما عليه من حقوق الله عز وجل.

ويظن هذا الفريق من الناس أن وقوف أحدهم عند جدار الكتابة والحزن بسبب ماضي تقصيره في جنب الله، هو بحد ذاته مصدر للمثوبة وكفارة للأوزار، وربما فهمه واستدلّ عليه من قول رسول الله في حديث «سبعة يظلهم الله..»: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

غير أن هذا التصور، من أخطر علامات الاغترار، كما يقول ابن عطاء الله.

لأن الحزن بحد ذاته ضرر لافائدة منه، وألم لا يمازجه خير. وإنما فائدته فيما قد يبعث إليه من إصلاح الحال وتدارك المآل، فمن اجتره دون أن ينهض به إلى شيء من ذلك، فهو شر لاخير فيه وألم لاجدوى منه.

وأغلب الظن أن الذي تبدو لك من حاله ظاهرة الحزن، في زفرات يطلقها أو دموع يسكبها، أو كلمات حارة في باب الندامة يردددها، ثم

لا يحرك ساكناً ولا يصلح فاسداً مما يأسى ويتألم بسببه، إنما يفعل ذلك تمثيلاً، ويؤديه اصطناعاً، إما ليرفع بذلك لنفسه شأناً أمام الناس، أو لما استقر في نفسه جهلاً، من أن الوجع المصطنع والبكاء المحرور، يسجلان له عند الله مثوبة وأجرًا، ويمحوان عنه كثيراً من الآثام والأوزار.

لا ريب أن هذه الحال، إن كانت كما قد وصفت لك، مظهر من مظاهر النفاق، وقد ورد في الأثر: «إذا استكمل الرجل النفاق ملك عينيه يرسلهما متى شاء» ومما يؤثر عن أبي سليمان الداراني قوله: «ليس البكاء بتعصير العيون، وإنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي منه».

وتفصيل القول في ذلك أن الحزن الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله يستوجب الخوف، الخوف مما ينتظره يوم القيامة من جراء ما قد فرط منه وقصر فيه. وإذا تحقق لديه الخوف، فلا بد أن يظهر أثر ذلك - كما يقول حجة الإسلام الغزالي - في جوارحه، وفي صفاته.

أما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل، وقد قال العلماء الربانيون: من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر اللذات، فتصير المعاصي التي كانت محبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتبهه إذا عرف أن فيه سمًا، فتحترق الشهوات في ضرام الحزن والخوف، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة

والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بسبب النظر في خطر عاقبة أمره^(١).

ولكن أفإن وجد الحزن الذي يعقبه الخوف، حقيقةً، عند صاحبه، هل من النتائج الحتمية لذلك، الإقلاع عما مضى من السيئات، وتدارك ما بقي من العمر بالإصلاح والاستقامة على الواجبات؟

يبدو أن هذه النتيجة غير حتمية الوقوع دائماً.. أي ربما كان المسلم صادقاً في حزنه وفي خوفه الذي يساوره، ومع ذلك لا يقوى على إصلاح حاله وتدارك شأنه، إذ تكون أهواؤه وغرائزه المهتاجة أقوى في سيطرتها عليه، من الحزن الذي ينتابه، فيحزن ويجزع، ثم ما يلبث أن يعود إلى سوء حاله.

وقد سبق أن ذكرت لك، أن المؤمن قد يكون قلبه فياضاً بالمحبة لله عز وجل، ولكنه يعود إلى نفسه فيرى أنه عاجز عن أداء حقوق هذا الحب لمحبهه أي لله عز وجل. ذلك لأن مشاعر قلبه أقوى من قدرات جسمه ولواعج غرائزه.. وكثيراً ما تبدى هذه المفارقة في مواقف يعلن عنها المحب تعبيراً عن مشاعره الصادقة، ثم في التراجع عنها أمام ما يفاجأ به من طاقاته المحدودة، وضربت أمثلة لذلك.

فمشاعر الحزن وما يعقبها من الخوف، شأنها كشأن مشاعر الحب تماماً. قد يصدق أحدهم في الحزن الذي ينتابه من سوء حاله، ويهيمن عليه الخوف من مصيره إن هو ظل على هذه الحال، حتى إذا عزم على الإقلاع عما هو فيه، واجهته نفسه الأمارة بالسوء فوقفت له بالمرصاد، وتغلبت نوازعها وأهواؤها على مشاعر حزنه وخوفه.

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٥٦.

فهل نعهده في هذه الحالة مغروراً، كما يفهم من كلام ابن عطاء الله؟

الذي تسكن إليه نفسي، أن المسلم عندما ينتابه الحزن لما اقترفه من آثام، ثم ينظر فيجد أن نفسه الأمانة متغلبة عليه لا يستطيع أن يتحرر من سلطانها وأهوائها، يفترض فيه، إن كان صادقاً في حزنه ومخاوفه، أن يلوذ من ضعفه الذي يعاني منه بقوة الله وتوفيقه. فيكثر من الالتجاء إلى الله بالدعاء الضارع يداوم عليه، يسأله أن يقيه من غوائل نفسه وأن يجعله في حصنه الحصين من شر كل ما يتهدده من سوء.. فإنه إن عالج نفسه بهذا الدواء، وداوم عليه، فلسوف ينجده الله ويستجيب دعاءه ويخلصه من غوائل أهوائه، ولو بعد حين.

ولقد حدثتك في الجزء الأول من هذا الكتاب عن جار لي أمضى الشطر الأكبر من عمره مسرفاً على نفسه مرتكباً للموبقات، ثم إنه تحول فجأة إلى أعلى درجات الهداية والانضباط بأوامر الله.

ولما زرتة مهنتاً بتوبة الله عليه، أخبرني أنه كان أيام فسوقه وعصيانه كثير الالتجاء إلى الله، وأنه كان يناجيه في أنصاف الليالي، والشراب المسكر أمامه، قائلاً: اللهم إنك تعلم أن هذا الجدار الذي يحجبني عنك لا قبل لي بإزالته، لأنني كما تعلم ضعيف، فمالك لا تزيله مما بيني وبينك بقدرتك التي تملك بها أن تفعل كل شيء؟.

إذن فإن أحزانه التي كان صادقاً فيها، مع ضعفه الذي كان يعاني منه، كان يوجهه إلى باب الله تعالى داعياً متضرعاً منكسراً، وكان هذا دأبه وديدنه، كما قد علمت منه.

والشأن في كل من تكون حاله كذلك، ويلوذ بباب الله كما كان يفعل ذلك الشخص، مداوماً على ذلك، أن ينتشله الله من سوء حاله وأن ينقذه من بواعث حزنه وهمه، إن عاجلاً أو آجلاً، كما انتشل جاري هذا من أسوأ ما كان يعاني منه من الفسوق والعصيان.

ولكن الذي يعبر عن مشاعر حزنه وخوفه، ثم لا يدفعه ذلك إلى الدعاء والتضرع على أعتاب الله، فالذي يترجح لديّ، أنه غير صادق في التفاعل مع أحزانه ومع الخوف الذي لا بدّ أن ينتابه على أعقابه، إذ لو كان صادقاً لهُرع إلى باب الله يلوذ به، لاسيما وإن المسلم أياً كانت حاله يعلم أن الله بيده كل شيء، وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فكيف يجزع من السوء الذي يلاحقه، ويرى الملجأ الذي ينجيه منه أمامه، ثم لا يلوذ به ولا يلجأ إليه.

فعل الذين يعينهم ابن عطاء الله بالغرور، فيما يتتابهم من مشاعر الحزن، دون أن يصرفهم الحزن عن آثامهم ويسوقهم إلى القيام بالطاعات، أولئك الذين يركنون إلى وطأة الحزن، دون أن يدفعهم العجز عن إصلاح الحال، إلى طلب العون من الله، وكثرة الالتجاء إليه، والدعاء بأن يصلح حالهم ويقوم إعوجاجهم، إن مثل هذا الحزن يشبه أن يكون وضعاً تقليدياً، وحالاً يتعامل معها كثير من الناس، وهو شأن كثير من النساء عندما تسمع إحداهن آية مخيفة في كتاب الله، فتسكب الدموع، وتطلق الآهات، وتتحسر على مافات، دون أن تجد أي دافع يدفعها إلى إصلاح الحال والتهيء للمآل. فهي ليست أكثر من حال اعتاد عليها كثير من النساء، وربما كثير من الرجال أيضاً.

على أنه لا الحزن ولا الخوف الذي يأتي على أعقابها، يمكن لأي منهما أن يرقى بالإنسان إلى مستوى العصمة من الآثام والذنوب.

فالمسلم - حاشا الرسل والأنبياء - مهما ساوره الحزن والجزع من انحرافات وكثرة هفواته، سيظل معرضاً لارتكاب المحرمات. ولله في ذلك حكمة كبرى ليس هذا مجال شرحها وبيانها.

ولعل من أهم ما تستلزمه هذه الحال، أن يظل المسلم نزاعاً إلى الحزن، ولقد صح أن رسول الله كان دائم الأحزان، على الرغم من أنه كان معصوماً، إذن فأحرى بنا نحن المعرضين للمعاصي والآثام، أن تكون مشاعر الحزن رفيقنا الدائم على الدرب، حتى يأتي قضاء الله الذي يحمل لنا معه البشارة بالمغفرة والرضوان.

ولو رجعت إلى تراجم الصالحين من العلماء الربانيين، لرأيت أن سيما الحزن لم يكن يفارقهم.. وكيف تفارقهم في أي من ساعات صحوهم، ووصية رسول الله: «(وابك على خطيبتك)» ماثلة أمام أبصارهم، وإذا كانت هذه وصية رسول الله لأصحابه البررة الكرام، فما بالك بمن جاء بعدهم، فمن بعدهم إلى يومنا هذا.

ولو كان للحزن أن يفارق عبداً من عباد الله الصالحين في هذه الدنيا لما كان انفكاك هذا الحزن عنهم يوم القيامة، عندما يتلقون نبأ رضوان الله عنهم، من أول ما يحمدون الله عليه، قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥-٣٤].

اللهم اجعلنا جميعاً من هؤلاء الذين سيحمدونك على ذلك، إنك مجيب الدعاء.

الحكمة الخامسة والسبعون

((ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه
من إشارته، بل العارف من لا إشارة له،
لفئانه في وجوده، وانطوائه في شهوده))

العارف، من بلغ من توحيده لله، وثقته بالله، وتوكله على الله،
وتفويضه إلى الله، درجة تفنى فيها إرادته فيما يريده الله، وتنطوي
فيها الأسباب تحت سلطان الله، وتذوب فيها المشهودات في وهج من
شهود الله.

وليس معنى ذلك ما قد تتوهمه من أنه ينقطع عندئذ عن التعامل
بالدنيا، وتنبّت علاقته بالآخرين؛ بل يتعامل معها ومعهم كسائر
الناس، وتظل علاقته بهم كما كانت، ولكنه إذ يتعامل مع الدنيا
وأسابها لا يرى نفسه إلا مع الله، وهو إذ يمارس شؤونه مع الناس
وينشط معهم في قضاياهم الاجتماعية وغيرها، لا يعلم من حاله إلا أنه
يتعامل مع الله، فهو كما قالوا: عرشي وفرشي بآن واحد، عرشي مع
الله في مشاعره وباطن حاله، وفرشي مع الناس في تصرفاته وظاهر
حاله، ويعبر عن هذا كله خير تعبير ما هو مأثور من قول أبي بكر

رضي الله عنه، عن نفسه: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وقبله وبعده، كما يعبر عنه قول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: «كن ظاهراً مع الخلق، باطناً مع الحق».

وهي أعلى درجات السلوك إلى الله، بعد النبوة. وقد كانت الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ يتبوؤون هذه المرتبة.

ولعلك تحسب أنها ظاهرة طارئة لم تتجل إلا في حياة طائفة من السالكين بعد عصر رسول الله ﷺ، وهو وهم ينحرف فيه كثير من الناس في هذا العصر.

إن ما حدثك عنه من صفات العارفين، وأحوالهم، التي أنستهم أنفسهم وشغلتهم عن حظوظهم ورغباتهم، ووجهت أفئدتهم إلى الله، وطوت رغائبهم وحظوظهم وأهواءهم، فيما يرضي الله وحده، هو من أخص صفات النخبة المتميزة، من أصحاب رسول الله. غير أنها كانت حالاً صامتة في حياتهم، ليس فيهم أو فيمن حولهم من يصفها أو يعبر عنها أو يحللها، ثم يدونها في مراجع ومؤلفات.. أما الذين بلغوا هذا الشأو من العلماء الربانيين الذين جاؤوا من بعدهم، فقد اقتضت طبيعة العصر الذي كانوا فيه، أن يوجد من حولهم من يتتبع أحوالهم بالدراية والدراسة والتحليل، كما اقتضى ذلك بروز مصطلحات لم تكن مألوفة ولا موجودة من قبل.

فهذا هو السبب الذي يخيّل إلى بعض الناس، أن كلمة «العارف» وما تحمله من دلالات حدثك عنها، ظاهرة طارئة تلت عصر النبوة، وربما أقحمها بعضهم في قائمة البدع المستحدثة، وهو - كما علمت - تسرع في محاولة الفهم، وعجز عن إدراك الحقيقة.

والآن: ما المراد بالإشارة فيما يذكره ابن عطاء الله هنا؟
لعل خير تعريف بها أن نقول: هي استنباط أسرار التوحيد من
وقائع الكون وأحداثه.

وهي إنما تأتي نتيجة لتتبع أحداث الكون وتقلبات الدنيا، وتلون
أحوال النفس، ثم استنباط الإرادات الربانية منها، إذ تكون تلك
الاستنباطات هي المعنية بالإشارة التي يصطلح على التعبير بها علماء
السلوك.

والعارف الكامل الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله هنا، غير معني
بالالتفات إلى أحداث الكون وتقلبات الدنيا، وتطور الأحوال، سواء في
أمر نفسه، أو في شأن ما حوله، وغير متمكن من تتبعها والتأمل فيها،
بمعزل عن شهود الله ورؤية حكمه وقضائه.

وعلى سبيل المثال، فإن أهدنا يعود إلى نفسه عندما يرى محناً
تطوف به، فيتعامل مع تلك المحن بإحدى حالتي الجمال أو الجلال،
فإن تغلبت عليه حال الجمال، استقبل تلك المحن على أنها سبب لعلو
مرتبته عند الله فاستبشر بها ورأى فيها مصدر خير. وإن تغلبت عليه
حال الجلال رأى فيها - أي في تلك المحن - نذير شر، إذ هي فيما
غلب على ظنه ثمرة لذنوبه وإعراضه عن الله.

فهذه الحال إحدى إشارتين يتلقاها أهدنا، لدى رجوعه إلى نفسه
واهتمامه بها، والنظر في حظوظها، ودورانه حول ما يهّمه من شأنها.

غير أن العارف الكامل من شأنه أن يتسامى عن هذه الحال، إذ هو
في وضع لا شأن له فيه بنفسه قط، إنه مستسلم في كل تقلباته والأطوار

التي تفاجئه، لإرادة الله، ثم إنه ليس معنياً إلا بما يرضي الله عنه، ومن ثم فهو لا يتلقى من المحن التي تصادفه أو من المنح التي يواجهها، أي إشارة تربط ما بين نفسه وربّه، حتى ينبعث لديه الشعور بالجمال سروراً بما سيعود إلى نفسه بسبب تلك المنح أو المحن من خير، أو حتى ينبعث لديه الشعور بالجلال تألماً لما استوجبتّه نفسه من تلك المحن أو تخوفاً لما تستبطنه له من شرّ تلك المنح.

إنه ذاهل عن حظوظ نفسه، فكيف يلتفت إلى الإشارات التي تبعث لديه مشاعر الفرح بما سينالها من خير، أو التي تبعث لديه مشاعر الحزن بما قد ينالها من بؤس وكرب؟..

ولعلك ازددت يقيناً الآن، بأن هذه الحال التي وصفتها لك، هي بذاتها الحال التي كان الصفوة المتميزة من أصحاب رسول الله^(١)، يتقبلون فيها. لم تكن اهتماماتهم بنفوسهم وحظوظها هي محور سلوكياتهم وأنشطتهم الدينية. بل كان بلوغ رضا الله، بقطع النظر عن نفوسهم، هو محور سلوكياتهم وأنشطتهم كلها. فلم يكونوا يجعلون من تقلبات الدنيا وتحولها ما بين عسر ويسر، وشدة ورخاء، مؤشراً لما يعود من ذلك إلى نفوسهم، من رعاية لحظوظها، أو إهمال لها.

واعلم أن السّلم الذي يرقى بهذه النخبة من الصحابة، ومن يليهم ممن يسمون «العارفين» إنما هو سّلم الحب. فإذا تزايد الحب في القلب

(١) أقول: الصفوة من أصحاب رسول الله، إذ لم يكن الصحابة كلهم على درجة واحدة، من السمو في معارج القرب من الله، وإن كانوا كلهم عدولاً، كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ألا ترى أن فيهم المبشرين بالجنة، وفيهم من له فضل الأسبقية إلى الإسلام.

لمولاه وخالقه عز وجل، غابت عن مشاعر المحب حظوظ نفسه، وأعرض عن الإشارات التي قد تعود إليه بفائدة أو بخسران، واتجه القصد كله إلى سبيل القرب من الله ونيل المزيد من مرضاته.

وبهذا الشعور عاش الأنبياء والصديقون، واجتاز الربانيون معبر هذه الحياة الدنيا، وانغمسوا منها في مصائب وأوجاع، أو في نعم ومنح، فلم يستوقفهم منها هذا ولا ذاك، ومن ثم فلم يركنوا منها إلى الإشارات التي تعود إليهم بصور من أحداث الدنيا، أو حظوظ للنفس أو أي شيء من مخاوفها.

ألا ترى كيف اشتدت برحاء الموت برسول الله وأطبق عليه عذابه من كل جانب، وهو غارق في مناجاة مولاه قائلاً: اللهم بالرفيق الأعلى، اللهم بالرفيق الأعلى.

أو لا ترى إلى معاذ لما نزل به الموت، وجعل النزع يتغشاه بشدة، فكان كلما أفاق من غمرات الموت فتح عينيه قائلاً: أي رب: أحنقني خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك.

وعمران بن حصين... ألا ترى كيف أثبتته المرض العضال على سرير من الجريد وخوص النخل قرابة ثلاثين عاماً حتى ذاب لحمه ووهن عظمه، دون أن تفارق البسمة شفثيه!.. ولما زاره أخوه العلاء مرة وراه على هذه الحال، بكى شفقه عليه. فقال له عمران: ما يبكيك؟ قال هذه الحال التي أنت فيها!.. قال: لا تبك، فإن أحبه إلى

الله أحبه إليّ! ^(١).. والذين ارتقوا إلى هذا الشأو من أصحاب رسول الله كثير.

* * *

ثم إن ابن عطاء الله يوضح سبب هذه الحال التي يتقلب فيها هذه الطبقة من العلماء الربانيين، والتي لخصها بقوله: لا إشارة لهم، فيقول: «لفنائهم من وجوده، وانطوائهم في شهوده» أي لفنائهم العارف في وجود الله، وانطوائهم الشعور بذاته في شهوده لله.

وليس المراد بالفناء هنا الحال التي قد يمرّ بها السالك، إذ يقع فيما يشبه الغيبوبة عن ذاته، ويتقلب من ذلك في حال مما يسمونه الجذب، وهي حال ينبغي للسالك أن يتجاوزها ولا يركن إليها.

وإنما المراد به هنا، فناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة أولاً، ثم فناءه عن نفسه وعن الخلق بزوال اهتمامه بنفسه وبالناس، بحيث يكمل انصرافه إلى ربه وشغله به، من دون الخلائق أجمع.

وليس معنى فناءه عن نفسه وعن الخلق، بعد فناءه عن أفعاله وأحواله الذميمة، أن نفسه مفقودة وأن الخلائق معدومة، بل كل ذلك موجود «ولكنه - كما قال الإمام القشيري - لا علم له بنفسه ولا التفاتة منه إليهم، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنه - أي العارف - غافل عن نفسه وعن الخلائق أجمعين، منشغل عن نفسه

(١) انظر فصل «منطق الحب» من كتابي أبحاث في القمة، ١/١٨٦، وهو فصل من كتيب الإنسان وعدالة الله في الأرض.

وعنهم جميعاً بالانصراف إلى مولاه عز وجل والانشغال بأسباب التقرب إليه^(١).

ومن هنا تدرك أن الفناء المقصود هنا يستلزم البقاء. ذلك لأن الفناء عن الشيء يستلزم البقاء بنقيضه، فالفناء عن الصفات المذمومة يستلزم البقاء بالصفات المحمودة أي التمسك والاتصاف بها، والفناء عن النفس وعن الأغيار يستلزم البقاء بالله عز وجل، أي الانصراف إليه وحده بالذكر والفكر والحب والمهابة والتعظيم.

* * *

بقي أن في الناس اليوم من يقول: إن هذا يتعارض مع ما نعرفه من أن الدين إنما جاء لرعاية الدنيا والآخرة، وربما استشهد في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَبْغِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٢٨/٧٧]، وبقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١١/٦١]. ثم يقول: ولا ريب أن من يمضي حياته غافلاً عن الدنيا وشؤونها، لا يستطيع أن يعمرها، ولا أن ينال نصيبه منها.

والجواب، أننا نتساءل: أفلا يأكل هؤلاء الربانيون العارفون، إذا جاعوا؟ أولاً يشربون إذا ظمئوا؟ أولاً يتحملون بالملابس؟ أولاً يأوون إلى المساكن؟

(١) انظر ما قاله في ذلك الإمام القشيري في رسالته المعروفة والمشهورة، ٦٠/٢ وما بعدها طبقة بولاق العامرة.

إذن، فهم يتعاملون مع الدنيا، على الرغم من ذهولهم عنها، بل عن أنفسهم أيضاً.. ومعنى هذا أن الذهول عن الشيء لا يستدعي عدم التعامل معه، بل لا يستدعي أيضاً عدم استخدامه للهدف القدسي الذي من شأنه أن يكون هو المهيمن على القلب والنفس، لاسيما إن أدركت المعنى المراد هنا بغفلة هذه الطبقة من الناس عن الدنيا وبعدم التفاتهم إليها.

ليس المراد بغفلتهم أو ذهولهم عنها، عدم شعورهم بها، إلى درجة أنهم لا يدركون سبيلاً للتعامل معها، لو كان الأمر كذلك لما أكلوا، ولما شربوا، ولما تجملوا بملبس، ولما آواهم مسكن..

إنما المراد بغفلتهم عنها أنهم لا يقيمون لها وزناً ولا يرون لها شأنًا، أذهلهم عنها انصرافهم الكلي إلى الله، وصغرها في أعينهم انشغال أفئدتهم عنها بحجة الله وتعظيمه.

فإذا تلقوا من الله الأمر بأن يعمروا الأرض التي يعيشون فوقها، وبأن يتعاملوا مع الدنيا التي يمرون بها، لبوا نداء الله، وانصرفوا إلى ما قد أمرهم به، ولكنهم لا يتعاملون في هذه الحالة مع الدنيا ولا مع حظوظ أنفسهم فيها، ولا يخطر ذلك منهم على بال، بل إنهم لا يشعرون أثناء ما تراه من صورة تعاملهم معها وعمارتهم لها واستفادتهم منها. إلا بأنهم في حال شهود مع الله، من خلال تنفيذ أوامره وتطبيق تعاليمه.

وهذا الذي أقوله لك، ينطبق على سيرة سيد العارفين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومن ثم ينطبق على حال أصحابه

الذين نهجوا نهجه واتبعوا سيرته. لاشك أنهم عمروا الأرض وتعاملوا مع الدنيا، فصنعوا، وزرعوا، وتاجروا، وتعلموا، وعلموا.. ولكنك لو رأيتهم وهم يمارسون ذلك كله، وتأملت في حالهم ونبضات قلوبهم وما تتجه إليه أفكارهم وأحلامهم، لأيقنت أنهم إنما يمارسون من خلال ذلك أعلى درجات العبودية لله، ولسمعت من خلال ضجيج أنشطتهم تسبيح الله وتوحيده وتحميده.

وكم من فرق بين من يلهو بالدنيا مندفعاً إليها بالحب محجوباً بها عن الله، وبين من يجندها ويذلها لمرضاة الله. فهو بمقدار ما يسخرها ويجندها في هذا السبيل يكون محجوباً عنها منصرفاً عنها، بإقباله إلى الله وبتعامله مع الله.

أولا تذكر قصة ربعي بن عامر التي ذكرت لك خلاصتها، يوم استجاب دعوة رستم فدخل سرادقه، مزداناً بأفخم أنواع الفرش والرياش، غارقاً في أبهى أنواع الزينة والبذخ!.. تذكره كيف دخل وماذا صنع، ثم قل لي: أفكان ذاهلاً بتلك الفخامة الدنيوية كلها عن الله، أم كان ذاهلاً بالله عنها؟!...^(١).

وهل كان يتأتى له أن يزدري تلك الفخامة الدنيوية المتألقة، وأن يفعل بها ما فعل، لو كان لها في نفسه أدنى قيمة، ولو لم يكن ذاهلاً عنها بما استقر بين جوانحه وهيمن على نفسه من محبة الله ومهابته وتعظيمه؟..

(١) انظر ص ٣٢٢ من هذا الكتاب.

ولكن انظر كيف أن ازدراءه لها وذهوله عنها، لم يصده شيء منهما عن سبيل التعامل معها طبق خطة مرسومة وتصرفٍ يهدف إلى تحطيم ما ابتغى إليه رستم من دعوته له، ليبهر عينيه بألق تلك الأبهة والزخارف. وليعيده إلى قائده سعد بن أبي وقاص، ضئيلاً متصاعراً من عظمة ما ينبغي أن يدهشه من مظاهر البذخ الحضاري المنبئ عن أعلى درجات القوة والغنى لدى الفرس.

وهكذا فقد كانت غفلة ربعي بن عامر بالله عن نفسه وعن الدنيا، الشرط الذي لا بدّ منه لتغلبه على أحابيلها، ومن ثم فقد كان هو الشرط الذي لا بدّ منه لتحول زمام الدنيا إلى يده وإلى يد أمثاله، لينهضوا بعمارتها على النحو الذي أمر به الله، وليمارسوا حركة كل من الكرّ إليها والفرّ منها، طبق ما تأمرهم به عبوديتهم لله وطبق ما تقتضيه استجابتهم لأمره.

ألا إن فناء العارفين عن الدنيا وعن أنفسهم بالله، هو الذي حررهم من مكائدها، ومن ثم فهو الذي صاغ منها مطية ذلولاً سارت بهم إلى رحاب الله، طبق النهج الذي أمر به الله.

وإني لأسألك: أفسمعت أن عاقلاً شدّت به دابته إلى لقاء ملك محبوب عظيم مهيب، ثم لم يذهل بلقياه عن الدابة التي تدنيه إليه، على الرغم من أنه يمتطي صهوتها، متمكناً منها، موقناً بوجودها؟

تلك هي الدنيا، مطية إلى الله، فمن ذهل بالله عنها أو صلته وأسعدته، ومن ذهل بها عن الله أسقطته ثم أعطته، وتقطعت به الآمال والسبل.

وتلك هي مزية من يسمّون العارفين، ورثوا عرفانهم من رسول الله وأصحابه، فأضافوا إلى ظاهر الالتزام بالشرع باطن الفناء عن الدنيا بشهود الله، فكان هذا الباطن في حياتهم هو أساس البناء، وكان ذلك الظاهر من الالتزام بالشرع وأحكامه هو الثمرة والقطاف. ولا يصلح حال المسلم مع الله إلا بعد أن يتوفر في حياته كلا هذين الجانبين.

* * *

الحكمة السادسة والسبعون

((الرجاء ما قارنه العمل، وإلا فهو أمنية))

في الحديث الصحيح ((أنا عند ظن عبدي بي))^(١). وهو واحد من الأحاديث التي تبعث المسلم أياً كان على الاستبشار بكرم الله ومغفرته وعفوه.

ثم إن في المسلمين العصاة من يزدادون بسماع هذا الحديث وأمثاله، ركوناً إلى عصيانهم واستهانة بأوامر الله ونهيه، موقنين أن في حسن ظنهم بالله ما يمحو عنهم آثار عصيانهم ويبيح على مغفرة زلاتهم، وفيهم من إذا سمعوا هذا الحديث، وفاقت نفوسهم أملاً بمغفرة الله وعفوه، صدّهم الحياء من الله من مواصلة التنكب في طريق العصيان، والإعراض عن أوامر الله ووصاياه، فتوجوا ظنهم بمغفرة الله، بصدق التوبة إليه وتحديد المبايعة معه.

فالفئة الأولى تجنح إلى ماسماه ابن عطاء الله بالأمنية، وهي تعبير قرآني، ورد في مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

والمتعلق بهذه الأمنية مع عكوفه على المعاصي وابتعاده عن الطاعات مستخف بأوامر الله وأحكامه، مستهين بوعيده وعقابه.

ذلك لأن الذي يتلقى بشائر العفو والصفح من مولاه، ثم لاتزيده هذه البشائر إلا إعراضاً عن تعاليمه ووصاياه، مستخف به، بل مخادع له، وليس في قلبه أي معنى من معاني الشكر له، أو الشعور بالمثل تحت مننه وفضله.

أما الفئة الثانية، فإن شعوراً من الخجل يقودها إلى إصلاح الحال وتقويم الإعوجاج، وإلى أن تقابل كرم الله وصفحه بما يناسبهما من صدق الرجوع إليه والتوجه بالشكر له. ثم إن هذا الشعور من شأنه أن يتحول إلى حب ينبثق بالضيء في أفئدة آحاد هذه الفئة، إذ يقارن أحدهم بين ما يصعد منه إلى الله من المبارزة بالمعاصي والآثام، وما يفد إليه من الله تعالى، من بشائر الصفح والغفران.. فإن كان في نفسه مثقال ذرة من الشعور بعبوديته ومملوكيته لله، فلا بد أن ينقذ من تلاقي تلك المقارنة بهذا الشعور، وهج من الحب مازجه قدر كبير من الحياء من مولاه عز وجل، فيقوده هذا الوهج إلى إصلاح الحال وتدارك ما قد فرط منه بالتوبة وصدق الإنابة، وهذا هو الرجاء كما قال ابن عطاء الله.

وأساس هذا كله قول رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»^(١).

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وحاكم في المستدرک من حديث شداد بن أوس.

غير أن في الناس من قد يستشكل هذا الذي يقرره حديث رسول الله، ويصوغه في هذه الحكمة ابن عطاء الله فيقول:

إذا كان المضمون الذي يدلّ عليه الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي» مشروطاً بالعمل، أي باتباع الأوامر واجتناب المعاصي فأبي معنى بقي إذن لخصوصية ما يدلّ عليه هذا الحديث؟ بل أي معنى يبقى لما تضمنه الحديث القدسي الآخر: «..ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»^(١).

إن المناط لنجاة العبد من سخط الله وعقابه، والحالة هذه، هو العمل الذي لا بدّ منه، فتسقط عندئذ خصوصية ما تدلّ عليه أحاديث البشارة بصفح الله وعفوه من الآثام والذنوب.

والجواب يتمثل في أن تدرك الفرق بين المستهتر في ارتكاب الذنوب، أي ذاك الذي يذهب في العكوف عليها مذهب اللامبالاة، والتوجه المصمم إلى الاستجابة لدواعي الشهوات والأهواء، وبين المدرك لجسامة أخطائه وانحرافاته، الراغب في الاستقامة على أوامر الله وتعاليمه، والمتألم من ضعف إرادته وتغلب سلطان الشهوات والأهواء عليه.

فالأول يزداد طمأنينة إلى ما يتقلب فيه من حمأة المعاصي والأوزار، عندما يسمع أحاديث الرجاء والبشارة بمغفرة الله وصفحته، كما قد بينت لك، فلا تزيده هذه الأحاديث إذ يتلقاها، إلا شروداً وانحرافاً.

(١) من حديث طويل أوله: «ياعبادي أني حرمت الظلم على نفسي..» وقد رواه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر.

وأما الثاني فيزداد ألماً من سوء حاله عندما يسمع المبشرات من كلام رسول الله أو بيان الله عز وجل، بل لا بد أن يزجّه ذلك في شعور حارّ من الحياء من الله تعالى كما سبق أن أوضحت لك.. فيدعوه تفاقم هذا الألم إلى الالتجاء إلى الله وبسط يد الدعاء إليه أن يعينه على الإنابة والتوبة، والشأن فيه أن يتوب إلى الله فعلاً.

وربما احتاجت به غرائزه وأهواؤه، وعادت فتغلبت عليه، فاخترق حاجز التوبة وعاد إلى سابق انحرافاته، غير أن آلامه التي حدثت عنها تعود فتستيقظ هي الأخرى بين جوانحه، وتعود فتستبدّ به مشاعر الخجل من الله ممزوجة بقدر كبير من الحب له، لنعمه الكثيرة التي لم تنقطع عنه على الرغم من السوء الذي هو عاكف عليه، فيدعوه ذلك إلى تجديد التوبة بإخلاص وصدق، فيتقبل الله توبته، ويغفر له سائر ذنوبه التي عاد إلى ارتكابها.

وهكذا دواليك.. يتوب إلى الله بسائق الخجل منه والحب له، فيقبل الله توبته ويغفر له سائر ذنوبه، ثم ينزلق ثانية في حمأة الأوزار، فيسوقه الخجل منه عز وجل ثانية إلى الندم والتوبة، فيتوب الله عليه ويغفر له سائر أوزاره الجديدة. فلو أنه لقي الله بملاء الأرض معاصي وأوزاراً، وكان يلاحق معاصيه تلك بالتوبة الصادقة منها، لقي الله وقد غفر له ذنوبه كلها.

فهذا هو مصداق الأحاديث التي تدل على واسع كرم الله وعلى شامل مغفرته للذنوب.. وبذلك يتم التوفيق بينها وبين قول رسول الله: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت...» وقوله جل جلاله:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

[النساء: ١٢٣/٤].

وقيمة المغفرة التي ادخرها الله لعباده، تتجلى في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: «..وعمل لما بعد الموت». فلهذه الكلمة معنيان اثنان، أولهما أن يستقيم العبد على أوامر الله، فلا يشرذ عنها إلى أن يأتيه الموت، ثانيهما أن يستقيم ثم يشرذ.. ثم يستقيم ثم يعود فيشرذ.. كلما شرذ أعادته التوبة إلى نهج الاستقامة، فهذه التوبة المتكررة، هي وثيقة كرم الله وصفحه، وهي منشور عفوه ومغفرته.

وصاحب هذه التوبة هو المراد بكلمة «أواب» في قوله عز وجل ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٥٠/٣٢] إذا الأواب صيغة مبالغة من آيب أي راجع، ولا يكون العبد كثير الأوبة إلى الله إلا إن كان كثير الشرود عنه.

* * *

غير أن في الناس من لا يشفي غليله هذا البيان، فيقول: إن رحمة الله أوسع مما تصف، وأشمل مما تحدد. وربما اسنشهد على ما يقول بقول رسول الله، وقد رأى امرأة بين السبي تسعى، فوجدت صبياً في السبي، فأخذته وألصقته بصدرها ترضعه: «أترون هذه المرأة طارحة وليدها في النار؟ قالوا: لا يارسول الله. قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١).

(١) الحديث متفق عليه، من رواية عمر بن الخطاب.

فيقول هذا المعارض: هل رأيت امرأة تفرق بين أولادها، فتشمل بعضاً منهم برأفتها وعنايتها، وتزج آخرين منهم في أودية الشقاء والهلاك، مهما اختلفوا عن بعضهم في البر بها والطاعة لها؟ فكذلك الله عز وجل، طبق ما ينصّ عليه هذا الحديث الصحيح.

والجواب أنا نقول لهذا السائل: هل رأيت صغاراً سلكوا مسلك التمرد على آبائهم وأمهاتهم، ثم واظبوا على هذا التمرد، وثبتوا عليه، لا يلويهم عنه خطر يحدق بهم ولا عذاب يتهدهم؟ إن الطفل مهما سيطرت عليه طبيعة الشقاوة على حدّ تعبيرهم، ومهما عاث فساداً فيما حوله، ما إن يشعر بشيء من الخوف أو الخطر يدنو إليه، حتى يلجأ متضائلاً إلى أحضان أمه وأبيه، فهو الملاذ الذي لا بديل له عنه كلما نابته شدة أو ألمّ به خوف أو عنّت له حاجة.

فعندما يكون شأن الناس كلهم مع الله، كشأن الأطفال كلهم مع أمهاتهم وآبائهم، ستجد أن الله أرأف بعباده من رأفة أي أم بوليدها، وهذا ما عناه رسول الله ﷺ في الحديث الذي استدل به هؤلاء المستشكلون.

ولكن في عباد الله من يتمرد على الله في الشدة والرخاء، فلا يتعرف على الله في أي من حالتي اليسر والعسر، لا لطائف الإحسان تجذبه، ولا سلاسل الامتحان تردعه!.. أولئك هم الذين حجّبوا أنفسهم عن الله بحجاب استكبارهم عليه، وهم الذين قال الله عنهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠/٧].

* * *

وجملة القول أن كل من اصطبغت مشاعره بحقيقة العبودية لله عز وجل، لن يكون رجاؤه بمغفرة الله وصفحه إلا حافزاً لإصلاح الحال وتحديد التوبة والعزم على العمل، والاستقامة.

أما الذين غابت عنهم مشاعر العبودية لله، فالتجته منهم الأمانى إلى تمتيع أنفسهم بمزيد من المتع والرغائب الذاتية، دون أي حساب لشيء آخر، فلن يكون رجاؤهم بمغفرة الله إلا أمنية باطلة كما ذكر ابن عطاء الله، وصاحب هذا النوع المزيف من الرجاء هو الذي عناه رسول الله بقوله: «..والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

* * *

الحكمة السابعة والسبعون

((مطلب العارفين من الله الصدق في
العبودية، والقيام بحقوق الربوبية))

مرّت بك الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله: خير ما تطلبه منه،
ما هو طالبه منك.

وقد علمت مما سبق بيانه أن ما قد طلبه الله من عباده، يتلخص
بكلمة مجملّة جامعة، هي التشبع بحقيقة العبودية لله، ويتفرع إلى
تفاصيل كثيرة، وأوامر ونواه متنوعة، كلها ضمانات لتحقيق سعادة
الإنسان في معاشه الدنيوي ومعاده الآخروي.

فإذا تبين لك أن ما قد طلبه الله من عباده يتلخص في ضرورة تشبع
العبد بهويته ألا وهي عبوديته لله عز وجل، وتذكرت ما قاله ابن عطاء
الله من قبل: أن خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك، فإن بوسعك إذن
أن تدرك النتيجة المنطقية لهاتين المقدمتين، وهي هذه الحكمة: مطلب
العارفين من الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

فكيف يكون الصدق في العبودية؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يعلن
عن عبوديته لله دون أن يكون صادقاً فيها؟

إن كل مسلم صادق في إسلامه، لا بدّ أن يكون موقناً بكونه عبداً لله. إذ لا يتأتى له أن يعبد الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، إلا بعد أن يعلم أنه عبد لله عز وجل. أي إن أداء المسلم للعبادات التي كلفه الله بها في مثل قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾ [البينة: ٥/٩٨] فرع عن يقينه بأنه عبد لله عز وجل.

فهذا جامع مشترك بين المسلمين كلهم، ماداموا صادقين في إسلامهم.

ثم إنهم يتفاوتون في مدى سلطان هذه العبودية عليهم، وفي مدى قيامهم بحقوقها، حسب ما يتفاوتون به، من شهودهم لله، ومن مدى حضور صفات الله تعالى في أفكارهم ومدى تجلياتها على قلوبهم.

فأقل هذه المراتب أن لا يشرك المسلم بعبادة ربه أحداً، بأن يتنزه عن الشرك الظاهر المتمثل في اتخاذ شريك أو شركاء مع الله، وبأن يتنزه عن الشرك الباطن بأن يتجنب الرياء ويجعل عمله خالصاً لله.

وأعلى هذه المراتب أن لا يقصد المسلم من عباداته إلا أداء حق العبودية لله في عنقه، دون أن يطمع بأجر ما عليها، إذ الأجير إنما يستحق أجره على العمل، لأن موجب العمل هو التزام المستأجر بالأجر الذي طلبه الأجير على العمل الذي اتفق معه عليه. فلولا الارتباط بالأجر، لما وجد الأجير ما يدعوه إلى النهوض بعمل ما لإنسان مثله ليس له أي سلطان ذاتي عليه.

والعمل الذي يؤديه العبد للرب أبعد ما يكون عن الدخول في هذا النوع المألوف من أعراف الاستئجار وقوانينها بين الناس بعضهم مع بعض.

إذ العبد مملوك لله عز وجل، ومملوكيته له تستدعي أن يكون قائماً بأمره خاضعاً لحكمه، وليس للمملوك أن يطالب مالكة على خدماته له بأي أجر مما من شأن الناس أن يتعاقدوا فيما بينهم عليه. ورحم الله من قال: ((العبد وما ملكت يداه ملك لسيدته)).

فهذا هو مراد ابن عطاء الله بصدق العبودية.

وقيل أن أتجاوز بك هذه النقطة في شرح هذه الحكمة، ينبغي أن أزيد معنى كمال العبودية لله تعالى جلاء، إذ مازال في الناس، بل في بعض من علماء هذا العصر، من يظلّ يختلط عليهم هذا الأمر، ولا يسلّمون بهذا الحق الذي هو مطمح أنظار العارفين.

إن مدار الأمر كله في هذه المسألة، على توحيد الله تعالى في العبادة انطلاقاً من صفاء العبودية لذاته العلية.

ولبيان ذلك أعيد إلى ذاكرتك قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [البينة: ٥/٩٨]، ومثله في المعنى ذاته قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠/١٨].

فالمطلوب من العبد إذن، أن يخلص عبادته لله وحده، ولا يدخل معه في ذلك أي شريك.

وقد قلت لك إن أدنى مراتب هذا الإخلاص المطلوب، أن يتخلص العبد من آفات الشرك الظاهري، فلا يشرك مع الله في عبادته صنماً ولا حجراً ولا إنساناً ولا كائناً ما.. إذ هو المدخل الأول الذي لا بد منه إلى مدارج الإخلاص لله والقرب منه.

ثم إن درجات التوحيد في العبادة والعبودية تتفاوت وتتلاحق. فأولها التخلص من آفات الرياء، ثم التخلص من آفة العجب بالذات، إذ هو نوع من الشرك الخفي؛ يليها التخلص مما قد يهدف إليه - أثناء أداء طاعته وعبادته - من مصالح الدنيا ومغائرها ورغائبه العاجلة فيها، يليها - وهذه أعلى درجات التوحيد والإخلاص لله - التخلص من التطلع إلى الأجر الأخرى الذي ادّخره الله لعباده الصالحين ووعدهم به.

فإذا صلى وصام وحج وأدى سائر فرائض الله، لا يدفعه إلى شيء من ذلك إلا القيام بحقوق الربوبية، وأداء ما تقتضيه عبوديته لله. دون أن يمتزج بهذا الدافع دافع الرغبة في الأجر، والوصول إلى شيء من المبتغيات النفسية الآجلة منها والعاجلة.

وأنت خبير أن الذي يطيع الله بدافعين اثنين: أداء حق الربوبية، والوصول إلى المبتغيات والحظوظ النفسية، لا تخلو عبادته من شائبة شرك. ومن ثم فهو لم يرتق بعد إلى المقام الذي يعبر عنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ وقوله تعالى: ﴿...وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إذ من الواضح أن ما قد يهدف إليه العبد، إلى جانب الوصول إلى مرضاة الله وأداء حق العبودية له، من تحقيق مبتغياته وحظوظه النفسية من جنان ومتع ومشتهيات، شريك مع الله في دافع التوجه إلى طاعته وتنفيذ أحكامه.

ولا يوهمنك هذا الذي أقول، وقاله من قبلي سائر العارفين والعلماء الربانيين، أن مقتضى عبودية الإنسان لله أن لا يطلب منه جنة

ولا يستعيز به من نار، بل العكس هو المطلوب، وهو الذي تقتضيه مشاعر العبودية لله.

إن العبد فقير دائماً إلى مولاه، ومن ثم فشأنه الطلب والاستجداء، لاسيما عندما يعلم الكثير من كرم مولاه وجوده وواسع مننه وفضله.

ولكنّ العبد إذ يطلب ويستجدي، إنما يجعل من فاقتة فقط شفيحاً بين يدي استجدائه. وهو مهما سعى في خدمة مولاه وإنجاز أوامره، لا يرى أنه أدى شيئاً من حقوقه المترتبة عليه. فكيف يطالبه بالأجر على ما هو حق لمولاه وليس حقاً له؟.. فهو إذ يطلب، إنما يطلب منه استجداء، واسترحاماً بين يدي فاقتة وحاجته، لأجراً على حق ثبت له أي للعبد عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

وإذا تبين لنا الآن معنى ((صدق العبودية)) في هذه الحكمة، فلنعلم إذن، أن قصارى ما تطمح إليه أنظار العارفين وهممهم، أن يقدرهم الله على ممارسة عبوديتهم لذاته العلية، بصدق، أي خالصة من شوائب الشرك بأنواعه كلها، ما خفي منها وما ظهر.

والدعاء المتجه إلى الله بهذا الطلب ينبئ عن أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن هؤلاء المتجهين إلى مولاهم بهذا الدعاء - وهم العارفون - لا يرون لأنفسهم حقاً في الطمع بشيء مما وعد الله به عباده الصالحين، من نعيم الآخرة جزاءً على أعمالهم. لأنهم مهما أجهدوا أنفسهم في أداء الطاعات والقيام بالواجبات، فالفضل فيه

لمولاهم الذي وفقهم لذلك، فالمنة في أدائها إنما هي لله في أعناقهم، إن الذي يستحق الأجر إذن عليها إنما هو الله الذي حببها إليهم وأعانهم عليها. إذن فهم مطالبون بأداء حقوق العبودية التي لاسبيل لهم إلى أداء شيء منها، وليسوا في وضع يخولهم أن يكونوا مطالبين بأجورهم على أدائها.. واعلم أن يقين المسلم بأن هذه هي حاله مع ربه، هي العبودية الكاملة التي ينبغي أن يشدّ كل مسلم نفسه لبلوغ مرقاتها.

الأمر الثاني: أن الدعاء المتجه إلى الله بهذا الطلب، تعبير عن عجز الداعي عن المثول بين يدي الله في محراب هذه العبودية الصادقة والخالصة عن الشوائب. وهذا هو المطلوب من العبد، في كل الأحوال. إن الذي يقول إنه مائل بين يدي الله في ساحة هذه العبودية، وإنه إذ يعبده ويسعى في امتثال أوامره، إنما يعبد الله لذاته هو، لأنه عبده ولأن الله الذي يعبده ربه، فليس في نفسه مع هذا الدافع مقصد آخر، من الوصول إلى متع النفس وحظوظها في جنان الخلد، أقول: إن الذي يدعي هذا، ينسب إلى نفسه قدرة ذاتية على بلوغ هذا الشأو، وعلى المثول في هذا المحراب.

غير أن هذه الدعوى أيضاً تخالف واقع عبودية الإنسان لله، تلك العبودية المنبئة عن كامل فقره وعجزه.. إن العبودية الصادقة والصالفة إذ تستيقظ حقيقتها بين جوانح الإنسان، تنبه صاحبها إلى عجزه المطلق، وإلى أنه اللاشيء إذا انفك عنه حوّل الله وقوته، فأنتى له إذن أن يدعي لنفسه القدرة على أن لا يتغنى بعبادته لله إلاّ أداء حق الله في عنقه وأداء ضريبة العبودية له في كيانه؟

إذن فصدق العبودية لله، لا ينطق صاحبها بهذه الدعوى مهما بلغ من أمره، ولكنه ينطقه بالدعاء متوجهاً به إلى ربه أن يعينه على صدق العبودية، والقيام بحق الربوبية.

أي إن توجه العبد إلى الله بهذا الدعاء جزء لا يتجزأ من معنى التوحيد الصافي عن الشوائب، والمتسامي على رؤية الذات.

وهكذا فإنك لن تجد عارفاً، مهما تدرج في عرفانه إلى مرتبة الكمال^(١)، يدعي لنفسه مقام العبودية الصادقة والقيام بأداء حقوق الربوبية التامة، بل يظل في موقف الافتقار إلى الله بأن يكرمه بهذه الرتبة، ومن ثم فهو يظل متجهاً إلى الله بالدعاء... يدعو أن يقدره على ممارسة العبودية الصادقة الخالصة، وعلى القيام بحقوق الربوبية الكاملة.

* * *

بقي أن تعلم أن هذه هي المرتبة التي يجدر بكل مسلم صادق في إسلامه وعبوديته لله، أن يشدّ نفسه إليها، لتكون عبادته لله تعالى صافية عن سائر شوائب الشرك، مهما دقت وخفيت.

فإن استطاع بلوغ هذه الرتبة فذاك، وإلا فإن له الوقوف عند الرتبة التي تليها، وهي أن يطمع عند السعي إلى القيام بأوامر الله وتنفيذ أحكامه بالأعطيات والأجور التي أناطها الله به.

(١) اعلم أنني لا أعني بالكمال هنا مرتبة العصمة، فلاكمال بهذا المعنى إلا للرسول والأنبياء، وإنما أعني كمال التنزه عن شوائب الشرك في الطاعات والعبادات وهي شوائب كثيرة ومتنوعة، كما قد علمت.

والوقوف عند هذه الرتبة لا يحمل صاحبها وزراً، ولا ينقص له على طاعته أجراً. بشرط أن يتحرر من الرياء ومن العجب عند أداء الطاعات، وبشرط أن لا يجعل من قصور رتبته التي هو فيها، حجة على من تجاوزه إلى الرتبة العليا وسما إلى حيث العبودية الصافية الخالصة من شوائب الازدواج والإشراك، فينحط بالنقد عليه، كما هو شأن كثير من الجاهلين المتعلمين اليوم، وقد كان الأحرى به أن يخجل من تقصيره وسوء حاله..

ولعلي أوضحت، في شرح حكمة مضت، سوء حال هؤلاء الناس، إذ ينكرون - وهم في قاع تقصيرهم وانحرافاتهم - على الربانيين، توجههم بالعبادة إلى الله لا ابتغاء شيء إلاّ لأنه ربهم المعبود بالحق، ولأنهم عبيده، فعليهم القيام بحق هذه العبودية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وأجبت عن الشبهات التي يتعلقون بها، من مثل قوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢/١٦].

فاجهد جهدك أيها القارئ أن تعرف حق الله عليك رباً، وأن تعرف واجباتك له عبداً، ثم أن تقبل ما استطعت إلى أداء هذه الحقوق والواجبات، لالشيء إلاّ لأنه ربك ولأنك عبده..

ثم أقبل إليه مدعناً بفقرك الكلي المطلق، موقناً بأنه المالك والغني الأوحد، فابسط يد الذل والمسألة إليه، واستجد منه الجنة التي وعد بها عباده الصالحين، واستعد به من ناره التي توعده بها العتاة، والمستكبرين، لالشيء إلاّ لأنك العبد المفتقر إليه، ولأنه الرب الغني عنك والمحسن إليك والرحيم بك.

فإنك إن وُفِّتَ لذلك، علوت إلى سُدَّةِ الأدب مع الله، وارتديت
جلبات العبودية الحقيقية لله، ورحلت إليه مع الصديقين والربانيين
وجملة عباده الصالحين، اللهم اجعلنا منهم بمحض منك وفضلك.

* * *

خاتمة الجزء الثاني

هذه هي نهاية الجزء الثاني من شرح حكم ابن عطاء الله
السكندري رحمه الله، تم الفراغ منه بتوفيق الله وفضله عشية يوم
الجمعة الواقع في ٢٤ ربيع الثاني عام ١٤٢٢ هجري الموافق لـ ١٥
حزيران عام ٢٠٠١ ميلادي.

وأسأل الله أن لا يقطع عني رفته وتوفيقه وأن يعينني لشرح ما قد
تبقى منها، على أحسن حال ترضيه، كما أرجو من إخواني القراء أن
لا يرضوا عليّ بالدعاء الدائم أن يكرمني الله مع التوفيق بالقبول، والحمد
لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الجزء الثاني
٩	الحكمة الثامنة والعشرون: «ما استودع في غيب السرائر...»
٩	- المصدر الذي تعتمد عليه هذه الحكمة من السنة
٩	- خلاصة معنى هذه الحكمة
١٠	- تفصيل لمعناها يتناول بعض النماذج الواقعية:
١٠	- الحب وأثره الذي لا بدّ أن يظهر في السلوك، ومشكلة تصادم الحب مع الضعف البشري، والحكمة من هذا التصادم
١٢	- الخشوع وأثره الذي لا بدّ أن يظهر أثره على الكيان
١٤	- الذين يستهينون بضوابط الشرع، ويدعون بأن العبرة بالقلب وسلامة القصد..
١٥	- الذين يخبطون في تفسير القرآن وأحكام الله خبط عشواء، بدعوى الغيرة على الإسلام والسعي إلى تجديده، مع السلوك الشائن الذي يكذب دعواهم ويفضح نفاقهم
١٨	- لعلك تستشكل فتقول: في الناس من تنحرف سرائرهم ويتقلبون في المعاصي الخفية دون أن يبدو أثر ذلك على ظواهرهم... والجواب
٢١	الحكمة التاسعة والعشرون: «شتان بين من يستدلّ به ويستدلّ عليه...»
٢١	- في علاقة المخلوقات ببعضها، قد يدلّ الأصل على الفرع، وقد يدلّ الفرع على الأصل
٢٢	- أما في الدليل على وجود الله، فالأصل هو الذي يدلّ دائماً على الفرع

الصفحة	الموضوع
٢٢	- لأن دليلك على المخلوقات ونظامها وقوانينها إنما هو نور من الهداية الربانية
٢٢	- مثال على ذلك: دلالة المصباح في ظلام الليل على أمتعة الدار
٢٣	- أما الغارقون بين غيوم الآثار، فهم يبحثون عن المصباح بالأشياء التي كشفها لهم ضياء المصباح
٢٥	- إن في الصالحين من عباد الله من لم يحتاجوا لمعرفة الله إلى أي من دليل المخلوقات
٢٥	- قد يبدو عسيراً علينا فهم هذا الكلام.. وبيان سبب ذلك
٢٧	- إن المصيبة تحيق بأولئك الذين لم يستدلوا بالله على صنعه، ولا بصنعه على ذاته فتقبلوا في سجن خائق من الضلال
٢٩	- إذا لم يتسن لك الرقي إلى مستوى معرفة الله بدون شواهد من المكونات، فلاحرج في أن تكون من الاستدلاليين الذين استدلو على الله ببديع صنعه.. ولكن لاتكن من الفئة الثالثة
٣١	الحكمة الثلاثون: «لينفق ذو سعة من سعته. الواصلون إليه..»
٣١	- بيان العلاقة بين هذه الحكمة والتي قبلها
٣٢	- عود إلى بيان أن لاحرج في أن يستعين الإنسان لمعرفة الله بآثاره ومخلوقاته،
٣٣	- ولكن علينا إذا وصلنا إلى معرفة الله بدلائل الآثار، أن نتجاوز الآثار ونقلع عن التقيد بها لتصفو لنا مشاهدة المطلوب
٣٤	- لقد ساعدتك عصي البراهين وأنت تعاني من عرج الجهالة. أما الآن وقد تحررت من العرج فقد آن لك أن تستغني عن العصي والمتكات
٣٥	الحكمة الحادية والثلاثون: «اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه...»
٣٥	بيان صلة هذه الحكمة باللتين قبلها، ثم تفسيرها، وإحالة تفصيل القول فيها إلى ما تم بيانه في الحكمتين السابقتين
٣٦	الحكمة الثانية والثلاثون: «تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب»

الصفحة	الموضوع
٣٦	- اختلاف مداخل الشيطان إلى نفوس الناس
٣٧	- مدخل الشيطان إلى نفوس من يشتغلون بالتوجيه والإرشاد دفعهم إلى أن يبرزوا للناس مظاهر صلاحهم وقربهم من الله
٣٨	- من آثار ذلك ما استقر في أذهان كثير من المريدين أن علامة الولاية والقرب من الله ظهور الخوارق والكرامات
٣٨	- إن العلماء الربانيين كالجنيد البغدادي والمحاسبي كانوا يحذرون من الافتتان بعوارض الخوارق والوقوف عندها
٣٩	- المطلوب من المسلم أياً كان ملاحظة ما خفي من باطنه بالتركيب والإصلاح، لاتزويق ظاهره بدعوى الخوارق وكشف الغيوب
٤٠	- لا بدّ من لفت النظر إلى خطأ كبير يتورط فيه بعض المرشدين
٤٢	- إن المرشد كلما ازداد معرفة لله وقرباً منه، ازداد تهاماً لنفسه وشعوراً بتقصيره
٤٣	- هنا تبرز حكمة الله في أنه لم يجعل لغير الرسل والأنبياء حظاً من العصمة من الآثام
٤٤	- بقي أن فينا من يقول: أليس الربانيون من عباد الله من عاجلوا أمراض أنفسهم حتى شفاهم الله منها؟ فلماذا تضيقون سبيلاً فتحه الله؟ الجواب عن ذلك
٤٦	- إن المحجوب عن الله هو الذي أمن مكر الله وعدّ نفسه من الواصلين إليه
٤٧	الحكمة الثالثة والثلاثون: «الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه...»
٤٧	- بيان الفرق بين قولك: الشمس محجوبة عني وقولك: أنا محجوب عن الشمس
٤٨	- يرمي ابن عطاء الله من هذه الحكمة إلى بيان حقيقتين:

- الموضوع الصفحة
- ٤٨ - الحقيقة الأولى داخله في نطاق الاعتقاد، وهي: أنه لا يجوز أن تقول إن الله محجوب عني أو عن عباده، إذ إن ذلك يعني أن الله محصور في جهة بعينها، وهو محال على الله
- ٤٩ - الحقيقة الثانية داخله في نطاق التربية والسلوك، وتتلخص في أن الإنسان مفطور على معرفة الله والقرب منه، ولكن مخاضة الشهوات والأهواء نسجت من السحب ما حجبه عن الله
- ٥٠ - مناقشة بعض التائهن للفطرة وما دلّ عليها من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، والجواب عنها بتفصيل
- ٥٣ - والآن... إن أهم ما يجب أن يشغل المسلم به ذاته، العمل الدائب على إزاحة الحجب التي تراكمت على نفسه فأقصته عن مشاعر فطرته وعن معرفة الله
- ٥٦ - الحكمة الرابعة والثلاثون: «أخرج من أوصاف بشريتك...»
- ٥٦ - كلمة عن بيان أوصاف البشرية وأنواعها
- ٥٩ - لماذا فطر الله الإنسان على الصفات المرذولة ثم أمره بالتخلص منها؟ والجواب عن ذلك من خلال شطرين اثنين
- ٦٢ - يغيب عن بال أصحاب هذا السؤال أن العقيدة الإسلامية إذا غذيت بغذاء العبودية، هي الكفيلة بتذويب الطباع المرذولة والقضاء عليها، وبيان ذلك مفصلاً
- ٦٤ - إن المسلم مهما أكثر من الطاعات، لاتقربه طاعاته من الله، إن بقي مثقلاً بطباعه المرذولة
- ٦٧ - الحكمة الخامسة والثلاثون: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس...»
- ٦٧ - النفس، ومعانيها، والمعنى المراد بها هنا

- الموضوع الصفحة
- ١- من أين لابن عطاء الله أن أصل كل معصية وغفلة الرضا عن النفس؟ والجواب عن ذلك ٦٨
- ٢- ما السبب في كون الرضا عن النفس أصل كل معصية؟ والجواب عن ذلك ٦٩
- الفرق بين الرضا عن النفس في القيام بعمل صالح إعجاباً وتباهياً، والرضا بذلك شكراً لله على توفيقه والأول مذموم والثاني محمود ومطلوب ٧٠
- ٣- كيف السبيل إلى أن يكون المسلم غير راض عن نفسه حتى لا يتورط في الانقياد لها؟ والجواب عن ذلك ٧٥
- ثم إن ابن عطاء الله يبنى على هذه القاعدة نتيجة هامة تتعلق بالعلم ودوره، والكثير من آفاته وغوائله ٧٦
- الحكمة السادسة والثلاثون: «شعاع البصيرة يشهدك قربك منه..» ٨٠
- رتب ثلاث يتدرج فيها السالك للوصول إلى درجة الإحسان ٨٠
- الرتبة الأولى تلك التي يعتمد فيها السالك على «شعاع البصيرة» ٨١
- بيان المراد بشعاع البصيرة، وهو نور العقل، وهذه الرتبة تشكل الجامع المشترك لكل المؤمنين بالله ٨١
- من أولى وأهم ثمرات هذه الرتبة، وبيان ذلك تفصيلاً ٨٣
- الرتبة الثانية تلك التي يعتمد فيها السالك على «عين البصيرة» ٨٥
- بيان المراد بعين البصيرة، وبيان الفرق بين هذه الرتبة والتي قبلها ٨٦
- بيان الثمرة التي ينالها صاحب هذه الرتبة، وهي تلاشي المكونات أمام ناظره وغياب ثنائية الدليل مع المدلول أمام بصيرته ٨٦
- بيان مصدر هذه الرتبة في السنة النبوية ٨٨
- فإن قلت: فهل كانت حياة رسول الله العملية في أصحابه خاضعة لوحدة الشهود هذه؟ وبيان الجواب مفصلاً ٨٩

الصفحة	الموضوع
٩١	- الرتبة الثالثة تلك التي يصل فيها السالك إلى «حق البصيرة»
٩٢	- بيان الفرق بين هذه الرتبة والتي قبلها. وهي الرتبة التي استقر فيها الرسل والأنبياء
٩٤	الحكمة السابعة والثلاثون: «كان الله ولاشيء معه...»
٩٤	- شرح الفقرة الأولى من هذه الحكمة، وبيان مستندها من كلام رسول الله
٩٥	- الرد على ما توهمه الفلاسفة من القدم النوعي وبيان سخف ذلك المعتقد
٩٦	- شرح الفقرة الثانية منها، وهي قوله: «وهو الآن على ما كان عليه»
٩٦	- الرد على من يقول: فهذا هي ذي السموات والأرض والأفلاك موجودة أيضاً مع الله، وتفصيل القول في ذلك
٩٩	الحكمة الثامنة والثلاثون: «لا تتعدّ نية همتك إلى غيره...»
٩٩	- هذه الحكمة تأتي كالنتيجة للحكمة التي قبلها
١٠٠	- إذا علمنا أن ليس مع الله أحد، إذن يجب أن لاتتعلق آمالنا إلا بصاحب الوجود الحق وحده، وبيان ذلك
١٠٢	- هل في هذا التوحيد الذي يدعوننا إليه ابن عطاء الله ما يتعارض مع الدعوة إلى الانبعاث في مناكب الأرض للتعامل مع الأسباب؟ بيان الجواب بتفصيل
١٠٦	- إياك أن تتوهم أن مانسميه أسباباً، فيه قوة مودعة، بها تؤثر، بيان بطلان هذا الوهم علمياً وبيان خطره على التوحيد
١٠٨	الحكمة التاسعة والثلاثون: «لا ترفعن إلى غيره حاجة وهو موردها عليك»
١٠٨	- لاتزال سلسلة هذه الحكم المتلاحقة تتلاقى على تأكيد وحدانية الله
١٠٩	- ينطلق ابن عطاء الله من حجة منطقية على أن المسؤول عن رفع البلاء ينبغي أن يكون من ابتلاك به، وأن المسؤول عن تحقيق احتياجاتك هو من أنزلها بك

- الموضوع الصفحة
- ١١١ - يا عجباً لمن يتجاوز الوسائط والأسباب في معاملاته الدنيوية مع الأشخاص، ثم يقف عندها ويدين لها في معاملاته مع الله!.. بيان وشرح
- ١١٤ - أقبل إلى عالم الوسائط والأسباب، وتعامل معها، على أن لاتنسى خالقها ومسببها
- ١١٥ - إجعل من هدي رسول الله في قصة هجرته قدوة ودليلاً لك.. مثال من تجاربي الشخصية في حياتي الخاصة، وهو أمر عجيب وعبرة لكل معتبر
- ١١٩ الحكمة الأربعون: «إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه...»
- ١١٩ - المؤمنون بالله في تعاملهم معه فريقان.. فريق يحسن الظن بالله غيباً، وفريق توقف ذلك منه على التعامل معه
- ١٢١ - إن بيان الله كأنه في التذكير بنعمه يقول: أنا لا أكلفكم بأن تستيقنوا الطافي بكم غيباً، وإنما أطلب منكم أن تستيقنوا ذلك من خلال واقع معاملتي معكم وألطافي بكم... عرض نماذج من منن الله وألطافه
- ١٢٤ - ما النتيجة التي ينتهي إليها الإنسان من إدراك هذه الحقيقة؟.. إنها دوام حسن الظن بالله
- ١٢٥ - إن الله يسوس عباده بلونين من الأوامر: الأوامر التكوينية، والأوامر التشريعية
- ١٢٧ - يا عجباً ممن يتقلب في نظام الله التكويني مخدوماً مدلاً، ثم يسيء الظن بنظامه التشريعي ويتأفف منه
- ١٢٩ - كيف تتصور أن يكون الله حفيماً بك في أوامره التكوينية، ثم ظالماً لك في أحكامه التشريعية!؟
- ١٣١ الحكمة الحادية والأربعون: «العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه...»

- الموضوع الصفحة
- ١٣١ - ما الشيء الذي لا انفكك لك عنه؟ إنه الله عز وجل. بيان ذلك
- ١٣٢ - أما الشيء الذي لابقاء له مع الإنسان، فهو كل ما عدا الله، بيان ذلك مفصلاً
- ١٣٥ - ما الذي يتطلبه منك المنطق أمام هذه الحقيقة التي تم بيانها؟.. يقول لك المنطق: شدّ صلتك بمن لا انفكك لك عنه... إلخ
- ١٣٧ - إذا تبين هذا فلا بد أن نعجب مع ابن عطاء الله ممن يهرب من إلهه الذي انفكك له عنه، ويتعلق بما لابقاء له معه
- ١٣٩ - ثم اعلم أن التعلق بالله من دون سائر الأغراض الزائلة، لا يستدعي الإعراض عن التعامل معها والصوم عن التمتع بها.. وإنما المطلوب أن يعلم أنه هو وحده مصدر كل فضل وعطاء
- ١٤٤ الحكمة الثانية والأربعون: «لاترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى...»
- ١٤٤ - ما الأكوان؟ وما المكوّن؟ وما المعنى الإجمالي لهذه الحكمة؟
- ١٤٦ - لا يصح في المنطق أن يقال: إن غاية وجود الإنسان في الدنيا أن يتقلب فيما طاب له من الملذات. وبيان البرهان المنطقي على ذلك
- ١٤٨ - بيان المعنى الأقدس الذي يرمي إليه ابن عطاء الله من هذه الحكمة
- ١٤٩ - نماذج من الحياة الواقعية التي تشكل مصداق هذا الذي يحذر منه ابن عطاء الله:
- ١٤٩ أولاً: نماذج اعتقادية تتمثل في سجن الأسباب الطبيعية إذ يجبس أنفسهم فيها أولئك الذين يؤلهونها من دون الله
- ١٥٠ ثانياً: نماذج من الحياة السلوكية تتمثل في تعامل بعض الناس مع سلسلة من المتع والنعم يغلقونها بشكل دائري على أنفسهم، دون أن يخرجوا من أقطارها لرؤية المنعم والتعرف عليه
- ١٥٢ - إن الذي هو أسوأ من أن يرحل الإنسان بشكل دائري من كون إلى كون، أن يرحل من المكوّن إلى الأكوان!.. أي أن يسخر دينه لدنياه. وعرض نماذج مؤسفة لهذا الواقع

- الموضوع الصفحة
- ١٥٤ - بيان العلاج الذي إذا أخذ به المؤمن نفسه تحرر من سجن الدوران داخل الأكوان، وانتقل منها إلى المكون
- ١٥٦ الحكمة الثالثة والأربعون: «لاتصحب من لاينهضك حاله، ولايدلك على الله مقاله»
- ١٥٦ - هذه الحكمة جواب عمن يسأل قائلاً: لقد أكرمني الله بالهداية بعد الضلال، فكيف أحافظ عليها وأتقي الرجوع إلى الضلالة التي عوفيت منها
- ١٥٧ - المشكل أن في الناس أن من وراء المادة المرئية أسراراً وتجليات إلهية، تفعل أفعالها الهامة في كيان الإنسان، شرح وبيان لهذه الأسرار
- ١٦٠ - هما حال، ومقال، ينبغي أن يتحققا فيمن تصاحبه. بيان مفصل لكل من الحال والمقال
- ١٦٤ - بقي أن في الناس من يسأل: فكيف السبيل إلى تنفيذ هذه النصيحة، بالنسبة لمن زجت بهم ظروفهم للعيش في المجتمعات الغربية
- ١٦٤ - بيان الجواب مفصلاً: مع التنويه بمشكلة الفتاوى الشرعية الجاهزة، استجابة لما يسمى اليوم بفقهاء الأقليات
- ١٦٧ الحكمة الرابعة والأربعون: «ربما كنت مسيئاً فأراك الأحسان منك صحبتك لمن هو أسوأ حالاً منك»
- ١٦٧ - بيان معنى الحكمة بمثال
- ١٦٨ - يندفع زيد من الناس إلى مصاحبة من هو أسوأ حالاً منه، ليهديهم. ولكن الذي يحدث أنه يبتلى بأمراضهم وينجذب إلى نقائصهم
- ١٦٩ - قد تقول: فإن صح هذا، فلابحال إذن لتوجه المسلم إلى دعوة التائبين والمنحرفين، وبيان الجواب عن ذلك مفصلاً
- ١٧٠ - بيان الفرق بين اللقاء المحمود للنصح والدعوة، والصحبة المذمومة التي يحذر منها ابن عطاء الله

- الموضوع الصفحة
- ١٧١ - بيان سبيل التوفيق بين واجب صلة الأرحام، وهذه الصحبة التي يحذر منها ابن عطاء الله
- ١٧٣ الحكمة الخامسة والأربعون: «ما قلّ عمل برز من قلب زاهد، ولا أكثر عمل برز من قلب راغب»
- ١٧٣ - أجمع كلمة في تعريف الزهد..
- ١٧٥ - إذا أقبل الزاهد إلى الله بعبادة ما، فإنها مهما كانت صغيرة، لا ترتفع إلى الله إلا وهي كبيرة، تفصيل القول في ذلك
- ١٧٧ - أما صاحب القلب الراغب أو الطامع في الدنيا، فمهما كانت عباداته كثيرة وكبيرة، لا ترتفع إلى الله إلا وهي قليلة وصغيرة.. بيان ذلك
- ١٧٩ - أخي القارئ: فلتوثق أن نظهر قلوبنا من شوائب التعلق بما سوى الله
- ١٨١ الحكمة السادسة والأربعون: «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال...»
- ١٨١ - بيان معنى هذه الحكمة إجمالاً
- ١٨٢ - بيان المعنى المراد بمقامات الإنزال، والبدء ببيان المقام الأول، وهو مقام التوبة
- ١٨٣ - المقام الثاني مقام الصبر
- ١٨٤ - المقام الثالث مقام الرضا
- ١٨٦ - بيان العوامل التي ترقى بالسالك إلى مقام الرضا صافياً عن منغصات الصبر
- ١٨٨ - لا يقولن قائل: إن هذا التكلف في تشويق القول عن الصبر والرضا لم يكن مألوفاً في عصر الصحابة
- ١٨٩ - بقي أن في الناس من يقول لو جاز الرضا عن كل شيء لأنه أت من عند الله، لجاز الرضا إذن بكفر الكافر وبيان الجواب عن ذلك مفصلاً

الصفحة	الموضوع
١٩٦	الحكمة السابعة والأربعون: «لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه...»
١٩٦	- المراد بالذكر الذي يكثر القرآن من الأمر به
١٩٧	- في الناس من يرى أن لافائدة من الذكر اللساني مع غفلة القلب، فتحدثه نفسه بالتوقف عن الذكر اللساني
١٩٧	- ولكن ابن عطاء الله يحذر من ذلك، لأن الذكر اللساني طريق لا بدّ منه إلى يقظة القلب
١٩٩	- فإذا تيقظ القلب لما يردده اللسان، وواظب السالك على ذلك، فإن المأمول أن ينتقل به الحال إلى ذكر مع حضور
١٩٩	- بيان الفرق بين الذكر مع اليقظة، والذكر مع الحضور
٢٠١	- فإذا ثابر السالك على ذكره هذا، فإن المأمول أن ينتقل به الحال من ذكر مع الحضور إلى ذكر مع غياب عما سوى المذكور، وبيان معنى غيابه عما سوى المذكور
٢٠٣	- أساس هذا في هدي رسول الله وسنته
٢٠٤	- وصفوة القول أن السلوك إلى الله، ليس له بعد الإيمان إلا طريق الذكر
٢٠٧	الحكمة الثامنة والأربعون: «من علامات موت القلب عدم الحزن...»
٢٠٧	- ما معنى موت القلب وحياة القلب؟
٢٠٨	- لعلك تقول: لماذا لا تكون علامة موت القلب ارتكاب الزلّات، وعلامة حياة القلب النهوض بالطاعات، والجواب عن ذلك
٢١٠	- بيان الحكمة من تعارض القلب المهياً لأسمى مشاعر الحب لله، مع ضعف الإنسان وعجزه عن أداء حقوق هذا الحب
٢١٢	- من سنن الله في عباده أن تكون قدراتهم البشرية متقاصرة عن عواطفهم وطموحاتهم القلبية، وبيان الحكمة من ذلك
٢١٣	- بيان الفرق بين الإنسان والملائكة في ذلك، وهو سرّ أفضلية الإنسان على الملائكة

- الموضوع الصفحة
- ٢١٥ - الداء الذي لا دواء له أن يكون القلب ميتاً، قد اختنقت فيه مشاعر العبودية لله
- ٢١٧ الحكمة التاسعة والأربعون: «لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله»
- ٢١٧ - هذه الحكمة ساقها ابن عطاء الله استدراكاً وتقييداً للحكمة التي قبلها
- ٢١٨ - قد تستشكل سبيل التوفيق بين هذا الكلام والذي قبله.. والجواب عنه
- ٢١٨ - مصدر الحزن المطلوب في الحكمة السابقة الخجل من مقابلة نعم الله وألطفه بالعصيان، وليس مصدره الخوف من عقابه، تفصيل هام لبيان الفرق بين الدافعين
- ٢٢٣ الحكمة الخمسون: «لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله»
- ٢٢٣ - انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، وبيان الفرق بينهما
- ٢٢٦ - هذا التفريق بين الصغائر والكبائر، ناظر إلى ميزان الشريعة الإسلامية، ومدى خطورة المعصية في إهدار مصالح العباد، ومدى تفاوتها في الأهمية
- ٢٢٧ - فأما إن نظرت إلى حقوق الربوبية في أعناق العباد، فالمعاصي كلها تستوي عندئذ عند حد واحد في عظمها وخطورتها
- ٢٢٨ - ما هو السبيل الذي إن سلكه الإنسان، كان على موعد مع فضل الله وكرمه، لا مع عدله الدقيق؟ والجواب عن ذلك مفصلاً
- ٢٣١ - أمثلة لمعاص صغيرة من نوع «اللمم» يرتكبها المسلم مستهيناً بها، فتتحول من ذلك إلى كبيرة!
- ٢٣٤ - وتدخل في ميزان هذه القاعدة الطاعات أيضاً، وبيان ذلك مع ذكر بعض الأمثلة

- الموضوع الصفحة
- الحكمة الحادية والخمسون: «لاعمل أرحى للقبول من عمل يغيب ٢٣٧
عنك شهوده»
- ٢٣٧ - لايد إدراك المعنى الجليل الذي ترمي إليه هذه الحكمة من
مدخل يعيدنا إلى اليقين بأن الله هو الخالق لأفعال الإنسان، وأنه
إنما يتحرك بمعونة الله وتوفيقه
- ٢٣٨ - فإذا علم الإنسان ذلك، فإنه مهما أقبل إلى الطاعات، فلن
يشعر في أعقابها إلا بعظيم فضل الله عليه
- ٢٤٠ - المصدر القرآني والنبوي الذي استند إليه ابن عطاء الله في هذه
الحكمة
- ٢٤٢ - الشأن فيمن كان قريب عهد بالهداية والالتزام أن لايفهم هذا
الكلام في بادئ الأمر
- ٢٤٢ - ولكنه إن تابع سلوكه وازداد إقبالاً على معاني التوحيد
يتدبرها، سمت به مشاعره إلى إدراك هذه الحقيقة
- ٢٤٤ - أمامي الآن صور لوقائع كثيرة تناقض هذا الذي يوصي به ابن
عطاء الله
- ٢٤٥ - من هذه الصور حال من يمتنون على الله بإسلامهم وقرباتهم،
ويعتبون عليه أنه سلط عليهم مع ذلك الكفرة والأعداء، بيان
مفصل في تنفيذ هذا الموقف والتحذير من الانزلاق إليه
- ٢٤٩ - الحكمة الثانية والخمسون: «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه
وارداً.»
- ٢٤٩ - معنى الوارد والفرق بينه وبين ما يكتسبه الإنسان عن طريق التعلم
- ٢٥٢ - المهمة الأولى التي يحققها الوارد تحرر القلب من التعلق
بالأغيار، وبيان أثر الوارد في تحقيق ذلك
- ٢٥٤ - المهمة الثانية التي يحققها الوارد، عزوف النفس عن الدنيا،
وتعلقها بالمآل

- الموضوع الصفحة
- ٢٥٥ - الدليل على هذا من سيرة رسول الله وأصحابه
- ٢٥٨ - المهمة الثالثة التي يحققها الوارد أنه يخرج السالك من سجن الاهتمام بذاته، إلى فضاء شهود الله عز وجل
- ٢٥٨ - كيف يكون الإنسان سجين وجوده؟ تحليل وبيان. الوجوديون والفلسفة الوجودية مثلاً
- ٢٦١ - كيف ينتقل الإنسان إلى فضاء من شهود الله؟ تحليل وبيان
- ٢٦٤ - الحكمة الثالثة والخمسون: « الأنوار مطايا القلوب والأسرار »
- ٢٦٤ - المراد بالأنوار، والمطايا، والأسرار
- ٢٦٥ - بيان أثر الشهوات في مصادرتها لعواطف القلب المتجهة في أصلها إلى الله
- ٢٦٦ - الازدواج الذي يقع فيه الإنسان من جراء ذلك
- ٢٦٧ - إن الذي يجر الإنسان من هذا الازدواج الواردات التي يكرم الله بها عباده، فتفد إلى القلب منها أنوار علوية ربانية
- ٢٦٨ - المراد بالأسرار في هذه الحكمة، العهد القديم الذي أخذه الله على أرواح الأبدان البشرية كلها
- ٢٧١ - الحكمة الرابعة والخمسون: « النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس.. »
- ٢٧١ - بيان علاقة هذه الحكمة بالتي قبلها
- ٢٧٢ - المعنى الجديد في هذه الحكمة أن القلب مركز لجاذبين: أحدهما جاذب الفطرة، والآخر جاذب الغرائز الحيوانية
- ٢٧٢ - مصير هذا التنافس منوط بلطف الله وعنايته
- ٢٧٣ - كيف يتعرض المسلم لأطراف الله في هذا الأمر؟ بيان المنهج إلى ذلك مفصلاً
- ٢٧٧ - ليت أن الدعوة إلى الله ومن يسمون اليوم بإسلاميين يلتزمون بهذا المنهج الذي هم أحوج الناس إليه

الموضوع	الصفحة
- هاجس «التصوف» وأثره العجيب في إعراض كثير من هؤلاء الإخوة عن الالتزام بهذا المنهج الرباني الذي لا بدليل عنه	٢٨٠
الحكمة الخامسة والخمسون: «النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم...»	٢٨٢
- بيان المراد بالنور والكشف والبصيرة والقلب	٢٨٢
- الفرق بين البصيرة والعقل	٢٨٣
- معنى كلام ابن عطاء الله ((القلب له الإقبال والإدبار))	٢٨٦
- متى تكون الغلبة لسلطان البصيرة وحكمها، ومتى تكون الغلبة لسلطان الأهواء؟	٢٨٧
- إن السبيل إلى غلبة البصيرة والتعرض لنفحات الأنوار الربانية سبيل واحد لا ثاني له هو الإكثار من ذكر الله بآدابه المعروفة	٢٨٨
الحكمة السادسة والخمسون: «لاتفرحك الطاعة لأنها برزت منك...»	٢٩١
- فرح العبد بالطاعة التي وفق إليها نوعان، أحدهما مبرور ومأجور، والآخر مذموم ومحذور	٢٩١
- وبيان الفرق بينهما، والأثر الذي يتركه كل منهما في النفس	٢٩٣
- الذين ازدهرت قلوبهم بالفرح بالطاعة لتوفيق الله لهم وتيسيرها عليهم، غابوا عن أنفسهم، ولم يروا فضلاً لأنفسهم بتلك الطاعات على غيرهم	٢٩٥
- أمثلة على هذا في حياة بعض العلماء الربانيين	٢٩٦
- لعلك تقول: إذن فالإنسان مسير في سائر طاعاته وأعماله.. والجواب عن هذا الوهم	٢٩٨
- لك تقول: فلماذا لا أفرح لبروز الطاعات مني، مادام الثواب على القصد، ومادمت أنا صاحب القصد؟ والجواب عن هذا السؤال	٣٠١
الحكمة السابعة والخمسون: «قطع السائرين إليه والواصلين عن رؤية أعمالهم...»	٣٠٤

- الموضوع الصفحة
- ٣٠٤ - المراد بالواصلين والسائرين، والجواب عن إشكال يتعلق به
- ٣٠٥ - المفروض في كلا الفريقين أن يغيبوا عن رؤية طاعتهم، بعد أن وفقهم الله إليها، وأن يروا أنها لا تكافئ شيئاً من حقوق الله عليهم
- ٣٠٥ - أما فريق السائرين فلأنهم لا يشكون أن قرباتهم لا تتخلص من رشاش العيوب والآفات
- ٣٠٨ - وأما فريق الواصلين، فلأن الله غيبيهم بشهوده عنها
- ٣٠٩ - إن الذي يخصصي على الله ما قدمه له من الطاعات، يمارس بذلك لوناً من أسوأ ألوان الشرك
- ٣١٠ - والآن.. ما المراد بغياب الواصلين عن شهود أحوالهم، بعد غيابهم عن شهود أعمالهم؟
- ٣١١ - أخيراً فلتعلم أن الواصلين بالمعنى الذي تم بيانه، لا يعلمون أنهم واصلون.. وإن رأيت من يدعي ذلك بين مريديه وإخوانه، فاعلم أنه ممن يتاجر بدينه لدنياه
- ٣١٤ الحكمة الثامنة والخمسون: «ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع»
- ٣١٤ - الإسلام هو السبيل الوحيد إلى التحلي بالعزة الحقيقية
- ٣١٥ - غير أن ثمن الوصول إلى هذه الاعتزاز، الدينونة بالذل والانكسار لله الواحد الأحد
- ٣١٧ - إذا كان مبعث الذل هو الطمع، فهل من سبيل إلى القضاء على أطماع الإنسان باحتياجاته
- ٣١٨ - لاسبيل إلى القضاء على أطماع الإنسان بما يحتاج إليه. وإنما العلاج أن يتوجه بأطماعه إلى من بيده كل شيء
- ٣١٩ - دور الإيمان الحقيقي بالله أنه يصرف وجهة الطمع لدى الإنسان من التعلق بإنسان مثله إلى التعلق بمولاه ومالكة
- ٣٢١ - هذا القانون كما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع

- الموضوع الصفحة
- ٣٢٢ - عرض بعض النماذج التاريخية التي تجسّد هذا القانون: حادثة بين يدي وقعة القادسية
- ٣٢٦ الحكمة التاسعة والخمسون: «ماقذك شيء مثل الوهم»
- ٣٢٦ - الوهم وأثره في التحول من الطمع بعطاء الله إلى الطمع بعطاء عباد الله
- ٣٢٧ - أمثلة واقعية لما يفعله هذا الوهم بصاحبه، تعج بها مجتمعاتنا
- ٣٢٩ - أضع أمام القارئ واقعاً مررت به في حياتي، يجسد هذه الحقيقة ويجليها أمام أصحاب البصائر
- ٣٣٢ الحكمة الستون: «أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع»
- ٣٣٢ - هذه الحكمة مع اللتين قبلهما تدور على محور واحد، هو التحذير من الطمع في المخلوق ونسيان الخالق
- ٣٣٤ - هذه الحكم الثلاث ترسخ في الذهن حقيقة واحدة، هي أن الحصن الأوحد للحرية الإنسانية إيمان الإنسان إيماناً حقيقياً كاملاً بالله
- ٣٣٥ - فإن قلت فإن من شأن صاحب هذه الحرية أن يتمرد على النظم والقوانين البشرية.. والجواب على ذلك
- ٣٣٨ - الوضع المأساوي الذي يحتاج اليوم المجتمعات الغربية، وجعل الحرية فيها مجرد شعار كاذب
- ٣٣٩ - فلسفة التناقض في الغرب بين ظاهر أنظمتها الراسخة، وواقع بنيتها التحتية المدمرة
- ٣٤٣ الحكمة الحادية والستون: «من لم يقبل إلى الله بملاطفات الإحسان، سيق إليه بسلاسل الامتحان»
- ٣٤٤ - نعم الله كثيرة وشاملة لعباده جميعاً، والمفروض أن تسوقهم بألطفهم إلى الإقبال على الله

- الموضوع الصفحة
- فإن شذ الإنسان عن هذا المقتضى وأعرض عن المنعم وركن إلى ٣٤٥
النعمة، بسائق من العتو والطغيان فالشأن الغالب أن يزيده الله
من النعم استدراجاً
- ٣٤٦ - وأما من انزلق في طريق التيه بعامل الضعف والاستخذاء،
فالشأن فيه وفي أمثاله أن يسوقه الله إليه بسلاسل الابتلاءات
- ٣٤٨ - المفروض في حال من عرف الله أن يقبل إليه بعامل الحب،
ولكن الشأن في أكثر الناس أن تسكرهم النعم عن المنعم
- ٣٥٠ - الحصيلة التربوية التي يأخذ الله بها عباده من هذه السنة الربانية
- ٣٥٢ الحكمة الثانية والستون: «من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها.»
- ٣٥٢ - ما هو معنى الشكر؟
- ٣٥٤ - إذا تبين معنى الشكر والكفران فاعلم أن من أعرض عن شكر
المنعم، فقد عرض نعمه للزوال، فإن بقي على حاله ولم تنزل،
فذلك من الله استدراج له
- ٣٥٦ - أما من قابل نعم الله بالشكر عليها، فقد أودعها بذلك في
الحصن الذي يضمن بقاءها
- ٣٥٨ - في الناس من يقول: ما الفائدة التي يجنيها الله من شكر
الشاكرين، والجواب المفصل عن ذلك
- ٣٦١ الحكمة الثالثة والستون: «خف من وجود إحسانه إليك ودوام
إساعتك معه.»
- ٣٦١ - هذه الحكمة جواب لمن يسأل: فما أنا معرض عن الشكر...
ونعمي لاتزال موفورة متزايدة
- ٣٦٣ - الحصيلة التربوية لذلك أن المؤمن من شأنه أن يكون دائم الحذر
من أن النعم التي تفد إليه قد تكون نذير عقاب
- ٣٦٥ - اعلم أن هذا المقياس كما ينطبق على الأفراد، ينطبق على حال
الدول والمجتمعات... عرض لصور ونماذج

الصفحة	الموضوع
٣٦٧	- السؤال الذي يتطارحه الكثير من الناس: ما السبب في تسلط دول البغي على المسلمين؟
٣٦٧	- الجواب: أن المسلمين اليوم ليسوا هم المسلمين الذين وعدهم الله بالتأييد والنصر
٣٦٨	- وصف للنموذج العجيب المتمثل في المسلمين اليوم
٣٧٤	الحكمة الرابعة والستون: «من جهل المرید أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة...»
٣٧٤	- معنى المرید فيما اصطلح عليه علماء السلوك
٣٧٤	- بيان وتفصيل للمعنى الذي يقصد إليه ابن عطاء الله من هذه الحكمة
٣٧٨	- مرة أخرى أقول لك: إن هذا الذي ينطبق على حال الأفراد، هو ذاته يسري في حق المجتمعات
٣٨٠	- عندما تشيع الفواحش الفكرية والسلوكية وتشتط إلى حدّ البذاءات اللسانية بحق القيم ومصادرها في المجتمعات الإسلامية، دون نكير من أولي الأمر، فقد تودّع منها
٣٨٠	- قيل لي إن موجة من الغضب تسري في العالم العربي لأن اليهود كتبوا كلمة فحش قدرة في حق رسول الله على بعض الجدران المحيطة بالمسجد الأقصى، قلت إن فحشهم هذا صدى للفحش الذي تنبثق قدارته من أفواه عرب مسلمين مستخفين بالإسلام، ومن كان صادقاً في غضبه من رجوع الصدى فليرنا غضبه من مصدره المجلجل بين ظهرانينا
٣٨٢	الحكمة الخامسة والستون: «إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد وأدامه عليها...»
٣٨٢	بيان معنى الورد

- الموضوع الصفحة
- ٣٨٣ - بيان المستند الذي يعتمد عليه في كتاب الله أو سنة رسوله، لهذا الذي يسمى الورد
- ٣٨٤ - إذا عرفت هذا فلا تستخفن بحال من وفقه الله للمواظبة على الأوراد، محتجاً بأنك لا تبصر في مظهره شيئاً من سيما الصلاح ودلائله
- ٣٨٦ - واعلم أن مراد ابن عطاء الله أن يغلق أمامك السبيل إلى إساءة الظن بمن لا تراه متسرّبلاً بمظاهر الصالحين والمرشدين
- ٣٨٩ - على أن هذا لا يعفيك من وجوب إنكار المنكر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن إنكار المنكر لا يستدعي الوقوع في إساءة الظن
- ٣٩١ الحكمة السادسة والستون: «قوم أقامهم الله لخدمته وقوم اختصهم بمحبته...»
- ٣٩١ - بيان أن المسلمين الصالحين فريقان، فريق أقامهم الله خداماً لدينه، وآخرون اختصهم الله بمحبته
- ٣٩٢ - بيان أن الفريق الثاني منهم المنضبطون بأحكام الشريعة، ومنهم من قد غلب عليهم الجذب، وبيان الحكمة من ذلك
- ٣٩٤ - لعلك تقول: فما بال الحب أقعد أولي الجذب عن وظائفهم الدينية؟ وتفصيل الجواب عن ذلك
- ٣٩٥ - ولعلك تقول: فما بال أمثالنا ممن يدخلون بفضلهم عز وجل في الفريق الأول، لم ينهلوا من معين هذا الحب المتميز، بل المسكر؟ وتفصيل الجواب عن ذلك
- ٣٩٧ - أهم ما ينبغي أن نحنيه من ثمرات هذه الحكمة، ضرورة الأدب مع المسلمين جميعاً، مع حسن الظن بهم
- ٣٩٨ - ولكن لماذا أخفى الله كثيراً من أحبابه عنا تحت مظاهر توهم أنهم على خلاف ذلك؟

- الموضوع الصفحة
- ٣٩٨ - والجواب: لو كشف الله لك عن حقيقتهم لأبرزت لك عملية الجمع والطرح هوية الضالين والمنبوذين وكشفت عن سوء حالهم، وذلك يتنافى من صفة الستر التي هي من أخص صفات الله عز وجل
- ٤٠١ الحكمة السابعة والستون: «قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة...»
- ٤٠١ - السبيل إلى الواردات الإلهية التي سبق شرحها، يتمثل في فضل من الله لا في جهد أو سلوك من العبد
- ٤٠٢ - في دروس أسبوعية، لا يمرّ أسبوع دون أن يظهر فيها تائبون جذبوا إلى صراط الهداية دون مقدمات، بل بوارد إلهي باغتهم من فضله
- ٤٠٣ - عرض لحال نماذج من هؤلاء الذين انتشلتهم الواردات الإلهية، قديماً وحديثاً
- ٤٠٤ - لا يذهبن بك الوهم إلى أن حقائق الإسلام لا تمرّ إذن من قناة الدلائل العلمية.. ولكن فاعلم أن الإدراك العلمي وحده لا يكفي لاعتناق الحق
- ٤٠٥ - الناس كلهم معرضون في الأصل للواردات الإلهية، وإنما المحجوبون عنها أصحاب العناد والاستكبار
- ٤٠٨ الحكمة الثامنة والستون: «من رأيتك مجيباً عن كل ما سئل ومعبراً عن كل ما شهد...»
- ٤٠٨ - ثلاث خصال إن اجتمعن في إنسان كان دليلاً على وجود جهله
- ٤٠٨ - الخصلة الأولى أن لا يتردد الشخص في الإجابة عن كل ما يسأل عنه، وبيان السبب في ذلك
- ٤٠٩ - ما الذي يدعو كثيراً من الناس إلى هذا؟ إنه التباهي والاستكبار

- الموضوع الصفحة
- ٤١٠ - هذا البلاء يهون خطبه عندما يكون التعامل في أمور الدنيا..
ولكنه داء لا دواء له عندما تكون مادة هذا الجهل المتعامل
حقائق دين الله
- ٤١٠ - أسوار من الرقابة تحيط بالعلوم والثقافات الدنيوية... حتى إذا
تجاوزتها إلى علوم الدين وأحكامه رأيت نفسك منها أمام كلاً
مباح لكل غادٍ ورائح
- ٤١٣ - وأما الخصلة الثانية فهي أن ترى الرجل يحدثك عن كل ما
شاهده
- ٤١٣ - إن ما قد تراه عينك من خصوصيات الناس، سرّ من الأسرار
التي استودعها الله عندك، فمن الخيانة أن تبوح به للناس
- ٤١٤ - الذي أعتقده أن ثمة عاملاً غير الجهل يقود إلى هذه الخصلة،
إنه الرعونة المنبثقة من حسد أو ضغينة أو حقد
- ٤١٥ - وأما الخصلة الثالثة فهي أن ترى الرجل يحدثك عن كل ما علم
من شأن الآخرين، وبيان وجه دلالة هذه الخصلة على الجهل
- ٤١٨ - ليس كل معلومة من الدين يصلح الحديث عنها في المجتمعات
والمحافل العامة
- ٤١٩ - طائفة من الأمثلة على ذلك
- ٤٢١ - الحكمة التاسعة والستون: «إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء
عباده...»
- ٤٢١ - بيان الفرق بين الأجر والجزاء.. وبيان أن المراد بالجزاء هنا
الأجر
- ٤٢٣ - الحكمة من تأخير الله الأجر الذي أعده لعباده الصالحين إلى
اليوم الموعود
- ٤٢٣ - الحكمة الأولى أن الدار الدنيا تتعارض من حيث ذاتها مع نوع
الأجر الذي أعده الله لعباده

- الموضوع الصفحة
- ٤٢٤ - الحكمة الثانية أن الله لو صفّى الدنيا عن شوائب المنغصات، وأن يملأها بالمبهجات، إذن لكانت مفارقتهم لها مصدر آلام كاوية
- ٤٢٨ - ثم اعلم أن هذا إنما ينطبق على من قد آمن بالله وكتبه ورسله
- ٤٢٩ - أما التائبون عن هوياتهم فلن يكون رحيلهم عن هذه الدنيا إلا شقاء فوق شقاء
- ٤٣١ الحكمة السبعون: «من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً»
- ٤٣١ - ثمرة العمل تتنوع حسب تنوع الأعمال، وبيان ذلك
- ٤٣٣ - بيان الفرق بين ثمرة العمل والأجر المدخر عليه
- ٤٣٤ - إذن فالمستفيد من النهوض بالتكاليف الدينية هو الإنسان، ثم إنه يتلقى مع ذلك أجراً عليها، فما للإنسان يتلقى كل هذا الدلال من ربه؟
- ٤٣٥ - أما المعنى الذي تدور عليه هذه الحكمة، فهو أن يكون العامل على حذر من أن الله ربما لم يقبل عمله.. ولكن له أن يستأنس في ذلك بعلائم قبول الله له، عرض لبعض هذه العلامات
- ٤٣٧ - لعلك تسأل: وهل يتعرض العمل الصالح الذي استوفى شروطه وأركانه، لعدم قبول الله له
- ٤٣٧ - والجواب: أن روح الأعمال الصالحة هي الإخلاص لله، أما الشروط والأركان فيمثلة الجسد
- ٤٣٩ - حوار جرى بيني وبين بعض اليساريين منذ سنوات
- ٤٤٠ - ظاهرة غريبة!.. هل لك أن تعلم سرّها والعامل الخفي لها؟
- ٤٤٢ الحكمة الحادية والسبعون: «إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك»

- الموضوع الصفحة
- ٤٤٣ - الميزان الذي يكشف عن مقامك عند الله، والحال التي تسري في مشاعرك وتهيمن على قلبك وينقاد لها سلوكك
- ٤٤٣ - ولكن لماذا لا يكون الأمر بالعكس؟ لماذا لا يكون حب الله لك نتيجة وثمرة لحبك له؟
- ٤٤٣ - الجواب عن هذا السؤال مفصلاً
- ٤٤٤ - وأما الواقع الذي تنقاد إليه بسلوكك فهو الجزء الثاني من هذا الميزان، بيان مفصل لذلك
- ٤٤٥ - اعلم أن كل مسلم صادق في إسلامه لا بد أن يكون له نصيب، قل أو كثر، من منزلة القرب والحب عند الله
- ٤٤٥ - إذا علمت أن ما لله عندك من منزلة الحب له والانضباط بأوامره، ليس إلا ثمرة لمنزلتك عنده ولرحمته بك وفضله عليك، فهيئات أن يدخل عليك شيء من التباهي أو العجب بطاعتك
- ٤٤٧ - أما إن عدت إلى نفسك فرأيتها محجوبة عن شمس الهداية غارقة في ظلمات الضلال والأوهام، فاعلم إذن أن هذا هو عنوان منزلتك عند الله، وهو نذير شقاء دائم إن طال بك الوضع على هذا المنوال
- ٤٤٩ - الحكمة الثانية والسبعون: «متى رزقك الطاعة والغنى به عنها...»
- ٤٤٩ - إذا وفق العبد لأداء الطاعة، فالمطلوب منه عندئذ أن لا يعلق آماله إلا بمغفرة الله
- ٤٤٩ - الدليل على هذا من القرآن والسنة
- ٤٥٣ - قد يقفز إلى ذهن القارئ أحد إشكاليين
- ٤٥٣ - الإشكال الأول: أن القرآن جعل الجنة وما يتبعها من المكرمات أجراً للعمل الصالح، وهذا من شأنه أن يؤمل المسلم باستحقاقه الجنة التي وعده الله بها أجراً على طاعته، والجواب عنه

- الموضوع الصفحة
- ٤٥٤ - الإشكال الثاني: أن تعارضاً قد يخيل إليك وجوده بين التوجه إلى أداء الطاعات انقياداً لأمر الله، ثم تجاهلها وتناسيها بعد الفراغ منها. والجواب عن ذلك
- ٤٥٧ الحكمة الثالثة والسبعون: «خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك»
- ٤٥٧ - من الثابت يقيناً أن كل ما قد طلبه الله من عباده، مردّه إلى تحقيق مصالحهم الفردية والاجتماعية
- ٤٥٨ - وإنما الذي أحوج الإنسان إلى تعليمات خالقه في ذلك، جهله بما سيأتي به الغيب، وعجزه عن معرفة السبيل إلى مصلحة العاجلة والآجلة
- ٤٦٠ - يضاف إلى هذا أن المسلم الذي يوجه اهتمامه إلى النهوض بالتكاليف التي خاطبه الله بها، تاركاً آماله الدنيوية لفضل الله وتدبيره، سيجد من لطف الله به ما لا يدخل في الحسبان
- ٤٦١ - إياك أن تفهم من هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، أنه دعوة إلى ترك الدعاء... أو دعوة إلى إهمال شؤون الدنيا
- ٤٦٤ الحكمة الرابعة والسبعون: «الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها...»
- ٤٦٤ - مقدمة في تعريف الحزن والفرق بينه وبين الغم
- ٤٦٥ - في الناس من يجعل من مشاعر حزنه وظيفة مقصودة لذاتها، ويجعل منها تعويضاً عن استدراك ما فاتته، وهو من أخطر علامات الاغترار
- ٤٦٦ - وتفصيل القول في ذلك أن الحزن يستوجب الخوف، والخوف لا بد أن يترك أثره في جوارح الخائف وسلوكه
- ٤٦٧ - ولكن هل كلما وجد الحزن والخوف، لا بد أن يتحقق على أعقابهما الإقلاع عن السيئات؟ يبدو أن هذه النتيجة ليست حتمية دائماً... وبيان ذلك

- الموضوع الصفحة
- ٤٦٨ - إن العلاج في هذه الحالة كثرة الالتجاء إلى الله بالدعاء وشكوى الضعف والعجز
- ٤٧٠ - على أنه لا الحزن ولا الخوف يمكن أن يرقى بالإنسان إلى مستوى العصمة من الذنوب
- ٤٧١ الحكمة الخامسة والسبعون: «ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته...»
- ٤٧١ - من هو العارف؟ شرح وبيان
- ٤٧٣ - ما المراد بالإشارة؟ لعل أدق تعريف لها أن نقول: هي استنباط أسرار التوحيد من وقائع الكون وأحداثه
- ٤٧٣ - تقريب هذا المعنى بمثال
- ٤٧٤ - إن هذه الحال التي هي شأن العارفين هي بذاتها الحال التي كان يتميز بها الصفوة من أصحاب رسول الله
- ٤٧٤ - واعلم أن السلم رقى بالنخبة من أصحاب رسول الله ومن بعدهم من (العارفين) إلى هذه الدرجة إنما هو سلم الحب
- ٤٧٦ - ليس المراد بالفناء في قول ابن عطاء الله «لفنائه في وجوده» الوقوع فيما يشبه الغيوبة عن الذات، وإنما المراد فناء العبد عن أفعاله الذميمة وحظوظه النفسية، بدوام مراقبته لله
- ٤٧٧ - بقي أن في الناس من يقول: هذه الحال تتعارض مع ما نعرفه من أن الدين جاء لرعاية الدنيا والآخرة، والجواب
- ٤٧٩ - كم من فرق بين من يلهو بالدنيا مندفعاً إليها بالحب، وبين من يجندها ذليلة لمرضاة الله
- ٤٨٢ الحكمة السادسة والسبعون: «الرجاء ما قارنه العمل، وإلا فهو أمنية»
- ٤٨٢ - متى يكون حسن الظن بالله رجاء، ومتى يكون أمنية؟ وبيان رسول الله للفرق بينها

الصفحة	الموضوع
٤٨٤	- في الناس من قد يقول: فإذا صح هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، أي خصوصية إذن بقيت لحديث: «أنا عند ظن عبدي بي» مع بيان الجواب
٤٨٦	- غير أن في الناس من يذهب إلى أن رحمة الله أوسع مما يصفه ابن عطاء الله، مستشهداً بحديث: «...لله أرحم بعباده من هذه بوليدها» وبيان الجواب عن هذا الوهم
٤٨٩	الحكمة السابعة والسبعون: «مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية...»
٤٨٩	- معنى الصدق في العبودية، وكيف يتأتى للإنسان أن يعلن عن عبوديته لله دون أن يكون صادقاً فيها؟
٤٩١	- إن مدار الأمر كله في هذه المسألة، صفاء التوحيد في العبادة، انطلاقاً من صفاء العبودية لله
٤٩٢	- ثم إن درجات التوحيد في العبادة والعبودية تتفاوت وتتلاحق
٤٩٣	- إذا تبين الآن معنى «صدق العبودية» فإن قصارى ما يطمح إليه العارفون أن يقدرهم الله على ممارسة عبوديتهم لله بمزيد من الصدق
٤٩٣	- ومن آثار ذلك أنهم لا يرون لأنفسهم حقاً في الطمع بشيء من الجزاء على أعمالهم
٤٩٥	- بقي أن تعلم أن هذه هي الرتبة التي يجدر بكل مسلم أن يشدّ نفسه إليها
٤٩٨	خاتمة الجزء الثاني
٤٩٩	المحتوى

THE ATA'IS APHORISMS EXPLANATION & ANALYSIS

Al-Hikam al-'Aṭā'iyah

Sharḥ wa-Taḥlīl

M.Sa'īd Ramaḍān al-Būṭī

www.bouti.com

فكرات

www.FURAT.COM
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والإنتاج العربية

الحكم العطائية أقوال جلييلة في تزكية النفس والارتقاء بها في مدارج الكمال والسمو، وقد تداولها أهل العلم على مرّ العصور وشهدوا من نفحاتها الكثير، حتى قال قائلهم: ((لو جازت الصلاة بشيء غير القرآن، لجازت بحكم ابن عطاء الله)).

وها هو ذا الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي يعتمدها مرتكزاً لدروس طويلة في عدد من مساجد دمشق يبدأ بها منذ عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م وما زال مستمراً حتى الآن، وهو يستجيب اليوم لطلابه ومتابعي دروسه الذين ألحوا عليه أن يخرجها في كتاب يبقى للقراءة والتدبر، فكان هذا الكتاب الذي نطالع فيه شروحات وتحليلات متألقة على كلام مركز شديد التركيز..

DAR AL-FIKR

3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A

Tel: (412) 441-5226

Fax: (775)-417-0836

e-mail: fikr@fikr.com

http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-961-3



9 781575 479613

<https://arabicdawateislami.net>
SROUR ALWANI 2000